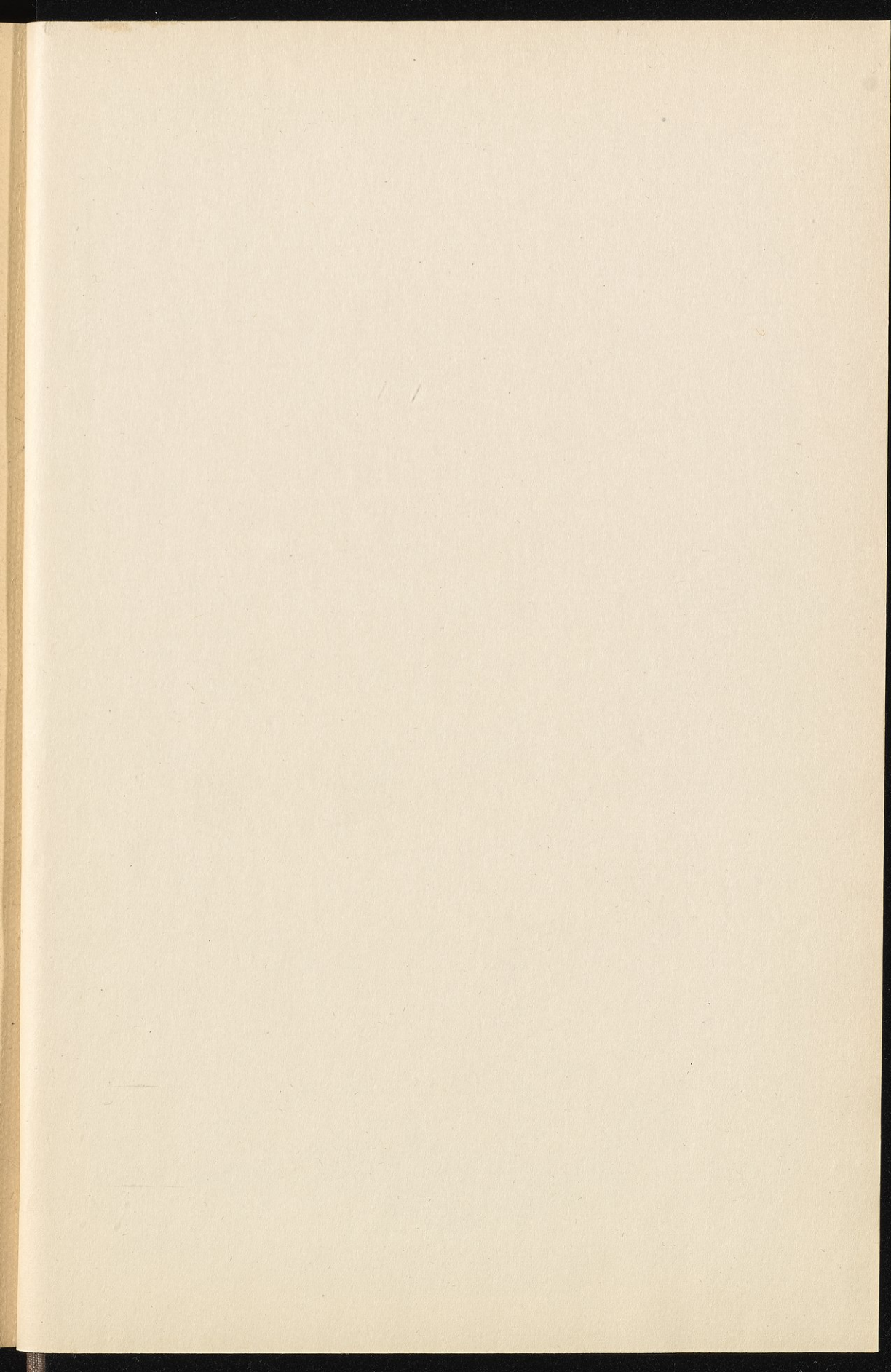


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





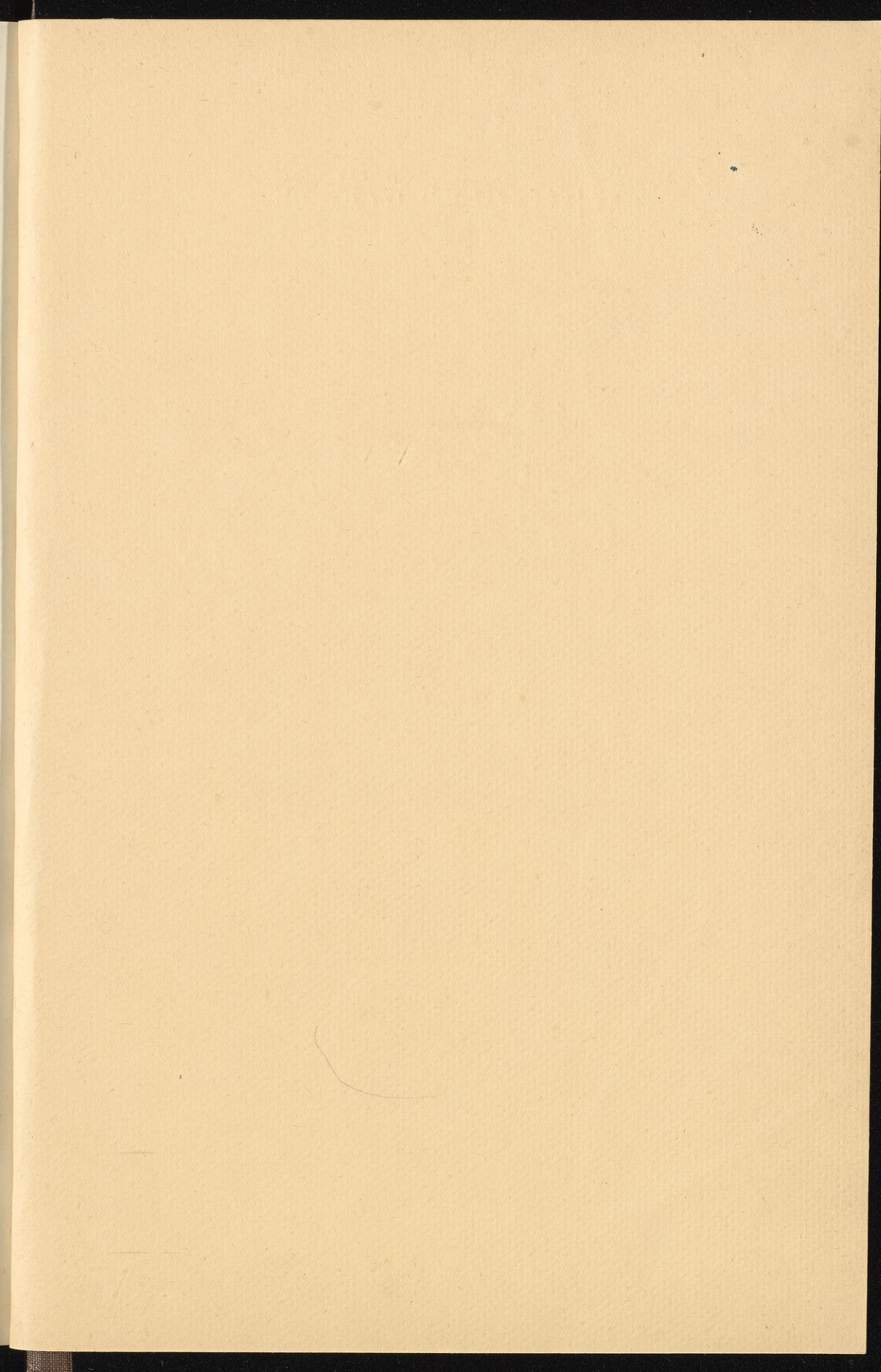
مَطْبُوعَاتُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِيِّ الْعَرَبِيِّ بِدِمَشْقٍ

كَيْفَ زَالِ الْجَدَلُ

تأليف

محمد كرد علي





مدينة
المجمع العلمي العربي
بدمشق

مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

كنوز الاجهاد

تأليف

محمد كرد علي



مطبعة الترقى بدمشق
١٣٧٠ = ١٩٥١
١٣٧٠

APR 29 1952

West Academy

Exchange

الاهراء

الى روح من أشرب قلبي حب العرب ، وهداني الى البحث في
كتبهم ، صدر الحكماء سيدي وأستاذي العلامة الشيخ طاهر الجزائري .

اهدي كتابي كنوز الأجداد

محمد كرد علي

جسرين (غوطة دمشق) { ٤ شوال ١٣٦٩
١٨ تموز ١٩٥٠ }

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يحمل هذا التصنيف سيرة بعض من طالت عشرتي لهم،
 واغترافي من معين أسفارهم من رجال الاسلام . وكان كثير
 غيرهم أحرىء أن يضموا اليهم ، فنغني منه كوني لم أطالع ما كتبوا
 مطالعة متدبر متبحر ، أو كان ما غلب عليهم من فروع العلم
 لم يكتب لي حظ الاشتغال به . ولو حاولت أن أترجم لكل عظيم
 من مؤلفي العرب لاقتضى أن أكتب تراجم خمسين مؤلفاً على الأقل
 من كل قرن من قرون الاسلام ، وهذا مما يعجز الفرد عن
 الاضطلاع به .

والقصد من تذكر المؤلفين وما ألفوا - وحصرت الكلام في
 المطبوع منها - أن نظل على اتصال بهم ، وفي ذلك شيء من
 الوفاء لهم ، ومعنى من معاني التقديس لمن أبقوا لنا هذا المجد العظيم
 الذي فخر به عظماء العلماء على الدهر .

واني لمعترف بقصوري عن الاحاطة بكل ما تجب الاشادة به
 من صنيع هؤلاء الأعلام ، واذا بدا اقتضاب في وصف جوانب من

حالاتهم فالسبب فيه قلة المصادر التي يعتمد عليها . وقد أطلت
في مسائل ، رجوت منها أن تكون عوناً على تجلية الرجل الموصوف ،
وقد تنطوي على أفكوهة طريفة .

والمسؤول تعالى أن تحقق هذه الصفحات شيئاً من الغرض
الذي أحاول بلوغه ، وأن يتفضل من يجيء بعدي فيستدرك ما فاتني
ويجبر ما قصرت فيه ، والكامل لله وحده .



حياة الشيخ طاهر الجزائري

أصل ونشأة

هو طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الجزائري ، هاجر والده الشيخ صالح من الجزائر الى دمشق في سنة ١٢٦٣ هـ وكان من بيت علم وشرف معروف في بلاده ، ولما جاء دمشق تولى قضاء المالكية ، وولد له ولد في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٦٨ هـ دعاه شيخ والده الشيخ المهدي (الطاهر) . قال والده في حاشية المجموع الفقهي للعلامة الأمير المالكي « طهره الله من رجس دنياه ودينه ، وبارك في عمره ، ورزقه العلم والعمل به » واستجيب دعاء والده فنشأ ابنه طاهر على حب الفضائل والتناغي بالعلم والعمل .

دخل الشيخ طاهر المدرسة الجفمقية الاستعدادية فتخرج باستاذة الشيخ عبد الرحمن البوشناقى ، وكان مريباً شديد الشكيمة ، أخذ عنه العربية والفارسية والتركية ومبادئ العلوم ، ثم اتصل بعلم عصره الشيخ عبد الغنى الميداني الغنيمي الفقيه الأصولي النظار . وكان واسع المادة في العلوم الاسلامية ، بعيد النظر ، وهو الذي حال بارشاده في حادثه سنة ١٨٦٠ م بدمشق دون تمدي فتیان المسلمين على جيرانهم المسيحيين في محلته ، فألقذ بجميل وعظه وحسن تأثيره بضعة ألوف من القتل ، في تلك المذابح المشؤومة . وكان الشيخ الميداني على جانب عظيم من التقوى والورع يمثل صورة من صور السلف الصالح ، فطبع الشيخ طاهراً بطابعه ، وأنشأه على أصح الاصول العلمية الدينية . وكانت دروسه دروساً صافية المثارب ، يرمي فيها الى الرجوع بالشريعة الى أصولها ، والأخذ من آدابها بلبابها ، ومحاربة الخرافات التي استمرأها طبقات المتأخرين ،

وانقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين . واذ جمع الشيخ طاهر الى سلامة الفطرة وسلامة البيئة ، جودة النظر وبعد لهمة ، جاء منه بالدرس والبحث عالم مصلح وفيلسوف إلهي ، أشبه الأوائل بهديه ، وتمثل بالأواخر في نظره ووفرة مادته .

ولم يغفل الاستاذ خلال سني الدراسة عن درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية ، أخذها عن علماء من الترك وغيرهم فكان اذا رأى أعلم منه بفن أخذ عنه فنه ، وأفاده فيما لا يحسنه من فنون العلم . ومن مثل لعينيه كيف كانت بيئته منحطة أوائل النصف الأخير من القرن الماضي ، أيام كان يتهم بالمروق كل من تعاطى علماً لا يعرفه المتقبة ، يدرك ما عاناه الاستاذ لتلقف علوم القدماء . ولم يبلغ الثلاثين من عمره حتى أتقن العربية والفارسية والتركية ونظم بالفارسية كالعربية . وكان نظمه بالعربية أرقى من شعر الفقهاء ودون شعر الشعراء وألف السجع لأول أمره ثم تخلى عنه ، وأصبح يكتب المرسل بلا كلفة ولا تعمل ، وتعلم الفرنسية والسريانية والعبرانية والحبشية والقبائلية البربرية لغة أهله الاصلية .

وبما ساعده على فتح صدره الرحب لجماع المعارف البشرية غرامه منذ نشأته بجمع الكتب وهو لما نزل في المدرسة الابتدائية . فقد أخذ يبتاع الدثوث والرسائل المخطوطة من دربهات كان يوضح بها له والده لخرجه . وكانت الكتب والرسائل تباع في الكلاسة شمالي الجامع الأموي على مقربة من ضريح صلاح الدين . وكلما أحرز الشيخ شيئاً من الأوراق والأسفار طالعه بإمعان وخباه وحرص عليه ، فاستنار عقله وكثرت معلوماته ، واجتمعت له بطول الزمن خزانة مهمة من الأسفار بلغت بضعة آلاف مجلد فيها كثير من النوادر المخطوطة .

تولى التعليم لأول أمره في المدرسة الظاهرية الابتدائية ، ولما أسست الجمعية الخيرية من علماء دمشق وأعيانها سنة ١٢٩٤ هـ دخل في عداد

أعضائها ، وكان من أكبر العاملين فيها ، ثم استحوطت هذه الجمعية « ديوان معارف » ، فعين مفتشاً عاماً على المدارس الابتدائية التي انشئت على عهد المصلح الكبير مدحت باشا والي سورية سنة ١٢٩٥ . وكان للشيخ الأثر العظيم في تأسيس المدارس الابتدائية بمعاونة صديقه بهاء الدين بك أمين سر الولاية ، وهو أديب تركي ، كان يجب نهضة العرب كما يجب العلم والأدب . وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس واستخلاص القديمة من غاصبها ، وحمل الآباء على تعليم أولادهم ، ووضع البرامج وتأليف الكتب اللازمة . كان يقوم بهذه الأعمال المهمة ولا يفتأ يزداد كل يوم علماً وتجربة وتفانياً في نهضة البلد ، وتحسين الملكات وصقل الأخلاق والعادات .

وأنشأ على ذلك العهد أيضاً بمعاونة بضعة من أصدقائه « دار الكتب الظاهرية » بدمشق وجمع فيها سنة ١٢٩٦ ماتفرق من المخطوطات العظيمة في عشر مدارس تحت قبة الملك الظاهر ببيبرس البندقداري ، ولقي بمن استحلوا أكل الكتب والأوقاف مقاومة شديدة وهددوه بالقتل إن لم يرجع عن قصده فما زادوه إلا مضاءً وافداماً . ولا تزال هذه الدار أثراً من آثاره في دمشق . وقد أنشأ مثلها في القدس باسم الشيخ راغب الخالدي وسماها (المكتبة الخالدية) وأضاف إليها بعد ذلك آل الخالدي خزانته الخاصة .

علمه وعمده

رأينا منهاج الدروس الواسع الذي أخذ الشيخ نفسه بدراسته منذ حداثته ، وأنه ليندر في المتأخرين من علماء دور الانحطاط الفكري نبوغ رجل مثله ، وعى صدره من ضروب المعارف ماوعى ، وطبق مفاصل الشريعة مع علوم المدنية . فقد كان متضلعاً من علوم الشريعة وتاريخ الملل والنحل ، منقطع القرين في تاريخ العرب والاسلام وتواجه رجاله

ومناقشات علمائه ومناظراتهم وتأليفهم ومراميمهم . ساعده على التبريز في هذا المضمار قوة حافظته التي لاتكاد تنسى ماير بها مها طال العهد . وكان اماماً في علوم الأدب واللغة ، إذا سألته حل مسألة تظن الشيخ لايعرف غير هذا العلم ، وإذا استرشدته في الوقوف على مظان موضوع تريده أطلعك من ذلك في الحال على ما لايتيسر لغيره الظفر به بعد الكشف عنه أياماً . وهكذا هو في علوم الشريعة ولا سيما التفسير والحديث والأصول . وكان يعرف السياسة وما ينبغي لها ، وحالة الغرب واجتماعه ، والشرق وأمه وأراضه معرفة أخصائي لامعرفة تُثَقِّة . ولا يكاد جليسه يصدق اذا انكفأ الشيخ يتكلم في هذه الموضوعات ، خصوصاً اذا كان غربياً ، أن محدثه شيخ من شيوخ المسلمين يعيش في أمة قد لاتقيم وزنا لهذه المعارف .

اتسع صدر الشيخ لجماع علوم المدنية الحديثة الا الموسيقى والتمثيل ، فلم يكن له حظ فيها ، وربما قاوم سرّاً المشتغلين بها ، مخافة أن تكونا سلماً الى التبذل وخلع ثوب الحياء ، وكان يراهما مدرجة الى اللهو والصبية ، وهذا مما لم يدخله الشيخ في جريدة أعماله ، ولذلك لايفتي بالتسامح مع القائمين عليهما ، مها أوردوا له من الحجج على نفعها . وصعب أن يتخلى المرء عن جميع ما أورثه اياه دمه وأهله وأساتذته . وصعب على من حلف أن يعيش عيش جد وتبتل أن يتساهل في الصغائر لئلا تؤدي الى الكبائر . أما الرسم والتصوير والنقش فكانت بما يتسامح فيه لكنه يغمزه عرضاً . وكثيراً مايقول ان أجيال الفرنجة في هذا العصر أفرطوا في الغرام بالتصوير ، والتعويل عليه في كل أمر ، فأضعفوا بذلك قوة التفكير والتصوير .

وسياسة الشيخ في التعليم محصورة في تلقف المسلمين أصول دينهم والاحتفاظ بمقدساتهم وعاداتهم الطبية وأخلاقهم القديمة القويمية ، وأن يفتحوا قلوبهم لعامة علوم الأوائل والأواخر من فلسفة وطبيعي واجتماعي على

اختلاف ضروبها ، ويقاوم المتعصبين على هذه العلوم المنكرين غناءها مقاومة حكيم عاقل ، وذلك بتكثير سواد الدارسين لها ، وارسادهم الى طرقها العملية المنتجة ، لا الوقوف بها عند حد الأنظار . فعمم المسلمين في الشام درس علوم نرى اليوم الأخذ بحظ منها من البديهيات ، اللهم الا عند بعض الجامدين ممن جهلواها ، ومن جهل شيئاً عاداه .

وكانت للشيخ طرق مبتكرة في بث الأفكار التي تخالف معتقد الجمهور ، يبثها في العقول بدون جعجعة ، ويقرب منالها من المستعدين للأخذ بها ، وذلك بتلقيهم أمهات مسائلها أثناء الحديث ، على صورة لا ينفرون منها ، ولا يختر لهم أنها من البدع المنكر . مثال ذلك أنه أولع في صباه بكتب شيخ الاسلام ابن تيمية ، وكانت جمهرة الفقهاء في عصره تكفر ابن تيمية تعصباً أو تقليداً لمشايخهم ، فلم ير الشيخ لتحبيب ابن تيمية اليهم الا نشر كتبه بينهم من حيث لا يدرون . فكان يستنسخ رسائله وكتبه ويرسلها مع من يبيعها اليهم في سوق الوراقين بأثمان معتدلة ، لتسقط في أيدي بعضهم فيطالعونها ، وبذلك وصل الى غرضه من نشر آراء شيخ الاسلام التي هي لباب الشريعة .

هذا وليس الشيخ في مذهبه على الحقيقة حنبلياً ولا مالكيماً ولا حنفيماً ، بل هو مسلم يأخذ من أصل الشريعة باجتهاده الخاص ، ويحسن ظنه بأئمة المذاهب المعروفة ، ويتجهج لمن يجرأ على النيل من أحد العلماء عامة . يعمل بما صح له من الدليل في الكتاب والسنة ، ولطالما أعطى الحق لعلماء الشيعة أو الإباضية أو المعتزلة في مسائل تفردوا بها وضيق فيها أهل السنة . أما الفلسفة أو الحكمة القديمة والفلسفة الحديثة فكان يعطف عليها وعلى المشتغلين بها ، وينهي باللائمة على المتأخرين الذين أوصدوا بابها فأظلمت العقول وضعف مستواها .

كان الشيخ ينكر على الظالمين سيوتهم ، ويقبح الظلم وان نال عدوه ، وينصف الناس من نفسه بعض الشيء . وكان الحكام معه في بلية يعرفون

أنه ينزع الى القضاء على سلطتهم الغاشمة ، ولا يستطيعون أن يظهروا العدا له . وكذلك كان المشايخ معه يبغضون أفكاره ، ولا يجراون على مقاومته بسلاحه سلاح العلم والبرهان . وكان كثيراً ما يقول : ما لنا ولأناس ليس لهم من السلطان علينا غير سلاطة السنهم ، وكلمات يُنقِّسون عنهم بها ، وهي لا تخرج الى أبعد من سقوف حُجْرهم . وحدث لبعض أعمارهم أن استعانوا غير مرة بالسلطة الزمنية على توقيف نيار أفكاره وأفكار أنصاره ، فكان الشيخ يصددهم بما له من التأثير في أهل الحل والعقد ، بمن كانوا يتمثل لهم عقل الرجل وضعف المبغضين له ، وكان يحسن مخاطبتهم بلسانهم ، والقائمون عليه لا يحسنون محاورتهم حتى ولا بلغتهم الأصلية . وسلاحهم دسائس يجوكونها ، وتعصبات ينفثونها . ولم يزل جهال الناس ، كما قال ابن المقفع ، يحسدون علماءهم ، وجبناؤهم شجعانهم ، ولثامهم كرماءهم ، وفجارهم أبرارهم ، وشِرارهم خيارهم .

من أجل هذا كان الاستاذ يتفنن في بث أفكاره بين الخاصة والعامه على صور شتى ، ويتفانى في نشر العلم والتهديب والأخذ من القديم والحديث . وكَم من عامي أصبح بتعاليمه وتلقينه بالعمل مسائل بسيطة من العلم معدوداً من المتعلمين في جلسات قليلة جلسها معه وسمع مذاكراته ، ومن هذه الطبقة أناس ما فتى على تنشيطهم حتى ألفوا وطبعوا ولم يكونوا قبله في العير ولا في النفير .

وكَم من جريدة أو مجلة أو كتاب أو رسالة نشرت في مصر والشام بإرشاده . وكان له أسلوب جرى عليه خصوصاً في تفتيش المدارس وهو أن يعلم المعلم ، ولا يشعره بأنه يعلمه ، بل يوهمه أنه يذكره في مسائل التربوية والتعليم ، أو انه يحاول أن يتعلم هو منه . وكَم من أديب أو عالم أرشده الى السبيل السوي في أدبه وعلمه ، وعلمه المظان وأساليب المراجعة . وكثير عدد من اشتغلوا بالآداب أو تعلموا التعليم الثانوي أو العالي في الديار الشاميه ان لم يكونوا استفادوا منه مباشرةً فبالواسطة . وتلاميذه

ومريدوه من المسلمين يعدون بالعشرات وأكثرهم اليوم يشغلون مقامات سامية في دور العلم والحكم وفي التجارة والزراعة .

لم يجد المترجم له عن الحطة التي اختطها لنفسه منذ نعومة أظفاره ، ودعا الناس الى انتهاجها حتى آخر أيامه . وخطته الاخلاص والعمل على النهوض بالأمة من طريق العلم وبث اللسكات الصحيحة في أهل الاسلام . وثورته ثورة فكرية لامادية ، ويقول ان هذه الطريق يطول أمرها ، ولكن يؤمن فيها العثار ، والسلامة محققة ثابتة .

بحق ما قيل في الشيخ انه معلمة (انسيكلوبيديا) سيارة أو خزانة علم متنقلة . وكيف لا يكون كذلك من آتاه خالقه حافظه قوية وذهناً وقادراً وعقلاً يستعمله . فقد قرأ جميع ما طالت يده اليه من الكتب العربية التي طبعت في الشرق والغرب . أما المخطوطات التي طالعها ولخصها في كنانيشه وجزازاته فتعد بالمئات . وقل ان يدانيه أحد في علم الكتب ووصفها ومؤلفيها وأماكن وجودها وما عرض لها . ولطالما رحل من بلد الى بلد بعيد ليطلع على مخطوط حفظ في بعض الخزان الخاصة . وبالنظر لاحاطته بالمطاز وتدوينه في الحال كل ما يقع استحسانه عليه من الفوائد ، كان يسهل عليه التأليف فيما ترتاح اليه نفسه من الموضوعات . وقد يؤلف الكتاب في بضعة أسابيع على شرط أن يوقن أنه سيطلع . واذ كانت عصبي المزاج يسارع الى النشر متى افترص الفرصة المناسبة لاجراج التأليف ، ويقول ان الايقان لا حد له والأغلاط تصحح مع الزمن . هو واسع الرواية واسع الدراية أو كما قال صديقه العلامة احمد زكي باشا في بوقية أبرقها الى الشام بالتعزية به « كنت أرى فيه الاثر الباقي ، والمثال الحي ، والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح ، من حيث الجمع بين الرواية والدراية في كل المعارف الاسلامية ، وبين الأدب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص ، واستثارة خباياها وابرار مفاخرها ، هذا الى التفاني في توسيع نطاقها ، بقبول ما تجدد عند الأمم التي تلت

تراث العرب باليمين ، والدعوة الى الاقبال عليه مضموماً الى آثار الأبناء ومآثر الاجداد . وهكذا قضى الشيخ عمراً أولاً وثانياً وثالثاً في خدمة العلم والدعوة اليه بالقلم واللسان وبالقدوة الحسنة ، حتى تم له شيء كثير مما أراد بين الأنداد والتلاميذ والمحبين والمريدين ، فهم مناط الامل وفيهم خير خلف ، لذلك يغتبط قاسيون بضم رفاته والحنو عليها .

أهم وقفات وعاداته

قلنا ان سيرة الشيخ طاهر كانت نطاً واحداً طول حياته ، هكذا كان متعلماً ومعلماً وعالمياً ، يجب العمل ويدعو اليه قبل النظر ، جدث في حركته لا يبالي بالعوائق مهما عظمت ، وكلما حاول أعداؤه أن يقفوا دون بث دعوته يزداد قوة وعرامة ، شأن كل الدعوات كلما حاربتها زدت انتشاراً . ألغت الحكومة وظيفة التفتيش بالمدارس تخوفاً من شدته في بث أفكاره بين الاساتيد والتلاميذ فزاد نشاط الشيخ ، وكان يكتسي ويورثي فعدا يعمل علناً بخلاصه من أسر الخدمة . وكان مدرساً في المدرسة الاعدادية بدمشق وهو من جملة مؤسسيها فاستقال ، ثم عرضت عليه وظائف كبرى في غير السلك العلمي فأبى لانه كان يعرف أنه لا بد له في هذه المناصب من مشايعة الظلمة والجهال . وجعل جل اعتماده في عيشه آخر أيامه على الكتب التي اقتناها طول حياته وأخذ يبيع منها بالتدريج ، وتسمح نفسه يبيعها اذا تأكد انها تحفظ في معاهد عامة كدار الكتب المصرية والخزانتين التيمورية والزكية في القاهرة ، فان معظم نفائس خزائنه نقلت اليها ، وتمزج الشيخ أثمانها نحو اربع عشرة سنة . وكان اشتراها في صباه بأثمان بخسة فارتفعت أسعارها عشرة أضعاف أو أكثر .

كان الشيخ على ضيق ذات يده يتصدق أحياناً على الفقراء في السر ، وربما كزّت يده عن لباسه وطعامه ، وأطعم جائعاً وعال معوزاً . يصلي الصلوات لأوقاتها ، ويقوم شعائر الاسلام أنسى كان . فقد زار مرة أحد معارض

باريز فكان اذا أدركته الصلاة صلى في الحديقة العامة ، لا يبالي بانتقاد الناس هناك ، ولا استغرابهم حركاته وسكناته ، وحج مرة وطبق مناسك الحج على ما يفعل العلماء العاملون . وكان مفطوراً على الرحمة ، يارق لجاره أو صاحبه اذا علم أنه أصيب ببائقة في ماله أو أهله أو جاهه ، خصوصاً اذا كان الرجل ممن ترضيه سيرته في الجملة .

كان الشيخ عفّ النفس يستنكف أن يأخذ شيئاً من أحد بلا مقابل مهما كان الواهب . فقد عرض عليه صديقه الاستاذ احمد زكي باشا رحمه الله أن يوقع على طلب وهو يتعهد له براتب جيد من الأوقاف المصرية على عهد الخديوي عباس الثاني فتنصل واعتذر ، ولما اشتد صديقه في تقاضيه ذلك انتهره . حتى قال الاستاذ زكي باشا : لو كنت أعتقد أن رجلاً يعيش من تحت السجادة لاعتقدت ذلك في الشيخ طاهر ، لأنه يقيم في بلد كمصر يشكو فيه الأغنياء من الغلاء ، ولا يجب أن يأخذ من أحد شيئاً يستعين به في حياته ، وكان كثيراً ما ينشد قصيدة القاضي علي بن عبد العزيز في عزة نفس العالم التي منها :

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| يقولون لي فيك انقباض وانما | وأوار رجلاً عن موقف الذل أحجما |
| أرى الناس من دانا هم هان عندهم | ومن أكرمه عزة النفس أكرم ما |
| ولم أقض حق العلم ان كان كلما | بدا طمع صيرته لي سلماً ... |
| ولو أن أهل العلم صانوه صانهم | ولو عظموه في النفوس لعظمًا |
| ولكن أهانوه فهان ودنسوا | حياه بالأطعام حتى تجهمًا |

لا أكون الى المبالغة اذا قلت ان عزة النفس وهو الخلق الذي ندر في علماء المسلمين لعهدنا ، كان مما تفرد به ، ففيه اباء الملوك الصالحين وزهد الزاهدين العابدين . لم يظاهر ظالماً لغنم يصيبه ، ولا صحب غنياً للانتفاع بغناه . وكان يؤثر التحول وعدم الظهور ، لانهم الشهرة استفاضت أم لم تستفص ، لأنه يهزأ في باطنه بمظاهر الأبهة والرفعة ، ويزهد في اعتبارات كثيرة يتفاني الناس في تحصيلها ، يزهّد حتى في نسبه الى الشرف ، ولم

يذكر ذلك الا مرة واحدة ، ذكره فيه أحد صلحاء الجزائريين أمامي ،
وسألته بعد ذلك عن نسبة بيتهم الى الشرف فقال : « هكذا يقولون » :
ولا عجب فشرف العلم أعظم نسبة .

هاجر الشيخ من دمشق لما كثر ارهاق العلماء في العصر الحميدي فنزل
القاهرة من سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) الى سنة ١٣٣٨ (١٩٢٠) وظل
فيها طول هذه المدة على تقشفه والحرص على عاداته . وما تعلم لفظه من
اللغة الدارجة المصرية . ولما نشر القانون الأساسي في المملكة العثمانية
(١٩٠٨) رأى الشيخ بنظره الثاقب أن عهد الحرية الحقيقية بعيد ،
وكان لايفتر بقوانين الترك ولا بثورة السياسيين ، فانزوى في مصر حتى
استحكم منه مرض الربو وقفل راجعاً الى مسقط رأسه قبيل وفاته بأشهر
قليلة ، فعين مديراً لدار الكتب التي كان أسأها في صباه وعضواً في
المجمع العلمي العربي ، وناداه ربه الى جواره يوم ١٤ ربيع الثاني سنة
١٣٣٨ (٥ كانون الثاني سنة ١٩٢٠) فدفن حسب وصيته في سفح
قاسيون جبل دمشق . وقبيل وفاته برّح به الألم فاقترح على الطبيب
أن يعطيه دواء يميته حالاً قائلاً ان في الشرع مايبيح ذلك ، وهذا من
أغرب ماسمع من عاقل . فركن الطبيب الى الفرار وحلف أن
لا يعود الى تمرير الشيخ .

كان الشيخ فيلسوفاً بكل ما في الفلسفة من معنى شريف ، لالتلوي
أخلاقه ، ولا ينزل مجال عن عاداته ، متشدداً في دينه ، زاهداً في
دنياه ، لم تبهره زخارف الحياة ، ولم يتزوج حتى لايشغل ذهنه بزوج
وأولاد ، وليكون أبداً مطلق العنان يسبح في الأرض متى أراد ، أو
يقبع في كسر داره وسط كتبه ودفاتره . ولئن خلا من هم نفسه
فما خلا ساعة من الاهتمام بأمر المسلمين وتحبيب العلم والعمل اليهم ،
ولا سيما الناشئة منهم ، وفي تربية النشء كان يصرف شطراً صالحاً من أوقاته
عقد الشيخ صلات مستديمة مع علماء عصره على اختلاف أديانهم

وأجناسهم ، صحب صديقه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده كما صحب صديقه العالم المجري غولدصير اليهودي . وكثيراً ما كانت صلاته بعلماء المشرقيات باعثة على تخفيف حملاتهم على الاسلام ولو قليلاً . وهذا بما كان يتم له ، ثم يهجم من أمر المستعربين من المستشرقين توفروهم على خدمة آدابنا بنشرهم كتبنا النفيسة ، وكان يعاونهم فيما هم بسيله اذا استوشدوه ، ويفتيمهم راضياً مختاراً اذا استفتوه فيما يتعذر وقوفهم عليه ومن عادة الشيخ أن يصحب الفرق المختلفة مها كان لون طريقتهم ونحلتهم حتى الملاحدة وأرباب الطرق . رأى ذات مرة جماعة يتألفون على طريقة لهم يقيمونها ، واذكار مأثورة يقيمونها ، وشهد في بعض أفرادهم استعداداً للعلم ، فما زال بشيخهم ، وكان من أصحابه وتلاميذه ، حتى حمل الجماعة على أن يشغلوا الوقت في مطالعة كتاب من كتب القوم في التصوف ، وكان هذا الكتاب في الأدب العالي والأخلاق الفاضلة . ورأيت الشيخ يحتمل كثيراً من تجهم بعض اولئك المتألفين ، فيدخل في مجلسهم مظهراً أنه طالب استفادة ، حريص على استماع درس أستاذهم ، وهو يحمل اليهم النسخ المخطوطة من الكتاب لمعارضتها بالمطبوع ، يحاول أن يعلم بعضهم صورة المراجعة في كتب اللغة ، حتى تسلم العبارة من الخطأ ، ويخدم الكتاب الخدمة اللائقة ، وبذلك تيسر له ان ينقل بعض أرباب الاستعداد منهم من كتب التصوف الى كتب العلم والأدب وسمعت بعضهم يتبرمون بقراءة تفسير ابن جرير الطبري وتبسطه في شرح الكتاب العزيز ، فجاء من هذه الزمرة أدباء نافعون بعد أن كانت نفوسهم مشبعة بالكشف والخيالات والمنامات . وأدخل النور على كثير من أذكيا العلماء من أصحابه ، وكان منهم الذين ذرفوا على السنين ، فما استطاعوا أن يؤثروا الاثر المطلوب في صريديهم ، ومنهم من ساعدهم الطالع أن كانوا في سن الشباب فعالجوا التأليف والوعظ والتعليم فانتفع بهم الناس ، ومنهم من لم يتمرنوا

على الكتابة واللقاء فبقت أفكارهم في دائرة القوة ، لم يتعد أثرها المحتفين بهم من الأصحاب والمريدين .

ولقد كانت له صداقة أكيدة بالعالم المطران يوسف داود السرياني يتسامران ويتحدثان ويتهاامسان ويتناقشان . وما أدري ان كان المطران أثر في الشيخ أو أثر الشيخ في المطران . سمعت الشيخ يثني الشاء المستطاب على صديقه المطران وقد طالت به صحبته وعشرته ، وهكذا كان له اتصال بالارمن واليهود واليسوعيين الكاثوليك والاميركان البروتستانت . وكان يفضي عن كثير من النقد على رجال الدين من غير المسلمين ويقول هم أقرب الناس إلينا يعتقدون بالله واليوم الآخر وخلود النفس . وكانت جميع الطوائف تستلطفه وتحب عشرته ، على ما بينها وبينه من التخالف الظاهر في الزي والعادة والحلق والمذهب ، ويطلعونه من سراثرهم على ما لا يبوحون به لأقرب الناس إليهم . وسمعتة غير مرة يقول « الحمد لله لقد سامنا كل الفرق » .

صحب بعض الزنادقة وما زال يصبر على ما ينبو عنه سمعه من تصريحه وتعريضه ، وما فتى يلقنه أفكاره بالتؤدة مدة حتى عاد به الى حظيرة الدين ، وهو لم يشعر فيما أحسب بما دخل على عقله من التبدل ، وصحب كثيراً من غلاة الشيعة والطوائف الباطنية فما برح يتلطف بهم حتى أضعف من غلوائهم ، وأبدلهم بعد الجفوة أنساً ، وغير من انقباضهم وانقباض الناس عنهم ، ليعيشوا في هناء وسط المجتمع الانساني الاكبر .

وكان يتفنن في بث الافكار الصحيحة ، واخراج قومه من الأمية المميته ، ويحمل خاصته ومن يصل صوته إليهم على تعليم أولادهم الممكن من ضروب العلم الذي يتناسب وحالتهم . وقال لي مراراً اذا أردت ادخال الاصلاح الى بيوت الاعيان ، وفيهم الجاه والمال ، فاجهد لأن يتعلم ولو فرد واحد من كل أسرة تقلب به كيانهما . وكثيراً ما قال لنخرجن من بيوت الأغنياء أولاداً يجارونهم بسلاح التربية الصحيحة ، وقد وفق الى ذلك بعض

الشيء . وكان يقول لو طلب مني اليهود أن أعلمهم ماتأخرت ساعة عن اجابة طلبهم ، لأن في تعليمهم تقريباً لهم منا ، مها كانت المباينة والفوارق بيننا وبينهم .

مارأيت الشيخ يبغض انساناً بغضه لشقيقين دمشقيين (الشيخ صالح المنير وشقيقه الشيخ عارف المنير) ، وكان اذا ذكر أحدهما أو كلاهما في مجلسه يقول « دعونا » ، وتنقبض نفسه انقباضاً دونه كل انقباض ، ولو علمت أن بغضه هما كان ناشئاً من كونها أعطيا عهداً على أنفسهما أن يصدنا الناس عن طلب العلم لبطل عجبك . وأكد الأستاذ أن الأخوين قد وفقا الى أن قطعاً عن الدرس نحو أربعين طالباً ، كان يرجى أن يكون منهم متعلمون وعلماء .

وكان من عادة بعض أدياء العلم من الشيوخ أن يرغبوا الناس عن الدرس ، ليخلو لهم الجو ويستمتعوا وحدهم بالمناصب الدينية والأوقاف والمدارس والجوامع ، لا ينازعهم أحد في شؤونهم ، ما خلا أبناء بيوت محدودة معروفة بمن هم على شاكرتهم في غش الأمة والاستئثار بمراقبتها ، فكان شأن هؤلاء في الاستئثار المقوت شأن كهنه قدماء المصريين لا يستحقون لغير فئة خاصة بالتعلم ، أو شأن اصحاب الطبقات من الهنود أو اللاويين عند اليهود ، لا يدخل أهل طبقة في طبقة غيرها مها تبدل من حالتها .

من أجل هذا كان من رأي الشيخ ان يتعلم كل طالب علم (العلم الاسلامي) صناعة او تجارة أو نحو ذلك من أسباب المعاش ليستغني عن الناس وعن تكلف العظاء ، وتعرّف نفسه عن التناول من الأوقاف ، والتمرغ في حماة القضاء وينشأ على الاستقلال ، لأن هذا العلم يطلب لذاته وفائدته في الدارين ، لا للتكسب به عند السلاطين والحكومات . وفي سيرة بعض علمائنا الأقدمين بمن كانوا يجتوفون ويتجرون عبرة لأهل هذا الشأن طالما ردها الشيخ وأراد أصحابه على الاقتداء بالسلف ولطالما تفرس الشيخ في أحدهم الشر ، وأعرض عنه وحذر أصحابه

من الدنو منه ، وناله من نقد غير العارفين ماناله ، ويقول بعضهم ان الشيخ صاحب اطوار وغرائب والشيخ ساكت ولا يزيد على قوله : « هم أحرار ، ونحن لانكم أفواه الناس عن التحدث بما يروقهم » وما لبثت الايام بعد حين أن كشفت نفس ذاك الشرير على صورة مستغربة وكثيراً ما كنت أسأله عن بعض الاشخاص من حيث علمهم أو أخلاقهم فيجيب : « الامر مجهول » فأفهم بالتعريض أن في معلوماتهم أو سلوكهم نظراً ، فيظهرون بعد لايي بمظهر الجهل أو الحيانة ، وقد خدعوا السذج من أصحاب الصدور السليمة ومن قلت تجاربهم أعواماً غير قليلة . ومن فراساته الغربية يوم حدث الاعتداء على ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو سنة ١٩١٤ أن حرباً أوربية طاحنة ستنشب لاحالة ، فأبعد في تصوره خطورة الموقف الى ما لا يتعداه غير أعظم المفكرين العارفين بنتائج الحوادث .

كان يصدع بالحق ولا يماري ، اذا دخل مجلساً ورأى فيه بعض الظالمين او الخرفين غلب عليه الجلال فلا ينطق بكلمة ، واذا رأى من أحد الحاضرين تمويهاً في أمر وخروجاً عن الصدق جبهه وخرج عن مألوف الناس في الملاينة والملاطفة ، وهذا سر من أسرار ازورار بعض الناس عنه . واتفق أن أحد أترابه ارتقى في الدولة العثمانية حتى أصبح الحاكم المتحكم في العهد الحميدي ، فقاطعه الشيخ بلا سبب ظاهر ، فتوسط صاحبه أحد اقاربه ليعود الشيخ الى مراسلته ، ووعد الشيخ ومناه ، فأغضى الشيخ عن اجابته ، ثم الحج الوسيط بعد مدة ليعرف الداعي الى اعراض الشيخ عن صاحبه فقال : « اكتبوا له أننا لانتعرف اليه مادام لايعرف امته ، ومتى فكر في اسعادها وتخفيف البلاء عنها عدنا اخوانه وأخذانه » . وحدث ان صديقه الاستاذ احمد زكي باشا نال بواسطة احمد حشمت باشا وزير معارف مصر اعتماداً بعشرة آلاف جنيه طبع مجموعة من الكتب العربية القديمة النادرة تبلغ فيما أذكر سبعة وعشرين كتاباً ومنها مايدخل في بضعة مجلدات فتباطأ زكي باشا في الطبع

ومضت السنة فقيد المبلغ في نظارة المعارف على حساب السنة المقبلة ، ولم يخرج الباشا شيئاً ، وهكذا حتى ألغى الاعتماد باستقالة حشمت باشا فغضب الشيخ غضبة مضرية من عمل زكي باشا وصارحه بقوله : « لقد أسأت الى الأمة العربية بابطائك في اخراج الكتب للناس ، واذا ادعيت انك تقصد نشرها سالمة من الخطأ مشفوعة كلها باختلاف النسخ والتعليق فالتأتق لاحد له ويكفي أن ينتفع الناس بالموجود » . وظل الشيخ أشهراً لا يكلم صديقه الزكي الا متكلفاً كأنه عبث به ، وحمل الضرر الى مصلحته مباشرة ! وأي مصلحة أعلق بقلبه من نشر آثار السلف .

يجب الشيخ اتمام كل عمل لساعته ، وكان يستشيط غضباً من رجل يقول له ان لك عندي كتاباً ولكنني أنسيته في داري او حانوتي او مدرستي . وكثيراً ما كان يحمل من يشغله بكتاب جاءه على أن يفتح محله مهما كان بعيداً أو مهما كان الحديث في ساعة متأخرة من الليل . ويؤنب هذا المتساهل بشؤون اخوانه تأنيباً يرجو ان ينجع فيه فلا يعود الى هذه العادة القبيحة . ومقصد الشيخ من ذلك ان يعلم الناس العناية بمصالح غيرهم . وكان يقول في مثل هذه الاحوال ولعل في الكتاب أمراً مستعجلاً يستدعي أن يجاب عليه ، وكان من عادته أن يجيب عن الكتب التي يتناولها في الحال .

غريب عاداته

كان سميت الشيخ وهندامه سميت العوام وهندامهم في عصره ومصره ، عمامته من الاءغباني ، في جبة بسيطة ، وقفطان قطن ، وزنار مزدوج يخبأ فيه بعض الدراهم ، وألبسته من صنع الوطن الا النظارتين والطربوش ويختار من القمصان والسرراويل ماخف ثمنه ليطرحه اذا اتسخ ولا يشغل ذهنه بغسله ، وكثيراً ما يلبس قميصين وزوجين من السرراويلات وقفطانين وصدرتين وجبتين ، ليكون على أتم الاستعداد لما يطرأ على أحد الزوجين

فينبذه حالاً ويستعيض عنه بأخيه دون انتظار شيء آخر . وقد لا يستعمل
المناديل المتعارفة المعمولة من القطن ، فيعمد الى اتخاذ مناديل من الورق
الغليظ ، يضم بعض أجزائه الى بعض فيكون دفتراً ، يلقبه بعد أن
يتسخ كله . وكان يطهر جسمه ولا ينظف ثيابه كثيراً ، أصيب بهذه الخلة
خصوصاً بعد أن فقد والدته في صباه ولم يبق له من رحمه امرأة تتعمده
أبدأ بنظافة ثيابه والعناية بظواهره . وأنى له هو أن يسد مسد أمه في
ذلك ، وفكره مشغول بمطالب عالية أخرى ، قد لا يتسع لمثل هذه
الجزيئات في رآيه .

ورأيت في بعض تعليقاته في ترجمة عبد الله بن الحشاش وكأنه بنقله
لها ترجم نفسه فقال بلسان الحال : وهذا رجل مثلي كان الى الحمول ،
قال : « كان وسخ الثياب ، ماتأهل ولا تسرئ له معرفة بالحديث
والمنطق والفلسفة والهندسة بل بكل فن ، وكان يترك عمامته أشهراً ولا
يغسلها ، ويلبسها كيف اتفق ، فاذا قيل له في ذلك يقول ما استوت
العمة على رأس عاقل قط . . وشيخنا رحمه الله كان من هذا الطراز .
والعبقرية على ما يظهر تكمل من صاحبها ناحية واحدة وتنقص منه من
الناحية الاخرى بقدرها .

أراد الشيخ أحد أصحابه في القاهرة خلال الحرب العامة على أن
يغير جبته لأنها بليت بعض أطرافها فسكت الشيخ عن اجابته . فلما
ألح عليه مرتين وثلاثاً اجابه « يافلان تريدني على اقتناء جبة جديدة
وأهل الشام يموتون من الجوع » . وأضافه أحد أصدقائه في بيروت وأخذ
ذات يوم ثيابه بدون استئذانه ليغسلها ، وعوضه عنها ثياباً جديدة ، فحنق
الشيخ وما زال بمضيفه حتى أعاد اليه ثيابه الوسخة ، وذلك لثلاث يشغل
فكره في ثيابه ريثما تغسل وتنشف ، ولثلاثا يلبس ثياباً غير ثيابه .
وغضب مرة على أحد أصحابه ومساكنيه في القاهرة لأنه افتروص غيابه
فنزح من غرفته جميع الكتب والفراش المملوء بالبق ، وكنس الغرفة

ونفض الغبار عن الكتب والأواني وغسلها ، ووضع ممماً لقتل البق في السريو ، حتى لا يصل الى الشيخ فيقرصه ، وأعاد كل شيء الى مكانه ، فلما رأى الشيخ ذلك عرف مادُّبتر له ، ولم تطب نفسه بهذه التعزيلة ، وأنحى على صاحبه باللوم والتقريع ! ورأيت مراراً وقد نتأ مسمار أو مسامير من حدائه فكان يخصف من ورق الشجر يجعله في الحذاء ، ليمتقي ضغط المسمار على رجله ، ولا تحدثه نفسه أن يذهب الى الحذاء يصلح له حذاه ، واذا قلت له في ذلك أجابك ان الوقت لا يساعدي . وكان مداسه متسعاً في الشتاء يجرف من الأرض طيناً كثيراً يعلق بجبته ، فيصبح وجهها شكلاً وقفهاها شكلاً آخر . ولطالما تبرم بزيارته أيام المطر بعض ربات البيوت لأن طين جبته يعلق في المقعد الذي يقعد عليه . وكان اذا اشتد الحر استقل الجوربين فنزعهما من رجله وعضها أوراقاً هشة ملونة يجعلها فافي نعله لئلا تمتص العرق بزعمه . وأنت لا تملك نفسك من الضحك اذا رأيت رجله ، وتستغرب من عظيم كك هذا يسخر بعادات مجتمعه الى هذا الحد ، ولا يبالي النقد ولا الملام . ولطالما قال أنا شاذ ولا أحب أن يقتدي بي أحد .

ومن عادة الشيخ أن يحمل في جيوبه وعبابه بعض الدفاتر والرسائل بل أقلاماً ودواةً ومقراضاً وسكيناً وإبراً وخبوطاً ، وشيئاً مما يحمل من النواشف والحبز والجبن والزبد والتين والزبيب ، وفي بعضها مادة دهنية دسمة يخشى أن تسبخ كالشواء ، وما دخله سمن أو زيت من المآكل ، يضع ذلك في مقوِّهى أو ورق غليظ ، ويستعمله عندما يريد ، ويطعم منه أصحابه . ان أحبوا . اما الدخان والسكر والمرب فيحمل منه مؤونة أيام احياناً ، وقد يطبخ من القهوة في داره مقداراً وافراً ويجهز منها مايكفيه اسبوعاً حتى لا يضيع وقته بطبخها ، كلما أراد تناول فنجان منها وهكذا يشربها باردة باثة أياماً لئلا يشغل بها كل ساعة عن مطالعته . وقال لي مرة انه ابتاع ارطالاً من البرتقال وضعها في داره ، ومن الغد

بدا له أن يسافر ، وتذكر وهو على أذرع قليلة من البيت انه يجب ان يستصحب في حقيبته شيئاً من البرتقال ، وتذكر ما استراه منه بالأمس فأثر ان يبتاع برتقالاً من الطريق لئلا يضيع وقته بالرجوع الى الدار بعد ازماعه الخروج منها ، ولم يعد الشيخ الى داره الا بعد ستة أشهر ، وفرح أن رأى برتقالاته تضر وتنفش !

وكان مغرمًا بالتدخين منعه الطبيب منه وأراده على ابطاله ، فتعذر عليه ذلك ، فقال الطبيب ان كان لا بد من التدخين فلف بنفسك لفائفك ، حتى يمضي جانب من الوقت في اللف . وكان الشيخ لا يحسن صنع لفائفه فتجيء واحدة دقيقة وأخرى غليظة وثالثة متوسطة ، وعندئذ يبدأ الشيخ بتجاربه ليضع اللقافة في البرز (الفم) الذي يلائمها ، وكان في جيب الشيخ بضعة من هذه الأبراز يتخيرها من القصب أو غيره من انواع الحشب ، وهكذا كان يتلهي عن الاكثار من التدخين ولو بضع دقائق . واذا قلت له بابطال التدخين ينهرك ويعرض عن حديثك ، هذا وهو صاحب ارادة قدت من حديد أو صخر .

ومن عادة الشيخ خلال الأربعين السنة الأخيرة من حياته أن لا ينام الا اذا صلى الصبح ، يساهر بعض أصحابه هزيعاً من الليل ثم يغشى حجرته يطالع ويؤلف . وقد لا يراعي أوقات بعض أحبائه ، فيوقفهم أحياناً بعد الهزيع الثاني من منامهم ليسمر عندهم ، أما من كان لهم مواعيد ويعرفون التوقيت لساعات الليل والنهار ، فكان يصونهم عن غشيان منازلهم مَوْهناً ، ولا يطرق أبوابهم بعد الأوقات المعينة للسمر والسهر كان يحب السباحة والعموم ، وله مسبح اختاره في بيروت وآخر في صيدا ، ومسابع في بعض أنهار دمشق ، وربما لبس سراويله مبللة بعد الخروج من سباحته ، ويهوى السير على الاقدام للتريض . ولطالما قطع عشرات الاميال بين المدن والقرى والجبال والامودية سائراً على قدميه . وقد يراه في الطريق بعض أصحابه او من لا يعرفه ويدعونه الى الركوب

في مركباتهم أو على متون دوابهم فيأبى ، لأنه لا يجب ان ينقض امرأ
أبرمه ، ونفسه تتوق الى السير ماشياً فأبي معنى للركوب ! ومن أغرب
أطواره أنه اذا استعدت نفسه للقبولة قال ، وهو وسط اخوانه يتذاكرون
ويتدارسون . يَقبيل وهو قاعد ويضع على وجهه منديلاً . وربما أتم
اغفائه عند انجاز الدرس والمذاكرة ، وشارك فيما انقطعت عليه سلسلته ،
من الحديث ، وقد يظن أنه احاط بما دار في المجلس في غضون قبولته .
ولم يكن يجب ان يطول الدرس اكثر من نصف ساعة ، لأنه يتبرم بالجد
في هذه المجالس ، وهو يقضي الساعات في مطالعته الخاصة .

كان الشيخ لا يعرف الهجر ، ولا يشتم شتاً ينبو عن حد الأدب ،
مع حدة فيه ظاهرة ، وألم من أكثر الأحوال الحاضرة . وكان اذا
صفا ذهنه تفصح عبارته في محاضراته ، والا فيعتبرها شيئاً من اللكنة
المغربية مزوجة بالعامية الدمشقية ، وله تعبيرات خاصة وأساليب في
مصطلحاته ونبراته لطيفة تحلو من فمه . يمزح أحياناً من الجد ، وما
أحصى عليه أن نطق يوماً بفحش أو هراء ، أو استعمل ما ينافي الأدب
والمروءة ، وكان يميل الى بعض من فيهم بالبلاهة مزوجة بالذكاء ، وتصدر
عنهم غرائب الأفكار والتصورات ، وربما قصدهم كل سنة من بلد الى بلد ،
ليقطع بينهم أياماً يخرج فيها من الجد ، ويدخل معهم في حديث قد
يروقه للتسلية والتندر .

حدثني أحد لِداته قال : كنا في دمر ، احدى قرى دمشق ، نقضي فيها
يوماً للنزهة ، وكنا في نحو الثلاثين من العمر ، فاعتزل الشيخ طاهر
في ناحية من الحديقة يطالع ويكتب في ظل شجرة ، وكنا حراساً
على أن نكون معنا طول النهار ، وكانت في البستان فتاة اسرائيلية
جميلة الطلعة ، فاقترحنا عليها أن تذهب الى الشيخ المستظل بالشجرة ،
وتأتينا به ، ونحن نكرمها بالمال ، فصدعت بالأمر ، ولما رفع رأسه
من كتابه أخرج لها في الحال قطعة من القمر الدين (معجون المشمش)
وقال لها « ايه بارك الله ، أنا كلين قمر الدين يا قمر الدنيا ؟ » وصرف

الفتاة بهذا التقريظ ، وهذا كل ما أثر عن الشيخ في باب التصابي .
وسأله أحد الطلبة عن حكم التقبيل وما إليه ، فأجابه هذا موضوع لا أعرفه
سأل غيري . وتكلم أحد أصحابه بكلام بعيد عن الحشمة في حضرته ،
فأشاح بوجهه وتصامم كأنه ما سمع ولا دهش لهذا الغريب من الحديث ،
على حين كان مغرماً بالغرائب ، ولكن لا من هذا البحر والقافية .

سأله أحد الفقهاء بمن ألفوا كتباً دينية حشوها بما لا يقره الشرع
الصحيح ولا العقل الصريح « كيف تجد كني يا شيخ طاهر » فأجابه في
الحال متخلصاً أجمل تخاص « استغلوا ونحن نشغل لئلا نرى لمن تكون
النتيجة » . وكان يكره المنتدفين من المؤلفين والكتابين خصوصاً في
الدين والسياسة ، بل يكره كل من يقول بغير علم وبجانب الذين يرمون
الكلام على عواهنه حساباً غير يسير ويسميهم الحشوية كما يكره الجبلوتيين ،
والقبوريين والجامدين والمهاجرين . وسمعتة يقول إن فلاناً يردّه على
الماديين وهو لا يحسن العلوم المادية فتح علينا أبواباً يصعب سدها ،
وفلاناً بمقالاته السياسية المطولة يفتح بقلمه كل حين مشاكل صعبة الحل .
فقلت له ولا تنس ياسيدي الشيخ الفلاني وما حشا به كتبه من ترهات
وخرافات ومنامات وخيالات ، يعدها من الدين والاسلام بويء منها ،
ويزيد على قبحه قبحه ثانية أنه يكفر كل من لا يقول بها .

وكان ينهر من يوردون أحاديث تفت في عضد السامعين وتلقي في
قلوبهم الرعب والوهم ، ومذهبه تقوية القلوب وازالة غشاء الأوهام عن
الأحلام ، وأن يصمد المرء لمكافحة الحوادث ، ولا يجب الاستنتاج اذا
كان في غير محله حتى لا يؤدي التزويد والتفلسف الى تزييف الوقائع ،
والباس الحقائق غير صورها ، ولذلك كان يستلطف من الانكليز
السكسونيين ايجازهم في أحاديثهم وكتبهم ، ويوحشه من اللاتينيين تبسطهم
في أقوالهم ومكتوباتهم . ويحتاط أبدأً فينسب كل قول لقائلة في أحاديثه
وكتبه ، وغايته نشر الفكر والخلص بسلام من تبعته .

كان يرفق بالضعفاء ويرفع من قدر الصعاليك ، ويحمل على العطاء ويترفع عن ملابستهم ، وكثيراً ما كان يحدث العامة برفق وتؤدة ، ويخاطبهم خطاب اخوانهم لهم . ولطالما قال ان من الحكمة أن لا يجعلوا بينكم وبين العامة حجاباً كثيفاً ، اذا أحببتهم هدايتهم والانتفاع بهم ، وعليكم أن توهموهم أن ليس بينكم وبينهم من الدرجات الا قليل ، يوشكون هم اذا اشتغلوا قليلاً أن يساموكم أو يفوقوكم ، فهو بهذا كالطبيب الحاذق يعطي المريض الجرعة التي تناسبه ، ويتدرج به في المفويات درجة درجة . وهكذا كان مع كل طالب ومستفيد .

تحقق لدى الشيخ أن ابن أخيه ، وكان من نوابغ الشبان ، ابتلي بأخرة بالشراب يتعاطاه ، فقطع مكانته مع شدة حبه له ، وظل لا يكلمه ولا يبحث عنه مدة اثنتي عشرة سنة ، وهو يكتم السبب في اعراضه عن نجل شقيقه . حتى أشار مرة اليّ بما يرتكبه المغضوب عليه من أخذ المسكر ، وعدّ عليه في جملة هناته أنه أتعب نفسه في المدرسة زيادة عن المطلوب فضعف بصره حتى ينال رتبة عليّة ، وكان عليه لو سمع نصائح عمه أن لا يرهق نفسه ويكتفي من المنافسة مع أقرانه بما توصله اليه الطبيعة ، بدون اعنات ولا اتهالك بدن . وهذا من قوة نفسه وصدق حدسه .

كان يكره الاستعمار كرهاً شديداً ، ويجب المدنية ويحث على تعلم لغات الغرب ، ويكره السياسة العثمانية ، ويقول ان استيلاء الترك على أرض العرب أضرّ بها وأزال مدنيّتها وغير اخلاقها ، ولم يكن ينكر على الاتراك أدبهم في عشرتهم ونظامهم في بيوتهم وحسن معاملتهم لكبرائهم . وكان يجب من أهل المدينت الحديثة كل أمة ترفق بالمسلمين في الجملة ، ويجب من الناس من يصرف في خدمة المسائل العامة شيئاً من وقته وماله . وكان يقول وهو على فراش الموت عدّوا رجالكم واغفروا لهم بعض زلاتهم ، وعصوا عليهم بالنواجذ ، لتستفيد الامة منهم ، ولا تنفروهم لئلا يزهّدوا في خدمتكم . يقول هذا رجل أخلص كل الاخلاص في خدمة

أمته ، وتفاني في حبها ومعالجة أدوائها ، وكان جماع ما كافأته به في حياته عبوساً وانقباضاً وتنغيصاً وغصصاً ثم عصياناً على اصلاحه الناجع ، كالطبيب النطاسي يريد الخير بمريضه المعربد ، وكلما ناوله الدواء عضه وأدماه وشتمه وآذاه .

وكان الشيخ كثيراً ما ينشد قول البهاء زهير :

يا أيها الباذل مجهوده في خدمة أف لها خدمة
الى متى في تعب ضائع بدون هذا تأكل اللقمة
تسقى ومن تشقى له غافل كأنك الراقص في الظلمة

ويشبه الشيخ من كثير من الوجوه غاندي الفيلسوف الهندي المعاصر وان لم يكن له ما لهذا من الشجاعة ، وذلك أن الشيخ لا يحب الاذى ولا العنف ويحاول احياء كل ما هو آسيوي من اللغات والتقاليد ، وتعليم الناس الصنائع وعدم الغفلة عما هو عند الأمم الغربية من مقومات العلم . ولا عجب فالعقل واحد مهما اختلفت الاغصار وتباينت الاقطار ، العقل السليم في هذا الشرق القريب وفي ذاك الشرق الأوسط وما وراءه من الشرق الأقصى لا يختلف في مظاهره الحقيقية عما هو عليه في أوروبا وأميركا وافريقية .

نعم لم يكن الشيخ طاهر كالمهاثاغاندي في حملاته حتى ولا في تصريحاته . العميلان متفقان الا قليلاً ، ولكن ابن الوثنية جسر على العمل بمبدئه أكثر من ابن الاسلام . شعار غاندي « هندوساً كنا أم باريسيين ، نصارى أم يهوداً ، أيّاً كنا ، يجب اذا تاقت نفوسنا الى أن نعيش أمة واحدة أن تكون مصلحة الفرد مصلحة الجماعة ولا عبوة الا لعدل مطالبه » . أما الشيخ الجزائري فكان يتوقع من القوم أن يقولوا هذا وهو لا يدعوهم اليه الا بالاشارة والمثال البعيد . والحكيم الهندي قال ما اعتقده غير مجبم فتخلص من قيود كثيرة ، وأراد أمته علناً أن تنهج سبيله فكانت شهرته شهرة عالمية ، وانحصرت شهرة الشيخ في بعض أصقاع العرب .

كان بعضهم يقول ان الشيخ ضنين بالافادة حتى ادعى بعضهم « ان الشيخ طاهراً بئر علم ولكن لا ينتفع بها » ، والحقيقة أنه يصعب على الشيخ جمالة من ينشئ ، ولا مأرب له الا أن يقال عنه انه باحث وطالب فوائد ، فلا يري أن يتعب نفسه في افهام فضولي يسأله في الفلسفة العليا ، أو في مسائل تعلق عن دائرة عقله ، على حين هو في حاجة الى أن يتعلم القراءة والكتابة . فكان في ضنائه هذه حكيماً أيضاً ، لا يظلم الحكمة فيلقي دررها بين أرجل من لا يعرف قدرها ، ولا يتأني له أن يحسن الانتفاع بها . أما المستعدون للتلقي والترقي فكان يجهد أن يختصر لهم طريق الوصول الى ما يريدون ، ويبعث كل حين عقليتهم ، ويفيض من واسع علمه عليهم ، وكلما رأهم يحرصون على التقاط فوائده ، جاد عليهم بما يعلم الا اذا كان ثمة شيئاً لا يعرفه فانه يقول (لا أدري) غير مبال بنقد من يذهبون الى استقلال علمه وعدم احاطته . فكان الآخذون عنه بالنظر لتحريره الصدق على ثقة من العلم الذي يسمعونه ويستملونه منه ، لأن الشيخ الى التصريح بعدم معرفته أقرب منه إلى ايهام الناس أنه يعلم كل شيء شأن الموهين والجامدين . ولذلك لم يحسب عليه أن بدت مقاتله مرة ، لأنه يقول بعد التحقيق ويكره التلفيق .

تأليفه ورسائله

ليست تأليف الشيخ بما يناسب علمه الواسع ، لان بعضها بما ألفه في صباه لنفع المدارس ، وهو مفيد جداً في بابيه وفي حينه . ومن تأليفه المطبوعة (الجواهر الكلامية في العقائد الاسلامية) و (منية الأذكياء في قصص الانبياء) و (مد الراحة الى أخذ المساحة) و (مدخل الطلاب إلى فن الحساب) و (الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام) ورسالة في النحو وأخرى في البديع وثالثة في البيان ورابعة في العروض وكتاب (تسهيل المجاز إلى فن المعنى والألغاز) وشرح ديوان خطب

ابن نباتة . ومن كتبه (ارشاد الالباء الى تعليم ألف باء) ورسالة وجداول
جدارية في الخطوط القديمة والحديثة و (التبيان لبعض المباحث المتعلقة
بالقرآن) وهي المقدمة الصغرى من مقدمتي تفسيره . ومقدمة سماها
الكافي في اللغة وهي مقدمة معجم ضاع أكثره . و (التقريب الى أصول
التعريب) و (توجيه النظر الى علم الاثر) ومختصر أدب الكاتب لابن
قتيبة ومختصر أمثال الميداني ومختصر البيان والتبين للجاحظ . هذا هو
المطبوع . أما المخطوط فتفسيره الكبير ويدخل في أربعة مجلدات مخطوطة
محفوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق مع جميع ما ظفرنا به من
أوراقه . ومن المحفوظ أيضاً بعض كنانيشه وفيها خلاصة بما طالعاه من
الأسفار وعرض له من الأفكار . وله من المخطوطات كتاب (الامام
بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام) و (مقاصد الشرع) وغير ذلك .
وقد أحيا بالطبع عشرات من الكتب منها ارشاد القاصد لابن ساعد الانصاري
وروضة العقلاء لابن حبان البستي والأدب والمروءة لصالح بن جناح
والأدب الصغير لابن المقفع وأمنية الالمعي وتفسير النشأتين للراغب الاصفهاني
والفوز الأصغر لمسكويه . الى غير ذلك من مقالاته في المجلات العلمية
واملاءات جمّة كتبت بتواقيع مستعارة . ألفت الشيخ معظم هذه الكتب
بحسب الدواعي خصوصاً مبادئ العلوم ، في زمن كانت فيه الكتب
المدرسية في حكم المعدوم ، وذلك لينهض بالتعليم الابتدائي ويخلص الناشئة
من عسلطات المتأخرين المعروفة وحواسيهم وشروهم المملة المضيفة لأوقات
الطالب . ومعنى هذا أن الشيخ انتبه قبل غيره الى فساد طريقة التعليم
القديمة ، وأدرك أن الزمان يتقاضي أهل العلم أن يخرجوا الناس من ربة
القيود الثقيلة العائقة عن التحصيل ، كما انتبه الى كثرة سريان الحشو واللغو
الى كتب الدين التي خلط فيها كثير من المتأخرين .

من أهم كتب الشيخ المطبوعة شرح خطب ابن نباتة وارشاد الالباء
والتبيان والتقريب وتوجيه النظر ففيها لباب علمه وأثر من آثار قريحته ،

تجلى فيها روح بحثه وغوصه على مسائل دقيقة قلَّ أن تسنى لغيره من عاصره الوصول إليها . وليس معنى هذا أن سائر ما طبعه الشيخ غير مفيد بل المقصود أنه كتب لغرض خاص أريد به تثقيف الناشئة ، وهذه الكتب هي التي ظهرت فيها شخصية الشيخ وثقوب ذهنه وسعة مداركه ، وتلطفه في ابلاغ المعاني الى العقول ، وحرصه على أن يجيل في الأكثر على عالم تقدمه لأن الناس في العادة يقدسون الأموات أكثر من الأحياء . والشيخ وإن كان في مذهبه الديني الى الاجتهاد لكنه في مذهبه التألفي أقرب الى التقليد ، يمشي على مذاهب القدماء ، ولكن بتنسيق وتقسيم بدون أن يشوش القارىء . ولو تيسر للاستاذ أن يسير على نظام أكمل من الذي سار عليه في معيشته ، وساعده الزمان والمكان على تجويد مصنفاته ، والصبر عليها قبل نشرها لحلّف كتباً وخصوصاً في العشرين سنة الأخيرة من عمره تقرأ فيها صورة عظيمة من جهوده ونبوغه . وبلغني أنه دوّن بعض الوقائع التي شهدا ولم نعتز عليها بين أوراقه التي سرق بعضها وقت انتقاله من مصر الى الشام . ويقيني أن الرجل لو وفق الى طابعين أغنياء فضلاء يحملونه على العمل على ما خص به من النشاط وشدة الحركة ، لأنتجت قريحته أكثر مما أنتجت في الفروع المختلفة التي طرقها ووزع قواه فيها ، ولكن تقاينه في الاسراع بحمل النور الى العقول ، وفدح التبعة التي أخذها على نفسه في المسارعة لانهاض أمته ، دعواه الى أن يكفني بما تهيأ له وضعه وتأليفه ناظراً فيه الى مصلحة الناس لا الى مصلحته الخاصة ، وشهرته في حياته وبعد مماته .

كانت بيئة الشيخ التي اضطرب فيها في الشباب والكهولة ضيقة المضطرب لا تتسع لبث همته . وكانت المطالب التي تتقاضاها منه من حرصه على بث الإصلاح والتعليم كثيرة لا يقوى الفرد على حملها كلها ، ولو قدر له أن يعيش منذ نشأته في بيئة متسعة كمصر ، وخلا من مدافعة المشاكسين والظالمين ، ورأى شيئاً من الطمأنينة وسعة العيش

لتضاعف إنتاجه لا محالة ، وعم نفعه مصر وغير مصر . وربما كان ظهوره في الشام ، والعهد عهد ظلمة وجهل أبرك عليها وأنفع لها ، لأن ما اضطلع به وحده لا يضطلع به عشرة علماء على شريطة أن يكونوا في درجته من الاخلاص وشدة الشكيمة ، وعزوف النفس عن المطامع والدنيا . وبعد فهذه صورة صحيحة من صور الأستاذ الحكيم ، عجيبة في خطوطها وتقاطيعها ، جميلة بألوانها وأشكالها ، عرضتها لغرابتها لأنه ندر جداً في المعاصرين من الأحياء ظهور رجل يمثله في أطواره وحركته وسعة حيلته وبسطته في العلوم ، والزمان على أي حال بخيل بمثل هؤلاء النوابغ في كل عصر ، وقد لا ينبغ أضرابهم في قرون يفادون بكل ما يتفانى الناس في التهالك عليه من مال وجاه ورفاهية ، وتنحصر لذائذهم في بث أفكارهم وآرائهم ، ويسعدون السعادة كلها اذا نهضوا بانارة عقول أهل جيلهم وقبيلهم .

رسائل الخاصة

والى القارىء الآن جملاً من كتب دارت بين المؤلف وأستاذه ، فيها شيء من مناحيه العلمية ونفسه العالية ، وربما ترجمت عنه مثل ترجمتنا وزيادة ، وكتابة المرء غمامة على علمه ، وعقل الكاتب في قلمه ، واختياره قطعة من عقله . وقد صدرت هذه الرسائل من القاهرة المعزبة ، ومن أجل ما فيها كونها كتبت على البديهة لا كلفة فيها شأن الشيخ في كتبه ومفكراته . وربما كتب الى أصحابه كتاباً وبعثه في البريد من دون أن يطالعه ثانية . ولذلك رأينا بعض كتبه غفلاً من التاريخ أيضاً . سألته مرة عن منشأ الشعبوية فأجاب « وأما الزمن الذي ظهرت فيه الشعبوية فلا يحضرني فيه شيء ، والوقوف على أوائل الاشياء من أصعب المسائل وأدقها الا أن الذي ظهر لي أن ذلك حدث بُعيد عصر الحلفاء الراشدين لوجود الداعي الى ذلك ، وهو التفاخر بالجنس الذى هو من

عادات الجاهلية التي أتى الدين بإبطالها ، ومن نظر لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسألة . ولا يدخل في الامر بحث المؤرخ عن خصائص الأجناس ، مما يقصد به الوقوف على الحقائق فان هذا نوع آخر . الا أن من بحث عن أحوال الأمم ووفى النظر حقه ، تبين له أن العرب في الجملة لا تساميهم أمة البتة .

« وأظن أنه لا بد أن تؤلف بعد حين كتب في خصائص الامم ، وكتب في خصائص البلاد ، كما ألفت كتب في خصائص اللغات ، تجعل من الفنون التي يُعنى بها وتميز عن غيرها ، ولا تذكر بطريق العرض ، الا أن فن خصائص الامم تيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره . وكل فن وضعت مقدماته ونقحت مسأله يبدو بسرعة عوار المغالط فيه .

« هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم حدث امر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية ، وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب . ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالأخبار . ولم يزل اثر ذلك باقياً في بعض الجهات الى ما قُبيل عصرنا هذا ، وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون الى الآن نحن قيسية وآخريين يقولون نحن يمانية .

« كتبت لك ما كتبت والقلم لا يكاد يجري لما حدث لي من الفترة من نحو ثلاثة أسابيع . وسبب ذلك أني اختبرت أحوال كثير من الولايات فوجدتها منقسمة الى حزبين كل منهما يباين الآخر في كل شيء ولم يظهر حزب ثالث يكون معتدلاً ومعدلاً لهما . واذا دام الحال هكذا تأخرت البلاد عما كانت عليه من قبل . وقد نصحت كثيراً من المحدثين من الأحرار (١) بأن يعدلوا مشربهم ، وحذرتهم عواقب الامر غلبوا أم

(١) هو حزب الاتحاد والترقي الذي كان بتبعته وشدته سبباً في تدهور المملكة العثمانية وذهاب سلطانها (المؤلف) .

غلبوا ، فأبوا الا الاصرار على فكرهم ، وما قلت لهم رأبي الا بعد أن أحوأ عليّ في بيانه ، وحضر أناس منهم من مركز جمعيتهم وطلبوا مني التفصيل ، بعد أن بينت لهم ذلك اجمالاً ، فرأيت انهم يوافقوني في البدء ويخالفوني في النهاية ، فامتنعت عن اتمام البيان وتشاغلنا عنهم . فاني رأيتهم يظنون أن حلهم لبعض مسائل الجبر والمقابلة محل لهم مسائل ادارة البلاد . ان كثيراً ممن كنا نزرعي برأيهم في السياسة من تلاميذ المدارس في مصر هم أرقى منهم في ذلك . وقد اجتمع بنا في هذه الليلة أحد المرسلين منهم وسمع منا هذه العبارة وهي ملقاة على صورة تحتل الجد والهزل فدهش ، وعرف أنها الى الجدد أقرب منها الى الهزل ، وكان يتكتم فاضطر الى الانطلاق فيما يراه من الاخطار التي يصعب تداركها . . . اني متشوق لأخبار كثير من الولايات لعلنا نسمع بظهور الحزب الاوسط في واحدة منها فيسري ذلك في غيرها شيئاً فشيئاً ، وهذا الحزب يلحقه في أول الامر أشد اضطهاد لأن الحزبين المتطرفين يبغضانه أكثر مما يبغض أحدهما الآخر ، لاعتقادهم بأنه أقرب الى انضمام كثير من الحزبين اليه .

وقال من كتاب عن القاهرة في ١٩ صفر سنة ١٣٢٨ :

« وبعد فقد وصلني كتابكم الكريم منبئاً بعودكم من بلاد أوروبا فسررت بذلك سروراً شديداً ، كنت أتمنى لكم هذه الرحلة من قديم لما أتيقنه من الفائدة التامة العامة في ذلك . فان الاقتباس من الامم المتروقية دليل على النباهة ، لا كما يظن البله من أن في الاقتباس غضاضة ، ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الامور النافعة ، لا كما يظنه المتكايسون من أن الامم الراقية ينبغي أن يؤخذ منها كل شيء حتى أدّاهم الأمر الى أن يقلدوهم في الامور التي يودون هم أن يخلصوا منها .

« وأما ما يتعلق بمجرائن الكتب في الاستانة فقد خطر في بالي خاطر يرتفع به محذور الامتعاض في جمعها ، وذلك بأن تبقى كل مكتبة في

موضعها ينتفع بها المجاورون لها ، على ان تؤخذ منها الكتب النادرة ، وهي في الغالب لا تليقهم ولا يهمهم أمرها ، وتوضع في موضع معد لها يكون في وسط البلدة ، ومن اطلع على دفاتر مكاتبها وجد امكان اجراء ذلك بدون اعتراض يعقل . ولما عملت برنامجاً لكتبها النادرة رأيت أن بعض المكاتب قد يوجد فيها نسخ متعددة من كتاب نادر ، فلو أخذت إحدى النسخ المكررة لم يكن في ذلك ما يقال . وقد كنت ذاكرت بهذا الأمر بعض أعضاء الجمعية فاستحسنه جداً ، وذكر لي أنه سيسعى في ابرازه من القول الى الفعل ، ثم عرضت شواغل عاقت عن ذلك .

« وأما مصر فقد دخلت في الدور المجهول وسيكون اما لها واما عليها . وهذا الدور لا بد منه لكل أمة تريد النهوض بعد العثرة ، فان ساعدها الزمان والمكان والامكان نالت منها ، والا كان لها تعلل بسوء البخت بعد التثبت بالأسباب الظاهرة ، جعل الله سبحانه العاقبة خيراً . »

وكتب ناصحاً وواضحاً خطة للاصلاح في غرة جمادى الأولى ١٣٣٧ :
« وبما يهم الأمر فيه اصلاح العادات ، فان في الشرق كثيراً من العادات التي ينبغي ابطاها كما أن فيه كثيراً من العادات التي ينبغي المحافظة عليها ، غير أنه لا ينبغي أن يستعمل التنكيت في ذلك ، بل يستعمل مجرد البيان الدال على حسن الشيء أو قبحه . ولا يتيسر الاقدام على هذا الأمر إلا لمن لا يهجمه أمر المدح والذم العاجلين بل يهجمه حسن الأثر .

« ومن العادات الرديئة جداً أن الكاتب قد يمكنه أن يكتب في اصلاح عادة لكنه يرى ان الكلام في ذلك يكفي فيه عشرة أسطر فيرى أن الناس يزدرون بذلك وينسبون له لقلة القدرة على الانشاء فيتروك الكتابة فيه ، أو يسهب اسهاباً لا داعي له من سرد مقدمات معلومة مسلمة ، لو تركها لكان أقرب الى الفهم وأبعد من الوهم ، وما ذلك الا من تأثير الحشوية فيهم ، وقولهم ان الناس نسبوك لعدم الاقتدار على الكتابة . فينبغي ان يكون في المجلة ولو مقدار صفحة تبحث في العادات على اختلاف

أنواعها وتعليم ذلك للبنين والبنات . هذا ومن جهة رأي الناس في حقكم فان النبهاء المنصفين منهم يجعلونكم بمن ثبت في حين الشدة ، ولا تعبأوا بمن يلوم عن جهل وغباوة ، فان ذم هؤلاء أقرب الى المدح من ثنائهم .
وكتب إليّ يقوّي عزمي على العمل :

« وأرجو أن يكون ما حصل لكم من المروعات زائداً في نشاطكم في افادة الامة فانها في احتياج شديد الى من ينير لها الطريق الاقوم من أرباب الوقوف والاخلاص ، وأعظم ما تحتاج اليه هو أمر الاخلاق وما يتعلق بها ، ومعرفة الامور العمرانية على وجه لا يكون فيه اخلال بمعالي الامور ، وتبسيهم على عدم التعويل على المدنية التي كان الغربيون قديماً يفتخرون بها ، ويزدرون بمن لا يتابعهم عليها ، بما هو مبني على مجرد مراعاة الامور المادية دون غيرها ، وهي التي جلبت هذه المصائب الحاضرة ، وقد أشرتم بطرف خفي الى ذلك في محاضرتكم التي ألقيتها في مصر حين فراركم من دمشق اليها ، وقد صرحنا بذلك في قصيدتنا البائية المطبوعة في الجزء الرابع من منتخبات الجوائب . وقد كان أناس يقرؤها ويعدون من آراء حشوية الشرق فما زالوا على هذا حتى صرح فلاسفة الغرب بذلك . وبما ينبغي ان تحسوا عليه تعلم صنعة ما أي صنعة كانت ، ولا يكون أحد خالياً عنها ، ويجعل هذا مبدءاً جديداً لهذا العصر والتعويل على الرياضة الجسمانية » .

وكتب في غرض الاعراض عن المثبتين من رسالة :

« وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم في هذا الوقت الذي تنبه فيه الغافل فضلاً عن غيره موهين الشفقة . وكان الاجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ، ويشغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع . ولم ير أحد من المثبتين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم . وينبغي للجرائد المهمة أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة والتحذير منها ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم .

وقد ذاكرفي منذ ليلتين أحد نجباء الابناء في هذه المسألة ، وشكاً كثيراً منها ، وعجب لعدم اكتراث المصلحين ببيانها بياناً كافياً شافياً فقلت له : المأمول أن يكون الاوان قد آن لاصلاح هذه العادة التي تهبط بالامة الى الدرك الاسفل ، أصلح الله الاحوال .

وقال من كتاب في غرض التوبية :

« واؤكد في هذا الكتاب بأمر :

(١) ادخال مبادئ الصنائع في المدارس الابتدائية ويمكن تجربة ذلك

أولاً في مدرسة واحدة .

(٢) ادخال التربية العملية فيها وذلك بتعويد التلميذ على الصدق

وأن لا يتكلم في شيء الا بعد أن يختبره ، فان الشريقي اعتاد أن يدعي كل شيء وأن لا يقول في شيء لا أعلم ، وهذا جعله لا شيء عند الغربي .

(٣) السعي في مدرسة للقراءات السبع مثل ما كان من قبل .

ولا ينبغي أن توضع هذه الأشياء في المذاكرة أو يخطب فيها فان مثل ذلك ينبغي أن يخطب فيها بعد أن تصير .

وقال في موضوع التعليم وقد رجوته ارشادي برأيه اعمل به في المدارس ، ورأيه في البحث في المخطوطات : « وما زاد فيه سروري شيان أحدهما الاعتناء بتربية الأبنجال ، فان أكثر الآباء يرجحون من حيث يدرون ولا يدرون مصلحة أنفسهم ، وما ذكرتم فهو موافق . والأولى أن يضم الى ذلك صنعة كالحياطة والتفصيل ونحو ذلك وعرفوني بعد حين البروغرام الذي يظهر لكم . وينبغي أن تتولوا بنفسكم بعض التعليم ولو مدة ربع ساعة على طريق أحد المغاربة ، فانه كان يطلب من ولده أن يفيد بعض مسائل بعد أن يشعره من طرف خفي بمظانها ، فيلقها الابن على الأب كأنه يفيد .

« وأما الذين يريدون أن يفضوا ما رفع الله شأنه ويرفعوا ما خفضه

فهما قليل ليصبحن نادمين ، والزمان يضحك منهم ، وكذلك الأئمة الغرييون

الذين يمتون اليهم بوسيلة التقليد لهم ، فلا يكن في صدرك حرج منهم فهم أغرار ، وينبغي أن تمحو من لوح الفكر لفظ اليأس فإنه أضر شيء :
واثبت ففي الثبات جل الحكمة ان لم نقل كلها .

« والثاني استفسارك عن وصف الكتب فإنه دل على أنك قوي حسن الظن بنا حتى تكاد تعتقد أننا لا نقول جزافاً كما أت أناساً يعتقدون أننا لا نقول شيئاً الا جزافاً . وهنا أذكر لك حكاية سمعتها مراراً ممن أثق بهم ، وهي أن أحد من جمع له بين العلم وغيره من الصفات العالية ، أرسل الي أحد من يميل اليه من النبهاء وقال له : أريد أن تنشر بين جماعتنا العلم الفلاني ، فقال : لا أعرفه وإنما أعرف العلم الفلاني . فأعاد عليه العبارة فأعاد المسؤول قوله لا أعرفه . فأعاد عليه السائل ما قال أولاً ، فأراد المسؤول أن يجيبه فأشار اليه بعض الحاضرين إشارة خفية أن يظهر الامتثال ، ثم قاموا من عنده فقال له المشير : ان فلاناً لم يقل لك ما قال الا وهو يعلم أنه ممكن واذا تحقق الامكان فما عليك الا أن تسعى في اخراج الامر من القول الى الفعل فسعى وتم الأمر ، وحصلت فائدة عظيمة من احياء أمر كان دارساً .

ونرجع الى أصل المسألة فنقول : من أراد وصف كتاب ينبغي له أن ينظر فيما قاله مؤلفه في مقدمته أو في خاتمته أو فيها معاً ويأخذ خلاصة ذلك ، والوصف عندهم ليس عبارة عن النقد بل بيان موضوع الكتاب والداعي الى تأليفه . وما في الكتاب من الحصاص ، وعلى ذلك يتيسر وصف الكتب بأسرها حتى كتب الطب ، فاذا زاد الواصف فصلاً من الفصول ليكون كالنموذج كان أحسن ، وكثيراً ما يكون وصف الكتاب على هذه الطريقة سبب نشره .

وأكثر وصف المؤلفين لكتبهم اما مطابق للواقع أو قريب منه . أما المموهون فقليل في الطبقات القديمة . ومن العجيب أن هذا الأمر لا يشعر به كثير من نبهاء هذا القطر ، ولفظ الكثير هنا مجاز ،

وجربوا نفسكم في غير التاريخ ونحوه ففي الحديث يمكنكم أن تصفوا هذه الكتب .

« في دار الكتب الظاهرية بدمشق »

نمرة ٣٥٦ اللطائف في علوم المعارف للمدني

— ٣٦٢ أسماء الضعفاء للعقيلي

— ٣٨٧ معرفة الرجال لابن معين

— ٣٩٠ المشتبه للغساني

— ٣٩٣ الكفاية في علم الرواية

وهذا أمر يفيد الناس أكثر من كثير من المقالات التي حررها أناس ليس لهم تتبع ولا معرفة يجعل نتيجة للمقالة ، حتى صار المطالعون يضيق صدرهم من ذلك . وقد سألتني منذ مدة بعض أرباب المجلات عن أحسن المجلات فقلت : أصغرها حجماً .

(في ١٥ ذي القعدة ١٣٢٨)

وقال من رسالة :

« مما يهم جداً إدخال مبادئ الصنائع في جميع المكاتب الابتدائية وقد جرب ذلك في بعض المدن فتبين أن ذلك مما يعين على التحصيل أيضاً والفائدة في ذلك مهمة .

« ومما يهم جداً إدخال التربية العملية في المدارس لا سيما المدارس الابتدائية . ومن ذلك أن يعود التلميذ على أن لا يتكلم بما لا يعلم ، وأن يتفكر قليلاً إذا سئل عن شيء لم يسبق له به اختبار . وهذا أمر ممكن قريب المأخذ - قد عمله أناس فنجحوا فيه - وأرجو أن لا تقرأ أفكارى على أناس من الحشوية أو الفلاسفة الخياليين ، فاني أربأ بها عنهم . نعم هؤلاء ينبغي أن يعرفوا ذلك بعد العمل به . ونصيحتي لكل محب أن لا يشتغل بمثل هؤلاء فإنه أنفع . (في ٢١ ربيع الأول ١٣٣٧)

« هذا وقد سررت كثيراً زوال المباينة بينكم وبين الذين نود عدم

مباينتهم . وهذا أيضاً من أثر النشاط ، فان النشاط اذا زال لحق المرء الملل من كل شيء ، وإذا حصل قويت الهمة ورأى البعيد قريباً ، وأقام للناس أعداراً ونفعهم وانتفع بهم .

« قد جرى منذ أسبوعين مذاكرة سرية في طريقة ترجمة احدى دوائر المعارف الفرنسية فان الناس في احتياج لذلك . وقد تبين من المذاكرة أن أمر المال سهل ، فان أحد الحاضرين تعهد بذلك ، وقال إن له اخواناً لا يتوقعون في الامداد ، ولكن المهم وجود مترجمين كافين يتعهدون بالقيام بذلك الى النهاية . فقلت : إن هذه المسألة تحتاج إلى تفكير وبحث شديد . وقد استقر الرأي على أن تدرس في نحو ثلاثة أشهر ووعدت بالكتابة لكم في ذلك ، فاجتثوا في المسألة فيما بينكم وبين نفسكم ، ثم فيما بينكم وبين اخوانكم الذين يناسب البحث معهم في ذلك ، على صفة خاطر قد خطر ، وكان معنا في المذاكرة الفاضل المقدم السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، وهو يأمل أن يوجد بارشادك نحو سبعة مترجمين . وقد تشبث بهذا الأمر منذ سنين أناس ظنوا أن المال يأتي بكل شيء ، فتبين لهم غلطهم وأعرضوا عن الأمر ، وهذا أمر بعيد جداً ، ولكن هو في درجة الامكان القريب من الوقوع ، وإنما يحتاج إلى الهمة ومعرفة الطريق . وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الامر في يد الحكومة ، فطلبنا أن يكتم ذلك عنها ، فانه لا يؤمل أن تقدر عليه ، فان هذا الامر محتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه الى الحكومة » .

وقال في رسالة وقد سألته عن التاريخ الهجري وانتقاد بعضهم استعمالنا له :

« عجبت لمن يسعون في أن نهجر التاريخ الهجري ، ويفاتحوننا في ذلك كأنهم لا يعلمون أننا نعلم ما يرمون اليه عن بعد . لكل أمة شعار اذا تركته طمع فيها ، واستضعف جانبها ، وربما صارت بعد مدحجة في غيرها . وقد سعى أناس منذ عهد بعيد في أن يضعفوا ما يقوي أمر

الاسلام عموماً ، والعرب خصوصاً ، فنجحوا بعض النجاح ، فطمعوا في أن يقضوا عليه فلم يجدوا أقرب إلى ذلك من اضعاف أمر اللغة العربية ، والسعي في تبديل خطها ، والتزهيد في الكتب التي كتبت بها ، فجعلوا ذلك دأبهم ودينتهم . حتى أثروا في كثير من أبناء جلدتنا الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء والوقوف على أسرار الامم ، فكان ما كان بما هو معروف ، ثم زاد الامر فطمعوا في تبديل التاريخ الهجري ، وساعدهم على ذلك « جبت » مصر ففرحوا فرحاً لا مزيد عليه . وقال بعضهم : الآن شفينا العليل من هذه الامة ، غير أن كثيراً ممن انتبه لهذا الامر سعى في اعادته على قدر الامكان ، فامتعض أولئك القوم وصاروا يلهزون كل من يسعى في ذلك .

« وهذه المسألة نظراً لتعلقها بتاريخ تأخر الشرق لا يتيسر أن يكتب فيها أقل من نحو ثلاثين صفحة في نحو ثلاثين يوماً . وليت شعري كيف يلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجري ، فهل انقرض التاريخ الهجري ، وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء ؟؟ فان قالوا ان المقصود توحيد التاريخ في الامم وأوربا هي القوية الآن ، قيل ان أوربا لها تاريخان أحدهما شرقي والآخر غربي وكل يؤرخ به قوم منهم ، فهل أوقف ذلك التجارة أو أثر في المدينة شيئاً ؟ ولم لا يكفون تغيير مكابيلهم وموازينهم وأذرعهم لتتحد المقاييس في الامم . وتغيير ذلك ليس فيه غضاظة بخلاف التاريخ . وقد رأيتهم يعتذرون عنهم وبعدون ذلك متانة في الاخلاق فانظر ما وصلنا اليه » .

وهذا الكتاب يدلنا على أشياء كثيرة من سيرة الشيخ ومرماه ونصاعة حجته ، وجميل مناقشته لحُصوم مشربه .

وكتب « كان كثير من الحشوية يلومونني في تنبيه المؤلفين والطابعين على ما يلزمهم ، ويقولون ان هذا لا يقيد غير العداوة ، وأنت تضرب في حديد بارد . وما دروا أي ممن يقول بأن العداوة في محلها أجدى

عندي من ان اكسب المحبة من غير وجهها ، وان معاداة الغشاشين لي بما يسرني ، كما ان محبتهم لي بما يسوءني ، غير ان الزمان ابان ان كل نصيحة لاتخلو من تأثير ولو بعد حين ، فان كثيراً ممن لحقتهم صدمة منا ومن اخواننا الذين أعطوا هنا عهداً ان لا يغشوا الامة قد صاروا يراجعون بعض مراجعة ، غير ان التأثير في المطابع كان أكثر .

« وأما أمر التصحيح فلم يهتد المصلحون الى طريقة اصلاحه . بحيث ان بعض الناس طلب الينا ان نبحت له عن مصحح لكتاب المحكم لابن سيده ، وهو أكبر من لسان العرب ، ليشرع في طبعه ، فبعد بحث تبين أنه لا يقوم بتصحيحه الا فلان وهو احد اخواننا الذين لا يساعدهم نظرهم في أملاكهم الجمة على التفرغ لمثل هذا الأمر (١) . فأرجي الآن طبع الكتاب لهذا الأمر . فانظر الى الحال التي وصلت اليه مصر ، فما قولك في غيرها ؟ الا ان الذي يسر في مصر انتباهها لنقصها بخلاف الأقطار الأخرى ، والانتباه للنقص هو نوع من الكمال . ارانا الله سبحانه الكمال على حقيقته بمنه . عليكم بالرياضة الجسمية والرياضة الروحانية . ويدخل في الرياضة الروحانية التباعد عن سماع الأخبار التي أولع بها المرجفون ، فانه لا قيمة للزمان عندهم . وهو عند الحكيم أغلى من الجوهر (١٧ رمضان سنة ١٣٢٦ هـ) » .

وكتب من رسالة :

« قد سرني في مصر في هذه المدة ان العقلاء بدأوا يجتمعون في الفكر والتعاون ، على صفة يقتضيها الموقع ، وهو عدم التظاهر من أول الأمر كما يفعله طالبو الشهرة ، وهذا أمر لا يشعر به الا من اطمانوا اليه . وقد كانوا قبل ذلك يقول كل واحد منهم نفسي نفسي . واذا استنجده أحد لأمر نافع قال ولو بلسان الحال « عليك بخويصة نفسك » .
قد اجتمعت في هذا النهار بعالم أورباوي قد حل الخط الشمودي

(١) هو العلامة أحمد تيمور باشا رحمه الله .

الموجود في مدائن صالح وأخبرني أن كتابه قد تم طبعا ، وهو الآن يسعى لجمع لغة أهل نجد فانه وجد أن أكثر الكلمات العربية لم نزل باقية عندهم ، وكان قد ساح في تلك الجهات ، وهو ممن يتعصب للغة الكتاب العزيز أكثر مما يتعصب أهلها لها .

« كان قد أسس في أميركا مدرسة يقرأ بها الطالب وهو في بلده ، وقد كنت رأيت في سورية أحد طلبتها وهو يدرس فيها فناً دقيقاً وأظن أنها تسمى المدرسة الكوتشوكية ، وقد كان ترجم قديماً الى العربية بعض قوانينها ، وطبعت ثم نفذت النسخ ، بحيث اني بحثت عنها فلم أجد من يعرفها ، فان وجدتم كتاباً بالفرنسوية يتعلق بها فترجموا منه ما تيسر بما يوافق البلاد .

« وقد سعى بعض الواقفين على ذلك من نحو عشر سنين في بث هذا المقصد الا انه على وجه خفي حيث كان نشر العلم اذ ذاك يعد من أعظم الأجرام . والآن لم يبق مانع ومجرد نشر أسلوبها وقوانينها يفيد فضلاً عن التثبت بشيء من ذلك » .

وقال في كتاب :

« وقد وقفت على كثير من الجرائد الجديدة فوجدت جل مباحثها في بيان فوائد الحرية . ورأيت الناس قد ملئوا هذا البحث لأن الحرية ان كانت على المعنى الذي يقول به الحكماء فهي مما لا يختلف فيه اثنان من ذوي النباهة . وان كانت على وجه آخر فربما كان ضررها أكثر من نفعها . ولست أعني بالحكماء هنا أمثال الحكيم الذي كان يقال لكم انه تعلم الحكمة في سويسرة في ثلاثة أشهر لأن مثل تلك الحكمة مما يزيد خيالاً . وما أرى أكثر الفتن التي وقعت في كثير من الولايات الا من مثل هؤلاء لاسيما ان ضم الى دعوى الحكمة دعوى الحرية وهو لا يملك نفسه . وقد كان أرباب الحدس يتصورون انها تكون أشد الا أن الألطاف الالهية حفّت فخفّت والله الحمد . (٢٢ شوال سنة ١٣٢٦) .

وذكر في جملة كتاب حوى مسائل كثيرة في نسخ الكتب وأخذها بالتصوير الشمسي والعناية بوضع فهرس لكتب رومية باللغة العربية ثم قال : « من أغرب ما في القدس امتزاج المسلمين مع النصارى على وجه غريب بحيث لم تؤثر فيهم الطريقة التي اتخذها المستبدون في تمشية أمرهم ، وان هلك الحرث والنسل . وقد رأى بعض الباحثين أن هذا أمر دبره صلاح الدين الأيوبي برأيه الثاقب ، منعاً لما حدث من قبل بسبب سوء سياسة العبيديين الذين كانوا بمصر ، نغمده الله برضوانه . »

« خذوا على أنفسكم عهداً بأن لا تؤخروا جواب مكتوب لأحد ، وخذوا العهد على من كان على شاكلتكم بذلك ، فان في ذلك فوائد جمّة والمكتوب يسوغ أن لا يزيد على خمسة أسطر . (٤ شوال سنة ١٣٢٧) »

وقال أيضاً :

« وأرجو أن لا تقصروا في كتابة نبد تتعلق بالتربية وتديبر المنزل واصلاح العادات وما أشبه ذلك . واؤكد عليكم في أن لا تشتغلوا بشيء من الجدل فان الجدل يبطيء عن العمل . وخذوا من عنان قلمكم لئلا يجري الى غير مدى ، والاعتدال أقرب لحصول ما يبتغى . »

وذكر في رسالة أن الكتب التي يجب أن توصف :

١ - أرجوزة ابن سيده في الاءدب وهي من قبيل الملح اللغوية في نمرة ١ من الادبيات المنظومة مع ديوان أبي العتاهية تراء فيها نثرأ في الآخر صاحب وما يميل اليه من دواوين الشعر والكتب وما يتقنه من العلوم والصنائع أو ما يتجر به وما يؤثره من الاخلاق ونحو ذلك ويتيسر عمل ذلك في جدول في صفحتين أو أربع .

٢ - الجمل في اللغة في الظاهرية نسخة منه ناقصة من الطرفين .

٣ - المغرب للمطرزي .

٤ - رد ابن السيد على رد ابن العربي على شرحه لديوان المعري .

٥ - اعتاب الكتاب لابن الأبار .

- ٦ - عروض ابن معطي وبديعته .
٧ - بغية المؤانس من بهجة المجالس والأصل لابن عبد البر .
٨ - قانون البلاغة لأبي طاهر محمد بن جبلة البغدادي في الظاهرية .
٩ - مختصر اصلاح المنطق .

١٠ - الأربعين السلفية وهي مرتبة على البلدان . ومن سمعها على السلفي الملك الناصر صلاح الدين يوسف ووالده نجم الدين أيوب بن شادي بقراءة القاضي سناء الملك هبة الله بن جعفر بن سناء الملك محمد بن هبة الله بن محمد الاسدي .

ينقل صورة السماع فقط . اهـ

وأعطاني في آخر عمره مسودة كتاب طويل كتبه الى صديقه المستشرقة الفاضلة المس بل أمينة سر حاكم العراق وهو :

حضرة الصديقة الجليلة الفاضلة الشهمة المحبوبة مس بل دام اقبالها :
أحييك بخير التعايا ، وأثني على تلك السجايا . وأذكرك بالايام
المسعودة التي جمعنا في دمشق الشام . ثم أذكرك الداعي الى المسكاتبة
وهو أمران أحدهما تجديد العهد السابق والشكر على حسن ظنك بهذا
الحب الخالص ، فقد ذكر لي بعض أصدقائي ترجمة ما كتبته في حقي
في رحلتك الى سورية مما يدل على حسن الطوية .

والامر الثاني اقتضاء الوقت لذلك ، فان هذا الزمان الذي هو أغرب
الازمنة مطلقاً يجب الانتباه فيه لما يلزم وعدم تضييع الفرص فانها تمر
مر السحاب . هذا ولما كنت أعتقد أن أحسن من يخلص له العرب الود
هو دولة بريطانيا العظمى ، لما خبرته من الاحوال ومقتضيات الامزجة
ونحو ذلك .

والمودة لما كانت واجبة أن تكون من الطرفين ، اقتضى الامر
أن يقع التفاهم بينهما ليستمر هذا الامر ، فرأيت أنه ينبغي لانكلترا
العظمى أن تعني بأمور :

١- الأمر الاول : أن تؤسس في كل بلدة كبيرة ديوانا شبيها بالرسمي لتأخذ الاخبار المتعلقة بما يجب العرب لتساعد عليه بقدر الامكان ، والذين يعينون ينبغي أن يكونوا من أعظم الناس معرفة بأمزجة العرب ممن تلقوا ذلك عن مثل حضرتك الكريمة .

٢- الأمر الثاني : أن تعتنى بأمر اللغة العربية ويظهر منها السعي في نشرها كما يظهر منها ذلك في اللغة الانكليزية .

٣- الأمر الثالث : الاعتناء الزائد في المساعدة على نشر العلوم على وجه يساعد عليه الحال والزمان .

٤- الأمر الرابع : مراعاة عوائدهم وعدم الحط من كرامتهم لاختلاف العادات ، فانه قد بلغني أنه كان يقع في البصرة وبغداد وغيرها من بعض المأمورين تساهل في ذلك ، وهذا مضر جداً لا يشعر بمضرته الا بعد أن يشتد الحال ويعسر زوال ما في النفس .

نعم ان هذا الامر دقيق يصعب القيام به كما ينبغي ، الا أن الاعتناء به ممكن . والعربي أهم شيء عنده عدم الهوان .

٥- الأمر الخامس : تسهيل أمر تجارتهم . وتسهيل أمر التجارة معهم بحيث يظهر ذلك ، وتدرجهم في ذلك على كل ماينفعهم ولا يضرهم .

٦- الأمر السادس : الاعتناء بعدم مس الشعائر الدينية على وجه أقوى من الحالة السابقة . وبما يؤكد ذلك منع أمر المسكرات ونحوها وتوابع ذلك .

٧- الأمر السابع : تدريبهم على مايتاجون اليه من أمور اقتصادية أو غيرها أي شيء كان .

واني أرى أن هذه الامور اذا تمت هكذا تكون النتيجة حسنة جداً ويشد التلاؤم بين الفريقين ، فان العرب أقرب الناس الى شكر النعمة فان وجد من لايشكر فان في ظهور النعمة مايقمعه عن ابراز ماينويه من مغالطة الناس ، وما قلت 'ماقلت' الا بعد تجربة واختبار تام .

ولولا شدة انحراف مزاجي لألفت في ذلك كتاباً مفصلاً قياماً يمثل
هذا الامر الجلل الا أن في هذا الامر كفاية والله الموفق .

في يوم عيد الفطر سنة ١٣٣٧
وهو يوم الاحد ١ شوال
المخلص للأمة العربية
والدولة البريطانية العظمى
في مصر في جهة عابدين
طاهر الجزائري

حاشية - الناس الذين على فكري من جهة توافق مصلحة الأمة العربية
مع مصلحة الدولة البريطانية العظمى كثيرون الا أنهم لا يقدرت على
اظهار فكرهم الا بعد أن يروا باعثاً على اظهاره لئلا ينسب اليهم أنهم
خائنون للأمة ، فان هذه الجملة راعت الناس كثيراً ، وهي جملة اتخذها
الشرقي لارهاب غيره سواء كان هو مخلصاً في نفسه أو غير مخلص ،
وكفى بما وقع لنا في طرابلس الشام حين كنا بها في المدة الأخيرة (١)

(١) كتب اليّ الأستاذ في ٢٩ ج ١٣٣٢،١ يقول : «... هذا وأما طرابلس فاني قصدتها
على أن أقيم بها بضعة أيام فلما حلتها رأيت من أهلها من الاحتفال لي والاحتفاء فوق ما رأيت من
قبل ثم رأيت منهم من الاصغاء لما أقول والاسترشاد أكثر مما رأيت في غيرها من المدن
ورأيتهم منشوقين الى البقاء أكثر مما كنت نويت ليتلقوا الطريق الذي يكون أقرب لنجاحهم
فوعدهم بالعود اليهم بعد حين وبيننا نحن في ذلك إذ حدث أمر مستغرب وهو أن (ع . م) أتاني
يوماً وأنا في المكتبة الرفاعية فناداني بشدة فظننت أنه قد حدث له أمر لم يذهب اليه فشرع يهددني
ويوعدهني بالفاظ مبهمة وموهمة ويقول انت تذهب كل يوم الى المحافل والمدارس وتبث أشياء وصار
يكورها بلهجة توهم أن ثم أمراً عظيماً فقلت له إن المخبرين لك كذابة فلم يرتدع فقلت له هذا
اختراع منك ووقتي ثمين لا يجب أن أضيعه مملك فذهبت وهو يشير بيده أن سوف ترى .
فأريت بعض الاعيان فأخبرته بذلك فشاع الخبر في البلدة فقامت وقعدت وتهددوه وأوعدهوه وكادوا
يطشون به فارتاع واعتذر لهم غير أنه قال لبعضهم ان الداعي له الى ذلك انه أتته رسالة من مصر
تنبئه بأني مرسل من طرف الانكليز لأسلمهم البلاد ، فشاع قوله فاعتقدوا أن قد عرا عقله شي ، لأن
هذا أمر لا يعقل ، وقد وصل الخبر الى ساداته الذين يتقرب اليهم فونجوه وقالوا له أتريد أن تنفر
منا من لم ينفر بعد فاضطرت الى اطالة المكث هنا لثلاثة اسباب أحدها أن لا يظهر أني موهوم مما
شاع الثاني أن لا يظهر أعيان طرابلس أني واجد عليهم فانهم أكثروا من الاعتذار اليّ وقالوا
لا نؤاخذنا بما فعل السفهاء منا الثالث أن أقوم بما وعدتهم به من بيان الطريق الذي ينبغي ان يسلك
وقد نفعني هذه القضية لأنها نشطتني وزادت في همتي وقد طلبت كتباً مهمة من مصر ربما تحضر في
هذا الاسبوع لينتقي لهم ما ينبغي ان يطلعو عليه ويطلعوه ا ه ا .

وذلك قبل دخول الأنوريين في الحرب بنحو شهرين ، فان بعضهم أشاع عني أني حضرت لتمهيد الامر لدولتكم العظمى . وكان مركز الاتحاديين هناك المركز الاول ولو وقع ذلك لغيري لأهلك حالاً . ولم يكن له مانع ولكن أوصوهم في حقي بأن يغمضوا عينهم في المسألة رعاية لاعتقاد الجمهور بأنني لا أختار شيئاً فيه خيانة للأمة . واذا وقع ما ذكرناه يقل الشغب ويضعف أمر الموهين الذين لا يهمهم الا أمر أنفسهم ، فبادروا لذلك غير مأمورين فهذا أوانه ونسأل من بيده الأمر كله التوفيق لما هو الاولى . واذا كتبت لنا جواباً فاكتبه بعنوان الجريدة المشهورة الجزيلة الفائدة وهي جريدة الكوكب التي يدير أمرها المستشرق المشهور صديقنا كودنبري يصلنا أين كنا .

حاشية - واني أوصيكم ببعض البلاد (١) التي لا أسميها خيراً فان فيها كثيراً من الرجال المهين الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرونها ، ولكنهم غلبوا على أمرهم لأنهم لم يعرفوا في وقت الرخاء حتى ينتفع بهم وبرأيهم في وقت الشدة ، والبحث يجلو كل شيء فينبغي الانتباه لذلك في الحال والمستقبل وقد آن الاوان لمعرفةهم وهذا لا يكون الا تدريجياً فليبادر الى ذلك فستحمدون عاقبة الامر والله الموفق . (٢)

(١) الغالب أنه يقصد الديار الشامية .

(٢) رأينا أن نثبت صورة هذا الكتاب لشأنه في الصفحات التالية

حفظ الصفة الحكيمة الفاضلة السمة الصفة
من يد رام أقوال

صيت خير الدنيا واثني على ذلك السجيا
وأذكرك بالأيام العروة التي جمعنا في رشتك
ثم أذكرك بالداعي إلى الكفاية وهو امر من أهدى
تجديد العهد السوي والشكر على حسن ظنك
بهذا المجلس فقد ذكر لي بعض اصديقي في ترجمة
ما كتبه في حقك في سوريته مما يدل على
حسن الطوية -

والمراد في اقتضا الوقت لذلك فان هذا
الزمان الذي هو غريب البأزمة مطلقا يجب ان ينبت
فيه لا يذم وعدم تضييع الوقت فانه تكرر السما
هذا بان اعتقد ان حسن من ان يخلص له العزم
هو وهو روية برابطا العظمى لا خيرة من
ان هو وقت في الأفرجة دخولك -
والثورة لما كانت واجبة ان تكون من الطرفين
اقتضى الأمر ان يقع التناغم بينهما لئلا يتر هذا الأمر
فأرب انه ينبغي لأكثر العظمى ان نصت بأمر
المراد ان لا يفسد في كل بلد كبيره ديوانها بالرسى لتأ
الأخبار المتعلقة بما يجب العرب لتعد عليه بقدر
ان كان والذين يفتنون ينبغي ان يكونوا من
اعظم الناس معرفة بأفرد العرب من تلف
ذلك من مثل حضرت الكريمة

الفردان ان تعنى باللفظة العربية ويظهر منها السببي
في نشرها كما يظهر منها ذلك في الصعي اللفظة اللاتينية

الرابع الثالث ان غناء اللفظة الممددة عند غير العلماء
على وجه صحيح عليه احوال والزمان

الامر الرابع مراعاة عوائدهم وعدم احط من كرامتهم
في اختلاف العادات فانه قد يلفظ انه كان يقع
في بعض الاحوال وغير هاتين بعض الامور
وهذا مفسر ان لا يشترط عظمة اللفظة ان يشترط احوال
ويجوز ان ياتي النفس نعم ان هذا الامر
رقيق يصعب التعميم كما ينبغي ان اللفظة
كما به كثير من احوال وهي اهم من
عند عدم الهوان

الكره من تسهيل احوالهم وتسهيل احوالهم
معهم يجب بغير ذلك وتدريبهم فذلك على كل ما ينفعهم
وله بفرحكم

من
الذات الخاسرة التي لا تفتقر الى تعليم
على وجه اقل من احوالها السابقة - وما يزيد
ذلك من احوالها ونحوها وتوابع ذلك -
الاولى بعد تدريبهم على ما يتبعه من احوالها
او غيرها - اي شي كان
وانه اركان هذه الامور الزائفة هكذا -

يكون النتيجة حسنة جدا ويشترى التلاوم بين
 الغريبيين - لا بد ان يكون ~~قد يكون~~
 النعمة فانهم افراب الناس الى شكر النعمة
 فان وجدوا به بشكر فان في ظهور النعمة
 ما يعظمه عن ابرار ما ينويه من مفاصلة

الناس وما قلت ما قلت التي بعد حجة
 واختيار تام
 المخلص للامة العربية
 والذلة البريطانية

مصطفى
 محمد حجازي

١٢٢٠
 في يوم عيد الفطر
 في يوم الاحد اشوال
 في يوم الاحد اشوال
 في يوم الاحد اشوال
 في يوم الاحد اشوال

حاجبه

الناس الذين على فكري من عبادة توافق
صلحة الأمة العربية مع صلحة الدولة
البريطانية العظمى كثيرون إلا أنهم لم
يقفروا على أظهار فكرهم إلا بعد أن يروا
باعتنا على أظهارها لتلاشب بهم أنهم
خائشون للأمر فإن هذه الحملة راعه
الناس كثيرا وهي حيلة اتخذها الشرقي
لإرهاب غيرهم سواء كان مخلصا في نفسه
أو غير مخلص وكفى بما وقع لنا في طرابلس ثم
صبت كتابها في البحر إلى صيرفة وذلك قبل دخول

الأنزيب في الحرك بنحو تهريب فان بعضهم
اشاع عنى انه حضرت لتمهيداً له ولدتكم
القطبي وكان مركزه اتحاديين هناك المركز
الاول ولو وقع ذلك لغري له حاله
ولم يكن له مانع ولكن أوعدهم في حقي
بان يمشوا عينهم في المسألة رعباً
وهذا الجمهور يأتي له اختار شيئاً
فيه خيانة للامة

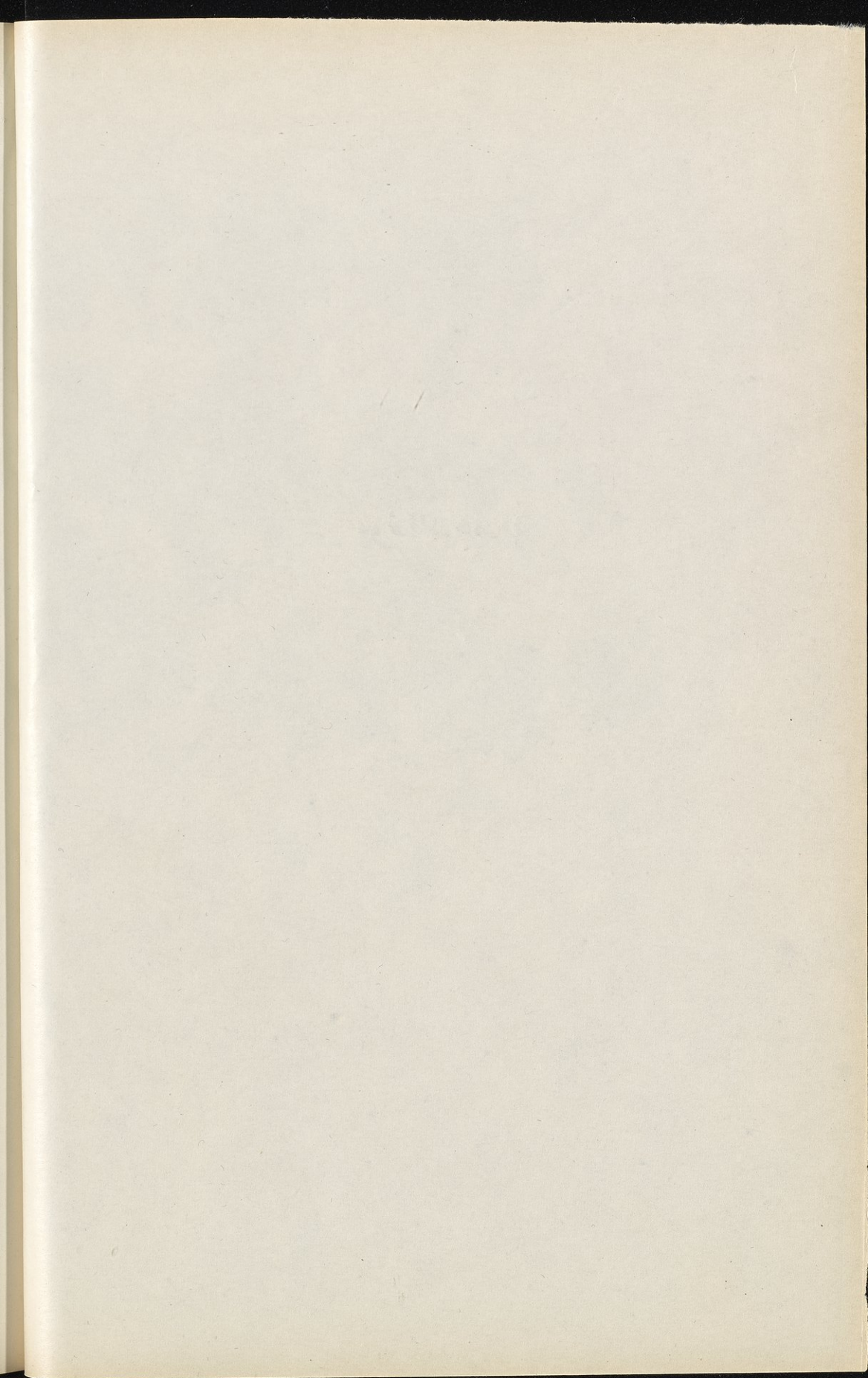
واذا وقع ما ذكرناه يقل الشك ويضعف امر المؤمنين
الذين لهم بهم الله امر القسوم -
فبادروا بذلك غير ما قورب فخذوا

اوانه
ولن ارض ببيع الأمر كله التوفيق الى
هو الولى

واذا كتبت لنا جوابا فاكتبه بعضا من الجريدة
 المشهورة بجريدة الفانق - وهي جريدة
 الكوكبية بدير أمها المشهورة
 المشهورة صدقتا كودنزي
 بصله ابن كنا -

والى أوصيكم ببعض البلاد التي له أسبغها خيرا -
 فان فيها كثرة من الرجال المهيبين الذين يعرفون
 قدر النعمة ويشكرونها ولكنهم غلبوا ما أكرم
 لأنهم لم يعرفوا في وفاء الرعاء حتى ينتفع بهم
 وبرأيهم في وقت الشدة - وابعث يلبس
 كل شيء فينبغي له نداء لذلك في أحوال المنفصل
 وقد آن الأوان مثل ذلك لمعرفتهم -
 وهذا له يكون له ندرنجا فليبادر
 إلى ذلك فتجدون عاقبة هذا

کنوز الابداد



(١)

ابن المقفع

(١٤٢- أو ١٤٣ هـ)

هو عبد الله بن المقفع . كان اسمه قبل الاسلام روزبه ، واسم والده المبارك ويكنى أبا عمرو ، دعي أبوه بابن المقفع لأنه مدّ يده فيما قيل الى أموال السلطان ، فضربه الحجاج بن يوسف ضرباً مبرحاً حتى تفتت يده أي تشنجت . ولد عبد الله على الأغلّب في مدينة جور على عشرين فرسخاً من شيراز . ولم تعلم سنة ولادته ويحتمل أنها كانت في عشر التسعين . وتثقف ثقافة فارسية مجوسية في بيته ، ثم انتقل به أبوه الى البصرة ، وأخذ الفصاحة عن أبي جاموس ثور بن يزيد الاعرابي وحرص المبارك على تأديب ولده وكان يجمع له العلماء فأخذ عنهم ، وبعد ان أحكم أصول الاسلام وقع في نفسه أن يدين به فأسلم وحسن اسلامه . وتخرج بالكتابة في دواوين بعض الأمراء ، وكانوا ضموا الى جملتهم ليتولى كتابة أسرارهم ، فجاءه بذكائه فرداً في صناعته ، وكذلك كان في أخلاقه ، وصحة عهده وكبر نفسه ، يذكرون له من ذلك صفات قلما اتفقت لأحد من معاصريه ، وهذا بما دعا عظماء الملة الى الاعجاب به . وكان اذا أراد الشعر صنعه وقال عن نفسه « الذي أرضاه لا يجيئني والذي يجيئني لا أرضاه » ،

وبما روي له :

دليلك ان الفقر خير من الغنى وان القليل المال خير من المثيري
لقاؤك انساناً عصي الله للغنى ولم تر انساناً عصي الله للفقر

وروى له أبو تمام في الحماسة ثلاثة أبيات يرثي بها يحيى بن زياد وقيل
ابن أبي العوجاء :

وزئنا أبا عمرو ولا حيّ مثله فله ريب الحادثات بمن وقع
فان تك قد فارقتنا وتركتنا ذوي خلة ما في سدادها طمع
لقد جرّ نفعاً فقدنا لك أننا أمينا على كل الرزايا من الجزع

وهو في البيان والكتابة آية من الآيات ؛ ترجمه كثيراً عن الفهلوية
وبما نقل كتاب « كلیلة ودمنة » و « خداینامه » و « آیین نامه » و « مزدك »
و « التاج » و كتاب « الكيمياء » في سير ملوك الفرس ، لم يفته الينا
منها الا كلیلة ودمنة (١) ، ومن تأليفه « الادب الصغير » و « الادب الكبير »
و « اليتيمة » وهذه من الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه ،
وقد ظفرنا له برسائل صغيرة ومن أهمها رسالة الصحابة ویتيمة ثانية نشرناها
في « رسائل البلغاء » وترجمنا له في كتابنا « أمراء البيان » ترجمة حافلة .
لم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل الى اللسان العربي شيئاً في الأدب
والعلم لا تحسّ فيه أثر اللغة المنقول عنها الا ابن المقفع ، بذّ البلغاء في
الترجمة والتأليف ، وقيل ان كتاب كلیلة مترجم والمعقول أن أكثره
تأليف وبعضه محتذى عن الفارسية القديمة . وسر تفرده ببلاغته ابتعاده
عن الوحشي من الكلام وتعلقه بما سهل من الالفاظ مع التجنب لالفاظ
السفلة . قال : البلاغة اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها . وقد سئل
ما البلاغة فقال : اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في
السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ،
ومنها ما كاد يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون
ابتداءً ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها
ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رسائل ،
فعامة هذه الابواب الوجيه فيها والإشارة الى المعنى ، والايجاز هو البلاغة .

(١) وفي كتاب رسل الملوك لابن الفراء الذي حققه الاستاذ صلاح الدين المنجد قطعة من

كتاب « خداینامه » .

راجت كتب ابن المقفع في الحكم والاصلاح أي رواج ، والسبب في رواج كليله ودمنة أن الخاصة والعامة تشترك في تقديره قدره والانتفاع به ، وقد وضع قواعد كان أكثرها من بنات أفكاره مباشرة مثل قوله : انظر في حال من تريده لآخائك فان كان من اخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمراءٍ ولا حريص ، وان كان من اخوان الدنيا فليكن حراً ليس بجاهل ولا كذاب ولا شرير ولا مشنوع ، فان الجاهل أهل لأن يهرب منه ابواه ، والكذاب لا يكون اخاً صادقاً ، لأن الكذب الذي يجري على لسانه انما هو من فضل كذب قلبه ، وانما سمي الصديق من الصدق ، وقد يُنهم صدق القلب وان صدق اللسان ، فكيف اذا ظهر الكذب على اللسان ، وان الشرير يكسبك العدو ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة وان المشنوع شائع نفسه .

وكان ولوعه بالاسلام وحكمته عدل ولوعه بالعرب وعظمتهم وقد سئل عن الأمم المشهورة لعده ، فأعطاها قسطها من الوصف الحق وقال في العرب : ان العرب جاهليتهم واسلامهم حكمت على غير مثال مُثَل لها وآثار أثرت : أصحاب ابل وغنم وسكان شعر وأدم ، يجود احدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ماشاء فيحسن ، ويقبح ماشاء فيقبح ، أدبتهم انفسهم ، ورفعتهم همهم ، وأعلنتهم قلوبهم وألستهم ، فلم يزل حياء الله فيهم ، وحبواهم في انفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم اشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر ، على الخير فيهم ولهم . فقال : « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فمن وضع حقهم خسر ، ومن انكر فضلهم خضم . اه . ومن تأدب بأدب امة احبها ، ومن اندمج في جنس ربما كان قومه الجدد أحب الى قلبه من أهل جيله آنفاً ، شأنه في ذلك شأن من يفاضل بماله المكسوب

أكثر من ماله الموهوب ، لأن مكسوبه أتاه بكده وموهوبه أتاه بلا
عناء كبير .

وبحق ما قال محمد بن سلام في ابن المقفع : سمعت مشايخنا يقولون
لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ،
ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع . وقد قال فيه من ترجموا
له انه لم يبق في الاسلام من أهل فارس شريف يذكر الا أن يكون
عبد الله بن المقفع والفضل بن سهل . وله في باب الكرم حكايات بدّ
فيها أجواد العرب والعجم ، وذكر أصحاب المحاضرات أنه كان من عشاق
الطرب والجمال يجتمع وبعض أصحابه الى القينات ويطرب ويفضل عليهن
ويتلطف ، وكان يجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين
خمسائة درهم الى العيين في كل شهر ، وله في باب المكارم أمور عظيمة .
قيل انه قد أفاد مالاً لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان ، والمعقول
أن يكون أبوه من الممولين .

ومن حكمه وهو بما عمل به : لاعقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده
من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يجرمه حظه من الدنيا بصرة بزوالها
وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع
ساعات : ساعة يرفع بها حاجته الى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ،
وساعة يفضي فيها الى اخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه وينصحونه
في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها بما يحل ويحتمل .
فان هذه الساعات عون على الساعات الأخيرة وان استجمام القلوب وتودعها
زيادة قوة لها وفضل بلغة ، وعلى العاقل أن لا يكون راغباً الا في
ثلاث خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم .
ومن حكمه في رغبات الذواقين : « اعلم ان من أوقع الامور
في الدين وأتمكها للجسد وأتلفها للمال وأضرها بالعقل وأسرعها في ذهاب
الجلالة والوقار الغرام بالنساء . ومن البلاء على المعرم بهن انه لا ينفك

يأجِم ماعنده وتطمح عيناه الى ماليس عنده منهن ، وانما النساء أشباه
وما يرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل
وخدعة ، بل ما يرغب عنه الراغب بما عنده أفضل بما تتوق اليه نفسه ،
وانما المترغب عما في رحله منهن الى ما في رحال الناس كالمترغب عن
طعام بيته الى ما في بيوت الناس ، بل النساء أشبه من الطعام بالطعام ،
وما في رحال الناس من الاطعمة أشد تفضلاً وتفاوتاً بما في رحالهم
من النساء .

« ومن العجيب أن الرجل الذي لا بأس في لبه ، يرى المرأة من
بعيد متلففة في ثيابها ، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال ، حتى تعلق
بها نفسه ، من غير رؤية ولا خبر بخبر ، ثم لعله يهجم منها على أقبح
القبح وأدم الدمامة ، فلا يعظه ذلك عن أمثالها ، ولا يزال مشغولاً
بما لم يذق حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأنًا
غير شأن ما ذاقه ، وهذا هو الحق والشقاء ومن لم يحم نفسه وبظلمها
ويحلاها عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته
كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاع تلك اللذات عنه ، بجمود نار
شهوته ، وضعف عوامل جسده ، وقل من نجد الا مخادعاً لنفسه في
أمر جسده عند الطعام والشراب والحميمية والداء ، وفي أمر مروءته عند
الأهواء والشهوات ، وفي أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع » .

وقال : « إياك ومشاورة النساء فان رأين الى أفن ، وعزمهن
الى وهن ، واكف عليهن من أبصارهن بجبابك اياهن ، فان شدة
الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من
لا تثق به عليهن ، فان استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تملك
امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فان ذلك أنعم لحالها ، وأرضى لبالها ،
وأدوم لجمالها ، وانما المرأة ربحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تعد بكرامتها
نفسها ، ولا تعطها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء

كما يطلب الماء المنحدره ، وانما جعل الفضل للحازم البصير ، واما الكسلاان المتروك فان الفضل لا يصحبه ، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم ، وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمامة في الصيف ، وخلة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والنبا الكاذب ، والمال الكثير ، فالعاقل لا يحزن لقلته ولكن ماله وعقله ما قدم من صالح عمله ، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل ، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله ، وهو خليق ان لا يغفل عن أمر آخرته ، فان الموت لا يأتي الا بغتة ليس له وقت معين « اه .

ومن رسالته في الصحابة صحابة أمير المؤمنين وهي أشبه بقانون حوى الأنظمة اللازمة لسلامة الملك : « وما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يجرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك من الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحل من ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمتهم ، يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس بمن ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريقت الا قد ليج بهم العجب بما في أيديهم ، والاستخفاف بمن سواهم ، فأقبحهم ذلك في الامور التي يشنع بها من سمعها من ذوي الألباب . أما من يدعي لزوم السنة منهم فيجعل ما ليس له سنة سنة ، حتى يبلغ به ذلك الى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة على الأمر الذي يزعم أنه سنة ، واذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده . واذا قيل له أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون ؟ قالوا : فعل ذلك عبد الملك بن مروان او أمير من بعض أولئك الأمراء ، وأما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول

في الرأي الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافق عليه أحد من المسلمين ،
ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وامضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأي
لا يحتج بكتاب ولا سنة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه القضية
والسير المختلفة ، فترفع اليه في كتاب ويرفع معها ما يحتج به كل قوم
من سنة أو قياس ، تم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية
رأيه الذي يلهمه الله ويعزّم له عليه وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب
بذلك كتاباً جامعاً رجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب
بالخطأ حكماً واحداً صواباً ، ورجونا أن يكون اجتماع السير قرينة
لاجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من أمام
آخر ، آخر الدهر ان شاء الله .

وقال أيضاً في هذه الرسالة : « وان امر هذه الصحابة قد كان فيه
أعاجيب دخلت فيها مظالم . أما العجب فقد سمعنا من الناس من يقول
ما رأينا أعجوبة قط أعجب من هذه الصحابة بمن لا ينتهي الى أدب ذي
نباهة ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في أهل
مصره ، قد غر عامة دهره صانعاً بيده ، ولا يعتمد مع ذلك ببلاء
ولا غناء ، الا أنه مكنه من الأمر صاغ ، فانتهى الى حيث أحب ، فصار
يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والانصار ، وقبل
قراة أمير المؤمنين وأهل بيوتات العرب ، ويُجرى عليه من الرزق الضعف
بما يجري على كثير من بني هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويُخرج
له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الموضع رعاية رحم ،
ولا فقه في دين ، ولا بلاء في مجاهدة عدو معروفة ماضية شائعة قديمة
ولا غناء حديث ولا حاجة اليه في شيء من الاشياء ، ولا عدة يستعد بها ،
وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة الا انه خدم كاتباً أو حاجباً ، فأخبره
أن الدين لا يقوم الا به حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء . »
لاجرم ان الباحث المدقق يدرك أن ابن المقفع فطر على حرية الرأي
وعلى الصدق في القول والعمل وعلى التناهي في المروءة ، وكان كل

أولئك السبب في قتله ، ذلك أن أمير المؤمنين المنصور لما خالف عليه عبد الله بن علي وادّعى الخلافة لنفسه همّ المنصور بقتله ، فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى في البصرة ، وكان سليمان وعيسى أبا جعفر أن يؤمنه ، وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان فعملها ووكدتها ، واحتس من كل تأويل يقع عليه فيها ، فأنكر المنصور هذه الصيغة الشديدة في الأمان ، وعهد بقتله إلى سفيان ابن معاوية وكان يضطغن على ابن المقفع أشياء منها أنه كان يعبث به فيما قيل ، وقيل ان المنصور كتب لعبد الله بن علي عمه سبعين أماناً كلها يردها عبد الله بن المقفع ويقول له : هذا ينتقض عليك ويبطل من مكان كذا وكذا ، فلما ضجر المنصور كتب الى عامله على البصرة فطلب ابن المقفع فخنق نفسه . وقال بعضهم انه شرب سمّاً ، فكانت أمانة ابن المقفع لخدمته وصدقه وحرية بما أورده حتفه ، فمات ميتة شريفة كما عاش حياة شريفة .

وقد نظم أبو الغول الأسدي قصيدة طويلة يعبر فيها عيسى بن علي لأنه لم يُجبر ابن المقفع قال :

لعمري لئن أوفى بجار أجاره لقد غرّ عيسى جاره ابن المقفع
فلو بان حرب عاذ أو بان عامر لما اغتيل عبد الله في شر مضجع
ولكنّ عبد الله ألبأ ظهره الى رخمات بالنبيط وأضبع
دعا دعوة عيسى وهم يسحبونه بلحيمته جرّ الحوار المفزع
فما كنت عدلاً للسؤال اذ بدا بواحدة اخلاف بيض وأدرع
ولا مثل جار ابن المهلب اذ نما به جاره في شاق متمنع
أولئك لم تقعد بهم أمهاتهم ولم يُسلهوا الأحرار أسوأ مصرع
تساموا به حتى اذا قيل قد علا مع النجم خلوه وقالوا له قع
اذا أنت لم تغضب لجار أجرته فدونك ثوبي حيضة فتقع

وبعد فان ابن المقفع في كل حالاته مجموعة من الكمال المطلق ، اذا
أنعمت النظر في حياته لا تدري من أي شيء تعجب فيه ، أمن علمه أم
من أدبه أم من أخلاقه . ولولا أنه الغاية فيها ، ما كُتِبَ لكتبه هذا
الموقع من القلوب على الأيام . ومهما بلغ الكلام من الفصاحة والبلاغة
فالقوالب وحدها لا تفيد كل الفائدة ان لم تحمل معاني جديدة وآراء
نافعة ومذاهب في الكلام لا عهد للناس بها ، ونحن لا نحيل من يود
الانتفاع بأدب ابن المقفع الا على الأدب الصغير والأدب الكبير والبيتية
والصحابة وهي من تأليفه التي لم ينقل فيها عن غيره ليتجلى له أنه فرد
الدهر ودررة الأيام . وكل ما خص به ابن المقفع من بيان ما كانت بما
يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه مادعا اليه من الاخلاق فهو في علمه
وعمله سواء وغاية ، لا يخدع ولا يكذب ولا يمؤ ولا يبخل ، ويعمل
الصالحات من دون غرض يتوقعه ، ويدعو الى الاصلاح ولا غاية له
الارفع شأن جماعة الاسلام . هو روح ندر جداً ظهور مثله في القرون
الطويلة ، وصاحب خطة رشيدة ما حاد عنها قيد أنملة ، وما أغرم
الابنفع الناس .



(٢)

القاسم بن سلام

أبو عبيد

(١٥٤ - ٢٢٤ هـ)

أدخل الاسلام في حظيرته أذكفاء من أجيال الناس ، وأهل الملل والأديان القديمة ، تمثلوا تعاليمه وخدموه أجلّ خدمة . وكان للموالي أثر عظيم في نقل الشريعة وبثها ، حتى جاء زمان وعدد الموالي القائمين على بث العلم أكثر ممن كانوا من أصول عربية لا تشوبها شائبة العجمية .

ومن هؤلاء الأعلام أبو عبيد القاسم بن سلام ، كان والده مملوكاً رومياً لرجل من هراة من عمل خراسان ونشأ ابنه نشأة اسلامية عربية . وكان أباه شعر بذكاء ابنه فقال يوماً برطانتة العجمية لمعلم الكتاب الذي يتعلم فيه ابنه مع ابن مولاه : « علمي القاسم فانها كيتسة » . ونبغ قاسم وعرف في خراسان فضله ، فعهد اليه بعض الخاصة بتأديب بنينهم ، على عادة العلية من الناس في تلك الأيام ، يدفعون الى العلماء أولادهم ليثقفوهم ويهذبوهم . ونزل طاهر بن الحسين شيخ قواد المأمون بمرور حين مضى الى خراسان ، فطلب رجلاً يجده ليلة ، فقيل له ما ههنا الا رجل مؤدب ، فأدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلام ؛ فوجده أعلم الناس بأيام الناس والنحو واللغة والفقهاء فقال له : من الظلم تركك أنت بهذا البلد . فدفع اليه ألف دينار وقال له : أنا متوجه الى خراسان الى حرب ، وليس أحب استصحابك شفقة عليك ، فأفق هذا الى أن أعود اليك . ولما عاد حمله معه الى سرّ من رأى ودخل بغداد .

وظل أبو عبيد على ولائه لآل طاهر بن الحسين ، وأعلى ابنه عبد الله ابن طاهر منزلته ، وهو من أعظم قواد الخليفة المأمون أيضاً . وكان

ابو عبيد اذا ألف كتاباً أهده الى عبد الله بن طاهر ، فيحمل اليه مالاً خطيراً
استحساناً لذلك ، ولما أنجز كتابه « الغريب المصنف » وكان صرف في تأليفه
ثلاثين سنة عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه وقال : « ان عقلاً
بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يُحْوَج الى طلب المعاش »
فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر أي ألف دينار وعمل كتابه
« غريب الحديث » للمأمون ولا ندري بما كافأه عليه ، ان كان أحد عماله
يجري عليه في كل شهر ألف دينار .

أدب أبو عبيد في بغداد غلاماً في شارع بشر وبشير ، واتصل بعدد
بشابت بن نصر بن مالك الخزاعي يؤدب ولده ، وأدب أيضاً أبناء هرثة ،
ولعله هرثة بن أعين أعظم قواد المأمون ، ولما ولي ثابت بن نصر الثغور
ودامت ولايته ثماني عشرة سنة ، كان أبو عبيد يتولى قضاء طرسوس طول
تلك المدة ، وحسن أثره فيها كما حسن أثر صديقه واليها .

وذكروا أن أبا عبيد لما كان في أسباب عبد الله بن طاهر بعث
أبو دُلف القاسم بن عيسى العجلي أحد أئمة البلاغة من الأمراء ، يستهديه أبا عبيد
شهرين ، فأنفذه اليه ، فأقام شهرين في الكرج وهي مدينة بين همدان
وأصفهان ، مصّرها أبو دُلف وجعلها وطنه . ولما أراد الانصراف وصله
أبو دُلف بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها . وقال : أنا في جنبه رجل لم
يجوجني الى صلة غيره . فلما عاد الى ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار
فقال : أيها الأمير قد قبلتها وقد أغنيتني بمعروفك وبرك ، فرأيت أن
أستري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها الى الثغر ليكون الثواب متوفراً
على الأمير ، ففعل .

وهكذا عاش أبو عبيد بين أشراف القادة والسادة ، ويعرف لهم
مقامهم ويعرفون له قدره ، يتهادونه ويبرونه ، ويرغبون في الأخذ عنه ،
ويعهدون اليه في تخريج أبنائهم . أما هو فلم تبطره الدنيا ، ولم تحلب
لبه المظاهر ، واشتهر بورعه وعفته وكرمه نفسه وجوده ، حتى قيل فيه

لو كان أبو عبيد في بني إسرائيل لكان عجباً . قالوا انه كان يقسم الليل اثلاثاً ، فيصلي ثلثه ، وينام ثلثه ، ويصنف ثلثه . وكان فاضلاً في دينه وعلمه ربانياً قانتاً مفتحاً في أصناف علوم الاسلام ، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من أمره ودينه .

وكانت فيه عزة نفس العلماء ماثلة المشول كله ، فقد امتنع من حضور مجلس بعض الامراء ليأخذوا عنه فقال : العلم يُقصد . فغضب صاحب الدار من قوله فقطع عنه الرزق وكتب الى صاحبه عبد الله بن طاهر بالخبز فكتب اليه عبد الله : قد صدق أبو عبيد في قوله ، وقد أضعفت له الرزق من أجل فعله ، فأعطه فائته وأدرّ عليه بعد ذلك ما يستحقه . شهد العلماء بعلم أبي عبيد ، ومنهم اسحق بن راهويه قال : يجب الله الحق ، أبو عبيد أعلم مني ومن أحمد بن حنبل ، ومن محمد بن ادريس الشافعي . وقال بعضهم انه لم يكن عنده ذلك البيان ، الا انه كان اذا وضع وضع . وقال ابراهيم بن الحري : رأيت ثلاثة تعجز النساء أن تلد مثلهم . رأيت أبا عبيد ما أمثله الا يجبل نُفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحرث فما أشبهه الا برجل عُجن من قرنه الى قدمه عقلاً ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف ، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء .

وسئل يحيى بن معين صاحب الجرح والتعديل - وهو الذي قال فيه أحمد بن حنبل كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث - عن الكتابة عن ابي عبيد والسمع عنه ، فتبسّم وقال : مثلي يُسأل عن أبي عبيد؟ أبو عبيد يسأل عن الناس . لقد كنت عند الأصمعي يوماً إذ أقبل أبو عبيد . فنفذ اليه بصره حتى اقترب منه ، فقال : أترون هذا المقبل؟ قالوا : نعم . قال : لن تضيع الدنيا ، أو لن يضيع الناس ، ما حيي هذا المقبل . وقال عبد الله بن طاهر : كان الناس أربعة : ابن عباس في زمانه ، والشعبي في زمانه ، والقاسم بن معين في زمانه ،

(٣)

علي بن ربن

(٢٤٧ -)

في المؤلفين من لم نعرفهم الا بصفحات قليلة أبت عليهما الأيام من
أوف كتبها ومنهم علي بن ربن - والربن والربن والراب أسماء لمقدمي
شريعة اليهود ، ومعنى ربن المعلم العظيم - ورن اسم أبي علي كان ربن اليهود .
ولد علي في طبرستان وعرف في صباه وكهولته باتساعه في الفلسفة
والطب والطبيعات وعنه أخذ محمد بن زكريا الرازي في الري لما خرج
من طبرستان واستفاد منه علماً كثيراً . وأخذ هو عن حنين بن اسحق
لما وافى العراق . وتصرف لولاة طبرستان وكتب للمازيار بن قارن
المتغلب على الجبال وغيرها . ولما وقعت الفتنة في بلاده خرج الى الري
ومنها الى العراق ، وكانت سبقته اليها شهرته ، واتصل بالخليفة المعتصم
وأسلم علي يده فقربه فأصبح من أطباء البيت العباسي ، ثم أدخله المتوكل
في جملة ندمائه .

ألف ابن ربن كثيراً في الطب والصحة وله كتاب فردوس الحكمة
وهو مغلّسة طبية ، بها سلمك أبو حيان التوحيدي في سلك نوابغ
المؤلفين ، وضرب به المثل بالاجادة . وله غيره في الأدب ، وكان
متمكناً من الآداب العربية ، وعرفناه بكتاب له صغير أسماء « الدين والدولة »
أثبت فيه النبوة اثبات العارف بالأديان الاخرى ولا سيما اليهودية والنصرانية
قبل ان الخليفة المتوكل عاونه في تأليفه . وكتابه هذا دليل ناصع علي

اضطلاع بالحكمة ، وأنه انتحل الاسلام عن بصيرة بعد أن نضج في العلوم وأحفى المشاكل بحثاً .

وقد جود الكلام في الدين والدولة على الصحابة ، وعرض لمجمل سيرتهم وعفتهم عن المال والرغبة عن الرفاهية كما جود في فضل أمية الرسول . ومن أجل ما فيه 'نفول عن الكتاب المقدس والنبوات عليها مسحة من البلاغة أكثر من الترجمات المشهورة لعهدنا ، ولعلها منقولة من الترجمات الضائعة من التوراة والأنجيل أو أنها كانت من ترجمته هو . وكانت يعرف لغات أخرى مع العربية .

وينبئك كتاب ابن ربن أنه من أعظم العلماء في الأديان ولو لم تبق عليه الأيام لنسي حتى اسمه اللهم الا عند أفراد دأهم البحث عن المفقود والموجود من هذا التراث العربي العظيم .

مثال من كلام ابن ربن . قال في الدلائل على تصحيح الأخبار : رأينا أمماً كثيرة العدد عظيمة القدر موصوفة بالأفهام والأحلام يشهدون لعدة من الحبة الكذابين بجميع ما أدلوه من الزنادقة والجوس اما تقليداً والفاً واما غباوةً وحمكاً واما اجباراً أو كرها ، كما فعل زرادشت متنبئ الجوس فانه لم يزل يتأني ليشتاسف الملك حتى وصل اليه ، وزرع من وساوسه في صدره ، ثم لم يزل يحتله بذكر الله والدعاء اليه ، ويفتل في الذروة والغارب حتى قتله عن دينه ولواه الى رأيه ، ثم أظهر له ما كان يضره من الشرك ، وزين له نكاح الامهات والبنات ، وأكل القدر المذر من النجاسات ، فكان الملك بعد ذلك هو الذي أكره أهل مملكته على دينه . وفعل ما نبي شبيهاً بذلك ، فانه ظهر في زمان كان الغالب فيه دينين النصرانية والجوسية ، فاخترع النصراني بان قال لهم انه رسول المسيح عليه السلام ، وخب الجوس بأن وافقهم على الاصلين فلما وجدنا من الاجماع ما هو هكذا ووجدنا منه ما هو كالاسلام علمنا ان قبول كل اجماع فتنه ورد كل اجماع ضلالة .

وبما اثر له : الطيب الجاهل مستعجلاً الموت . اجتنب ثلاثة عليك
بأربعة ولا حاجة لك الى الطيب : اجتنب الغبار والدخان والنتن عليك
بالدمس والحلوى والحمام والطيب مع الاقتصاد . وبما نقل عنه : التكلف
يورث الحسارة . شر القول ما نقض بعضه بعضاً .

لاتتألف بما وصل اليها من أخبار ابن ربن فكرة تامة للحكم عليه
حكماً صحيحاً ، والغالب أنه كان رجلاً أعظم مما صوره لنا من عرضوا
لترجمة له وهم مع هذا قلائل .



(٤)

(١)

الجاحظ

(٢٥٥)

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكنايني الليثي ، وقيل انه كان مولى أبي القلمس عمرو بن قبيصة الكنايني ثم الفقيمي . فهو كنايني صليبة خالص النسب . وكان جده فزارة أسمر اللون وكان جمالاً لعمرو بن قبيصة . أطلق على عمرو اسم الجاحظ لنتوء عينيه ويقال له الحدقي . ولد من أبوين فقيرين في البصرة حوالي سنة ستين ومائة وتعلم الخط والقراءة في كتاب ببلده وتلقى الفصاحة شفاهاً عن العرب في المرند واتصل بالاصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة معمر بن المثنى والأخفش والنظام وصالح بن جناح . وحدث عن ثمامة بن أشرس النميري ويزيد بن هرون والسري بن عبدويه والقاضي أبي يوسف والجاحج بن محمد . وكان كل واحد من هؤلاء الاعلام فرداً في صناعته .

أحكم الجاحظ فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة وهو في ميعة الشباب ، وانسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين فكان صاحب مذهب وسميت فرقته الجاحظية وهو من الطبقة السابعة من المعتزلة والغالب أنه كان يعرف الفارسية ، وكان مولماً بالكتب حدث أبو هفان قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كأنه ما كان ، حتى أنه كان يكتوي دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

(١) اتبعنا الطريقة التي وضعناها لهذا الكتاب في الترجمة للجاحظ ، ومن أراد التوسع في الكلام عليه وعلى ابن المقفع وابي حيان التوحيدي فليرجع الى كتابنا أمراء البيان ففيه اضافة حسنة في اخبارهم وآثارهم .

ما أحب الجاحظ أن يفوته شيء من أنواع العلوم والآداب فنظر في كل علم وأخذ عن كل من اعتقد ان عنده من المعارف ما ليس عند غيره ، ودأب الى هذا يسأل جميع الطبقات عما يهجه ويريد أن يتفهمه ، فيسترشد بأراء الحراس ويتحدث الى الحواة والجزارين والعطارين والنجارين والصيادين والأكارين والقابلات ، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة وقد يأخذ بأراء البحريين اذا رروا له غرائب قبلها عقله أو يردھا اذا كانت حديث خرافة ، ويتحدث الى كل من عنده « طرائف من الكلام ، وعجائب من الاقسام » . روى أشياء كثيرة عن الأعراب في البادية وعن العامة في المدن ، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث وجدها . كتب في هذا يقول عن نفسه : ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد علمت ، من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها انما هو تصفح عقول العالمين ، والعلم بأخلاق النبيين وذوي الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم .

مزية الجاحظ التي تفرد بها استعماله عقله في الرأي المعروض يتناول كل ما يقع عليه الحس وتنظره العين وتتشوف اليه النفس وليس نظره فيما عانى النظر المجرد بل نظر « الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة وأبرزها الامتحان وكشف قناعها البرهان » فهو مجموعة تفكير ، والتفكير « مشحذة للأذهان ومنبهة لذوي الغفلة ، وتحليل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح في الصدور ، وعزاء في النفوس ، وحلاوة تقناتها الروح ، وثمره تغذو العقل » . « وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكيراً ، وأكثرهم تفكيراً ، أكثرهم علماء وأكثرهم علماء أرجحهم عملاً ، كما ان أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب ، ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأعمى » « فلا تذهب الى ما تريك العين ، واذهب الى ما يريك العقل ، وللأمور حكان حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » « ولعمري ان العيون لتخطي»

وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستنباط
الصحيحة الا للعقل اذ كان زمماً على الاعضاء ، وعبارة على الحواس .
دعا الى المعاينة ودعا الى الشك وقال : « اعرف مواضع الشك وحالاتها
الموجبة لها تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك
في المشكوك فيه تعليماً » وقال : « وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب
الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه ، واغفال العقل
من التمييز حتى قالوا الحفظ عَدَقُ الذهن لانه مستعمل الحفظ لا يكون
الا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة ،
والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى ادام الحفظ اضر ذلك بالاستنباط
ومتى ادام الاستنباط اضر ذلك بالحفظ » .

ومن أجل هذا كتب له ردُّ كل خرافة قال بها المتكلمون ، أي
رجال الدين ، وأصحاب علوم الدنيا ، وزيف بعض أنظارهم فهو في كل
ما خطته يراعه فوق العلماء وطريقته في تأليفه « الا يصل الصدق بالكذب
ولا يدخل الباطل في تضاعيف الحق ، ولا يتكثر بقول الزور ، ولا يلتمس
تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين
على ايضاح الحق الا بالحق ، وعلى ايضاح الحجة الا بالحجة ، ولا يستميل
الى دراسة تأليفه واقتنائها ، ويستدعي الى تفضيلها والاشادة بذكرها ،
بالأشعار المولدة والأحاديث الموضوعية والأسانيد المدخولة ، وبما لا شاهد عليه
الا دعوى قائله ، ولا مصدق له الا من يوثق بمعرفته » .

قال ابن الحياط : « ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة وكتابه
في الأخبار واثبات النبوة وكتابه في نظم القرآن علم أن له في الاسلام
غناءً عظيماً ، لم يكن الله عز وجل يضيعه له . ولا يُعرف كتاب في
الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد على نبوته غير
كتاب الجاحظ . وهذه كتبه في اثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجي
الأخبار مشهورة اه .

من كان يظن ان الرجل الذي يؤلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين وعلى الجوس والنصارى واليهود وعلى الفرق الاسلامية وهو في أصله امام ديني وصاحب مذهب انه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل والاعناب وفي كل ما يعرض له من الموضوعات في السياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والجغرافية والتاريخ الى ما عرف في عصره من أنواع العلوم ، ومن جملة ما يتقن من الفنون الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعة وعلم النفس والأخلاق والمعادن والأصباغ والتجارة وحيل اللصوص وأخبار الخلاء والمجان ، ورسائله كثيرة لا يحظر بيالك انه يكتب فيها . سئل أبو العيناء الراوية الأخباري : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن . وقال المسعودي : لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم ووصفها أحسن وصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان اذا تخوف ملل القارئ وسأمة السامع خرج من جدّه الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة طريفة ولا يعلم من سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . ووصفه ثابت بن قرة « انه خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدبره المتقدمين والمتأخرين ، ان تكلم حكي سبحان وائل ، وان ناظر ضارع النظام في الجدل ، وان جد خرج من مسك عامر بن عبد قيس وان هزل زاد على مُزبّد ، حبيب القلوب ، ومراح الأرواح ، وشيخ الأدب ، ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مشرة ، ما نازعه منازع الا رشاه آناً ، ولا تعرض له الا قدم له التواضع استبقا ، الخلفاء تعرفه ، والأمرء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ منه ، والخاصة تسلم له ، والعامّة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنظم ، ووطئ الرجال عقبه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتراد به ، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب . »

نعم « كان نسيج وحده في جميع العلوم » وقال ابن سنان الخفاجي « فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره » وقال ابن العميد « كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » .

ونقل عن جالينوس واقليمون وحنين بن اسحق وبختيشوع وسالويه وماسرجويه وغيرهم من علماء عصره . أما أرسطو فقد أنحى عليه بما اخترعه من التخريف في الحيوان . وكان شعاره « اذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم انه ما يريد أن يفلح » وقال : « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمره مرة فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً قال : فلو ان علماء كل عصر مذجرت هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عن قبلهم لرأيت العلم مختلفاً .

لم يضع أبو عثمان كتاباً خاصاً في الفلسفة ولكن تأليفه تم عن طول باعه فيها وهل الفلسفة الا علم العقل . وعقل الجاحظ كان يحكمه في كل شيء . وما قام في الاسلام عالم جمع في صدره العلوم الدينية والدنيوية مثله ، ولا من ألف هذا القدر من التأليف الممتعة ، فقد ألف ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة ، منها ما كسره على بضعة مجلدات ومنها ما كان في رسالة صغيرة ، ضاع أكثرها ولا سيما كتب الدين لأن خصومه أثاروا عليه حرباً شعواء في عصره وبعد عصره فكان من تحيلهم على طمس آثاره أن يبيدوا كتب عدو مذهبهم ، وافلت من برائتهم بعض أسفاره فكان منها كتاب الحيوان والبيان والتبيين وكتاب البخلاء الى غير ذلك من الكتب والرسائل . قال في وصف كتاب الحيوان (وهذا كتاب نستوي فيه رغبة الأئمة ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربياً أعرابياً ، واسلامياً جمعياً ، فقد حذق طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، واشترك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة) وقد ألفه وهو مريض بالفالج فأبان فيه عن سعة بصره

وتجاربه ، ولم يؤلف في بابه مثله حتى قال الحسن بن داود : فخر البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الحيوان له وكتاب سيبويه وكتاب العين للخليل . أما البيان والتبيين فهو أول كتاب علم طلاب البلاغة بالعمل لا بالقواعد ، وبالنصوص والشواهد لا بالتعريفات المملة كما كان ممن جاءوا بعده .

كان الجاحظ من أعرف المؤلفين بأمزجة القراء ويعرف أن الجد يملول ولا بد من المرح والدعابة لئلا يسمج ، لذلك مزجه بهذه الافاضة لئلا يكون مما كتب شيء لا تمضمه النفوس . يرى ذلك ماثلاً في كتاب البخلاء وفي كتاب التربيع والتدوير الذي كتبه في أحمد بن عبد الوهاب يعيث به ، وهو من أهم ما ألف في السخرية والتهمك تجلي فيه فن الجاحظ تجليه في كل موضوع خاض غماره وتجمست فيه خفة روحه .

ومرح الجاحظ يتجلى في جده وهزله . سأله شخص كتاباً الى بعض أصحابه فكتب له « كتابي اليك مع من لا أعرف ولا اوجب حقه فان قضيت حقه لم أحمذك وان رددته لم أذمك » . وكتب الى آخر « كتابي اليك سألتني فيه من أخافه لمن لا أعرفه فافعل في أمره ما تراه والسلام » . وفي نظر الجاحظ أن الوصاة شهادة وهو أعدل من أن يشهد الزور ويبيع دينه لدنيا غيره .

وبينا نرى الجاحظ ينقل اليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء يروي لك نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المرءة من الموسوسين ومن كلام أهل الغفلة والتوكل وأصحاب التكلف من الحمقى . يجعل بعضها في باب الهزل والفكاهة ويقول ولكل جنس من هذا موضع يصلح له ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة الى بعض الهزل وان المزاح جد اذا اجتلب ليكون علة للجد . ومن أعجب ما كان يأتيه في العيث بأعدائه وحساده مارواه قال : « اني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة

والخطب والحجاج والاحكام وسائر فنون الحكمة وأنسبه الى نفسي فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من اهل العلم بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعته ونصاحته . وأكثر ما يكون هذا منهم اذا كان الكتاب مؤلفاً ، لملك معه القدرة على التقديم والتأخير والخط والرفع والتهيب والتغيب ، فانهم يحتاجون عند ذلك اهتياج الابل المغتلمة ، فان أمكنتهم الحيلة في اسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له فهو الذي قصده و ارادوه . وان كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً بليغاً وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألقوا من أعراضه وحواشيه كتاباً وأهدوه الى ملك آخر وامتوا اليه به ، وهم قد ذموا وثلبوه لما رأوه منسوباً اليّ وموسوماً بي ، وربما الفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه فأترجمه باسم غيري وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والحليل وسلم صاحب الحكمة ويحيى بن خالد والعتابي ومن اشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان احكم من هذا الكتاب لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه اماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ويتأدبون به ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فثبتت له به رياسة يأتهم قوم فيه لأنه لم يترجم باسمي ، ولا نسب الى تألفي ، وما كان امساع الجاحظ بما كتب هذا الامتاع الا لانه لا يتكلف في اختيار الفاظه ويرسل النفس على سجيتهما فيما يؤلف ، فجاءت تأليفه كلها نطاً واحداً في البلاغة والفصاحة يكتب كما يتكلم من دون تزيّد ولا تعمل . وربما نسب قسم عظيم في جودة تأليفه الى امتلاكه ناصية الكلام واعطاء كل موضوع حقه من الالفاظ والمعاني . وكأنه كان يضع بعض ألفاظ او يستعمل ما لا عهد باستعماله قبله مثل قوله « القرويون والبلديون واللفويون والمعنويون » اطلق هذا على سكان الضياع والداكر وسكان

المدن والحواضر ، وعلى من يشتغلون بالألفاظ ويشغلون بالمعاني . وكثيراً ما استعمل بعض الألفاظ العامية عند نقله روايات المنادمة لأن النكتة لا تملح الا اذا رويت بألفاظها . وتميز الجاحظ بين حيي الالفاظ وميتها وسهلهما وعويصها سبب أول في تفوقه ببلاغته .

وملاك الأمر عنده أبدأً أن يكون اللفظ سمحاً لا كزراً ، والابتعاد عن المعاني التافهة والقوالب المستكرهه . ولطالما أوصى طلاب البلاغة ألا يعمدوا الى استعمال اللفظ الساقط السوقي ولا الوحشي الغريب لأن « الاستعانة بالغريب عجز » « الا أن يكون المتكلم بدوياً أعرايياً فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي » والمعول عليه في هذا الباب أن « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » .

قال : وأنا أقول في هذا قولاً وأرجو أن يكون مرضياً ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللاً ، ولكنني أخذت بأداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب . وذلك أنه قيل لصُحار العبدي : ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه واحسانه ؟ قال : أما نحن فانا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغاً مرضياً ، وهو يعلم أنه قد وفاه حقه الواجب وتفضل بما لا يجب . قال صُحار : كانوا يستحبون أن يدعوا للقول متنفساً وأن يتركوا فيه فضلاً ، وأن يتجافوا عن حق ان أرادوه لم يُمنعوا منه فلذلك قلت أرجو فافهم فهّمك الله . قال : فان رأي في هذا الضرب من اللفظ أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها والعادة فيها أن أُلْفِظَ بالشيء العتيق الموجود وأدع التكلف لما عسى ان لا يسلس ولا يسهل الا بعد الرياضة الطويلة .

وقال ايضاً : ومتى شاكل أبقاك الله اللفظ معناه وكان لذلك الحال وفقاً ، ولذلك القدر لفقاً ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً ان يمنع جانبه من تأول الطاعنين ، ويحمي عرضه من اعتراض العائنين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة ، ومتى كاز اللفظ ايضاً كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد ، حُبب الى النفوس ، واتصل بالأذهان ، والتعم بالعمول ، وهشت له الانسجام ، وارتاحت له القلوب ، وخف على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعم الرئّص ، ومن اعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً ، حجب اليه المعاني ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد اغنى المستمع عن كد التكلف ، وراح قاري الكتاب من علاج التفهم . وعنده ان « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وانما الشأن في اقامة الوزن وتميز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك » .

قال في رسالة القيان يصف القينات في عصره : « وكيف تسلم القينة من الفتنة ، او يمكنها ان تكون عفيفة ، وانما تكتسب الاهواء وتتعلم الألسن والاخلاق بالمشأ ، وانما هي تنشأ من لدن مولدها الى اوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله ، من لهو الحديث وصنوف اللعب والاخابيث ، وبين الخلاء والحجان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع الى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروي الحاذقة منهن اربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين الى اربعة أبيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر ، اذا ضربت بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ، ولا تهيب عن عقاب ولا ترغيب في ثواب

وانما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة ،
ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها ، منكبة عليها تأخذ من المطارحين
الذين طرحهم كاه تجميش وانشادهم مراودة ، وهي مضطرة الى ذلك في صناعتها
لأنها ان جفتها تفلتت ، وان أهملتها نقصت ، وان لم تستقد منها وقفت ، وكل
واقف فالى نقصان اقرب ، وانما فرق ما بين اصحاب الصناعات وبين من
لا يحسنها التزيد فيها والمواظبة عليها ، فهي لو ارادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت
العفة لم تقدر عليها ، وان ثبتت حجة ابي الهُدَيْل فيما يجب على المتفكر
زال عنها خاصة ، لان فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغل بما هي
فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بُلِي بمجالستها
عليه وعليها .

وقال في رسالة النساء : « ورأيت اكثر الناس من البصراء بجرهر
النساء الذين هم جهابذة هذا الامر يقدمون الجدولة ، والمجدولة من النساء
تكون في منزلة بين السمينية والمشوقة ولا بد من جودة القدر وحسن
الحرط واعتدال المنكبين واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون
كاسية العظام بين الممتلئة والقضيفة ، وانما يريدون بقولهم مجدولة ، جودة
العصب وقلة الاسترخاء ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها
قضيب خيزران ، والتثني في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك
للضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على ان النحافة في الجدولة
أعم ، وهي بهذا تحجب على السمان الضخام ، وعلى المشوقات والقضاف ،
كما يجب هذه الاصناف على الجدولات ، ووصفوا الجدولة بالكلام المنشور
فقالوا : أعلاها قضيب وأسفلها كتيب .

وقال في عدم تغليظ حجاب النساء : ثم لم يزل للملوك والاشراف
اماء تختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ونساء يجلسن للناس . . .
ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنن وأشد ما يتزين به فما أنكر ذلك
منكر ولا عابه عائب . . . والدليل على أن النظر الى النساء كلهن ليس

بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحشم من ذلك فلو كان حراماً وهي شابة لم يحلّ إذا غنت ، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حد الغيرة الى سوء الخلق وضيق العطن فصار عندهم كالحق الواجب . وقال في كتاب النساء : « ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ولكننا رأينا أناساً يُزرون عليهم أشد الزرابة ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وان من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والاعمام الا بان ينكر حقوق الأمهات والأخوال فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن . ولولا ان أناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأتمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً بما شرطناه في هذا الكتاب . قال : ونحن وان رأينا ان فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الأمهات وكذلك الاخوة والأخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت قلت ان حق هذا أعظم فان هذه أرحم .

ومن أجل ما وصف به قاضي البصرة قوله : كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار ، لم ير الناس حاكماً زميناً ركيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتسكى فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا تحل حبوته ، ولا يحل رجلاً على أخرى ، ولا يعتمد على احد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة ، فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة الظهر ثم يعود الى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم الى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما

عاد الى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك اذا بقي عليه شيء من قراءة العمود والشروط والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف . فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة الى الوضوء ، ولا احتاج اليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الايام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ولا يشير برأسه ، وليس الا أن يتكلم ثم يوجز ويبلغ باليسير من الكلام الى المعاني الكبيرة .

« فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواله ، وفي السماطين بين يديه ، سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول الى موق عينيه ، فرام الصبر على سقوطه على الموق ، وصبر على عضته ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يفضن وجهه ، أو يذب باصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد الى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الاعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك الى ان يوالي بين الاطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد الى موفه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك . فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجبانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألح في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والاطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، ثم ألبأ الى ان ذب عن وجهه بطرف كفه ، ثم ألبأ الى أن تابع ذلك ، وعلم ان فعله كله بعين من حضره من أمنائه وجلسائه ، فلما نظروا اليه قال : اشهد

ان الذباب أبلج من الخنفساء ، وأزهي من الغراب ، قال : وأستغفر الله فما أكثر من اعجبته نفسه فأراد الله عز وجل ان يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمت اني عند نفسي وعند الناس من أرزن الناس فقد غلبني وفضحتني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وكان بين اللسان قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في اصحابه ، وكان احد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض اصحابه للمنالة .

وبعد فقد عاش الجاحظ ، اذا تدبرت كتبه ، عيش المتفائل لا المتشائم ، تطابه الخلفاء والأمراء فيتحاماهم ويقنع منهم براتب يعيش به وعطايا تدر عليه منهم اذا وشح تأليفه باسمائهم ، سأله أحدهم مرة اذا كان له بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انما انا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ومعني ضيعة لاحتياج الى تجديد ولا الى تسميد .

كان الجاحظ كريماً لايمسك مالاً فيعسر أحياناً . وكان الى الاعتدال أقرب في جدله ومناقشاته ولذلك كانت تكتب له الغلبة على خصومه ، نال منهم وما نالوا منه وضحك من عقولهم وما استطاع قط حساده ان يضحكوا منه ، طال عمره ومرض مرضاً مرضاً عضالاً في عشر الثمانين وما انقطع عن التأليف والافادة . فعلى كل طالب علم يريد الجمع بين البلاغة والعلم ان يقرأ بتدبر كل ما أنبته الأيام من كتب الجاحظ يرددها كل عام ليظل على صلة بالكمال المطلق من الآداب التي تصلح ليكل عصر ، وتحلو منها تقادم العهد بوضعها .

ولا يتسع المقام لاقتباس شذرات من كتبه المطبوعة ففي المطول
منها والمختصر اشياء يجدر استظهارها والرجوع اليها ، ومن هذه الرسائل
والكتب « الدلائل والاعتبار » ، « المحاسن والاضداد » ، « مناقب التوك
وعامة جند الخلافة » ، « تفضيل النطق على الصمت » ، « فصل ما بين
العداوة والحسد » ، « الوكلاء » ، « الرد على النصارى » ، « طبقات
المغنين » ، « ذم صناعة القواد » ، « النساء » ، « الحجاب » ، « المعاد
والمعاش » ، « كتمان السر وحفظ اللسان » ، « رسالة في الجد والمزول » ،
« النابتة » ، « ذم العلوم ومدحها » ، « فصول مختارة منه لعبيد الله
بن حسان النخ » .

(٤)

ابن قتيبة

أبو محمد عبد الله بن مسلم

(٢٧٦)

قتيبة تصغير قتيبة واحدة الأقتاب أي الأمعاء . فارسي الجنس عربي المولد والمنشأ ، قيل لأبيه المروزي لأنه من أهل مرو الروذ أما ابنه فقيل انه ولد في الكوفة وقيل في بغداد . وفي مدينة السلام وهي في أرقى عصورها أخذ عن علماء فن الحديث واللغة والتفسير والنحو والأدب وأخبار الناس . ولم يؤثر له شعر ، ونثره طبقة عالية كثر أقعد المؤلفين في عصره وبعده .

يذكر ابن قتيبة مع الكثيرين من التأليف والمجودين فيه . وقد أقرأ تأليفه في بغداد طول حياته فألقاها محاضرات ودروساً على المستفيدين فزادها التكرار تحقيقاً ونظراً . وكانت كتبه مرغوباً فيها في الجبال (العراق العجمي) وفي الجبال اشتهر أيام كونه قاضياً في دِينورَ من عملها حتى قيل له الدِّينوري طول مقامه في تلك المدينة . وكما كانت تأليفه معتمدة في الشرق كانوا يعجبون بها في الغرب ، ويدعي اهله ان كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لاخير فيه . وكان يطلق عليه اسم الكاتب ، والكاتب العالم « لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة ان عنده العلم والمعرفة » ووصفوه بأنه خطيب أهل السنة على ما كان الجاحظ خطيب المعتزلة وكانا متعاصرين ، ظهر ابن قتيبة وشهرة الجاحظ قد طبقت الآفاق ، وربما حاول ان يسحب عليه ذيل النسيان ، فما أخذ كل من

المتعاصرين أكثر من حقه . كان ابن قتيبة عالماً كبيراً الا ان له أنداداً يائلونه في علماء الملة أما مرتبة الجاحظ في العلوم المختلفة فلا ينازعه فيها منازع .

كان ابن قتيبة يحسن الفارسية وكثيراً ما يقول في بعض كتبه وقرأت في كتب العجم بيد أنه لم يكتب بغير العربية ، ولم يكن له حظ من الفلسفة لأن أهل الحديث يفتنونها ويحاربونها وهو من أئمتهم . وثارت في أيامه مسألة الشعوية أي تفضيل العجم على العرب وكتب أحباب العنصرين كتباً ورسائل فما وسع ابن قتيبة الا أن يكتب كتاباً في فضل العرب وعلومهم برأ فيه أشراف العجم من بغضة العرب وألقاها على أوباشهم وسفلةهم . وكتابه هذا كأكثر كتبه منقول عن غيره ليس له فيه غير سطور معدودة .

واشدد ابن قتيبة على مخالفيه ولا سيما المعتزلة منهم وفي كتابه « مختلف تأويل الحديث » طعن مبرح في الجاحظ قال فيه انه أكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل ، فتجلى حسده تجلياً ظاهراً . وقديماً كان في العلماء الحسد . وما آخذ به الجاحظ بسبب قول الشيء وضده يعد من حسنات الجاحظ ، وكيف لعمرى قضى ابن قتيبة على خصمه في مذهبه هذا القضاء وهو القائل في « عيون الاخبار » من تأليفه « وليس الطريق الى الله واحداً ، ولا كل الخير مجتمعاً في تهجد الليل وسرد الصيام وعلم الحلال والحرام ، بل الطرق اليه كثيرة ، وأبواب الخير واسعة ، وصلاح الدين بصلاح الزمان وصلاح الزمان بصلاح السلطان وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالارشاد وحسن التبصير » .

هجن ابن قتيبة الجاحظ وكفّره ورماه بأعظم كبيرة وهي الكذب ، وسجل عليه أنه أكذب واحد في الامة لأنه كتب أشياء تنفع في تربية العقول في الدنيا كما كتب كل ما ينفع الدين ، وابتدع أدباً يسلي ويعلم ، فهل من العدل أن يرمى بوضع الحديث ، وتشدهد . وتشدد أهل مذهبه

في تحري السليم من السقيم في الاحاديث لا يحتاج الى دليل؟ ورمى أيضاً
أبا الهذيل العلاف بما ليس فيه ووصفه بأنه كذاب أفاك وطمعن فيه
أشنع طعن ، وكذلك كان حظ ثمامة بن الأشرس منه وهما من الائمة
ورمى هذا بركة الدين وتنقص الاسلام والاستهزاء به ، وطمعن في النظام
أيضاً وهو الذي رد على الملحدين والدهريين شطراً كبيراً من عمره .
ولولا أن وقف هؤلاء المعتزلة وطبقتهم موقفهم المحمود في الحملة على أعداء
الاسلام ، ولولا المتكلمون عامة لاستضر الدين ، وما نجا بمجمود الفقهاء
ورواة الحديث . ولذلك قال بعض من ترجوا لابن قتيبة أنه « كان خبيث
اللسان يقع في كبار العلماء » وعلى شدة اعجاب ابن خلدون بأدب الكاتب
لابن قتيبة ما حال اعجابه دون قول الحق فيه عند كلامه على التاريخ
فقال ان كتاب ابن جرير الطبري سالم من الاهواء الموجودة في كتب
ابن قتيبة ، وكتاب ابن جرير أبعد من المطاعن في كبار الامة .

هذا وهو الثقة في علمه المدقق في روايته القائل « ونحن نستحب لمن
قبيل عنا واثم بكتبتنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب
أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصوت مروءته عن دناءة الغيبة
وصناعته عن شين الكذب » وهو الذي قال عند ذكر أسماء الاعضاء
« انها لا تؤثم وانما الاثم في شتم الاعراض وقول الزور والكذب وأكل
لحوم الناس بالغيب » .

نعم جار ابن قتيبة في النيل من خصومه ، ولكثرة ما حمل على الفلاسفة
والمتكلمين ودافع عن أهل الحديث انهم هو بالانحلال فاضطر الى وضع
كتاب في الرد على الجهمية والمشبهة ليدفع عن نفسه كما قال العلامة
بروكلان في الترجمة له في معلة الاسلام . وفي كتابه تأويل مختلف الحديث
ظهرت شخصية ابن قتيبة كل الظهور واستغرق ثلاثة أرباع الكتاب في
تصحيح الاحاديث التي ادعى عليها المتكلمون التناقض ، والاحاديث التي
تخالف عندهم كتاب الله تعالى ، والاحاديث التي يدفعها النظر وحجة العقل .

وقد قام كتابه هذا على الرد على أهل الكلام في ثلبهم أهل الحديث
واسهامهم في الكتب بدمهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية التناقض
وحتى وقع الاختلاف وكثرت النحل وتقطعت العِصم ، وتعادى المسلمون
وأكفر بعضهم بعضاً وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث «
زاعماً أن أهل الكلام يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويفتنون الناس
بما يأتون ، ويبصرون القذى في عيون الناس وعيونهم تُطْرَف على الأجداع ،
ويتهمون غيرهم في النقل ، ولا يتهمون آراءهم في التأويل .

طبع من كتب ابن قتيبة أدب الكتّاب وتأويل مختلف الحديث
والشعر والشعراء وعيون الأخبار وفضل العرب والتنبيه على علومها
والقداح والميسر وكتاب الاشارة وبعض الرسائل اللغوية وكتاب المعارف .
وأدب الكتّاب عمدة في بابه وقد شرحه الجواليقي (- ٥٤٠) وابن السيد
البطليوسي (- ٥٢١) فبيننا ما يرد عليه فيه وما غلط في تصحيحه وغلط
الناقلين عنه وما منع منه وهو جائز . أما كتاب الامامة والسياسة
المنسوب اليه فهو ما ألفه قط بل نخله اياه الناحلون ، وكثيراً ما نُحِل
عظاء المؤلفين تأليف ما خطّوا فيها قلاماً ، ولا خطّوا الى وضعها قدماً .
وهذا من فعل الوراقين وأهل الأهواء على الأغلب ونعني بالوراقين
الناسخين . فأما الورق وبيعه فكان يقال له الكاغدي .

وكما ينحل الوراقون مؤلفات لمؤلفين قد ينتحل بعض المؤلفين تأليف
أو بعضاً من تأليف كتبها غيرهم . فقد قال المفضل بن سلمة الكوفي في
الفاخر ان ابا محمد بن قتيبة نقل كتابه في المعارف من كتاب المحبّر
لابن حبيب . وسواء صحت هذه التهمة أو لم تصح ونحن أميل الى نفيها
لما عرف به ابن قتيبة من الأمانة في العلم ، فان عادة الانتحال كثرت
بعد عصر ابن قتيبة في المؤلفين والوراقين .

تدور معظم كتب ابن قتيبة على تربية الملكة العربية وتحبيب اللغة
الى الدارسين والشادين ، وليس أدبه الأدب الذي يعنيه العارفون بالادب

اليوم ، يحمل الجمال والفن ويهذب النفس ويلهبها ويوسع خيالها . وكتبه كسائر كتب القدامى تخفى فيها شخصيته ولا تظهر غالباً الا اذا حاول الانحاء على مخالفيه فانه اذ ذاك بصاول ويطاول ويتعصب ويحلب ببيابه ، فتبدو نفسيته ويثبت أنه يحسن الايجاز كما يحسن التطويل ، ويحسن الانصاف كما يحسن المحك . وقد يعتذر عنه بأنه لم يظلم خصماء مذهبه كثيراً ، وانه ما خرج في حوارهم عن عادة المؤلفين في الدين عامية ، كل منهم يصحح مذهبه ويطلق على من يناقشه ضروب السباب والشتم ، ويكابر في الحق ويتوعد بالنار يوم القيامة كل من لا يقول قوله . وعلى هذا يقول ابن قتيبة ان الناس لا يتساون جميعاً في المعرفة والفضل وليس صنف من الناس الا وله حشو وشوب . وقال أيضاً : ولا أعلم أحداً من أهل العلم والأدب الا وقد أسقط في علمه أي خطأ ، وقال : من ذا صفا فلم يكن له عيب وخلص فلم يكن فيه شوب . وقال : من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليوسع في العلوم .

وظاهرة بارزة في تأليف ابن قتيبة وتوخيه فيها الايجاز لتسهيل روايتها ويحذف حملها ولا تثقل مؤونتها قال : فعلت لمغفل التأديب كتباً خفافاً في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيتها من التطويل والتثقل لأنشطه لتحفظه ودراسته . واعتذر عن شدة ايجازه في كتابه المعارف بقوله : « وكان غرضي ، في جميع ما اقتصت الايجاز والتخفيف والقصد ، المشهور من الانباء دون المغمور ، ولما يجري له سبب على السنة الناس دون ما لا يجري له سبب ، ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب حتى يعجز عن نسخه فضلاً عن حفظه ، ولاختلط الحفي بالجلي فمجته الآذان ، وملته النفوس » .

وقد يكون من التطويل في التأليف ما تبدو به مقاتل المؤلف وهذا ما كان يتجنبه ابن قتيبة على ما ظهر من اقتضابه في عيون الاخبار وفي

المعارف والشعر والشعراء . فقد قال في مقدمة الشعر والشعراء معتذراً عن استقصائهم : « ولعلك تظن ، رحمك الله ، انه يجب على من الف مثل كتابتنا هذا الا يدع شاعراً قديماً ولا حديثاً الا ذكره وذلك عليه ، وتقدّر ان يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والاخبار والملوك والاشراف الذين يبلغهم الاحصاء ويجمعهم العدد . والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والاسلام اكثر من ان يحيط بهم محيط ، او يقف من وراء عددهم واقف ، ولو انفذ عمره في التنقيب عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا احسب احداً من علمائنا استفرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر الا عرفه ولا قصيدة الا رواها .

قال : « ولم اسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل الى الفريقين ، واعطيت كلا حظّه ، ووفرت عليه حقه . فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل في زمانه ، او انه رأى قائله . ولم يقصّر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية (١) في اوله . فقد كانت جرير والفرزدق والاعطل وامثالهم يعدون محدثين وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثرت المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته . ثم صار هؤلاء قدما عندنا بعد العهد منهم ، وكذلك

(١) الخارجي الذي يخرج ويشرف بنفسه من غير ان يكون له قديم . وقيل الخارجي كل ما فاق جنسه ونظائره

يكون من بعدهم لمن بعدنا كالحُرَيْمِيِّ والعَتَّابِيِّ والحَسَنِ بْنِ هَانِيٍّ وَاشْبَاهِهِمْ .
وهذا كلام جيد ان صدق على عصره فلا يصدق على العصور التالية
وقد اصبحت الاجادة في الشعر والنثر تبعاً للحالة الاجتماعية والسياسية ،
وتدنت الصناعتان كل التدني بفساد اللغة الناشيء من دخول الاعاجم في
العرب . ولما ندر من يجيز على الشعر اصبح اداة من ادوات التسوّل
والكفدية فقط ، ولم تبق له تلك الرّوعة ولا هاتيك العبقة .

واعجب جهابذة الادب بعيون الاخبار كما اعجبوا بمعظم كتبه
ولاسيا ادب الكتاب . قال السمعاني : سمعت الامير ابا نصر الميكلّي يقول :
تذاكرنا المتنزهات يوماً وابن دُرَيْدٍ حاضر فقال بعضهم : انزه الاماكن
غوطة دمشق . وقال آخرون بل نهر الأبلّة . وقال آخرون : بل سُفد
سمرقند . وقال بعضهم : نهر وان بغداد . وقال بعضهم شعب بوان بأرض
فارس . وقال بعضهم : نوبهار بلخ . فقال هذه متنزهات العيون فأين
أنتم من متنزهات القلوب ، قلنا : وما هي يا أبا بكر ؟ قال عيون
الاجبار للقتبي والزهرة لابن داود الخ .

وكتاب الأشربة أو كتاب الشراب كما أطلقه عليه المؤلف في أحد
كتبه ، مزج فيه الأدب بالفقه على عادته . وكانت مسألة الأشربة قد
شغلت أمناء الشرع والفقه في أيامه وفي الأيام السالفة والمشرعون بين
محلل ومحرم الأنبيذة كلٌّ يفتي بمبلغ علمه ، وما وصل الى رأيه من نصوص
الكتاب والسنة . فكتب ابن قتيبة رأيه مستنداً الى أقوال الأئمّة ذاكراً
ماتعاور هذه المسألة من المرادات فجاءت فتواه مستوفاة ، وحلّ المسألة
المتنازع عليها باخلاص بما لم يكده يسبق للفقهاء بلوغ مثله ، ومعظم
أرباب الفقه لم يحكموا الأدب كما أحكمه ابن قتيبة فجاءت بعض كتاباتهم
جافة لاتذوقها النفوس .

والناظر في كتاب الأشربة يتراءى له أنه يتصفح سفر أدب طريف
يفهمه كل من يقرؤه ، ويعجب من توسع المؤلف في حريته وروايته

الاخبار والاشعار المستطرفة . وجلالة المؤلف وجماله ما كتب في الاشربة اعتمد من جاءوا بعد عهده من رواة الاخبار على ما كتب وشحنوا بروياته أسفارهم على ما فعل ابن عبد ربه في العقد الفريد وغيره . وكان لهم من تحقيقه خير عون على الحوض في مسألة يسكاد لاينجو الخائض فيها من ركوب مركب خشن جامح .

ومن مزايا ابن قتيبة انه كان عارفاً بزمانه ، وتقلده القضاء فتح له باباً ولج منه على معرفة حال الراعي والرعية . كان عصره آخر عصور الترقى في بني العباس وأول عصور التذني فوصفه وصفاً يدل على أن له قدم صدق في السياسة والاجتماع فقال فيه « انه خوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عاراً على صاحبه والفضل نقصاً ، وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس ، والجاه الذي هو زكوة الشرف يباع ببيع الخلق ، وآضت المروآت في زخارف النجد^(١) وتشيدت البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق المازهر ومعاطاة الندمان ، ونبتت الصنائع ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الحواطر ، وسقطت همم النفوس ، وزهد في لسان الصدق » . ووصف العمال بأنهم « العلماء بتحلب الفياء وقتل النفوس فيه ، واخراب البلاد ، والتوفير العائد على السلطان بالחסران المبين » .

لاجرم ان ابن قتيبة من جهاذة العلماء الذين هضموا علمهم . وقد وفق الى اختيار أطايب أخبار القدماء ، ورزق حظاً من التنسيق والترتيب ، فأبرز تأليفه منقحة محررة . وانا أن نقول أيضاً ان ابن قتيبة في ذاته لم يكن جامداً على ماقرأ في الكتب ، وكان يحسن استخدام عقله ويجيد التخلص من المآزق ، واذا رأى الخطر يوشك أن يدهمه يخفف في الحال

(١) النجد ماينتد به البيت من البسط والوسائد والفرش والجمع نجود ونجاد وقبل ماينتد به البيت من المناع أي يزين .

الى درئه عنه بنعومة والباقة كما فعل في الرد على الشعوبية وفي الرد على
الجهمية والمشبهة . ولعله ماجسر على الضرب في المعتزلة الا لما شاهد أن
شمسهم آذنت بالمغيب ، وان مكائنتهم في قصور خلفاء بني العباس أخذت
تتزعزع ، والامة تحاربهم في كل أفق حرباً لاهوادة فيها ، وما جاوز
الانحاء عليهم الا لما انقضى دور المأمون والمعتصم وهما من أكبر حماة
وغالى في طعنه بما لايناسب عظمة علمه وأخلاقه . جلّ من لا عيب فيه .



(٦)

طيفور

احمد بن أبي طاهر

(٢٨٠)

كان ابوه طيفور من مرو الروذ من ابناء خراسان ومن اولاد الدولة ،
وولد ابنه احمد في بغداد سنة اربع ومائتين ، واخذ الادب والحديث عن رجال
عصره وروى عنه جماعة ، وانصرف الى الرواية والاخبار . وكان لأول
نشأته مؤدب صبيان ، ثم جلس في سوق الوراقين ، واشتهر بالشعر والكتابة ،
قال فيه صاحب تاريخ بغداد : انه احد البلغاء الشعراء والرواة ، من
اهل الفضل المذكورين في العلم . ووصفه المسعودي بالشاعر ، واورد
له قصيدة رثى بها يحيى بن عمرو كان ظهر بالكوفة سنة ثمان واربعين
ومائتين جاء فيها :

سلام على الاسلام فهو مودع اذا ما قضى آل النبي فودعوا
الى ان يقول :

بني طاهر واللوم فيكم سجية وللغدر منكم حاسر ومقنع
قواضبكم في الترك غير قواطع ولكنها في آل احمد تقطع
لكم كل يوم مشرب من دماهم وغلثها من شرها ليس تنقع
وما حكمم للطالبيين شرع وفيكم رماح الترك بالقتل شرع
لكم مرتع في دار آل محمد وداركم للترك والحبش مرتع
وانشد بعض اهل الادب قوله في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر الذي قاله :
اذا ابو احمد جادت لنا يده لم يحمد الأجودان البحر والمطر
ك (٧)

ويحتمها بقوله :

الجود منه عيان لا ارتياب به اذ جود كل جواد عنده خبر
قالوا لو استعمل الانصاف لكان هذا احسن مدح قاله متقدماً ومتأخراً .
ومن شعره

حسب الفتى ان يكون ذا حسب من نفسه ليس حسبه حسبه
ليس الذي يتبدي به نسب مثل الذي ينتهي به نسبة

ولست مكانة ابن طيفور بشعره ، ولا بما روى من حديث ، فالشعر
كان آلة من آلاته ، والمحدثون كثار ، ومنصرفون اليه في الليل والنهار .
ولكن ابن طيفور كان عظيماً بروايته ، فان ما تركه من كتبه يبلغ
خزانة صغيرة . ولقد وصفه ابو بكر الصولي وقال فيه انه صحفي ، اي
يروى الخطأ عن الصحف ولم يأخذ عن الشيوخ ، وانه حاطب ليل ، وانه
يشترط في كتبه اختيار الشعر الجيد ويأتي بالردية ، ويزعم انه يقلل
فيكثر ، وفي اكثاره يسيء ، ثم يحكي الكذب ويخطيء في التاريخ ،
وفي نسب الشعر ، هذا ماروي عنه انه قال فيه . ومن من المؤلفين
يا تُرى خلا من نقد ؟ وهل خلا الصولي نفسه منه فارتضى النقاد تدوينه ؟
وهل كان ذوقه عالياً كلما اراد اختيار شعر ونثر . والاجتهاد ما زال
يختلف في الرجل الواحد ، وفي العام الواحد ، فما بالك في الرجال وفي
العصور . وان راوية مكثراً مثل طيفور لا تكاد تجد كتاباً من
الامهات التي ألفت بعد عصره الا وينقل او يكثر من النقل من كتبه ،
لا يقدح في مروياته ولا يسقطه بأنها من بضاعته .

ثم أي عالم خلا من لحن وتصحيف ؟ ذكروا أن بعضهم قال فيه
انه كان بليداً في علمه وأنه يلحن ، وأنه قال ذلك للبحثري فأقره عليه .
وعرفنا أنه كانت بين البحثري وطيفور أمور تراخت بها صلاتهما ، فألف
طيفور كتاباً في سرقات البحثري من أبي تمام ، فبالطبع يحمى أنف
البحثري منه ويظعن في علمه وأدبه . أما هو فقد طعن البحثري في

أخلاقه طعنة بجلاء حرام رأبها على وجه الدهر ، قال فيه : ما رأيت
أقل وفاءً من البحتري ولا أسقط : رأيته قائماً ينشد أحمد بن الحُصيب
مدحاً له فيه ، فحلف عليه ليجلسن ، ثم وصله واسترضى له المنتصر ،
وكان غضبان عليه ، ثم اوصل له مديحاً إليه وأخذ له منه مالا فدفعه
إليه . ثم نكب المستعين أحمد بن الحُصيب بعد فعله هذا بشهور ، فلعهدي
به قائماً ينشده :

لابن الحُصيب الويل كيف انبرى بافكك المردي وابطاله
كاد أمين الله في نفسه وفي مواليه وفي ماله
ورام في الملك الذي رامه بغشه فيه وادغاله
إلى ان قال وكلها طعن في ابن الحُصيب :

فهو حلال الدم والمال ان نظرت في ظاهر احواله
قال ابن ابي طاهر : كان ابن العليجة فقيهاً ، يفتي الخلفاء في قتل
الناس نزحه الله ، ثم ختم القصيدة بقوله :

والرأي كل الرأي في قتله بالسيف واستصفاً أمواله
وهذا أعظم هجوٍ يهجو به البحتري ، وقد هجاه طيفور بقصيدة أيضاً ،
فلا غرو أن يسقطه البحتري ويوذل اديه .

وقال الذين صغروا شأن طيفور في الادب انه كان مع هذا جميل
الأخلاق ظريف المعاشرة خلواً من الكهوب أي لا يتغير لونه ثابتاً في
خلقه ، وهو الى هذا معروف بمرحته ، يبتدع النكات ويحسن التقاطها
وابرازها للناس ، وكتابه بلاغات النساء نموذج من منزعه وكثرة تتبعه
(وهو جزء صغير من كتابه الكبير المشهور والمنظوم) . وألف في المزاح
والمعاتبات وفي أمور فيها دعابة وأدب واقعي .

وقصيدته ليلة بات في «دير السوسن» في عودته من «سر من رأى»
وقد زار بعض كتابها ومدحه فأحسن صلته ، ووهب له غلاماً رومياً
حسن الوجه ، واعترفه بأنه بات والغلام يسقيه ، والراهب ندمه حتى

مات سكرآ ، وطلبه المغفرة عما أتى من ربه - كل هذه أمور اذا صحت
تصف جانباً ظاهراً من مراحه وتبذله . ومن هذه الأمور ما افترفه في
صباه ، ومنها ما أتاه في الكهولة ، وشعره لا يخلو من نكته ، وربما قال
بعض شعره من أجل نكته فأعقبته نكبة ، كما حدث عن نفسه قال :
خرجت من منزل أبي الصقر نصف النهار في تموز فقلت : ليس بقري
منزل أقرب من منزل المبرود ، اذ كنت لا أقدر أصل الى منزلي بباب
الشام ، فجمته فأدخلني الى حويشة له ، وجاء بائدة فأكلت معه لونين
طيبين ، وسقاني ماءً بارداً ، وقال لي : أحدثك الى ان تنام ، فجعل
يحدثني أحسن حديث . فحضرني لشؤمي وقلة شكري بيتان فقلت : قد
حضرني بيتان أنشدتهما ؟ فقال : ذاك اليك ، وهو يظن أني قد مدحته
فأنشدته .

ويوم كبح الشوق في صدر عاشق على انه منه أحره وأرمد
ظلت به عند المبرود قائلاً فما زلت في ألفاظه أنبرد

فقال لي : قد كان يسعك اذا لم تحمد ألا تدم ، وما لك عندي
جزاء الا اخراجك ، والله لا جلست عندي بعد هذا . فأخرجني فضيت
الى منزلي بباب الشام ، فمرضت من الحر الذي نالني مدة ، فعدت باليوم
على نفسي . وقد روي انه قال في المبرود ، وحسبك من عالم محقق .

كملت في المبرود الآداب واستقلت في عقله الألباب
غير أن الفتى كما زعم النا س دعي مُصَحَّفٌ كذاب

ربما زعم زاعم أنه ليس من الانصاف أن يقرن هذا العيار من الرجال
الى عطاء العلماء المعروفين في علوم الدنيا والدين فالجواب ان في الحقي
ان يجعل هذا الرجل في الصف الاول بين الرجال لأن أدبه أثر ما لم
يشمر غيره مثله ، والعبارة بمن يسد ثمة صغيرة من بناء الآداب كانت لولاه
خالية ، ومن يجود فناً واحداً من فنونه بامتاع وابداع .

(٧)

المبرّد

محمد بن يزيد بن العباس الثمالي الأزدي أبو العباس

(٢٧٥)

ولد بالبصرة ، واختلف الباحثون في لقب المبرّد فقيل انه لقب بالمبرّد لأنه لما صنف المازني كتاب الألف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازني : قم فأنت المبرّد بكسر الراء أي المثبت للحق ، فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء . وقيل في سبب هذه التسمية أن صاحب الشرطة طلبه للمنادمة والمذاكرة فكره ذلك ، فدخل الى ابي حاتم السجستاني فجاء رسول الوالي يطلبه فقال له ابو حاتم : ادخل في هذا ، يعني غلاف مزمنة فارغاً فدخل فيه وغطى رأسه ، ثم خرج الرسول فقال له : ليس هو عندي ، فقال اخبرت أنه دخل اليك . فقال : أدخل الدار وفتشها ، فدخل وطاف في كل موضع في الدار ، ولم يفتن لغلاف المزمنة . ثم خرج فيجعل ابو حاتم يصفق وينادي على المزمنة « المبرّد المبرّد » وتسامع الناس بذلك فلم يجوابه . وهو يمتّ بنسبه الى الأزدي .

أخذ عن الجرمي والمازني والسجستاني وصار امام العربية في بغداد واليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني ، وغلب عليه النحو فعرفه أكثر القدماء « بمحمد ابن يزيد النحوي » وكان فصيحاً بليغاً مفوهاً مليح الأخبار ثقة فيما يرويه كثير النوار في طرافة ولباقة ، وكان الامام اسماعيل القاضي يقول : ما رأيت محمد بن يزيد مثل نفسه . وقيل ان

الناس بالبصرة كانوا يقولون هذا . وقال هو عن نفسه وعجزه عن الكتابة مع كثرة علمه في الأدب : « لا احتاج الى وصف نفسي لعلم الناس بي انه ليس أحد من الحافقين تحتلج في نفسه مشكلة الالقيني بها ، وأعدني لها ، فأنا عالم ومتعلم وحافظ ودارس ، لا يخفى عليّ شئ من الشعر والنحو والكلام المنشور والخطب والرسائل . وربما احتجت الى اعتذار من فلتة أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذي أقصده نُصب عيني ، ثم لا أجد سبيلاً الى التعبير عنه بيد ولا لسان ، ولقد بلغني أن عبيد الله ابن سليمان ذكرني بخير ، فحاولت ان أكتب اليه رُبعة اشكره فيها ، واعرّض ببعض أموري ، فأتعبت نفسي يوماً في ذلك فلم أقدر على ما ارتضيه منها ، وكنت أحاول الافصاح عما في ضميري فينصرف لساني الى غيره ، فزيادة المنطق على الادب خدعة ، وزيادة الادب على المنطق هُجنة » أي انه لم يكن بالكاتب الذي يرتضي كتابته ، وان كان في الأدب امام الائمة . قال الآمدي : وهذا محمد بن يزيد المبرّد ما علمناه دُورن له كبير شيء .

رجل أقرّ على نفسه بضعف الكتابة كان حظه منها كعظ أكثر النهويين واللغويين في المتقدمين والحديثين ، ومع هذا ألف نحو خمسة وأربعين مصنفاً أجلّ المطبوع منها وأشهرها « السكامل » وهو كتاب تمتع يحيى مع البيان والتبيين والامالي والأغاني ، حوى قواعد نحوية وصرفية وإشارات لغوية وأدبية وتاريخية قال هو فيه : هذا كتاب ألفناه يجمع ضرورياً من الآداب ما بين كلام منشور وشعر مرصوف ، ومثل سائر وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة . والنية فيه ان نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مُستغلق ، وان نشرح ما يعرض من الاعراب شرحاً شافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكثفياً وعن ان يرجع الى احد في تفسيره مستغنياً . وقال في خاتمة كتابه هذا : هذا كتاب قد وفيناه جميع حقوقه ،

ووفينا بجميع شروطه الا ما اذهل منه النسيان ، فانه قل ما يُخلى من ذلك . قال القاضي الفاضل انه طالع السكامل سبعين مرة وكل مرة يزداد منه فوائد .

وكان جل اعتماد المبرد على الشعر الجاهلي ولم يخجل كتابه من شعر المحدثين وخطبهم وان لم يكن بحجة ولكنهم يجيدون فيذكر شعرهم لجودته لا للاحتجاج به قال : وليس لقدم العهد يُفضّل القائل ، ولا لحدثان عهد ينضم المصيب ، ولكن يُعطى كل ما يستحق . وحبته في الاختيار من أشعار المولدين المستحسنة الحكيمة انه يحتاج اليها للتمثيل لأنها أشكل بالدهر ويستعار من ألفاظها في المحاطبات والخطب والكتب . أي انه لم يستغن عن شعر المحدثين وخطبهم لأن خطب الجاهلية ومحاوراتها لا تكفي في تخريج الطالب في الادب .

وأدرك المبرد ان كتابه قد يثقل على المضم ، ولا هم عامة القراء لما فيه من قواعد التصريف ومشكلات النحو ، وحل الألفاظ العويصة ، فقال في بعض فصوله : نذكر في هذا الباب من كل شيء شيئاً لتكون منه استراحة للقاري ، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف ، وتخلط ما فيه من الجد بشيء يسير من الهزل ليستريح اليه القلب وتسكن اليه النفس . فمؤلفنا اذاً كثير الأمل ، حسن النوادر ، أملى ان المنصور أبا جعفر ولي رجلاً على العميان والايتم والقواعد من النساء اللواتي لا أزواج لهن ، فدخل على هذا المتولي بعض المتخلفين ومعه ولده فقال : ان رأيت أصلحك الله أن تثبت اسمي مع القواعد . فقال له المتولي : القواعد نساء فكيف أثبتك فيهن فقال : ففي العميان . فقال : أما هذا فنعم ، فان الله تعالى يقول « لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » . فقال : وثبت ولدي في الايتم ، فقال :

هذا أفعله أيضاً ، من يكن أنت أباه فهو يتيم ، فانصرف عنه وقد أثبتته في العميان وولده في الايتام .

ومن أهم ما حوى كتاب الكامل أخبار الخوارج وشعرهم المرقص المطرب ، وسيرة بعض المشهورين من بلغاتهم ، وقد استغرق ذلك جزءاً عظيماً من الكتاب . وختم باب الخوارج بقوله : وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج ، ولكن ربما اتصل شيء بشيء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح المقترح ما يفسخ به عزم صاحب الكتاب ، ويصده عن سكتنه ويزيله عن طريقه ، ونحن راجعون ان شاء الله الى ما ابتدأنا له هذا الكتاب ، فان مرّ من اخبار الخوارج شيء مرّ كما مرّ غيره ، ولو نسقناه على ما جرى من ذكرهم لكان الذي يلي هذا خبر متجدة وأبي قديك وعمارة الرجل الطويل وشيب ، ولكان يكون الكتاب للخوارج مخلصاً .

وأبان المؤلف في مواطن كثيرة من الكامل انه في نقد الشعر واختيار جيده آية وما قال : وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبّه ، واحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه فيه بفظنته على ما يخفى عن غيره ، وساقه برصف قوي واختصار قريب ، قال قيس بن معاذ :
وأخرج من بين الجلوس لعلي احدث عنك النفس في السر خاليا
واني لأستعشي وما لي نعمة لعل خيالاً منك يلقى خيالها
وفي هذا الشعر :

أشوقاً ولما تمض لي غير ليلة رويداً الهوى حتى يغيب لياليا
قال : هذا من أجود الكلام وأوضحه معنى ، ويستحسن لذي الرمة قوله في مثل هذا المعنى :

أحب المكان الفقير من أجل انني به اتغنى باسمها غير مُعْجَم
ومع هذا قال بعض المتقدمين ان ذوق المبرد في الشعر غير سليم ، وقال ابو بكر بن مجاهد : ما رأيت احسن جواباً من المبرد في معاني

القرآن فيما ليس فيه قول لمقدم . وزعم بعض من ترجوا له انه كان
انجل الناس بكل شيء وانه قال : ما وضعت بجذاء الدرهم شيئاً قط
الا رجح الدرهم في نفسي عليه ، هذا مع سعة كان فيها ووُجِد .
وقالوا كان ثعلب على مثل ما كان عليه المبرد في الامسالك وفوقه في السعة ،
غير ان المبرد كان يسأل سؤالاً صراحاً ، وكان ثعلب يعرض ولا يصرح .
وقال بعضهم ولولا اني اكره ان اكون عياباً وللعلماء خاصة ، لأخبرتكم
عنهما (ثعلب والمبرد) من الأخبار التي تزيد على أخبار محمد بن الجهم
والبرمكي والكندي وخالد بن صفوان والأصمعي في الامتاع . ولاحمد
ابن عبد السلام الشاعر في مدح المبرد :

وأنت الذي لا يبالغ الوصف مدحه وان اطب المداح مع كل مطنب
وأنتك والفتح بن خاقان ركباً وأنت عديل الفتح في كل موكب
وكان أمير المؤمنين اذا رنا اليك يطيل الفكر بعد التعجب
وأوتيت إعلماً لا يحيط بكنهه علوم بني الدنيا ولا علم ثعلب
يروح اليك الناس حتى كأنهم ببابك في أعلى مني والمحصب
ومطلع هذه القصيدة :

يا ابن سرة الأزرد ازد شنوءة وازد العتيك الصدر رهط المهلب
وقال فيه أيضاً :

رأيت محمد بن يزيد يسمو الى الخيوات في جاه وقدر
جلس خلائف وعدديّ ملك واعلم من رأيت بكل امر
وفتيانية الظرفاء فيه وأبهة الكبير بغير كبير
فينثر ان اجال الفكر دراً وينثر لؤلؤاً من غير فكر
وكان الشعر قد أودى فأحيا ابو العباس دائر كل شعر

قوله جلس خلائف وعدديّ ملك انه نبيل في أصله وفرعه، وان فيه مرح الشباب
وأبهة الكبير بدون كبير، وانه بليغ مفوه ، وانه أحيا الشعر الذي كان نسي .
كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المتعاصرين من المنافرة واشتهر
ذلك حتى قال بعضهم :

كفي حزناً انا جميعاً ببلدة
وكل لكل مخلص الود وامق
نروح ونغدو لا تزاور بيننا
فأبداننا في بلدة والتقاؤنا

وقال بعضهم في المبرد وتعلب :

ايا طالب العلم لا تجهان
تجد عند هذين علم الورى
علوم الخلائق مقرونة
عسى كلقيا نعلب والمبرد

وكان المبرد يحب الاجتماع بشعلب للمناظرة وتلمب يكره ذلك ، لأن المبرد
حسن العبارة ، حسن الاشارة ، فصيح اللسان ، ظاهر البيان ، وتعلب
مذهبه مذهب المعلمين ، فاذا اجتمعوا في محفل حُكِّم للمبرد على الظاهر الى ان
يعرف الباطن . ولما مات المبرد قال فيه تعلب هذه الأبيات وهي
لأبي بكر بن العلاف :

ذهب المبرد وانقضت أيامه
بيت من الآداب أضى نصفه
فابكوا الماسلب الزمان ووطنوا
خرباً وباقي النصف منه سيخرب
وتزودوا من تعلب فبكأس ما
لدهر أنفسكم على ما يسلب
اوصيكم ان تكتبوا انفاسه
شرب المبرد عن قريب يشرب
ومن شعر المبرد وقد بلغه ان
ان كانت الأنفاس بما يكتب
تعلباً نال منه :

رب من يعنيه حالي
قلبه ملائني
وهو لا يجري ببالي
وفؤادي منه خالي
ومن شعر المبرد :

حبذا ماء العنا
بها ينبت لحمي
ايها الطالب شيئاً
كل بماء المزن ت
قيد يريق الغائيات
ودمي اي نبات
من لذيذ الشهوات
فاح حدود ناعمات

ابن عبد ربه

ابو عمر احمد بن عبد الله بن حبيب بن حُدَيْر بن سالم
مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

(٣٢٨)

أموي أصلاً وفرعاً وبيئةً ونشأةً ، تخرج في الدين واللغة بعلماء بلده
وغلب عليه الأدب فاشتهر به وقويت ملكته في الشعر والنثر باتصاله بالمنادمة مع
ملكين من ملوك الأمويين في الأندلس . ولا بد أن تكون الأيام التي قضاها
في قصر الملك خراجته في السياسة ، وعرف آداب الملوك وما تتوقف
عليه منادمتهم من الأدوات ، ومنها الموسيقى والولع بالجمال ، وقد رزق
الى هذا حساً شفافاً فكان شاعراً عظيماً وقد وصفوه بأنه كان فارس
حلمة الشعر في القرن الرابع في الأندلس ، ولم تكن براعته في الشعر
أقل من براعته في النثر . وصفه الحميدي مؤرخ الأندلس انه كانت له
بالعلم جلالة ، وبالادب رياسة وشهرة ، مع ديانة وصيانة ، وانفقت له
أيام وولايات للعلم بها نفاق ، فساد بعد التحول ، وأثرى بعد الفقر ،
وأشير بالتفضيل اليه ، الا انه غلب عليه الشعر . وقال فيه ابن خلكان
انه من العلماء الكثيرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس ، وصنف
كتابه العقد وهو من الكتب الممتعة حوى من كل شيء .

نعم كان ابن عبد ربه مولعاً بالجمال والطرب وهو في الموسيقى من
الافذاذ العارفين بها . وذكروا انه وقف تحت روشن لبعض الرؤساء
فرُشَّ بماء وكان فيه غناء حسن ولم يعرف فقال :

يا من يضمن بصوت الطائر الغرد ما كنت أحسب هذا البخل في أحد
لو ان أسمع اهل الارض قاطبة اصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تقلده صوتاً يجول مجال الروح في الجسد
لو كان « زُرِّيَاب » حياً ثم أسمع له لذاب عن حسد او مات من كمد
أما النييد فاني لست أشربه ولست آتيك الا كسرتي بيدي
وهو شاهد على تقواه وان ليس له أرب في غير الطرب من دون
ارتكاب محرم ، واقتضته صناعة الشعر في صباه ان اوغل في غزله الى
التي ليس بعدها فأقلع في آخر عمره عن صبوته ، وأخلص لله في توبته ،
كما قالوا فيه ، ولقد اعتبر اشعاره التي قالها في الغزل واللهم ، وعمل على
أغاريضها وقوافيها في الزهد ، وسمها الممحصات ، فمنها القطعة التي اولها
« هلا ابتكرت لبين انت مبتكر » فمحصها بقوله :

يا قادراً ليس يعفو حين يقتدر ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر
عين بقلبك انت العين غافلة عن الحقيقة واعلم انها سفر
سوداء تفر من غيظ اذا سعرت للظالمين فما تبقي ولا تذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر
انت المقول له ما قلت مبتدئاً « هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر »
واصل الابيات قالها ابو عمر في بعض من كان نال منه وقد ازمع
على الرحيل في غداة عينها ، فانت السماء في تلك الغداة بمطر جود منعته
من الرحيل فكتب اليه ابن عبد ربه :

هلا ابتكرت لبين انت مبتكر هيات يا بنى عليك الله والقدر
مازلت ابكي حذار البين ملتهداً حتى رثي لي فيك الريح والمطر
يابوده من حياً مزن على كبد نيرانها بقليل الشوق تستعر
آليت الا ارى شمساً ولا قمرآ حتى أراك فانت الشمس والقمر
نعم نقض كل قطعة قالها في الصبا والغزل بقطعة في المواعظ والزهد
من ذلك قوله :

الا انما الدنيا غضارة ايكة اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال الا فجائع عليها ولا اللذات الا مصائب
وكم سخنت بالامس عيناً قريرة وقرت عيون دمعها الآن ساكب
فلا تكتحل عينك منها بعبرة على ذاهب منها فانك ذاهب

ومن شعره وهو آخر ما قاله فيما قيل :

بليت وابلتني الليالي بكرتها وصرفات للايام معتوران
وما لي لا ابكي لسبعين حجة وعشرات من بعد ما سنتان
قال الحميدي وشعره كثير مجموع رأيت منه نيفاً وعشرين جزءاً ،
من جملة ما جمع للحكم الملقب بالناصر الاموي ومن شعره السائر :
الجسم في بلد والروح في بلد ياوحشة الروح بل ياغربة الجسد
ان تبك عينك لي يا من كلفت به من رحمة منها سهان في كبد
ومن شعره :

ودعني بزفرة المشتاق ثم قالت متى يكون التلاقي
وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والاطواق
ياسقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق
ان يوم الفراق افظع يوم لبتني مت قبل يوم الفراق
ومن شعره ايضاً والأصح أنها للأخطل :

ان الغواني اذا راينك طاوياً برد الشباب طوين عنك وصالا
واذا دعونك عمهن فانه نسب يزيدك عندهن خبالا

وكتاب العقد الفريد الذي خلد ذكره كما خلد بالاغاني اسم ابي الفرج
الاصفهاني قسمه على خمسة وعشرين كتاباً في كل باب منها جزآن ، وكل
كتاب باسم جوهرة من جواهر العقد ، فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان
ثم كتاب الفريدة في الحروب ثم كتاب الزبوجة في الاجواد ثم كتاب
الجمانة في الوفود ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ثم كتاب الباقوتة
في العلم والادب ثم كتاب الجوهرة في الامال ثم كتاب الزمردة في

المواعظ ثم كتاب الدرّة في التعازي والمرائي ثم البيتية في الانساب
والعسجدة في كلام الاعراب الى غير ذلك مما يدخل فيه الاجوبة والخطب
والتوقيعات والفصول والصدور واخبار الكتبة والخلفاء وَايامهم واخبار
زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة وَايام العرب ووقائعهم وفضائل الشعر
ومقاطعه ومخارجه واعاريض الشعر وعلل القوافي والاحان والنساء
وصفاتهن والمنبئين والممرورين والطفيليين والتحف والهدايا والملح والطعام
والشراب وطبائع الانسان والحيوان وتفاضل البلدان .

وفى المؤلف الى هذا التقسيم والتنسيق في تأليفه فحبيب الى عشاق الادب
تداوله ، وراج في الشرق على مر العصور وان كان اصله من ارضه ،
تسوّقه مؤلفه من بضائع المشرق واسواقه . ندر من اجاد واجمع الادب ،
والاجادة تتوقف على ذوق عالٍ ، ومادة واسعة في الشعر والخطب ،
فابان فيما نقل عن حسن اختياره واختيار الكلام كما قال المؤلف اصعب
من تأليفه ، واختيار الرجل وافد عقله . وأينا مثلاً من ذلك في الاغاني
ومحاضرات الراغب وعيون الاخبار لابن قتيبة . فكتاب العقد انتقاء اذاً
غربي من كلام مشاركة فيجاء زبدة من ادب العرب في زهو اللغة في
الجاهلية والاسلام ، بل معاملة من كلام اهل القرون الثلاثة الاولى منقحة
مصححة . وقالوا ان صاحب بن عباد حرص على كتاب العقد حتى حصل
عنده فلما تأمله قال : هذه بضاعتنا ردت الينا ، ظننت ان هذا الكتاب
يشتمل على شيء من اخبار بلادهم وانما هو مشتمل على اخبار بلادنا
ولا حاجة لنا فيه فرده . واذا ثبت حكم صاحب على كتاب العقد
فلا يعقل ان يرده بهذه السهابة وهو الذي جمع خزانة فيها الوف من الاجزاء
وبعضها قد لا يكون من الممتع ، فالعقد الفريد لايزهد فيه صاحب على
هذا الوجه ، وهو مهما كان مقداره فهين ان يجد له مكاناً في رفوف
خزائنه العظيمة .

المسعودي

ابو الحسن علي بن الحسين بن علي الهذلي

(٣٤٦)

قيل انه من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي ، ولد في ارض بابل وسكن ببغداد ونزل البصرة . ودأب في ريعان العمر على البحث في اخلاق الشعوب وطبائع الامم ، ودرس المظاهر الطبيعية والجغرافية والفلكية ، وكان اخبارياً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر ، ومن الكثيرين من التأليف والمجودين فيه .

نزل الشام ومصر مدة طويلة وفي سنة ٣١٤ كان في طبرية وفي سنة ٣٢٢ زار انطاكية ومدن الحدود الشامية وبعد رحلة قصيرة عاد الى البصرة وتوطن دمشق سنة ٣٣٤ وفي مصر مات سنة ٣٤٥ او ٣٤٦ ترجم له صاحب طبقات الشافعية على انه شافعي وقيل انه كان معتزلي العقيدة ، وقال صاحب روضات الجلمات انه من أصحابه الامامية وانه الشيخ المتقدم الكامل باعتراف العدو والولي . وعده النجاشي من رواة الشيعة وقال ان له كتباً في اثبات الوصية لعلي بن ابي طالب . وقالوا انه مأمون الحديث عند العامة والخاصة . يعنون بالعامه اهل السنة وبالخاصة الشيعة . وظاهر كلامه في كتابه « مروج الذهب » انه عامي او شعبي مُتقٍ ، ولم يقبله بعض رجال الشيعة في جملتهم لأنه ذكر في مروج الذهب أيام خلافة الاول والثاني ثم خلافة علي ثم خلفاء بني أمية ثم بني العباس وذكر سيرهم وآثارهم وقصصهم وأخبارهم على طريقة العامة ونحو توارخهم

من دون تعرض لذكر مساويهم وقبائحهم كظلمهم أهل البيت وغير ذلك .
ومعنى هذا انهم يريدون السكوت عما وقع وأن يطعن على كل من ولي
الخليفة على غير شرطهم . والمسعودي من آمن على ما يظهر بالامر الواقع ،
وما أحب أن يخرج عن طور المؤرخ في الجملة ، ولو نظرنا بعض ما قاله
في يزيد بن معاوية بما لا يؤيده التاريخ لشهدنا أنه خدم التشيع خدمة
ناقض فيها ثقات أصحاب الاخبار .

وربما كان المسعودي من يهتم للتاريخ اكثر اهتمامه بأن يقال فيه انه
شيعي او سني . وبما امتاز به بين مؤرخي القرون الاولى انه كان من
عشاق الرحلات طاف كما قال بلاد السند والزنج والصف (جنوبي
الكوشنشين) والصين والزابج (جاوة) وتقمم الشرق والغرب فتارة
بأقصى خراسان وتارة بواسط وارمينية واذربيجان والران والبلقان ، وطوراً
بالعراق وطوراً بالشام . وقال انه فاوض اصناف الملوك على تغاير
اخلافهم ، وتباين همهم وتباعد ديارهم ، ومع ان عصره خير عصور
العلم في الاسلام شكاً من كساده قائلاً ان العلم قد بادت آثاره ،
وطمس مناره ، وكثر فيه الغباء وقل الفقهاء ، فلا تعابن الا بموهباً
جاهلاً ، ومتعاطياً ناقصاً .

قد يذهب الظن ان صحت شيعية المسعودي الى انه تأثر بالدعوة
الفاطمية ، او انه من دعاة الفاطميين وقد قاموا في ايامه بدعايات
منظمة في وادي النيل وما اليه ، قبل ان يفتحها قائدهم جوهر الصقلي
بزمن . ولا يعقل الا يطلع على دعوتهم ويطالبونه او يطالب نفسه بخدمتهم ،
وهو الذي عرف من المخطاط بني العباس في ايامه ما تعالم امره ، وله من
مذهبه ما يجعله على الدعوة لآل البيت ، على انه لم يتعرض لهم كثيراً
فيما وصلنا من كلامه ، وقد الف كتاب « التنبيه والاشراف » في سنة
٣٤٥ ودولة الفاطميين قامت في افريقية سنة ٢٩٦ وما انفك العبيديون
يفزون مصر منذ سنة ٣٠١ ويثبون في الارحاء دعواتهم ويدعون سراً الى

مذهبهم . هذا رأي لنا والايام كفيمة بكشف ما اذا كان شيعياً او في حالة بين بين .

لم نعرف في الواقع نوع الدراسات التي تمحض لها المسعودي لأول أمره ، وكان من أساتذته : نبطويه ، والجمحي ، والبهادي من كتبه انه أعني بالتاريخ والجغرافيا كل العناية ، وكذلك الأدب والمقالات والنحل وطبقات الأرض والمعادن والجواهر والفلك والسياسة والرجال . وما نقل من معلومات عن الشعوب والأمم والأجناس وتاريخها كان فيه اماماً عظيماً ، عاونه على الاجادة ولوعه بالبحث . وهو بمن كتبوا عن مشاهدة ، وما وصفه من الامصار والاقطار دليل على سعة معارفه وشدة ملاحظته حتى ليكاد يحسب ما كتبه من هذا القبيل المرجع الوحيد في بعض الموضوعات . وقد يتفق الا يتعمق في درس بعض المسائل ويذكرها كما رويت له ، لذلك أورد أساطير وخرافات أخذها كما رويت ولم يعلق عليها نقداً من عنده ، وليس لنا أن نطعن عليه في ذلك لان ما نقله كان شائعاً وهو يرمي الى تصوير الافكار في عصره وبفلسف ما وسعته بيئته .

ألف المسعودي في ضروب المقالات وأنواع الديانات ككتاب « الابانة عن أصول الديانة » وكتاب « المقالات في أصول الديانات » وكتاب « سر الحياة » وكتاب « نظم الأدلة في أصول الملة » وما اشتمل عليه من أصول الفتوى وقوانين الاحكام وكتاب « الاستبصار في الامامة » ووصف اقاريل الناس في ذلك من اصحاب النص والاختيار وكتاب « الصفة في الامامة » . وكتب في السياسة المدنية واجزاء المدينة والابانة عن المباديء وكيفية تركيب العوالم والأجسام السماوية ، وما هو محسوس وغير محسوس من الكثيف واللطيف . وبعض كتبه ثبت انه كان صاحب منزع سياسي كما كان داعية علم ومدنية ، ولذلك رأيناها يعاشر اليهود وغيرهم من ارباب النحل ، وقد نوه في التنبيه والاشراف بأخبار اليهود في عصره بمن عنوانا بترجمة التوراة من العبرية .

وأهم كتبه المشتهرة « مروج الذهب » و « التنبيه والاشراف » وهو لا يفتأ يحيل في كتابيه هذين على كتاب « أخبار الزمان » وكتابه الأوسط وفنون المعارف وذخائر العلوم وتدابير الممالك والعساكر والاستذكار لما جرى في سالف الأعصار . وضمن كتابه مروج الذهب خلاصة ما تضمنته كتبه السالفة في التاريخ جعله تحفة الأشراف من الملوك واهل الدرايات وقال انه لم يترك نوعاً من العلوم ، ولا فناً من الأخبار ، ولا طريقة من الآثار ، الا اورده في كتابه مفصلاً او مجملًا او اشار اليه . واودع كتابه التنبيه والاشراف لُمعاً من ذكر الأفلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتواكبيها وكيفية أفعالها والبيان عن قسمة الأزمنة وفصول السنة والرياح ومهابها والأرض وشكلها وتأثيراتها في سكانها . وذكر الأقاليم السبعة وعروض البلدان اطوالها ، والأهوية وتأثيراتها ، والبحار والأنهار ، ثم تكلم على الدول القديمة كالفرس والسريان والروم وعلى دولة العرب من عصر الجاهلية الى قبيل وفاته .

قال انه ما دعاه الى تأليف كتبه هذه في التاريخ واخبار العالم محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء ، وان يبقى له ذكراً محموداً ، وعلماً منظوماً عتيداً ، الا لأنه وجد مصنف الكتب بين مجيد ومقصر ، ومسهب ومختصر ، ولأنه وجد الأخبار زائدة وربما غاب البارح منها على الفطن الذكي ، ولكل واحد قسطه يخصه بمقدار عنايته ، ولكل اقليم عجائب يقتصر على عملها اهله ، وليس من لزم حجرات وطنه وقنع بما تُنمي اليه من الأخبار عن اقليمه ، كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع ايامه بين تقاذف الاسفار ، واستخرج كل دقيق من معدنه ، وأثار كل نفيس من مكمنه . قال : ولو كان لا يؤلف كتاباً الا من حوى جميع العلوم ، اذا ما ألف احد كتاباً ولا تأتي له تصنيف .

قال العلامة بروكلمان : ان الاضطراب المتواصل في حياة المسعودي قد عين صورة انتاجه الادبي وقد خلف معلومات ثمينة عما طافه من البلاد المتاخمة

للأقطار الاسلامية . وكان عرضه لما جمعه من المواد يشبه بنقصه بحثه ، اذ لم يتبع نظاماً معيناً ، وكان يجيد ابدأً عن موضوعه ويستطرد استطرادات يراها ضرورية ، وتناولت اجائته ما كان يهم معاصريه من المعارف تقريباً كالفلسفة الطبيعية والادب والسياسة والملل والنحل .

اما العلامة كثر مير فقد احسن ظنه بالمسعودي اكثر من هذا وقال : انه كان اجدر بالمؤرخين والجغرافيين العرب المتأخرين ان يتخذوا المسعودي اماماً في تاريخ الاديان والعلوم دون هؤلاء المؤرخين الرواة الجهلة المقصرين في التمهيص والنقد ، وقد هداه على درس اخلاق الشعوب وآرائهم ومذاهبهم حب الاستطلاع العلمي وبراءته من التعصب لرأي من الآراء ومذهب من المذاهب ، مما جعله على اتصال بالعلماء من كل مذهب ونحلة . وقال العلامة مايرهوف : ولسنا نعرف شيئاً عن فلسفته ، وغاية ما علمنا انه كان على صلة مستديمة مع فلاسفة بغداد ، ولم يبق من كتبه العشرين تقريباً وبالأأسف الا كتاب التنبيه والمروج وجزء من كتاب أخبار الزمان وهي كتب غاصة بالأخبار التاريخية والجغرافية وأخبار الملل والنحل ، وضاع كتبه الاخرى خسارة لتاريخ العلوم في مبدئها عند العرب لا يمكن تعويضها .

كشفنا القناع بعض الشيء عن حياة المسعودي وذلك بالرجوع الى كتابيه المروج والتنبيه والى ما قاله من نظروا في سيرته من العرب والافرنج فثبت انه من افراد الدهر بعلمه وبحثه وبعد همته ، وغرامه بالتنقل في الآفاق ، بما لم يوفق الى احتذاء مثاله من سبقوه ولحقوه . لاجرم ان المسعودي المؤرخ يعرف مضرة التحزب بسمعته ، فلم يسعه وهو غير راض عن بعض الخلفاء الا ان يذكر تاريخهم ولو بلسان جمجم فيه وتمتع . وهذه الاخطاء التي ارتكبها عمداً او عن غير عمد ، فعبث ببهاء الحق في بعض احكامه ، لم تحل دون الانتفاع بتأليفه . ولشيعة المسعودي مدخل كبير في آرائه لأن من جوزوا الكذب على مخالفهم وغلوا في حب الطالبين حتى جعلوهم فوق البشر ، وزعموا لهم الكمال المطلق ، وان المعاصي

حلال لهم حرام على غيرهم لا يؤمنون على التاريخ . والمتعصب لفئة يجب الاحتياط في الاخذ عنه بخلاف المتسامح الذي لاضلع له مع أحد . وما خدم به المسعودي التشيع لم يرض به الشيعة فهو مخالف الامامين والجماعين ، وكل فريق يريد ان يكون له وحده ، وان يقبل مذهبه بجذافيره ، ويدافع عنه بالحق والباطل . والتشيع ما كان باديء ذي بدء الا بتفضيل علي بالامامة على الشيخين ؛ حتى ان الشريف المرتضى من اكبر ائمتهم كان يترضى عن الشيخين ويشتم من ينالهما بسوء ، ويقول انها وليا وعدلا ، وكذلك شأن جده الاعلى امير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه كان يقول ان ابا بكر وعمر ما ظلماني ذرة وان ابا بكر أسلم وانا جدعة اي فتى ، اقول فلا يسمع لقولي فكيف أكون احق بمقام ابي بكر . عفا الله عن قوم اعتمهم السياسة فأنشأوا من حزب سياسي مذهباً دينياً ، وكفروا كل من لم يوافقهم على هواهم ، وجاء متأخروهم فأدخلوا في معتقداتهم ما لم يقل به متقدموهم وفرقوا بين اجزاء القلوب . وأشد ما يرمض النفوس في هذا الباب ان يعبت بالتاريخ من أجل المذهب ويموه السخفاء ليصوروا الاحداث على ما يشاؤون لتأييد مذهبهم (١) .

(١) ومن سفاهتهم رجل اسمه شهر اشوب من اهل القرن السادس كتب كتاباً في مناقب آل ابي طالب حشاه كذباً واختلاقاً ما نظن عاقلاً في الأرض يوافقه عليه . وكتابه من اسخف ما أثر من سلسلة تلك السفافات ، شتم فيه الصحابة الكرام كلهم ما عدا بضعة منهم كانوا مع علي ، واختلق كل قبيح ألصقه برجال لا يدين الاسلام لغيرهم في انتشاره ، وأورد من اشعر لاثبات أباطيله ما هو سبة على قائله وقائله على وجه الدهر .

ابن جرير الطبري

محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب ابو جعفر

(٣١٠)

هذا رجل اشتغل لخدمة القرآن والحديث والفقه والتاريخ ولم يلتفت الى غير ما أخذ من نفسه ، وهياته الفطرة له ، وعاش ماعاش وما عهد عليه ان زُنَّ بهنأة ، او حادٍ قيداً غلة عن الحطة التي اختطها في خدمة العلم . كان مثالاً باهراً بألمعيته وحرية ودهائه ومضائه . تجسدت فيه الامانة وهي الصفة الاولى للعالم فوقع الاجماع على قبول كلامه او كاد . كان عارفاً كل المعرفة بسياسة العلم فوصل بأناته الى ان تم له ما اراده من صنوفه ، وسعد بأن كتب البقاء لمصنفاته وسبقه من اهم المراجع مابقت اللغة العربية والشريعة المحمدية .

ولد بأمل طبرستان سنة خمس وعشرين ومائتين وتوفي في بغداد . وكان اسر اعين نحيف الجسم مديد القامة فصيح اللسان ، نبغ في العلم صغيراً فحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وصلى بالناس وهو ابن ثمان سنين وكتب الحديث وهو ابن تسع سنين ، واخذ الفقه عن داود كما اخذ فقه مالك وفقه الشافعي ، وسمع الحديث في الري وبغداد والكوفة والبصرة والشام ومصر حتى « جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من اهل عصره » و « نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون ابواب الحساب وفي الطب » « وكان كالفارسي الذي لا يعرف الا القرآن والحديث الذي لا يعرف الا الحديث وكالفقيه الذي لا يعرف الا الفقه وكالنجوي الذي

لا يعرف الا النحو وكالحاسب الذي لا يعرف الا الحساب . . . واذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً عن غيرها «
ولما دخل مصر لم يبق احد من اهل العلم الا لقيه وامتحنه في العلم الذي يتحقق به . قال « فاجاءني رجل فسألني عن شيء من العروض ، ولم اكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت عليّ قول الا اتكلم اليوم في شيء من العروض ، فاذا كان في غد فصر اليّ ، وطلبت من صديق العروض للخليل بن احمد ، فاجاء به فنظرت فيه ليلتي فامسيت غير عروضي واصبحت عروضياً » اي ان الرجل العارف بالقرآن البصير بالمعاني الفقيه بأحكام القرآن العالم بالسنن وطرقها وصحيفها وسقيمها وناسخها ومنسوخها ، والحافظ اقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين في الاحكام ومسائل الحلال والحرام والعارف بأيام الناس - لم يجب لنفسه جهلها بالعروض فدرسه في ليلته وحذقه كما يحذقه من اشتغل به اشهرآ . هذه اوجه درسه وبجته ، والاهم من هذا امتيازه باخلاقه وعقله وبها عدّه اماماً من ائمة العلم « يحكم بقوله ويرجع الى رأيه » « وتفرد بمسائل حفظت عنه » فله مذهب خاص انقطع اتباعه فيه بعد الاربعائة ، وكان اظهر مذهب الشافعي وافتي به عشر سنين ، قال الفرغاني : فلما اتسع علمه اداه اجتهاده وبجته الى ما اختاره في كل صنف من العلوم في كتبه وهذه فقدت اي كتب مذهبه .

قالوا لما دخل بغداد كانت معه بضاعة يتقوّت منها فسرت ، فقال له بعض اصدقائه : تنشط لتأديب ولد الوزير ابي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان فأجاب الى ذلك ، فأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر ، فلما كتب الصبي اخذ الخادم اللوح ودخلوا مستبشرين فلم تبق جارية الا اهدت اليه صينية فيها دراهم ودنانير فرد الجميع وقال : قد شورطت على شيء وما هذا لي بحق ، وما آخذ الا ما شورطت عليه . ولما قال له الوزير : ان أمهات الأولاد مغممن من رده قال : هؤلاء عبيد ، والعبيد

لا يملكون شيئاً ، فعظم في نفس الوزير . وكان ربما اهدى اليه بعض أصدقائه الشيء من المأكول فيقبله اتباعاً للسنة ، ويكافئه لعظم مروءته أضعافاً ، وربما يححف به فكان اصدقاؤه يجتنبون مهاداته .

ولما ورد مصر في سنة ٢٥٦ نزل على الربيع بن سليمان فأمر من يأخذ له داراً قريبة منه قال « وجاءني اصحابه فقالوا : تحتاج الى قصرية وزير وحمارين وسدة فقلت : أما القصرية فانا لا ولد لي وما حللت سراويلي على حرام ولا على حلال قط ، وأما الزير فمن الملاهي وليس هذا من شأني ، واما الحماران فان ابي وهب لي بضاعة أنا استعين بها في طلب العلم ، فان صرفتها في ثمن حمارين فبأي شيء أطلب العلم . قال : فتبسوا . فقلت : الى كم يحتاج هذا ؟ فقالوا يحتاج الى درهمين وثلثين فأخذوا ذلك مني ، وعلمت انها اشياء متفقة ، وجاءوني بأجانة وجب للماء واربع خشبات قد شدوا وسطها بشريط وقالوا : الزير للماء والقصرية للخبز والحماران والسدة تنام عليها من البراغيث ، فكنت اذا جئت نزعت ثيابي وعلقتها على جبل قد شدته واترت وصعدت الى السدة . »

بقي ابن جرير يعيش من مال ابيه وكان ابوه من أهل اليسار ، وقد يضيق ولا يسف الى تناول شيء من أحد مها عظمت منزلته ، وظل قانعاً بما يرد عليه من قرية يسيرة خلفها له أبوه بطبرستان ، وابطأت عليه نفقة والده مرة فاضطر الى ان يفتق كمي القميص ويبيعها . اراد المكتفي الخليفة ان يقف وقفاً تجتمع اقاويل العلماء على صحته ويسلم من الخلاف فأحضروا ابن جرير فأملى عليهم كتاباً لذلك فأخرجت له جائزة سنية فأبى أن يقبلها فقيل له لا بد من جائزة أو قضاء حاجة فقال : نعم الحاجة أسأل أمير المؤمنين أن يتقدم الى الشرط ان يمنعوا السؤال من دخول المقصورة يوم الجمعة فتقدم بذلك وعظم في نفوسهم . أرسل العباس بن الحسن الوزير الى ابن جرير : قد أحببت ان انظر

في الفقه ، وسأله أن يعمل مختصراً فعمل له كتاب الخفيف وأنقذه ، فوجه إليه الف دينار فلم يقبلها ، فقيل له تصدق بها فلم يفعل . ولما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إليه بمال كثير فأبى أن يقبله فعرض عليه القضاء فامتنع فعاتبه أصحابه وقالوا له : لك في هذا ثواب وتحيي سنة قد درست ، وطمعوا في أن يقبل ولاية المظالم فانتهرهم وقال : قد كنت أظن اني لو رغبت في ذلك لنهيموني عنه . ونحن نقول ان هذه العطايا لو منحها الامامان ابو يوسف والفضل الرازي لاستحسلا أخذها وشكرا عليها وضماها بلباقة الى أموالها العظيمة . وابن جرير بهذا الابهاء يبقى اسمه مقدساً بكل شفة ولسان على مر الزمان .

ومن شعر الطبري :

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي وأستعني فليستعني صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقي
ولو أني سمعت ببذل وجهي اكننت الى الغنى سهل الطريق
وقال :

خلقنا لأرضي طريقها بطر الغنى ومذلة الفقر
فاذا غنيت فلا تكن بطراً واذا افتقرت فته على الدهر

مثال من بعد نظره وسعة عقله وعلمه بزمانه : لما خلع المقتدر وبويع ابن المعتز دخلوا على ابن جرير الطبري فقال : ما الخبر ؟ قيل بويع ابن المعتز ، قال : ومن رشح لوزارته ؟ قيل ابن الجراح . قال : فمن ذكر للقضاء ؟ قيل : ابو المثنى . فأطرق ثم قال : هذا امر لا يتم ، قيل : وكيف ؟ قال : كل واحد من هؤلاء متقدم في معناه ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، فما أرى هذا الا الى الاضمحلال . وكان كما قال : جرت حرب بين غلمان المرينيين للمقتدر وبين المرينيين لابن المعتز ، فانهزم ابن المعتز وتفرق أصحابه ، ثم أمسك وحبس ليلتين وقتل خنقاً ، فكانت خلافته يوماً واحداً .

وإذا عرضنا لذكر تأليف ابن جرير فانا نرى اعظمها تفسيره وتاريخه
أما تفسيره فقد جوده وبين فيه احكام القرآن وناسخه ومنسوخه ومشكله
وغريبه ومعانيه واختلاف اهل التأويل والعلماء في احكامه وتأويله والصحيح
لديه من ذلك واعراب حروفه والكلام على الملحدن فيه والقصص وأخبار
الأمم والقيامه وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة
وآية آية ، من الاستعاذة الى ابي جاد ، فلو ادعى عالم ان يُصتَف منه
عشرة كتب كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد عجيب مستقصى لفعل .
وقد ضرب التوحيدى المثل بتفسير ابن جرير واسمه «جامع البيان» وقال
السيوطي من المتأخرين انه يوجه الأقوال ويرجح بعضها على بعض ويعرب
ويستنبط فهو يفوق بذلك تفاسير الاقدمين .

اطال ابن جرير في تفسيره وفي تاريخه وكانت النعمة على العلم في
هذا التطويل . وكان من نيته ان يتوسع اكثر مما توسع فقد ذكروا
أنه قال لاصحابه قبل وضع هذين الكتابين العظيمين : انشطون لتفسير
القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فقال ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا :
هذا مما تفتي الاعمار قبل تمامه فاختره في نحو ثلاثة آلاف ورقة . ثم
قال : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم الى وقتنا ؟ قالوا : كم قدره ؟
فذكر نحواً بما ذكره في التفسير ، فأجابوا بمثل ذلك فقال : انا لله ،
ماتت المهم ، فاختره في نحو ما اخترت التفسير .

أما تاريخه فقد رتبته على السنين وضمنه ما خلت منه الكتب التي في
الأيدي ، واستفاد الناس من تطويله الذي ما ارتضاه وعده مختصراً .
وصفه السعودي المؤرخ فقال : انه الزاهي على المؤلفات ، والزائد على
الكتب ، فقد جمع الاخبار ، وحوى فنون الآثار ، واشتمل على ضروب
العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته وتنفع عائدته وكيف لا يكون كذلك
ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره ، واليه انتهت علوم فقهاء الامصار ،
وحملة السير والآثار .

وأكثر اعتماد ابن خلدون المؤرخ في النقل على تاريخ ابن جرير هذا ، قال : لأنه أوثق من رآه في ذلك وابتعد عن المطاعن في كبار الأمة من خيارهم وعدولهم من الصحابة والتابعين . كلام حق وفي كتابه تقرأ تؤدة العلماء ووقار الحكماء وتقنع انك تنفذ الى حقائق التاريخ لأن مؤلفه متصف بصفات الكمال لامطعن عليه في شيء ، حتى صار كتاب « الرسل والملوك » المصدر الاول في التاريخ الاسلامي أخذ عن تقدمه ، ومنهم من أهل الاهواء المخالفين لمذهبه كأبي مخنف (١) فاقببس من كلامه ماراقه واعتقد صحته ، أخذ النقاوة وترك النفاوة . وكتابه المصدر الوحيد لكل من جاء بعده ، يجد فيه كل طالب بغيته ، ويتجسم له الصدق يتدفق من خلال كلامه لا يجرح سليماً ، ولا يوثق كذباً ، ولا يقذف في عظيم ، ولا يتهم بريئاً .

قال صاحبه الفرغاني : كان محمد بن جرير ممن لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يعدل في علمه وتبينانه عن حق يلزمه لربه وللمسلمين الى باطل لرغبة ولا وهبة ، مع عظيم ما كان يلحقه من الأذى والشناعات من جاهل وحاسد وملحد ، واما اهل العلم والدين فغير منكرين علمه وفضله وزهده وتركه الدنيا مع اقبالها عليه ، وقناعته بما كان يورد عليه من قرية خلفها له ابوه بطبرستان يسيرة .

تعصب عليه الحنابلة ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم ، ولذلك سبب : وهو ان الطبري جمع كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء لم يصنف مثله ، ولم يذكر فيه احمد بن حنبل ، فقبل له في ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً . فاستند ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ، وكانوا يشغبون لأقل من هذا . حتى اضطر اصحابه ان يدفنوه في بيته مخافة ان تطول

(١) كان ابو مخنف لوط بن يحيى المؤرخ شيعياً (١٥٧) وكذلك الواقدي . وابو مخنف كما قال العلماء يزيد على غيره بأمر العراق واخبارها وفتوحها ، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس ، والواقدي بالحجاز والسيرة . وقد اشتركوا في فتوح الشام .

اليه ايدي الحنابلة بالايذاء بعد وفاته ، قال المؤرخون : ادعوا عليه الرفض
ثم ادعوا عليه الاحاد !

هذه سيرة من اطيب سير الرجال يقل في وصف صاحبها ما اعتاد
الناس ان يطلقوه من الألفاظ في وصف العلماء العاملين ، وكفى ان
يقال انه كان مأموناً على الاسلام وعلى تاريخه ، وانه ما حاد ذرة عن
هدي أرباب الاخلاق ، وما عدت له سقطة يسقط فيها أكثر المؤلفين ،
وما أثر عنه انه اضاع دقيقة من حياته في غير الافادة والاستفادة .
روى المعافا بن زكريا عن بعض الثقات انه كان بحضرة ابي جعفر الطبري
رحمه الله قبل موته ، وتوفي بعد ساعة أو اقل منها ، فذكر له هذا
الدعاء عن جعفر بن محمد فاستدعى بحبرة وصحيفة فكتبها فقبل له : أفي
هذه الحال ؟ فقال : ينبغي للانسان ألا يدع اقتباس العلم حتى الممات .



(١٢)

ابن دريد

ابو بكر محمد بن الحسن

(٣٢١)

يتصل نسبه بيعرب بن قحطان . ودريد تصغير ادرد الذي ليس فيه سن ، وهو من الازد . والازد سكنوا مأرب ، ولما تفرقوا نزل بعضهم لحمان ومنهم بعض اجداده . ولد ابن دريد في البصرة سنة ثلاث وعشرين ومائتين وعاش ثمانين وتسعين سنة .

نشأ في عمان والبصرة وفي هذه قرأ على ابي عثمان الأشناداني وكفله عمه وعليه قرأ مبادي العلم . ومن أساتذته ابو حاتم السجستاني والرياشي والتوزي والزبادي وغيرهم من أجلة العصر . كان اماماً في اللغة والنسب والشعر ، آية في الحفظ حفظ كثيراً من دواوين العرب ، وقيل انه أملى كتاب الجهرة من حفظه وهو ابن اربع وسبعين سنة . ورحل ابن دريد الى الاهواز يؤدب اسماعيل بن ميكال وكان ابوه عبد الله تولاها وبقي مع الأب والابن مدة ولاية الأب عليها ، وقلده عبد الله ديوان فارس فكانت تصدر كتبها عن رأيه . وسكن بغداد كما سكن عمان وطاف في ارجاء الجزيرة جزيرة ابن عمر ، واتصل في بغداد بالخليفة المقتدر فأحله منه اجمل محل وأجرى عليه خمسين ديناراً ، وما كان ابن دريد مقترراً عليه طول حياته ، وكان اهله في سعة من العيش فأفاد مالا منهم وبمن اتصل بهم من الأمراء والخلفاء . كان سخياً سرياً جميل العشرة غير ضنين بعلمه . والغالب انه كان شافعي المذهب ، وان كان سكان عمان وما اليها في ايامه على مذهب الخوارج أي الشراة . وكان يرجع اليه في اللغة ويفتي

بقوله ، تصدّر في العلم ستين سنة . وقالوا ان العلم والشعر ما ازدحما في صدر احد ازدحامها في صدر خلف الاحمر وابن دريد . وقالوا انه كان في شعره طوراً يجزل وطوراً يرق ، وقد نظم في كثير من أغراض الشعر ، وأجل ما نظمه حكمه ومنها مقصودته وفيها مثال من تبجره في اللغة مدح بها الامير أبا العباس اسماعيل بن ميكال رئيس نيسابور ومقدمها وقدم له كتاب الجهرة . قال أبو العباس : ان ابن دريد أملى عليه كتاب الجهرة من اوله الى آخره حفظاً وما استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب الا في باب الهمزة والألف فانه طالع له بعض الكتب . قال المسعودي : وكان ابن دريد بمن قد برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل ابن أحمد فيها ، وأورد اشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين . فان من جيد شعره القصيدة المقصورة التي يمدح بها الشاه بن ميكال ويقال انه أحاط فيها بأكثر المقصور وأولها :

أما ترى رأسي حاكى لونه طرّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل الأبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضى
ومنها :

ان الحديدين اذا ما استوليا على جديد أدنياه للبللى
ومنها يقول :

لست اذا ما بهظتني غمرة بمن يقول بلغ السيل الزبى
وان ثوت بين خلوعي زفرة تملأ ما بين الرجا الى الرجا

ومن مشهور كتبه كتاب الاشتقاق ، وله غير ذلك منها ما طبع ومنها ما لم يطبع . وقد « رمي بافتعال العربية وتوليد الالفاظ وادخال ما ليس من كلام العرب في كلامها » وهذا مما نستبعده . والذي حصل والله أعلم انه نقل ألفاظاً غير مألوفة أدججها في شعره ، وعند ظنه انه خدم بها اللغة العربية مثل قوله مثلاً :

أماطت لثاماً عن افاح الدمائث بمثل أساريع الخقوف العثاث

ونصت عن الغصن الرطيب سوالفاً يَشُبُّ سناها لون احوى جناحت
ولانت نُشْتِي مِرطها دعص رملة سقاها بجاج الطلِّ عَبِّ الدثائث
وبعض هذه الالفاظ بما يحتاج فهمه الى ان يرجع الى مثل الاصمعي
وأبي زيد لأنها من عويص اللغة تورث الصدر انقباضاً لمن أراد تفهمها ،
وبعض من لم يعرف يقتصر الطريق ويقول ان ابن دريد يأتي بما ليس
له أصل في اللغة من الكلمات ، بل ان الاصمعي قال في عدة مواقع وقد
عرض عليه الكلام العويص انه لم يفهم . أنشده مرة بيتاً لامريء القيس :
وسنَّ كَسْتِيَقِ سناء وسُنْتِما ذَعَرَتْ بمِلاجِ المهجِيرِ نهوض
قال الأصمعي : لا أدري ما السن ولا السنيق ولا السنم .

وقوله :

عصافير وذباب ودود واجراً من مجلجلة الذباب
وزاد في تقييح ذلك وقوعه في ابيات منها :
فقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب
وكل مكارم الاخلاق سارت اليه همتي وغيا اكنساي
وقد استعمل ابن دريد الشعر في تقرير بعض المفردات وجعله سلباً
الى تفسير امور صعبة تدخل في قواعد الالفاظ ، مثل ما يذكر من الاعضاء
ولا يؤنث ، وما يؤنث ولا يذكر ، وما يذكر ويؤنث .

ومن شعره العذب :

لو ان قلباً ذاب من كمد ما كان بين ضلوعه قلب
لو كنت صباً او تسرُّ هوى لعلمت ما يتجرع الصب
يهوى اقترابك وهو قاتله فشفاهوه وسقامه القرب

ومنه :

وليلة ساءرت عيني كواكبها نادمت فيها الصبا والنوم مطرود
تستنبط الراح ماتحفي النفوس وقد جادت بما منعه الكاعب الرود
والراح تفتقر عن درٍ وعن ذهب فالتبر منسبك والدر معقود

بالليل لا تُبجح الاصباح حوزتنا وليحجم جانبته اعطافك السود
وكتب الى ابي الحسن علي بن عيسى بن داود بن الجراح الوزير :
ابا حسن ، والمرء يُخلق صورة اذا كنت لا تُرجى لنفع معجل
ولم تك يوم الحشر فينا مشفعاً علي بن عيسى خير يوميك ان تُرى
واني لأخشى بعد هذا بان تُرى وقال :

وما احد من ألسن الناس سالماً فان كان مقداماً يقولون اهوج
وان كان سكيناً يقولون ابكم وان كان صواماً وبالليل قائماً
فلا تحتفل بالناس بالذم والثناء ومن مليم شعره :

غراء لو جلت الحدور شعاعها للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على دِعص تأود فووقه قمر تألق تحت ليل مطبق
لو قيل للحسن احتكم لم يَعُدْها او قيل خاطب غيرها لم يَنطق
وكاننا من فرعها في مغرب الويل حل بمقلة لم تُطبق
تبدو فيهتف للعيون ضياؤها وقال وهو مشهور ومتداول على الالسن :

وحمرء قبل المزج صفراء بعده ات بين ثوبي نوجس وشقائق
حكمت وجنة المعشوق قبل مزاجها فلما مزجناها حكمت خدّ عاشق
وقال :

لا تحقرن عالماً وان خلقت وانظر اليه بعين ذي خطر
اثوابه في عيون رامقه مهذب الرأي في طرائقه

فالمسك بينا تراه بمتنهناً
حتى نراه بعارضي ملك
وله ايضاً :

العالم العاقل ابن نفسه
كن ابن من سئت وكن مؤدباً
وليس من تِكْرَمِه لغيره
وقال في اخلاق الناس :

ارى الناس قد أغروا ببغي وريبة
وقد لزموا معنى الخلاف فكلهم
اذا ما رأوا خيراً رموه بظننه
وليس امرؤ منهم بناج من الاذى
وان عاينوا حبراً اديباً مهذباً
وان كان ذا ذهن رموه ببدعة
وان كان ذا دين يُسمّوه نعيجه
وان كان ذا صمت يقولون صورة
وان كان ذا شر فويل لأمه
وان كان ذا أصل يقولون انما
وان كان مجهولاً فذلك عندهم
وان كان ذا مال يقولون ماله
وان كان ذا فقر فقد ذل بينهم
وان قنع المسكين قالوا لقلة
وان هو لم يقنع يقولون انما
وان يكتسب مالا يقولوا بهيمة
وان جاد قالوا مسرف ومبذر
وان صاحب الغلمان قالوا لريبة
وان هوي النسوان سمّوه فاجراً

اغناه جنس علمه عن جنسه
فانما المرء بفضل كَيْسِه
مثل الذي تِكْرَمِه لنفسه
وَعْيٍ اذا ما ميز الناس عاقل
الى نحو ما عاب الخليفة مائل
وان عاينوا شراً فكل مناضل
ولا فيهم عن زلة متغافل
حسبياً يقولوا انه لمخاتل
وسموه زنديقاً وفيه يُجاول
وليس له عقل ولا فيه طائل
ممثلة بالعبي بل هو جاهل
لما عنه يحكي من تضم المخافل
يفخر بالموتى وما هو زائل
كبيض رمال ليس يعرف عامل
من السحت قد رابى وبئس المآكل
حقيراً مهيناً تودريه الأراذل
وشحة نفس قد حوتها الأنامل
يطالب من لم يعطه ويقائل
أتاها من المقدور حظ وفائل
وان لم يجد قالوا شحيح وباخل
وان اجملوا في اللفظ قالوا مبادل
وان عف قالوا ذاك خنثى وباطل

وان تاب قالوا لم يتب منه عادة
وان حج قالوا ليس لله حجه
وان كان بالشطرنج والنرد لاعباً
وان كان في كل المذاهب فائزاً
وان كان معزماً يقولون أهوج
وان يعتلل يوماً يقولوا عقوبة
وان مات فالوالم يميت حتف انفه
وما الناس الا جاحد ومعاندا
فلا تتركن حقاً حليفة فائل
ولكن لافلاس وما تمّ حاصل
وذاك رياء أنتجته المحافل
ولاعب اذا الآداب قالوا مداخل
وكان خفيف الروح قالوا مشاغل
وان كان ذا ثبث يقولون باطل
لشر الذي يأتي وما هو فاعل
لما هو من شر المآكل آكل
وذو حسد قد بان فيه التخاذل
فان الذي تخشى وتحذر حاصل

هذا شعر ابن دريد وهذه حكمه وقد جاء منها في مقصودته الشيء
الكثير حتى كاد يكون في حكم الأمثال ، ولم نطلع فيما اطلعنا عليه من
مؤلفاته على شيء من نثره ولا شك ان له منه طائفة خصوصاً وقد تقلد
الدواوين وكان الحاكم يصدر عن آرائه فبالشعر لاتم هذه المقاصد ، ومن
العادة ان يغفل النثر ويتهالك على جمع القريض ولو كان من السقط
الذي يجب ان يرذل .



(١٣)

ابن الراية

احمد بن يوسف الكاتب

(٣٣٠)

كان يوسف بن ابراهيم ، والد احمد بن يوسف المعروف بابن الداية ولد داية ابن المهدي العباسي وكاتب ابراهيم بن المهدي ورضيعه ومدبر امواله وضياعه ، يُعدُّ من كتاب الدرجة الأولى ، له كتاب الطبخ وكتاب اخبار ابراهيم بن المهدي . وانتقل من بغداد الى مصر ولم يعرف سبب انتقاله ولا سنة هجرته وغاية ما علم انه جاء دمشق سنة ٢٣٥ ولعل في هذا العام كانت هجرته من بغداد .

كان يوسف من اهل المروءات التامة والعصبيات العظيمة ، وكان متمولاً ابتاع الضياع وتقبَّل المزارع فنمت امواله وافضل منها على عُفاته ، فكان يجري على عشرات من اهل الستر من الأشراف وغيرهم في مدينة الفسطاط . حبسه ابن طولون مرة في بعض داره ، وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه ، فجاء جماعة الى احمد بن طولون وبكوا وطلبوا اليه ان يقتلهم ان كان معتماً على قتله . وقالوا ان لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء بما احتاجوا له ولا وقفوا بباب غيره . وكل هذا يزيد في خوف ابن طولون من يوسف بن ابراهيم فيقوم في نفسه انه عيّن عليه يتسقط اخباره وينهي بها الى بغداد وهو من صنائع خلفائها وريب نعمتهم .

ولما هلك يوسف بن ابراهيم اخذ ابن طولون صندوقين من كتبه ، وبين يديه رجل من اشراف الطالبين ، فوقع على دفتر جرائاته على

الاشراف وغيرهم فوجد اسم الطالب في الجراية فقال له : وكانت عليك
جراية يوسف بن ابراهيم ؟ فقال له : نعم ايها الامير ، دخلت هذه المدينة
وانا مملق ، فأجرى عليّ في كل سنة مائتي دينار ، اسوة بابن الأرقط
والعقيقي وغيرهما ، ثم امتلأت يداي بطول الأمير فاستعفيت منها .
في هذه البيئة الرويّة بمكارم الاخلاق ، العريقة في الآداب والفضل
نشأ احمد بن يوسف في نعمة سابعة ، وسراوة ظاهرة ، تخرج في الآداب ،
وتفنن في اخذ العلوم ، فجاء كاتباً سريّاً ، وشاعراً مجيداً ، وطبيباً
نطاسياً ، يحكم الرياضيات ، ويحذق الطبيعيات ، ويعلم النجوم . وصفه
بعض واصفيه بانه مجسطي اوفليدسي ، وكان يعرف في العراق بالمهندس ،
ذكروا انه عرف بالشعر ولم يذكروا ان انشاهه فوق كل هذا . ولم
يصلنا من شعره سوى بضعة ابيات قالها على البديهة لما خرج عليه الاعراب
في بعض ارجاء مصر وانقذه المُحقِّرون من شرهم فقال فيهم :

جزى الله خيراً معشراً حقنوا دمي وقد شرعت نحوي المثقفة السمر'
دراهمهم مبدولة لضعيفهم واعراضهم من دونها الغفر والستور
اذا ما اغاروا واستباحوا غنيمه اغار عليهم في رحالهم الشكر
وان نزلوا قطرأمن الارض شاسعاً فما ضره الا يكون به قطر
وكان كتب الى صديقه ابي الفياض سوّار بن شراة الشاعر لما اعتمز
الرجوع الى بغداد مقدار خمسين ورقة من شعره ، وكان يستحسنه
ويعجب به ولم يؤثر منه الا بيت واحد :

ظَلَلْنَا بِهَا نَسْتَنْزِلُ الدَّنَّ صَفْوَهَا فَيَنْزِلُ اِقْبَاساً بِغَيْرِ لَهَيْبِ

كتب احمد بن يوسف سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه ابي الجيش
سُخارويه وسيرة هارون بن ابي الجيش ، واخبار غلمان بني طولون اي
رجالهم والقائمين بأمرهم ، وفسّر كتاب الثمرة لبطلميوس ، ولعله كان
في علم الفلك . ومن تأليفه أخبار الاطباء واخبار المنجمين ومختصر
المنطق ألفه للوزير علي بن عيسى وغير ذلك ، والكتاب الصغير الذي عرفنا

في الحقيقة الى احمد بن يوسف كتاب « المكافأة » روى فيه قصصاً
سمعها او رآها هو او رواها له من شاهدها في مصر والعراق ومنهم والده
ورجال ابن طولون ، ساق احدى وثلاثين قصة في المكافأة على الحسن
واحدى وعشرين قصة على القبيح وتسع عشرة قصة في حسن العقبي .
رجاء « ان يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير وتطلب العارفة
في الحسن ، وزجر النفس عن متابعة الشر ، وابعادها عن سورة الانتقام
في القبيح » قال في المدخل الى القسم الثالث : « رأيت ان اصل ذلك
(حفظك الله) بطرف من اخبار من ابتلي فصيبر . فكان ثمة صبره
حسن العقبي ، لان النفس اذا لم تُعْمَن عند الشدائد بما يجدد قواها تولى
عليها اليأس فأهلكها . وقد علم الانسان ان سُفُور الحالة عن ضدها
حتم لا بد منه ، كما علم ان النجلاء الليل يُسْفِر عن النهار ، ولكن خور
الطبيعة اشد ما يلزم النفس عند نزول الكوارث ، فاذا لم تعالج بالدواء
اشتدت العلة وازدادت الحنة ، والتفكر في اخبار هذا الباب بما يشجع
النفس ويبعثها على ملازمة الصبر وحسن الأدب مع الرب (عز وجل)
بحسن الظن في موآاة الاحسان عند نهاية الامتحان . »

كل ذلك كتبه بأسلوب رشيق وبألفاظ مختارة عذبة لا ترى أدنى اثر
للتكلف في نسجها ، صاغ كلامه صياغة صناع اليد فأبدع جسديداً وأتى
بغرائب من اخبار الناس ، ومن اتاهم بمثل هذا الضرب الطريف من
الأدب تعاضموه واكبروا بيانه . ولعل احمد بن يوسف لم يكن دون
ابن المقفع ببلاغته وقد سلك معه في سلك واحد وينقل عنه ويقول ان
هذا بما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعامله العرب ، وربما زاد على ابن المقفع
انه كان اقرب الى الحياة لامتزاجه بالسوقة من فلاحين وتجار ورجال
الدولة وعلمائها ومهندسيها وقوادها ، وكان يعيش وابوه من قبله من
الزراعة فعرف طرق الكسب الحلال وطرق تسمير المال وعرف طبقات
الناس بكل ما انطواوا عليه من خير وشر .

ولو قد ابقت الأيام على بعض ما كتبه هذا المؤلف العظيم لكان منه مادة في البلاغة والتاريخ والسياسة والعلم توفي على الغاية ولا سيما ما كان منه خاصاً بوصف عصره ورجاله . ومن عجائب الدهر ان تفقد كتب من جودوا التأليف وتبقى مؤلفات من لم يحسنوا الاحسان المطلوب يتناقل الخلف تأليفهم .

وربما كان لنكبة الطولونيين (٢٩٢) وقضاء العباسيين على دولتهم صلة كبيرة بضياح كتب ابن الداية وفيها ولا شك الشيء الكثير من محاسن الطولونيين ، ومحاسنهم بما يشق على بني العباس نشره في الأمة ، وتحليله في الصحف لئلا يكون من بثها دعاية لهم ، وأبغض ما يكون الى المنافس الاشارة بفضائل منافسه ، لاسيما وقد كاد المؤرخون يجمعون على ان احمد بن طولون بعلمه وسياسته وعدله ارقى من كثير من الخلفاء وعلى كثرة فضائل ابن الداية واتساعه في ادبه ونضجه في علمه ، لم يشتهر الشهرة التي هو قمين بها . ولو لم يعثر له على هذا الجزء من كتاب المكافاة لغطت الأيام على اسمه خصوصاً وهو لم يذكر الا في بعض تضاعيف الكتب ذكراً يكاد يكون مبتوراً ، ومعظم كتب الأدب حتى ما ألفه المصريون منها لاتذكره بكلمة الا نادراً ، ومن العجائب ايضاً الا يعده جهابذة الادب في جملة اعلامه والا يضعوه في الصف الاول بين رعييل قدماء البلغاء . وقديماً سدل الدهر قناع النسيان على كثير من العظماء بعد قليل من رحيلهم عن الأرض لفقد ما كتبوا بعامل من عوامل الفناء او لقلّة انصارهم ومن أهمه امرهم . ومنهم من تضاعفت شهرتهم عند موتهم لسكوت حسادهم عنهم ومغالاة احبابهم في تقريرهم . ولعل انتقال والد ابن الداية من بغداد الى الفسطاط ونشأته في مصر في زمن غضب فيه خلفاء بني العباس على مصر وعلى اميرها احمد بن طولون لاستقلاله بحكمها كان من جملة الدواعي في ضؤولة شهرته . على ان مصر الطولونية ومصر الفاطمية بعد حين ماساوت العراق بمنزلتها ،

ولا يتأتى ان يشتهر ابناؤها اشتهاً البغداديين ، والى الحضرة او مدينة السلام كان يحمل كل جميل ، وينعت الناس اهلها بالنعوت الحسنة ، وتأنق شهرة ادبائها وعلمائها لكثرة ما تردد اسماءهم في كل مكان ، وكيف تتأتى الشهرة لأحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة وتعددها خارجة عليها .

لم يتصل احمد بن يوسف باحمد بن طولون اتصالاً وثيقاً في صباه وابن طولون مات سنة سبعين ومائتين وابن الداية مات سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة في اصح الافوال والدولة الطولونية انقرضت سنة ثنتين وتسعين ومئتين فيكون ابن الداية على هذا كتب كتبه في بني طولون قبيل انقراض دولتهم .

نعم هذا هو الكتيّب الذي به ظهر احمد بن يوسف في اندية الآداب يحمل ابداعاً في موضوعه وابداعاً في وضعه ، موضوع قلما عاناه احد قبله يقصد به تربية النفوس على الخير ومحجّب اليها فعله ، ويشيد بمن كان هذا مبلغهم من الاخلاق اسادة يقدسون بها تقديساً . ولم يصدر المؤلف في ما كتب به عن خيال ، بل أخذ مادته من قلبه وخلقه ، تغنّي بما سبق له ولأبيه من المحامد ، وعدّها من الطبيعة القيام بمثله ، وأراد ان يلقن أبناء المستقبل هذه المكرمات حتى لا تستغرق المادية الناس ، ويرتفع من بينهم التعاطف والايثار . فكتب فيها ورقات قليلة الجرم عظيمة النفع افادتنا ما لا تفيدده المجلدات ، لأن المؤلف كتب واخلص في تأليفه وأراد به الدعوة الى المروآت لا التبجح ولا التنفج . بضعة كتب خطتها أنامله الفنانة قضى الله بذهابها وبقي له هذا الكتاب الصغير احيا به ذكره بعد ألف سنة على وفاته .

وهنا نكتفي بإيراد قصص من قصصه رأيناها خير ما يترجم له ويقفنا على طريقته .

قال ابن الداية : « حدثني احمد بن ابي يعقوب قال : انكر المهدي

على هرثة ابن أعين (من اكبر قواد المهدي) تحككه بمعن بن زائدة
وامر بنقيه الى المغرب الأقصى ، فكلمه الرشيد فيه واستل سخيمته عليه
ومات معن ، وزادت حال هرثة ، وشكر للرشيد ما كان منه . وأفضت
الحلقة الى موسى الهادي فتمكن منه هرثة . وحدث الهادي نفسه بجمع
الرشيد ، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده ، وعلم بهذا هرثة ،
وتذكر عارفة الرشيد فمراض ، وجمع الهادي الناس ودعاهم الى خلع
الرشيد ونصب ابنه مكانه فأجابوه وحلفوا له ، وأحضر هرثة فقالوا له :
تبايع ياهرثة ؟ فقال : يأمر المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك ، ويساري
مشغولة ببيعة أخيك فبأي يد أبايع ؟ والله يأمر المؤمنين لا أكدت في
الرقاب من بيعة ابنك اكثر بما أكده ابوك لأخيك في بيعته . ومن
حنت في الأولى حنت في الأخرى . ولولا تأول هذه الجماعة بأها مكرهة
واسرارها فيك خلاف ما أظهرت ، لأمسكت عن هذا . فقال لجماعة من
حضر : شأهت وجوهكم ، والله لقد صدقني وكذبتوني ، ونصحتني
وغشتموني . وسلم الي الرشيد ما قدره الهادي فيه .

قصة ثانية : «حدثني هرون بن مكشول قال حدثني ياسين بن زرارة قال :
كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها كثير المال فاشي النعمة سمح
النفس ، وكانت له دار ضيافة ، وجرايات واسعة على ذوي الشتر
بالفسطاط . فهرب من المتوكل رجل كنى عن اسمه لخطير منزلته ،
لميل كان من المنتصر اليه ، فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد ،
فخاف ان يعرف فتزع الى أريافها ، فانتهى به المسير الى ضياع النصراني
فأمر منه رجلاً جميل الامر ، وسأله النصراني عن حاله ، فذكر أن
الاختلال انتهى به الى ماظهر عليه فغير هيئته ، وفوض اليه شيئاً من
أمره ، فأحكم ما أسند اليه واضطلع به . ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى
غلب على جميع أمره ، وقام به احسن قيام ، فكان محل الرجل الهارب
من النصراني يفضل كل مذهب له .

« وورد على النصراني مستحث بحمل مال وجب عليه . (وسأله)
النصراني عن خبر الفسطاط فقال : ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر .
ووافي رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في ايام المتوكل يعرف بفلان
بن فلان ويوعز الى عمال مصر والشام بأن يتلقوه بالكرمة والتوسعة
فيلحق امير المؤمنين في حال تشبه محله عنده ، فعدل النصراني بالمستحث
الى بعض من انزله عليه ، وخلا الهارب بالنصراني فقال : احسن الله
جزاءك ، فقد اوليت غاية الجميل واحتاج الى ان تأذن لي في دخول
الفسطاط فقال : يا هذا ان كنت استقصرتني فاحكم في مالي ، فاني لا ارد
امرك ولا ازول عن حكمك ؛ ولا تنأ عني ، فقال له : انا الرجل
المطلوب بالفسطاط وقد خلفت شملاً جماً ، ونعمة واسعة . انما عدل بي
الخوف على نفسي . فقال له : ياسيدي فالمال في يدك وما عندك من
الدواب فانت اعرف به مني فاحكم فيه ، فاخذ بغالاً وما صلح لمثله ،
وخرج النصراني معه . وقدم كتاباً الى عامل المعونة من مستقره ، فتلقيه
عامل المعونة في بعض طريقه ، ووصاه وجميع العمال بالنصراني ، وصار
الى الحضرة فاصدر اليهم الكتب في الوصاة به الى ان قدم بعض العمال
المتجرة فتابع النصراني ورام الزيادة عليه فخرج الى بغداد .

« قال لي هرون ان ياسين قال له : ان النصراني حدثه انه دخل
الى بغداد فلم يربها ارقى محلاً ، واكثر قاصداً منه ، ثم استأذنت عليه
وعنده جمع كثير فخرج اكثر غلمانته حتى استقبلوني . فلما رأني قام على
رجليه ثم قال : مرحباً باستاذي وكافلي والقائم بي حين قعد الناس عني ،
واجلسني معه وانكب على ولده وشمله ، وانا اتأمل مواقع الاحسان من
الاحرار ، وسألني عن حالتي في ضياعي فأخبرته خبر العامل ، وكان اخوه
في مجلسه فنظر اليه من كُتبا عنده ، وقال له : كنت السبب في تقليد
اخيك فصار اكبر سبب في مساءتي ، فكتب من مجلسه كتاباً اليه
بجلية الخبر وانفذه . واقمت عنده حولاً في ارغد عيشة واعظم ترفه .

وورد عليّ كتب اصحابي فخبروني بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترض عليه في امري ، واخرج امر السلطان في اسقاط اكثر خراج ضياعي والاقتصار بي علي يسير من مالها . قال ياسين : فكتب النصراني ببغداد حجة اشهد فيها علي نفسه ان اسهمه في جميع الضياع التي في يده (وسماها وحددها) لهذا الرجل الذي كان هرب ، وصار بها اليه ، فقال له : قد سوغك الله هذه الضياع ، فاني اراك احق بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من ذلك وقال له : عليك فيها عادات تحسن ذكرك ، وترد الاضغان عنك ، ولست اقطعها بقبض هذه الضياع عنك ، ورجع النصراني الى الفسطاط فجدد الشهادة فيها . فلما توفي النصراني اقرها في يد اقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال .

قصة ثالثة : وحدثني ام آسية قابلة اولاد خمارويه بن طولون (وكان لها دين ومذهب جميل ومحل لطيف من خمارويه) . وقد تذاكرنا لطف الله (عز وجل) في ارزاق عباده ، وحسن الدفاع عنهم ، انه تزوجها واختها اخوان . فاقبلت حال زوج اختها وادبرت حال زوجها . قالت وتوفي زوجها باسوء حالة ، وخلف لها بنات ، وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله . وتوفي زوج اختها وقد خلف من العنين والمساكن والاولاد لولد اختها .

قالت : فكنت اجاهد في مؤونة ولدي ، واذا وقف امري صرت الى اختي فقلت : اقرضيني كذا وكذا استحياء من ان اقول لها : هي لي . ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه اشتهاوا علي صبياني حلواء في العيد ، فصرت الى اختي فقلت لها اقرضيني ديناراً اعمل به للصبيان حلواء في العيد . فقالت : يا اختي تعيظيني بقولك : « اقرضيني » واذا اقرضتك من اين تعطيني ؟ أمن غلة دورك او بستانك ؟ ! لو قلت هي لي كان احسن . فقلت لها : افضيك من لطف الله تعالى الذي لا ينجسب ،

وجوده الذي يأتي من حيث لا يُرتقب . فتضاحكت وقالت : يا اخي ! هذا والله من المُنَى ، والمُنَى بضائع التوكى ، فانصرفت عنها أجر رجلي الى منزلي .

وكان في جوارنا خادم أسود لبنت اليتيم امرأة خمارويه . فلما بلغت حارتنا قال لي : في جوارنا امرأة تطلق قد أوجعت قلبي . ادخلي اليها فليس لها قابلة . قالت أم آسية : والله ما عاينت بمخوضة قط . فدخلت اليها فمسحت جوفها وأجلستها كما كان القوابل يُجلسنني في طلقي فولدت من ساعتها ، فلما أمسك صباحها ، جاء الخادم يسأل عنها فقلتُ قد ولدت . فعجب من سرعة أمرها ، وظن ان هذا شيء قد اعتمدته بمصدق صناعة ، ولطف في مهنة ، فمضى الى سته بنت اليتيم وكانت مُقرباً بأول ولد حُمِل لأبي الجش ، وقد عُرِض عليها قوابل استنقلتهن ، فقال : في جوارنا قابلة أحضرناها لمرأة في حارتنا تطلق فوضعت يدها على جوفها فسقط ولدها . ووصفني بما لا يوجد في قدرة أحد الا بالله عز وجل . فقالت للخادم : اذا كان غدٌ فجئني بها . فأتى الغلام ودعاني الى مولاته فأجبت بانشرح صدر وثقة بالله تعالى . فاستخفَّت روعي وقالت : الى التام تقدير الله تبارك وتعالى . ثم شكيت مغمساً تجده المُقرب ، فأدخلت يدي في ثيابها ومسحت جوفها ، وعجبتُ الى الله تعالى في سرّي بتوفيقي ، وكنت أدعو ، ومن حضر من أهلها يتوهم اني أرقى ، فسكن ما وجدته وتبركت بي ، ودخل اليها خمارويه ، وقال : ما وجدت ؟ فقالت : مغمساً في جوفي ، فوضعت قابلة أردتها يدها عليه فزال ما أجده . وأخرجتني اليه (وكان قريباً من حرمة) فقال لي : ارجو ان يخلصها الله (عز وجل) ببركتك .

قالت ام آسية : ودخلنا في العشر الاواخر من شهر رمضان ، وقد تمسكت من الاخلاص لله (عز وجل) بما لا يصل اليه من ساح في

الجمال ، خوفاً من شماتة أخي بي ، فلم تمض الا ثلاثة ايام حتى تخضت فأجلستها الى كرسي الولادة (وكان مقدار طلقها ساعتين) فولدت ابناً اسهل ولادة ، وابو الجيش يقوم ويقعد ويذهب ويجيء ، فلما ولدت وكانت تتوقع من الولادة امرأ عظيماً ، فلما ألقته قالت لي : هذا الطلق ؟ قلت : نعم . فقبّلت - يعلم الله - عيني من الفرح ، وصاح بخارويه : اخبريني يا مباركة بخبرها فقلت : وحياة الامير انها في عافية ، وقد ولدت غلاماً سويّ الخلق بحمد الله ، فوجهه اليّ بألف دينار ، وألح ابو الجيش في النظر اليها لفرط اشفاقه عليها . فاستوقفته الى ان نقلت حوائج الولادة ، وقلت لها ياسيديتي : اضحكي في وجهه لما تريئه . فلما دخل اليها ضحكت في وجهه ، فنقدم بصدقة مال كثير عنها وعن ولده .

وقالت لي ام آسية : لما كان يوم الاسبوع « ووقع قبل العيد بيوم واحد » امرت لي بخمسة دینار ، وحصل من اتباعها الف دينار . فحصل لي ألفان وخمسة دینار . وخلعت عليّ وسائر حشمتها اكثر من ثلاثين خلعة . وحمل اليّ بما أعد للعيد ثلاث موايد خاصة . وانصرفت الى منزلي فأرسلت الى اخي مائدة ، ووافقتني مهنة ، وقد تقاصر طولها ، فأريتها ما حصل لي من المال والخلع والطيب وقلت لها : يا اخي : أنكرت عليّ قولي : « أقرضيني » ومن هذا كنت اقصيك ، فلا تستغري من كان الله مادته ، وعليه مدار ثقته وتعويضه .

واكتسبت هذه المرأة بمحلها من ابي الجيش مالاً كثيراً ، وقضت جماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة اه .

وفي المكافاة فوائد طريفة وحقائق قد لا تجددها مكتوبة منها : وكنا لا نفصي من بلدان خراسان الى بلد الا وجدناه اغلظ طبعاً من البلد الذي فارقناه حتى بلغنا بخاري فرأينا قوماً في نهاية من غلظ الطباع فقال لي مذ راني أتعجب منهم : كيف لو رأيت الترك وبلدانهم ؟ يقتلون المستجير بهم ويغير بعضهم على بعض فيهلك النازع اليهم بينهم .

هذا في المعاني ، وفي الالفاظ تفرد المؤلف بالفاظ عذبة لاعمد لنا
بمثلها قبله حاشا كبار البلغاء من الكتاب ومنها ما لم يعثر له على اثر في
المعاجم العربية ومنها ما لا نزال نستعمله ولكن في معانٍ غير المعاني التي
عبر بها عنها . أما التراكيب فهناك الاعجاز . كتاب المكافأة معجز
بالفاظه وتراكيبه تقف فيه على ما ليس له اليوم ما يشبهه وتقرأ فيه صوراً
من الظلم كان يقع من عمال السلطان بل على ما ليس لهم علاقة به ،
وجمعوا ثروتهم من تجاراتهم ، ووصف ما يعمله زبانية الملك او الامير او
الخليفة لاستخراج الاموال بالتعذيب على صفة قل ان جرى مثلها في
ادوار الانسانية .



(١٤)

الصولي

(أبو بكر محمد بن يحيى)

(٣٣٥)

نشأ في بغداد واخذ العلم عن أئمة عصره وتأدب به ناس ، وروى عنه الحديث بعض المشاهير ، وكانت محاضراته أجمل من شعره ونثره . وضع تأليف كثيرة وساعده على التوسع في اخبار خلفاء بني العباس ووزرائهم وشعرائهم وعلى « ذكر غرائب لم تقع الى غيره واشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه » كونه نادم الراضي ، وكان أولاً يعلمه ، ونام المكتفي ، ثم المقتدر دفعة واحدة فجال في أفق جديد تفرد بالتوسع فيه . قالوا : « كان محظوظاً من العلم ، مجدوداً من المعرفة ، مرزوقاً من التصنيف ، حسن التأليف ، وانه « حسن الاعتقاد جميل الطريقة ، مقبول القول » ، كان زينة المجالس موصوفاً بظرفه البغدادي ، رغب الخلفاء في منادمته ، لسعة فضله ولطف عشرته . وقد استبطن اخبار الناس ودون كل ظريف روي عنهم ، فهو الى الطرافة فيما دونه من طريف وتالد ، يحسن الغناء وسائر فنون الأدب الرفيع ، وكان ألعب اهل زمانه بالشطرنج ، ويمتاز بعلمه وفقهه وبعد نظره . وجميع ادواته هذه تجعله بين افراد قلائل صلحوا للمنادمة من كبار هذه الأمة ، فهو اديب يحسن الكلام والحوار ، وليس سلك المنادمة بالشيء السهل لما يحتاج اليه من آداب تؤيدها حافظة وذاكرة وتؤينها طلاقة لسان وفضل بيان .

كانت له يد باسطة في نقد الشعر ، ونظر ثاقب في تقدير مراتب الشعراء الاسلاميين والجاهليين ، فهو نقادة راوية ، تقرأ أمثلة من نقدهات

في كتاب الموشح لتلميذه المرزباني . اما فيما ينظم فلم يوفق التوفيق كله ، وما نشره له بعض اهل الأدب في كتبهم ، فانما كانت اجادته نسبية بالقياس الى بقية شعره ، وما كان من النوع الذي يرضون عنه . وهو نديم متكلم لا اديب يخلد ادبه ، ورب خطيب لا يجيد الكتابة وكم من كاتب لا يجيد الخطابة . حاول في كتابه الأوراق ان يأتي بقصائد ذات قوافٍ مستغربة فأبهم وعمى ، وظهر التكلف على ماقرض .

يقول صاحب في الكشف عن مساويء شعر المتنبي ، « وهذا الصولي كان كثير الرواية حسن الأدب الا انه ساقط الشعر ، يقول في كتاب الخلفاء وقد حشاه بشعره : انما اثبت شعري ليعلم الناس أن في زمانهم من ان لم يسبق البحثري انتصف منه ، وليس في الاعجاب بالنفس نهاية . وفي الصولي شيء من الضعف ظهر في مبالغته في محامد الراضي لأجل عطاياه له ، وما كان الراضي بالخليفة التي تهوي اليه النفوس اذا جرى التنظير بينه وبين الممتازين من اسلافه ، وملكه لا يتجاوز اسوار مدينة بغداد وحكمه ايضاً غير نافذ فيها . وقد رأينا الصولي يستجدي الخليفة ويشكو الزمان والحرمات ، ولا يفتأ يقول فلان منحني وفلان حرمني . خلق لا يلبق ان يتخلق به من يدعي انه من نسل ملوك ، وهو على أي حال يعاشر ملوكاً وامراء ولا يجوع في قريهم مهاعداء عليه الزمان . تدور موضوعات كتب الصولي على اخبار الطبقات الراقية في عصره وعلى شعرهم وادبهم وظرفهم ، وكتابه « الاوراق » مثال جميل من ذلك . وكذلك ادب الكتاب « ألفه فيما يحتاج اليه اعلى الكتاب درجة واقلمه منزلة » وهو هنا اذا كتب بدأ ضعفه ، واذا روى جود النقل . وما خلا الصولي من اناس بهرجوا علمه واستصغروا تأليفه ومنهم ابن النديم ، قال ان الصولي عوّل عند تأليفه « الاوراق » على كتاب المرثدي في الشعر والشعراء او على كتاب اشعار قريش ، وأنه نقله نقلاً وانتحله . وزعم ابن النديم انه رأى دستور الرجل في خزانة الصولي بخط المرثدي فافتضح به .

قد يكون الصولي اقتبس أموراً كثيرة من كتاب الشعر والشعراء او شعراء قريش او غيره لكن ما أتى به من عنده ظاهر ، وتعهد ابن النديم الطعن عليه ، يستنتج من وصفه اياه بأنه « جماعة للكتب » ولعل ذلك أتى من تنافس الرجلين في اقتناء الاسفار ، وابن النديم وراق قبل كل شيء . وذكروا انه كان للصولي بيت عظيم مملوء بالكتب وهي مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان كل صف من الكتب لون : فصف احمر وآخر اخضر وآخر اصفر وغير ذلك . وكان الصولي يقول : هذه الكتب كلها سماعي .

ولعل بعضهم يعترض على سلكنا الصولي في عطاء المؤلفين ، وهو في الواقع منهم لانه أتى بجديد ، ولانه صورة غريبة من رجال تلك الايام ، فقد جاء حتى في عصره اعظم منه في الحديث وأكبر منه في الادب ولكن العبرة بمن يجمع هذه الادوات في ثقافة ذلك العصر ، ويحظى في قصور الخلفاء بتلك المكانة ، ولا يضيع ما ربه من الفوائد فيقيدها ويحلفها للأجيال بعده تنتفع بها . اما نقلة المؤلفين عن غيرهم ، ولا سيما في الحديث والفقه فأى مزية لهم اذا لم ينفردوا بأشياء لم يسبقوا اليها ، فما اكثر عدد هؤلاء وما اقل من جمعوا الى فقههم أدباً وانتفعوا به ونفعوا ، وكان له على الايام صدى يتناقل فيطرب ويعجب .

قصة من مروياته : عن العتايي قال : كنا بباب الفضل بن يحيى البرمكي اربعة آلاف مابين شاعر وزائر ، وفيما فتى يحدثنا ونجتمع اليه . فيينا هو ذات يوم قاعد اذ أقبل اليه غلام له كأجل الغلمان فقال له : يا مولاي أخرجتني من بين أبويّ وزعمت أن لك وصلة بالملك فقد صرنا الى اسوأ ما يكون من الحال وقال : ان رأيت ان تأذن لي فأنصرف الى أبويّ فعلت ، قال فاغرورقت عيننا الفتي ثم قال : اثني بدواة وقرطاس ، فأتاه بها فقعدها فكتب رقعة ، ثم عاد الى مجلسه ثم قال للغلام : انصرف الى وقت رجوعي اليك . فيينا نحن كذلك ، اذ

جاء رجل ليستأذن على الفضل ، فقام اليه الفتى فقال : توصل رقعتي هذه الى الامير قال : وما في رقعتك قال : امدح نفسي واحث الامير على قبولي . قال : هذه حاجة لك دون الامير ، فان رأيت ان تعفيني فعلت قال : قد فعلت . فعاد الى مجلسه فخرج الحاجب فقام اليه فقال له مثل مقاله الاولى فاستظرفه الحاجب وقال : ان رجلاً يتصل بمثل الفضل يمدح نفسه لا يمدح الفضل عجيب . فأخذ منه الرقعة ثم دخل فلوحها للفضل ، فقرأ منها سطرين وهو مستلق على فراشه ، ثم استوى قاعداً وتناول الرقعة فقرأها فلما فرغ من الرقعة قال للحاجب : اين صاحب الرقعة ؟ قال : اعز الله الامير ، لا والله لا اعرفه لكثرة من بالباب . فقال الفضل انا انبذه لك الساعة ، يا غلام اصعد القصر فناد : اين مادمح نفسه ؟ فقام الغلام فصاح ، فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولا هذاء ، فلما مثل بين يدي الفضل قال له : انت القائل ما فيها ؟ قال : نعم . قال انشدني :
فأنشده الفتى يقول :

انا من بغية الامير وكنز من كنوز الامير ذو ارباح
كاتب حاسب خطيب بليغ ناصح زائد على الناصح
شاعر مفلق أخف من الريشة بما يكون تحت الجناح

الى أن قال في قصيدته انه يروي شعراً عن ابن هرمة وعلماً عن ابن سيرين وله في النحو نفاذ ، وأنه قادر على منادمة الخلفاء يسطلع بالمهات ، ويعرف ادب المجالسة ، وانه ابصر الناس بالجوارح والحيل والنساء ، وان فيه دعابة وهو غير ما جن الى آخر ما وصف به نفسه فقال له الفضل :

كاتب حاسب خطيب اديب ناصح زائد على الناصح

قال : نعم ، أصلح الله الأمير . فقال الفضل : يا غلام الكتب التي وردت من فارس ، فأتي بها ، فقال للفتى : خذها فاقراها وأجب عنها فجلس بين يدي الفضل يكتب ، فقال له الحاجب : اعتزل يكن أذنه

لك فقال : ههنا الرأي أجمع ، بحيث الرغبة والرغبة فلما فرغ من الكنب عرضها على الفضل ، فكأنما شق عن قلبه .

فقال الفضل : يا غلام بدرة بدرة فقال الفتى للغلام : اعز الله الأمير دنانير او دراهم . قال : دنانير يا غلام . فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل : احملها بارك الله لك فيها . قال الفتى : والله أيها الأمير ما أنا بجمال ، وما للحمل خلقت ، فان رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها ، على أن الغلام لي ، فأشار الفضل الى بعض الغلمان ، فأشار الفتى اليه : مكانك . فقال : ان رأى الأمير ، أيده الله ، أن يجعل الحيار اليّ في الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل . فقال : اختر ، فاختر اجلهم غلاماً فقال : احمل . فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى ، فاستفظع الفضل ذلك وقال : ويملك استقلالاً ؟ قال : لا والله ، أيديك الله ، ولقد اكثرت ، ولكن أسفاً أن الارض تواري مثلك ، قال الفضل : هذا أجود من الاول ، يا غلام زده كسوة وحملاً . قال العتابي : فلقد كنت أرى ركاب الفتى تحت ركاب الفضل .

مات الصولي مستوراً بالبصرة لأنه روى خبراً في علي بن أبي طالب رضي الله عنه فطلبته الخاصة والعامة لتقتله .

الأشعري

ابو الحسن علي بن اسماعيل

(نيف وثلاثون وثلاثمائة)

بصري سكن بغداد الى ان توفي بها . نشأ من بيت عريق في العلم والفقه والمناظرة والقضاء والفتوى ، واخذ العلم عن ابي علي الجبائي امام المعتزلة ، وتبعه في الاعتزال ، وألف في نصرته والدعوة اليه ، واقام على الاعتزال اربعين سنة حتى صار للمعتزلة اماماً ، ثم تغيب في بيته عن الناس خمسة عشر يوماً ، وقالوا انه تاب من القول بالعدل وخلق القرآن ، وذلك في المسجد الجامع بالبصرة وفي كرسياً ونادى باعلى صوته في يوم الجمعة : من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فانا اعرفه بنفسي انا فلان بن فلان ، كنت اقول بخلق القرآن وان الله لاتراه الابصار وان أفعال الشر أنا أفعالها ، وأنا تأب مقلع . وأهل العدل فرقة من اهل التوحيد تقول ان الله انما خلق الخلق اجمعين لصلاحهم ونفعهم . قل : معاشر الناس انما تغيبت عنكم هذه المدة لاني نظرت فتكافأت عندي الادلة ولم يترجح شيء على شيء ، فاستهديت الله فهديني الى اعتقاد ما اودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به . ودفع الكتب التي الفها على مذاهب اهل السنة الى الناس . قالوا ان المعتزلة كانوا قد رفعوا رؤوسهم حتى ظهر بدعوته فجحروهم في أجمع السمس .

رواية غريبة مثلها ابو الحسن تمثيلاً مقبولاً ، فاتقى بما اتى صولة العامة ، واستمال قلوبهم واقنعهم بتوبته عن الاعتزال ، ورجوعه عن مذهب لا يخالف

ماخرج اليه الا بما لا بال له . وقد وفق في نزعه الجديدة توفيقاً لم يسبق له مثيل . ولما سلك طريقاً بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب اهل التجسيم ، وناظر على قوله هذا واحتج لمذهبه ، مال اليه جماعة وعولوا على رأيه منهم الباقلاني وابن فورك وابو اسحق الاسفرايني وابو حامد الغزالي والشهرستاني وفخر الدين الرازي وغيرهم ، ونصروا مذهبه وناظروا عليه وجادلوا فيه واستدلوا له في مصنفات كثيرة ، فانشر مذهبه في العراق من نحو سنة ثمانين وثلثمائة وانتقل الى الشام . يقول ابن خلدون ان الشيخ ابا الحسن الاشعري امام المتكلمين توسط بين الطرق ونفى التشبيه واثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف ، وشهدت له الادلة المخصصة لعمومه ، فاثبت الصفات الاربع المعنوية والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقل ، ورد على المبتدعة في ذلك كله ، وتكلم معهم فيما مهدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والاصح والتحصين والتقيح ، وكمل العقائد في البعثة واحوال الجنة والنار والثواب والعقاب ، والحق بذلك الكلام في الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وانه يجب على النبي تعيينها والخروج عن العهدة في ذلك لمن هي له وكذلك على الامة .

تصدى الأشعري للرد على المعتزلة والرافضة والجهمية والحوارج وغيرهم وقيل انه صنف خمسة وخمسين تصنيفاً وقال بعض الباحثين انه عدّها اكثر من ثلثمائة مصنف وبعضها ردود ونقض أقوال من لايقول بقولهم من العلماء ، وقيل انه كان ضعيفاً في التأليف قوياً في المناظرة . والصحيح انه كان قوياً في كليهما يفيض من علمه على ما يجب ويعرف اجتذاب القلوب اليه ، ويهتم لرضا العوام والخواص . صفات يتحتم تحقيقها في صاحب كل دعوة . اما صفاته الشخصية فخير صفات يستطيع بها من أوتيتها استهواء العقول فلا ينفر منه احد ولو خالف رأيه . وما كان فيه جمود بعض العلماء ولا تزمتهم وعزوفهم ، وكان فيه دعاية ومرح ويحب المزاح كثيراً .

وأما عيشه فكان مضموناً لا يحتاج في تحصيله الى كد ، يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال بن ابي بُردة بن ابي موسى الأشعري على عقبه ، وكانت نفقته كل يوم سبعة عشر درهماً ، وقيل أقل من ذلك ، أي أنه كان موسعاً عليه لا يضطر الى الرواتب وتولي المناصب بما يقطعه عن غرضه الديني الشريف .

ان في القول بأن أبا الحسن الأشعري بعد ان قضى في مذهب الاعتزال أربعين سنة قد تاب وانا ب مجالاً للتفكير الطويل . والمعقول انه بقي على ترانيب مذهبه الأصلي ، وما جاءه الفيض الا بالأخذ عن أئمة المعتزلة ، وما انفتق ذهنه الا بأصولهم والتشبع بطرائقهم في المناظرة والاجتهاد والتحقيق .

وكتاب الأشعري في « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين » من امتع ما كتب عالم في الكشف عن فرق الاسلام . اخذ بعضه من الكتب المؤلفة قبله ونسقه وضمنه آراءه ومنازعه وحشاه بفوائد تاريخية وسياسية ، ووصف فيه مسائل علم الكلام واختلاف أرباب المذاهب فيها وصفاً دقيقاً مفهوماً ، ومما روى وقائع المطالبين بالخلافة وفصولاً في الامامة واعتقاد اهل الفرق فيها ، وفي الحكمين والحكم عليهما بما فعلا . اطلق في كل ذلك العنان لقلبه حتى ان النبيه المتصفح لكلامه لا يشعر ان الأشعري خالف أصحابه القدماء . وخروجه عن مذهبه الاصيل بعد قضاء اكثر عمره فيه دليل مهارة استوجبها فرط حريته واخلاصه لدينه .

الاشعري « لم يبدع رأياً ولم ينشئ مذهباً وانما هو مقرر لمذاهب السلف ، مناخل عما كانت عليه صحابة رسول الله ، فالانتساب اليه انما هو باعتبار انه عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسك به ، واقام الحجة والبراهين ، فصار المقتدى به في ذلك ، والسالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً » . ولما قرب حضور اجله قال لأحدهم اشهد علي اني لا أكثر احداً من اهل هذه القبلة لأن الكل يشيرون الى معبود واحد وانما هذا

كله اختلاف العبارات . قال ابن عساكر في تبين كذب المفتري : وحين كثرت المبتدعة في هذه الامة وتركوا ظاهر الكتاب والسنة وانكروا ما ورد به من صفات الله عز وجل نحو الحياة والقدرة والعلم والمشيئة والسمع والبصر والكلام ، وجحدوا ما دل عليه من المعراج وعذاب القبر والميزان ، وان الجنة والنار مخلوقتان ، وان اهل الايمان يخرجون من النيران وما لبينا صلى الله عليه وسلم من الحوض والشفاعة ، وما لأهل الجنة من الرؤية ، وان الخلفاء الاربعة كانوا محقين فيما قاموا به من الولاية ، وزعموا ان شيئاً من ذلك لا يستقيم على العقل ولا يصح في الرأي اخرج الله عز وجل من نسل ابي موسى الأشعري رضي الله عنه اماماً قام بنصرة دين الله وجاهد بلسانه وبنانه من صد عن سبيل الله .

وللأشعري من المکتب المطبوعة « الابانة في اصول الديانة » و « استحسان الحوض في الكلام » و « رسالة الى اهل الشجر بباب الابواب » . وامتعا « مقالات الاسلاميين » . وهو كاتب مجيد ، كتب الشريعة بلسان عذب لا تعقيد فيه حتى ليستدرجك الى الاعتقاد بعقيدته من حيث لا تدري ، والأشعري بما اصدره من الطبعة الاخيرة من آرائه التي وافقت قبولاً من عظماء الملة ، وسرت في الافكار بدون ان تلقى تصادماً يعتد به ، قد اراح السواد الاعظم من المسلمين بأن عين لهم حدود المعتقدات فكان واضع أساس مذهب اهل السنة والجماعة وكان المؤمنون أزعجوا باختلاف الباحثين .

قالوا كان من الاعتزال ما كان من تفرق كلمة الفرق وكان لرد الفرق بعضها على بعض رواج كثير ، ولما تعيلت معتقدات التشيع والتسنن وانقرض المعتزلة انقرض بانقرضهم التفكيير الحر مع الاسف ، وبات البحث في هذه الامور وقفاً على خاصة الخاصة يدرسونه من باب الاطلاع على الشيء .

قدامة بن جعفر

ابو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن رزبا

(٣٣٧)

سكن أبو جعفر البصرة ثم انتقل الى بغداد ، وكان من أهل الأدب والكتابة وله مصنفات ، وتولى بعض الدواوين ، وولد ابنه قدامة في بغداد على الأرجح ، في أول الربع الأخير من القرن الثالث ، ونشأ على النصرانية دين أبيه ، وتثقف ثقافة اسلامية ، فأحکم اللغة والأدب والفقہ والكلام والفلسفة والرياضيات وغلب عليه الادب واللغة . ثم أسلم على يد الخليفة المكتفي وتولى في سنة ٢٩٧ بعض الأعمال في دواوين الأموال . وسكنت الأخبار عن أصل أبي جعفر ، والغالب انه فارسي نزل أبوه أو جدّه العراق ، وتمازج بالمسلمين وتعلم من علومهم ما يستعين به على الكتابة والتصنيف . أما ابنه فتلقف علوم الملة الاسلامية شأن كثير من أذكياء العصور ومنهم ابن المقفع وعلي بن ربّان ثم امتلوا ملة الاسلام عن علم وثقافة .

يقول المسعودي ان أبا الفرج قدامة بن جعفر السكاتب كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجز الألفاظ ، مقرباً للمعاني ، واذا أردت علم ذلك فانظر الى كتابه في الأخبار المعروف بكتاب زهر الربيع ، وأشرف على كتابه المترجم بكتاب الخراج ، فانك تشاهد بها حقيقة

ما ذكرنا ، وصدق ما وصفنا » وقال ياقوت : ان قدامة أدرك زمن ثعلب
والمبرد وأبي سعيد السكري وابن قتيبة وطبقتهم ، والأدب يومئذ طري ،
فقرأ واجتهد وبرع في صناعتي البلاغة والحساب ، ثم قرأ صدرأ صالحاً
من المنطق ، وهو لأصح على ديباجة تصانيفه ، واشتهر في زمانه بالبلاغة
ونقد الشعر . وذكر له اسماء كتب كثيرة ألفها . وقال الخطيب البغدادي :
هو من مشايخ الكتاب وعلمائهم ، وكان وافر الأدب ، حسن المعرفة ،
وله مصنفات في الكتابة وغيرها . وضرب الحريري المثل في مقدمة مقاماته
ببلاغة قدامة فقال : وان المتصدي بعده (أي بعد البديع الحمذاني)
لانشاء مقامة ، ولو أوتي ببلاغة قدامة ، لا يعترف إلا من فضالته .
شهادات كلها متفقة على تفرد ابي الفرج ببلاغته ، وشغوف طبعه
وغزارة علمه ، عرف بذلك بين الخواص ، واعترف له بمزاياه النادرة جهايزة
النقد وأئمة البلاغة ، وان لم يشتهر كثيراً بين العوام ، وهؤلاء لا تستفيض
شهرة أحد عندهم ان لم يقرب في تأليفه ودروسه من أفكارهم وتصوراتهم .
وأهم ما لم يفقد من كتبه كتابه « نقد الشعر » دل فيه على نبوغ
واحاطة ، ولو لم يكن من جلال الآداب بالمقام الأعلى ما نافسه في بعض
آرائه في البديع أئمة الأدب بعده أمثال المرزباني في الموشح ، والعسكري
في الصناعتين وابن سنان في سر البلاغة ، والآمدي في الموازنة بين
أبي تمام والبحثري .

أما الكتاب الذي سموه « نقد النثر » ونسبوه اليه فهو مما لم يكتبه ،
والظاهر انهم نخلوه اياه . ومن يتأمل عباراته يجدها اشبه بعبارات
أهل القرن السادس والسابع ، وبلاغته موضع نظر . فقد رأينا في
مقدمة « نقد الشعر » يدخل على موضوعه مباشرة وفي مقدمة « نقد النثر »
أسجاع تنادي بأن الكتابين لكتابين متخالفين في الطريقة والاداء .
وكذلك نشك في نسبة كتاب جواهر الألفاظ الذي عزي اليه .

وفي جريدة تأليفه ذكر لكتاب الألفاظ من تأليفه ، وبضعة سطور من مقدمته تحمل الناقد على الحاق كتاب جواهر الالفاظ بكتاب نقد النثر . قال في كتاب الجواهر وهو « كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة ، وأبواب موضونة ، بحروف مسجعة مكنونة ، متقاربة الاوزان والمباني ، متناسبة الوجوه والمعاني ، توتق أبصار الناظرين ، وتروق بصائر المتوسمين ، وتتسع بها مذاهب الخطاب ، وتنفس معها بلاغة الكتاب ، لأن مؤلف الكلام البليغ الفصيح ، واللفظ المسجع الصحيح ، كناظم الجوهر المرصع ، ومركب العقد الموشع ، يَعُدُّ أَكْثَرَ أَصْنَافِهِ ، لَيْسَ عَلَيْهِ اتِّقَانٌ رِصْفِهِ وَائْتِلَافِهِ » .

أما كتابه « الحراج و صنعة الكتابة » وهو بما صنفه بعد نحو من عشرين سنة من اشتغاله في دواوين الاموال فهو نط آخر من كتابته ليس فيه أثر من آثار السجع ويقل فيه الازدواج . مثال من كتابته في الحراج قوله في ذكر ثغور الاسلام والأمم والاجيال : « الامم والاجيال المخالفة للاسلام مكتنفة له من جميع أطرافه وغايات أعماله منهم المتقارب من دار بملكته ، ومنهم المتباعد عنها . وكانت ملوك الطوائف الذين يملكهم ذو القرنين يؤدون الاتاوة الى ملك الروم خمس مائة واحدى عشرة سنة الى أن جمع أردشير بن بابك المملكة بعد مشقة وطول مجاهدة فمنع حينئذ الاتاوة التي كانت الفرس تؤديها الى الروم فينبغي أن لا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذراً منهم للروم ، وقد جاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلته والله الموفق للصلحة بقدرته » .

وتنجز فننقل جملة أخرى من كلامه من هذا الكتاب أيضاً وهو قوله « ثم نتبع ذلك بوصف أحد أيام الفزوات ليكون علم ذلك محصلاً محفوظاً فنقول ان أجهدها بما يعرفه أهل الجبهة من الثغرين أن تقع الغزاة

التي تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار بعد أن يكون الناس قد
أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خبوتهم فيقيمون ثلاثين يوماً وهي بقية
أيار وعشرة من حزيران ، فانهم يجدون الكلاً في بلد الروم ممكناً وكان
دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً ، ثم يظلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوماً
وهي بقية حزيران وخمسة من تموز حتى يقوى ويسمن الظهر ، ويجتمع
الناس لغزو الصائفة ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون الى وقت
قفولهم ستين يوماً . فاما الشواقي فاني رأيتهم جميعاً يقولون : ان كان
لا بد منها فليكن بما لا يبعد فيه ولا بوغل ، وليكن مسيره عشرين ليلة
بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره وان يكون ذلك في
آخر شباط فيقيم الغزاة الى أيام تضي من آذار فانهم يجدون العدو في
ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواب ويجدون مواشهم كثيرة
ثم يرجعون ويربعون دوابهم .

هذا نخط قدامة في الانشاء وليس فيه أثر من آثار التكلف غير حسن
الصناعة وجمال الأداء . ولقائل أن يقول : ولكن قدامة هنا يقرر حقائق
وهناك يكتب أدباً . فنقول ان من يدقق يدرك ادراكاً لا تعتوره ريبة
أن قائل هذا الكلام لا يرضى لنفسه ذاك التكلف والتعسف .
ان ما أصاب الخزان من النكبات قضى بان يضيع القسم الأعظم
بما كتبه المؤلفون ، وطول الزمن وانتشار الجهل كانا مدعاة الى أن
تنسب بعض المصنفات الى غير مصنفها . ولعل الأمة العربية اذا طبعت
كل ما في الشرق والغرب من المخطوطات تصل الى كشف حقائق تتعذر
اليوم الاحاطة بها .

(١٧)

ابن عبيان البستي

ابو حاتم محمد

(٣٥٤)

عربيّ اتصل نسبه بالياس بن مضر ونسب في احدى الروايات الى دارم ثم الى تميم بن مر ثم الى عدنان . نشأ في بَست مدينة بين سجستان وغزني وهرات ، لا يعرف عن نشأته الا ما قالوه من انه كان مكثراً من الحديث بالرحلة والشيوخ ، وانه سمع الحديث من خلائق في خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر والجزيرة وغيرها ، وقال في بعض كتبه : ولعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والاسكندرية .

ولي قضاء سمرقند ثم قضاء نسا وغيرها ، ثم صرف من القضاء بدعوى انه زعم ان النبوات علم وعمل ، وانه صنف لأبي الطيب المصعبي كتاباً في القرامطة . وقال بعضهم ان له اوهاماً أنكرت عليه وانه طعن عليه بهفوة منه بدرت ، ولها محل لو قبلت . وقيل ان الخليفة قتله بدعوى انه يعرف بعض العلوم الرياضية وهو في الثمانين من عمره ! وقيل مات حتف انفه . والارجح ان كتابه في القرامطة حمل افكاراً لا يرضاها السلطان فنقموا منه ما كتب ، فكان مقتله سياسياً .

كان البستي عالماً بالمتون والاسانيد اخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره ، وصحيحه فيه اصح من سنن ابن ماجه ، وكانت الرحلة بخراسان الى مصنفاته ، لانه ادرك الأئمة والعلماء والاسانيد العالية ، وكان وعاء من اوعية العلم في اللغة والفقه والحديث والوعظ ، عارفاً بالطب والنجوم والكلام ، عاقلاً المعياً وكاتباً لودعياً .

وذكر العارفون ان من الكتب التي تكثر منافعها ان كانت على قدر ما ترجمها به واصفوها مصنفات ابي حاتم ، وهي في الحديث ومناقب الائمة ، والعلوم وانواعها ، والهداية الى علم السنن . وقد سبّلها ووقفها وجمعها في دار رسمها بها جعلها لاصحابه ، وبني مسكناً للغرباء الذين يقيمون بها من اهل الحديث والمتفهمة ، وجعل لهم جرايات يستنفقونها داراً . وأوصى وصيه ان تبذل كتبه لمن يريد نسخ شيء منها من غير ان يخرجها من دارها . وتشتت كتبه مع « تطاول الزمان وضعف السلطان واستيلاء ذوي العيث والفساد على تلك البلاد وجهل اهلها ، فلم تعاور بالنسخ » فضاع أصلها ولم يكثر فرعها .

لم نعرف ان كان طبع لابن حبان شيء من كتبه المحررة في العلم الذي اشتهر به في القاصية والدانية ، وغاية ما طبع له كتاب « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » وهو كتاب بديع قسمه الى زهاء خمسين مطلباً ابتداء كل مطلب بحديث واتبعه بما قصد بيانه ، ووشاه بشواهد كثيرة من الشعر وغيره ، بحيث يستفيد منه الكبير والصغير ، ويتأدب به الأمير والأجير ، ويعني غناه في تربية الرجال والنساء ، ببيان معجب وتنسيق جاءت معه فصوله ذات حجم واحد ، متوازية الفائدة آخذة من الحسن والاحسان بأوفر نصيب .

ابن حبان ينقل الشعر والنثر بالرواية على اصول المحدثين . ومنظومه طبقة يتنافس فيها ، ثم يأتي من عنده بكلام يدل على بعد غوره ولطف ادائه ، وقد يورد في بعض الفصول قصصاً تروق وتعلم ، ويخاطب العقل وما يجدر بصاحبه عمله « لأن من جاوز الغاية في كل شيء صار الى النقص ، ولا ينفع العقل الا بالاستعمال ، كما لا تنفع الاعوان الا عند الفرصة ، ولا ينفع الرأي الا بالانتحال كما لا تتم الفرصة الا بحضور الاعوان »

قال أنشدني عبد الرحمن بن محمد المقاتلي :

فمن كان ذا عقل ولم يك ذا غنى يكون كذي رجل وليست له نعل

ومن كان ذا مال ولم يك ذا حجبٍ يكون كذي نعل وليست له رجل
وبما حكاه قال : سمعت اسحق بن احمد القطان البغدادي بتسترو يقول :
كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء كان يتفقد الصالحين
ويتعاهدهم ، فقال لي : دخلت يوماً على احمد بن حنبل فاذا هو مغموم
مكروب فقلت : مالك يا ابا عبد الله . قال : خير . قلت ومع الخير ،
قال : امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت ثم عاجلوني وبرأت ، الا أنه
بقي في صلي موضع بوجعني ، هو أشد علي من ذلك الضرب . قال :
قلت اكشف لي عن صلبك : قال : فكشف لي فلم أر فيه الا أثر
الضرب فقط . فقلت : ليس لي بذي معرفة ، ولكن سأستخبر عن
هذا . قال : فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس ، وكان ببني
ويينه فضل معرفة ، فقلت له : أدخل الحبس في حاجة قال : أدخل .
فدخلت وجمعت فتياتهم ، وكان معي دريهات فرقتهما عليهم ، وجمعت
أحدثهم حتى أنسوا بي . ثم قلت : من منكم ضرب أكثر ؟ قال :
فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضرباً وأشدهم
صبراً . قال : فقلت له : أسألك عن شيء قال : هات . فقلت :
شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم وُضرب على الجوع للقتل سيّاطاً
يسيرة ، الا انه لم يميت ، وعالجوه وبرأ ، الا ان موضعاً في صلبه
بوجعه وجعاً ليس له عليه صبر . قال : فضحك ، فقلت : مالك ؟
قال الذي عاجله كان حائكاً . قلت : ايش الخبر ؟ قال : ترك في
صلبه قطعة لحم ميتة لم يقلعها قلت : فما الحيلة ؟ قال : يُبسط صلبه
وتؤخذ تلك القطعة ويُرمى بها ، وان توكت بلغت الى فؤاده فقتلته .
قال : فخرجت من الحبس فدخلت على احمد بن حنبل فوجدته على
حالته ، فقصصت عليه القصة قال : ومن يبسطه ؟ قلت أنا ، قال :
أو تفعل ؟ قلت : نعم قال : فقام ودخل البيت ثم خرج وببده مخدتان
وعلى كتفه فوطاة ، فوضع احداهما لي والأخرى له ثم قعد عليها وقال :

استخر الله فكشفت الفوطه عن صلبه وقلت : أرني موضع الوجع قال :
ضع اصبعك عليه فاني أخبرك به ، فوضعت اصبعي وقلت : هاهنا موضع
الوجع ؟ قال : ههنا احمد الله على العافية . فقلت : ههنا قال : هاهنا
احمد الله على العافية . فقلت هاهنا قال : هاهنا اسأل الله العافية . قال :
فعلت انه موضع الوجع ، قال : فوضعت الموضع عليه فلما أحس بحرارة
الموضع وضع يده على رأسه وجعل يقول : اللهم اغفر للمعتصم ، حتى
بططته . فأخذت القطعة الميتة ورميت بها وشدت العصا به عليه ، وهو
لا يزيد على قوله : اللهم اغفر للمعتصم . قال : ثم هدأ وسكن ثم قال :
كأنني كنت معلقاً فأحدثت . قلت : يا أبا عبد الله ان الناس اذا امتحنوا
محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم . قال اني فكرت فيما
تقول ، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرهت آتي يوم
القيامة وبين يدي وبين احد من قرابته خصومة ، وهو مني في حل .

ومن حكاياته ، وحكاياته على الأغلب ذات مغزى سياسي واجتماعي :
ابنأنا محمد بن صالح الطبري بالصينمرة حدثنا محمد بن عثمان العجلي قال :
لما حدث شريك بجديث الاعمش عن سالم بن ثوبان أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : « اسنقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فاذا خالفوكم فضعوا
سيوفكم على عواتقكم فأبیدوا خضراءهم ، فان لم تفعلوا فكونوا زراعين
أسقياء » . سعي به الى المهدي فبعث الى شريك فاتاه ، فقال : حدثت
بها ؟ قال : نعم . قال : عن رويتها ؟ قلت : عن الاعمش . قال : ويلى عليه
لو عرفت مكان قبره لاخرجه فأحرقته بالنار . قلت : انه كان مأموناً
على ما يروي . قال : يا زنديق لأقتلك . قلت : الزنديق من يشرب
الحمر ويسفك الدم . قال : والله لأقتلك . قلت : أو يكفي الله ؟ قال :
فخرجنا من عنده فاستقبلني الفضل بن الربيع فقال : ليس لك موضع
تهرب اليه ؟ قلت : بلى ، قال : فانه أمر بقتلك قال : فخرجت الى

جُبَل . وخرجت يوماً أتجسس الخبر فأقبل ملاح من بغداد فاستقبله
ملاح آخر من البصرة ، فسأله ما الخبر ؟ قال : مات أمير المؤمنين .
قلت : يا ملاح قرّب ، فقرّب . وفي هذه القصة إشارة الى ظلم العباسيين
وفي أقل منها كانوا يستبيحون اهلاك الناس ، ولذلك ما كان ابن حبان
من المرضى عنهم في بلاط بغداد على ما يظهر . وما أغناه انطواؤه على
علم عزيز وخير كثير . أفاد الامة من كل وجوه الاستفادة فما قال منها
الا كفر ما أسدى ونحط ما أجدى .



أبو الفرج الاصفهاني

علي بن الحسين

(٣٥٦)

قيل انه من ولد هشام بن عبد الملك وساق ياقوت نسبه هكذا :
علي بن الحسين بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد
ابن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ،
ولد في اصفهان وأخذ العلم في بغداد عن ابن دريد وابن الأنباري
والجمحي والأخفش ونفطويه ، وكتب عليه أن يتنقل في البلاد ، وانتهى
الى أن أصبح من ندماء الوزير المهلبى ووصل الى سيف الدولة بن حمدان .
ووصفه ياقوت بالعلامة النسابة الاخباري الحُفْظَةُ الجامع بين سعة الرواية
والحذق في الدراسة . قال : لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه في فنها وحسن
استيعاب ما يتصدى لجمعه . وكان مع ذلك شاعراً مجيداً .

وذكر التنوخي أنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار
والأحاديث المسندة والنسب ما لم يحفظ مثله أحد ، ويحفظ دون ذلك من
علوم آخر منها اللغة والنحو والحرفات والسير والمغازي ، ومن آلة
المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة وتنف من الطب والنجوم
والاشربة وغير ذلك ، وله شعر يجمع اتقان العلماء واحسان الظرفاء والشعراء .
كتب المؤلف مصنفات كثيرة أجاد فيها وأجلها كتاب الاغاني جمع
فيه الاصوات القديمة وما قيل فيها وتراجم الادباء والشعراء وأخبار
الحضارة والعلم بما لم يكتب لكثيرين أن يجيدوا فيه ، فالاغاني كتب

كثيرة في كتاب ، انتفع به كل مؤلف وكل أديب وكل شاعر وكل نائر على اختلاف العصور ، ولو قد كتب له الضياع لفقد الادب العربي بفقده أعظم جزء مهم . ومن عظمة هذا الكتاب ان فيه أخباراً اقتبسها من كتب لم تصل الينا ، وقد حمله أشعاراً وقصصاً من الادب المكشوف لا تروق الا فرنج طريقتها ، وتلاهم العرب لهدنا في الاشمزاز من كتبها وتلاوتها وانشادها .

وقد استغرب من ترجوا لابي الفرج بانه كان على نزعة شيعية مع انه أموي من صميم بني أمية . والغالب ان بيئته اوحى اليه ذلك ، وكانت بعض الكتب التي اعتمد عليها من مؤلفات الشيعة . وقيل انه كان يؤلف بعض الكتب ويرسلها الى ذوي قرباه من الأمويين في الاندلس ويحيزونه عليها سرأ . وهذا كتابه الاغاني اهداه لسيف الدولة بن حمدان وهو شيعي فأجازه عليه بألف دينار ، وبلغ الصاحب بن عباد فقال : لقد قصر سيف الدولة وانه يستاهل اضعافها ووصف الكتاب فأطنب ثم قال : ولقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو مميروي غيره ولا راقني منها سواه . قال ابو محمد المهلبى سألت ابا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب فقال في خمسين سنة . قال ياقوت « ولعمري ان هذا الكتاب لجليل القدر ، شائع الذكر ، جمّ الفوائد عظيم العلم ، جامع بين الجد والبحت ، والمهزل والنحت » .

جمع الاصفهاني كتابه من كتب من سبقوه الى خوض هذه الموضوعات ومن دواوين الشعر والخطب والاخبار ما عزّ على غيره استيفاء مثله . جمعه بذوق عال شفاف حتى لينسى قارئه أن ابا الفرج جماعة قلّ أن يأتي بشيء من عنده واذا أتى به كان من الجيد الممتع لا يخرج كتابه عن منهاجه ولا يجيد عن ترتيبه . وأسلوبه السهل الممتنع في الكتابة ، وربما كان كاتباً أكثر منه شاعراً وان نسب المؤلفون اليه الشعر ووصفوه بالجوذة . فالأغاني مفخرة لغة العرب لو اقتصر متأديب عليه لجا منه أول

أديب لأنه يظفر فيه بأدق الشعر واجزل الخطب الى ما هناك من اخبار
وطرف وسير ومجالس وبدائع كتبها بجرية ظاهرة ، وما عمد الى شيء
من التقية في تقييدها وتدوينها .

نقل صاحب الوافي عن الشيخ شمس الدين قال هذا : رأيت شيخنا
ابن تيمية يضعفه ويتهمه في نقله ويستهل ما يأتي به وما علمت فيه
جرحاً الا قول ابن ابي الفوارس انه خلط قبل ان يموت . وقد اثنى على كتابه
الأغاني جماعة من جلة الادباء انتهى . قال ابن غرس الموصلني كتب اليّ
ابو تغلب بن ناصر الدولة يأمرني باقتناء كتاب الأغاني فابتعته له بعشرة
آلاف درهم فلما حملته اليه ووقف عليه قال : لقد ظلم ورأفه المسكين وانه
ليساوي عشرة آلاف دينار ، ولو فقد ما قدرت عليه الملوك الا بالرغائب
وامر ان يكتب له به نسخة أخرى .

ورموا ابا الفرج بأنه كان مستهتراً في سيرته شأن بعض الندماء في
العصر العباسي . وكيف يمتنع النديم عن اشياء حظرها العرف والشرع وهي
معروضة عليه كل ساعة وبها قد ينفق على مخدمه . وكما اوصلته بيئته الاصلية
الى القول بالتشيع لانهل البيت وهو من أسرة منافسة لهم ، ساقته الندامة
الى ارتكاب أمور كان يعف عنها لو لم يصل الى تلك المجالس والملاهي ،
ومن حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه .

ثم ان من الطبيعي ان يرجع من يكتب كتاب « مقاتل الطالبين »
الى مصادرهم ويرشح فكره من افكارهم ، وكما ان من يتوسع في الترجمة
لأبي نواس وينقل شعره العاهر بدون حرج يحكم على المؤلف انه كان
في كتاب « مقاتل الطالبين » شيعياً جلدأً (١) وفي الشعر النواصي خليعاً

(١) يقول صديقي الاستاذ المحقق شفيق جبوري انه امعن النظر كثيراً في كتاب
الأغاني فراه ينقل ما يرميه بالتشيع وما ثبت به براءته منه ، فهو بريء من التشيع اذا
اعتبرنا مجموع كلامه . واذا صح رأي الاستاذ الحبيب يخرج ابو الفرج من تهمة ألصقت
به زمناً طويلاً لاني ما رأيت مؤلفاً من القدامى الا قال بشيعيته . ك (١١)

ماجنا . وكتاب الاغاني على اي حال معاملة ادب او اكبر معاملة في ادب العرب ، لا يستغني عنه كاتب ولا مؤلف ولا تلميذ ولا استاذ . كتبه مؤلفه في السنين الطويلة ، كتبه ، في خمسين سنة ، ولم يدخر وسعاً في تجويده ، فجاء كما اراد هو واراد الادب ، وحاول بعض المترجمين اختصاره فما اتوا بكبير امر وبقيت قلوب الدارسين والمتملمين لا تعلق لها بغير قراءة الاصل والاعتماد عليه .

ألف كتاب الاغاني في عصر نضجت فيه الآداب نضجاً لم يتيسرها في القرون التالية أن وُفقت الى اكثر منه ، فهو بلغته السامية ومادته الواسعة من النمط العالي ، وفي جودة تأليفه المثل السائر بين المؤلفات ، صرف مؤلفه في تصنيفه نقد عمره فخلد اسمه تخليداً لم يبلغه من ألفوا مجلدات اكثر من مجلداته ، ذلك لأن هؤلاء كتبوا برووس أناملهم من حاضر الوقت ، وكتاب ابي الفرج كتبه بتحقيقه وجمال ذوقه وخلع على ما جمع حلة شائقة من ظرفه ، وجموع هذا دل على نبوغ تفرّد به في هذا الباب من دون اكثر المؤلفين ، ومثل هذا التأليف اذا ارادت امة عظيمة من امم الحضارة الحديثة ان تخرجه للناس ليعمل فيه اقل من خمسين عالماً اخصائياً في فنه ، وابو الفرج عمل وحده وكان نسبي وحده ، فالأغاني كنز من كنوز الأجداد ومفخرة الآباء والابناء والاحفاد .

وبما روي من شعره ما قاله في هجو المهلبى :

أبعين مفتقر اليك رأيتني بعد الغنا فرميت بي من حالق

لست الملوّم انا الملوّم لأنني املت للاحسان غير الخالق

ومنه :

حضرتكم دهرأ وفي السك تحفة فما أذن البواب لي في لقائكم

اذا كان هذا حالكم يوم اخذكم فما حالكم تالله يوم عطائكم

وذكروا ان صاحب الاغاني كان كاتباً لركن الدولة حظياً عنده

محتشماً له وكان يتوقع من الرئيس ابي الفضل بن العبيد ان يكرمه

ويبجله ويتوفر عليه في دخوله وخروجه وعدم ذلك منه فقال :
مالك موفور فما باله اكسبك التيه على المعدم
ولم اذا جئت نهضنا وان جئنا تطاولت ولم تتمم
وان خرجنا لم تقل مثل ما تقول « قدم طرفه قدم »
ان كنت ذا علم فمن ذا الذي مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب من دولة ونحن من دونك في المنسم
وقد ولينا وعزلنا كما انت فلم نصغر ولم نعظم
تكافأت احوالنا كلها فصل على الانصاف او فاصرم
وقد روى ابو حيان في كتاب الوزيرين من تصنيفه في خبر هذه
الابيات غير هذا ومن قوله في المهلبى :

ولما انتجعنا عائدين بظله اعان وما عتسى ومن وما متنا
وردنا عليه مقترين فراشنا ورُدنا نداء مجدين فأخصبنا
وله من قصيدة يستمحه :

رهنت ثيابي ، وحال القضاء دون القضاء ، وصد القدر
وهذا الشتاء كما قد ترى عسوف علي قبيح الاثر
نعادى بصر من العاصفا ت او دهم مثل وخز الابر
وسكان داري بمن اعو ل يلقين من برده كل شر
فهذي تحن وهذي تئن وأدمع هاتيك تجري درر
اذا ما تملن تحت الظلام يعلن منك بحسن النظر
ولاحظن ربعك كالمجلين شاموا البروق رجاء المطر
يؤمن عودي بما ينتظرن كما يرتجى آيب من سفر
شعر لطيف ولكنه بعيد عن عزة النفس ما كان يليق صدوره من مثله .

(١٩)

القاضي علي بن عبد العزيز

(٣٦٦)

لم نعرف شيئاً عن حياة ابي الحسن علي بن عبد العزيز في طفولته وشبابه ، وغاية ما ترجحوا له انه ولد في جرجان ، وأخذ العلم عن بعض علماء نيسابور ، وطوّف في العراق والشام ، واشتهر في انواع العلوم والآداب ، وانه تولى القضاء ، وآخر منصب تولاه قاضي قضاة الري . واتصل بالصاحب بن عبّاد الوزير الأديب فكان لايفارقه مقيماً وظاعناً ويقول انه من افراد الدهر في كل قسم من اقسام الأدب والعلم ، وقالوا انه كان حسن السيرة صدوقاً في قضائه ، يقضي ويفتي على مذهب الشافعي وهو كصاحبه صاحب معتزلي الرأي والمذهب . وكان اكثر اهل بلده جرجان في عصره حنفية والباقون شفعوية ، وللشيعه فيها جلبة وتقع فيها عصبيات على المذاهب .

كان القاضي علي بن عبد العزيز يجمع خطاً ابن مقلة الى نثر الجاحظ ونظم البُحْتُري ، فهو امام في الصناعتين ، وامام في الفقه عظيم ، ومؤرخ حجة ثبت ، وقد ألّف في الفقه والتاريخ كما الف في الادب والشعر ، فهو غزير الفضل صحيح الحجة ودبيع النفس ، تامّ المروءة جمّ الوفاء ، سلمت يده من الرشا ، ونفسه من الدنيا ، وعرف كيف يقيم العدل ، ويذهب بعموم الفضل .

لانعلم اي المملكتين كانت اقوى في القاضي ابن عبد العزيز الشعر ام النثر ؟ ولا اي الفضيلتين ارسخ في قلبه العلم ام العمل . وشعره سلس

قرضه قصائد ومقطعات ولا سيما في الغزل ، ونثره السهل الممتنع .
وما تُنوقل شعره القرن بعد القرن الا لما فيه من حكم شائقة تتذوقها
النفوس ؛ وتندّر ان يظفر بمثلها في كثير من دواوين الشعراء . وما كان
لشعره طابعه الخاص الا لانه صورة من اخلاقه ، ومنزع من منازعه في
الحياة ، وبما قال في وصف الشعر :

وما الشعر الا ما استقر بمدحاً واطرب مشتاقاً وارضى مغاضبا
اطاع فلم توجد قوافيه تُنقراً ولم تأته الالفاظ حسرى لو اغبا
ومن شعره ماجرى مجرى الامثال ، لانه حوى ابداعاً ليس لغيره مثله ،
قصيدته المشهورة التي يجب على كل من اتخذ العلم صناعة ان يجعلها دستوراً
يسير عليه في حياته وهي :

يقولون لي فيك انقباض وانما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجبا
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما بدا طمع صيرته لي سلماً
وما زلت منجازاً بعرضي جانباً من الذلّ أعدت الصيانة مغنا
اذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتل الظما
أنزهها عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدا فيم أولمّا
فأصبح عن عيب اللئيم مُسَلِّماً وقد رححت في نفس الكريم معظما
واني اذا ما فاتني الأمر لم أبت أقلّب فكري اثره مُتَنَدِّماً
ولكنه ان جاء عفواً قبلته وان مال لم أتبعه هلاًّ وليتّمّا
وأقبض خُطوى عن حظوظ كثيرة اذا لم أنلها وافر العريض مكرما
وأكرم نفسي أن أضاحك عابساً وأن أتلقى بالمديح مذمّما
وكم طالب رقي بنعماء لم يصل اليه وان كان الرئيس المعظما
وكم نعمة كانت على الحر نعمة وكم مغمم يعتده الحر مغمّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أشقى به غرساً وأجنيه ذلّةً اذا فاتباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا حياهم بالأطماع حتى تجهها
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من في الأرض أرضاه منعما
ولكن إذا ما اضطرني الضر لم أبت أقلب فكري منجداً ثم متها
إلى أن أرى ما لا أعصه بذكره إذا قلت قد أسدى إلي وأنعما
ومن مقطعاته :

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب حليسا
ليس شيء أعزّ عندي من العلم فلا تبغني سواء جليسا
إنما الذل في مخالطة الناس فدعهم وعش عزيزاً رئيسا
وقال :

وقالوا اضطرب في الأرض فالرزق واسع فقلت ولكن مطلب الرزق ضيق
إذا لم يكن في الأرض حرّاً يعينني ولم يك لي كسب فمن أين أرزق
وقال :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرّاً ما عليّ الغنى نفسي الأبية والدهر
وهذا من الشعر الذي يشعر بعظم نفس صاحبه ، ولم يتناقل شعره في
الغزل والمديح على وقته تناقل شعر المجيدين مثله ، ولكن هذه المعاني
وهذه الحكم عزت في شعر الشعراء فأصبحت كحكم المتنبي من خير
ما حمّله ديوانه .

أما نثره فهو مرسل على الأغلب ، تقرأ صفحات بارعة منه في كتابه
الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره . ومثله جدير بأن يدافع عن شعر
شاعر عظيم ، وهو شاعر يعرف من أين تؤكل الكتف ، يعرف بعلمه
وتوسعه في صناعة الكتابة كيف يورد حججه ويصدرها بهذا البيان
المرقص المطرب . والسبب في دفاع القاضي أبي الحسن عن المتنبي أن
الصاحب بن عباد لما عمل رسالته في اظهار مساوي المتنبي عمل هو كتاب

الوساطة ، ولم تمنعه صلته بالصاحب عن رده عليه ، وما حالت الصداقة دون تزييف رأيه ، والحق أولى بالصداقة من كل صديق .

وفي هذا الكتاب كما قال الثعالبي « أحسن وأبدع وأطال وأطاب ، وأصاب شاكلة الصواب ، واستولى على الأمد في فصل الخطاب ، واعرب عن تبحرهِ في الادب ، وعلم العرب ، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد » . وكتاب الوساطة من أجمل كتب النقد العربي لانعرف له مثيلاً قبله ، وكأنه تنبأ بطرق الغربيين في تقديمهم في العصور المتأخرة ، وأوضح لهم المنهاج فساروا عليه وتوسعوا فيه . رد في كتابه أجل رد على من تحاملوا على المتنبئ ، وأسقطوه بغير حق . وعرض فيه لجمال هذا الشعر وابداعه وحكمه وبدائعه ، وما تأخر عن ايراد ما يرذل من شعره . وبما قال فيه : « وقد نجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويفعلو في تقديمه ، ونحن نستقريء القصيدة في شعره ، وهي تناهز المائة أو تربي أو تُضعّف ، فلا نعثر فيها الا بالبيت الذي يروق أو البيتين ثم قد تَسْنَحُ قصائد منه وهي واقعة تحت ظلها جارية على رسلها لا يحصل السامع منها الا على عدد القوافي وانتظار الفراغ ، وأنت لاتجد لأبي الطيب قصيدة تخلو من أبيات تختار ومعان تستفاد ، والفاظ تروق وتعذب ، وابداع يدل على الفطنة والذكاء ، وتصرف لا يصدر الا عن غزارة واقتدار . ولو تأملت شعر أبي نُؤاس حق التأمل ، ثم وازنت بين انحطاطه وارتقاعه ، وعددت منفيته واختاره ، لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت ، ولا كبرت من شأنه ما استحققت ، وعلمت أنك لاترى لقديم ولا محدث شعراً أعم اختلالاً ، واقبح تفاوتاً وأبين اضطراباً ، وأكثر سفسفة ، وأشد سقوطاً من شعره ، هذا وهو الشيخ المقدم ، والامام المفضل ، الذي شهد له خلف وأبو عبيدة والاصمعي ، ونشر ديوانه الكميت ، فهل طمست معايبه محاسنه ، وهل نقص رديته من قدر جيده ؟

وتلطف واحتاط قائلاً انه لم يدع الاحاطة بشعر الاوائل والاواخر بل لم يزعم انه نصفه سماعاً وقراءة . قال وانما اجسر في الوقت بعد الوقت فا قدم على هذا الحكم انقياداً للظن ، واستنامة الى ما يغلب على النفس ، فأما اليقين الثقة والعلم والاحاطة فمعاذ الله أن أدعيه ، ولو أدعيته لوجب أن لا تقبله مع علمك بكثرة الشعراء ، واختلاف الحظوظ وخول أكثر ما قيل ، وضباع جل مانقل ، وأظنك قد سمعت وانتهى الى علمك أن البحري أسقط خمسمائة شاعر في عصره فما يؤمني من وقوع بعض أشعارهم الى غيري وما يدريني ما فيها .

وقال فيما ندعوه اليوم بالذوق الادبي : « وانا اعـدل الى ذكر مارأيتك تنكر من معانيه والفاظه ، وتعيب من مذاهبه واغراضه وتحيل في ذلك الانكار على حجة أو شبهة ، وتعتمد فيما تعنيه على بيضة أو تهمه اذا كان ما قدمت حكايته عنك ، وما عدوته من مطاعنك واثبته من الابيات التي استقطعتها وملت على هذا الرجل لاجلها من باب مايمتحن بالطبع لبالفكر ، ومن القسم الذي لاحظ فيه للمحاجة ولا طريق له الى المحاكمة ، وانما اقصى ما عند عايبه واكثر ما يمكن معارضه أن يقول فيه جهامة سلبته القبول ، وكزازة نفرت عنه النفوس ، وهو خال من بهاء الرونق ، وحلاوة المنظر ، وعدوبة السمع ، ودماثة النثر ، ورشاقة المعرض ، قد حمل التعسف على ديباجته ، واحتكم العمل في طلاوته . وخالف التكلف بين أطرافه ، وظهرت فجاجة التصنع في أعطافه ، واستهلك التعقيد معناه ، وقيد العويص مراده ، وهذا أمر تستخبر به النفوس المهذبة ، وتستشهد عليه الأذهان المثقفة . وانما الكلام أصوات محلها من الاسماع محل النواظر من الأبصار ، وأنت قد ترى الصورة تستكمل شرائط الحسن ، وتستوفي أوصاف الكمال ، وتذهب في الانف كل مذهب ، وتقف من التام بكل طريق ، ثم تجد أخرى دونها في انتظام المحاسن ، والتتام الخلقية ، وتناصف الاجزاء ، وتقابل الاقسام ، وهي

أحظى بالحلاوة ، وأدنى الى القبول ، وأعلق بالنفس ، وأسرع بمجازة للقلب » .

وقاضينا هذا كان مؤرخاً أيضاً كما قلنا ، اختصر تاريخ الطبري . ومما كتب في خطبة كتابه تهذيب التاريخ « لولا التاريخ لما تميز ناسخ من منسوخ ومتقدم من متأخر ، وما استقر من الشرائع ، وثبت بما أزيل ورفع ، ولا عرف ما كان أسبابها وكيف مست الحاجة إليها ، وحصلت وجوه المصلحة فيها ، ولا عرفت مغازي رسول الله وحروبته وسراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولاين وسارر وخافت ، وفي أي وقت جاهر وكاشف ، ونبذ أعداءه وحارب ، وكيف دبر امر الله الذي ابتعثه له ، وفام بأعباء الحق الذي طوقه نقله ، وأي ذلك قدم وأياها أخر ، وبأياها بدأ وبأياها تني وثلت ، وان الولد البر ليمتفقد ذلك من آثار والده ، والصاحب الشفيق ليعنى بمثله من شأن صاحبه الخ . . . »

هذا ما عرف من حال القاضي العظيم ، والمجال لا يتسع ليراد شواهد من كلامه ، وفي كتاب الوساطة نموذج مهم يرجع اليه من شاء .

البلوي

ابو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المدني البلوي
(الثلث الثاني من القرن الرابع)

قبيلة بلي (كرضي وعلي) فرع من قضاة ينتهي نسبها الى قحطان .
ومنازل بلي اليوم في الوجه من ارض الحجاز جاء منها الصحابة والتابعون
والعلماء والفصحاء والقواد . وكانت بلي في الشام فنادى رجل منها :
يال قضاة ! فبلغ ذلك امير المؤمنين عمر بن الخطاب فكتب الى عامل
الشام ان يسير ثلث قضاة الى مصر فتفرقت بلي في ارضها . وبلوينا كما
فهم من نسبه حجازي وكما يفهم من تأليفه مصري ، والأرجح انه نشأ
في مصر ان لم يكن ولد فيها .

وصفوه بأنه عالم فقيه واعظ ، ولم يصفوه بأنه مؤرخ مع اعتراف معاصريه
له بهذه الصفة . وطعن عليه اهل السنة والشيعة بأنه وضاع الأحاديث كذاب .
ولعله نقل احاديث لتأييد دعوته وهو اقرب الى ان يكون اسماعيلياً
سبعياً وان كان مذهبه محل نظر بين العلماء المعاصرين . فقالوا انه امامي
وقالوا اسماعيلي ، ونحن لانعلق على مذهبه كبير امر ونقول انه عالم من
علماء المسلمين فقط له كتاب الابواب (الأنوار ؟) وكتاب المعرفة وكتاب
الدين ، وفرائضه ذكر له ذلك صاحب الفهرست ، وقيل ان له رحلة الشافعي
وانه طولها وغناها ، وقد ظفرنا له بكتاب سيرة احمد بن طولون وهذا الذي
جلاه للناس بأنه مؤرخ من الطراز الأول . ولولا ظهور كتابه هذا لنسي
اسمه ونسيت تأليفه .

نعم نحن لا يهمننا مذهب هذا المؤرخ هنا بقدر ما يهمننا ان نقول انه وضع تاريخاً لم يسبق احد الى وضع مثله ، وما صنف بعده احد على طريقته ، ولا انه طبع تأليفه في قالب ابتدعه لنفسه ، الا وهو تعليم التاريخ بالقصص فأورد ل احمد بن طولون المتغلب على مصر في القرن الثالث قصصاً وقعت له ، عرف بها نشأته وادبه وحكمه وادارته وعدله وظلمه وشجاعته واريحيته ورحمته وقسوته وكرمه وشرهه في جمع المال وغرامه بالنظام وبعده عن الفوضى ومراميه السياسية ودخوله في مسائل الخلافة العباسية لانه بايع ولي العهد ولا يرى ان يعبت بحقوقه وهو خليفة .

نقل المؤلف بعض الحكايات وقدرها تسعون قصة منها خمسون عن ابن الداية في سيرة ابن طولون وردت في كتابه المكافأة ومنها اربعون جاء بها من عنده على ما يظهر . وعبارة البلوي اذا وضعت الى جانب كتابة ابن الداية لاتقل عنها فصاحة وجزالة . واذ اعتاد البلوي عدم العزو الى ابن الداية والى غيره اختلط الكلامان على ما يخالف عرف المؤرخين والمحدثين . وما كتبه البلوي في كتابه من الفصول ظاهر لمن ينعم النظر والقول بأنها اخذاً من مصدر واحد وهو اضابير احمد بن طولون وجزازاته لا يصح على اطلاقه لان الموضوعات التي كان يدونها امين سر ابن طولون بأمر سيده ليست كلها في موضوع كتاب المكافأة بل هي عبارة عن اوامر واحاديث صدرت من لسانه امام جلase ورعيته وقصاده وعماله ، واكثرها مما يدخل في موضوع الادارة والحكم .

ومع ان البلوي كتب تاريخه بعد انقراض الدولة الطولونية بستين سنة بحجم وما صرح عند ذكر مساويه ابن طولون وقد يعتذر عنه فيما افترق . وأي مؤرخ في القديم والحديث لم تضطره السياسة الى استعمال التقية . ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنم أما من حيث التأليف فانه لولا تقدم ابن الداية البلوي بتأليفه لما أتى كتابه آخذاً بحظ جزيل من الامتاع وسعة المادة ، ولولا ان تاريخ

البلوي كتب في عصر نجا المؤلف فيه من ضرورة المصانعة ، لما جاء أقرب الى الثقة من كتاب ابن الداية ، وتاريخ البلوي بما تعرض له من الحوادث سد ثلثة في تاريخنا كانت عظيمة في التواريخ التي وصلت الينا مما كتبه مؤرخو العرب .

وبعد في حسنات هذا التاريخ انه عرض لتفاصيل كثيرة قد يتخطاها معظم مؤرخينا لا يأبهون لها والدارسون يغتبطون بالوقوف على أسبأها لانها تجلي امامهم أشياء يعنى اهل العصر بمنها . وبذلك نحكم باننا لم نعهد رجلاً من رجال السياسة الاسلامية كصاحب الدولة الطولونية أن تجلت سيرته للأعين تجلياً لم يكتب لغيره ، وما ذاك الا لان ابن طولون عظيم ، كيف دار المؤرخ يجد ما يسجله له وهو يكتب حياته ولأن ابن الداية عظيم في المؤرخين والكتاب كما ان البلوي عظيم في المؤرخين والمؤلفين .

يورد البلوي في تاريخه الحوادث مفصلة ويحلها ويعلمها أحياناً ويبيدي رأيه ويظهر شعوره ، يرويها بأسانيدها على عادة مؤرخي عصره ، واذا اقتبس من عبارة مسجوعة لغيره طرح الاسجاع واكتفى بلب العبارة ، وهو يترك السجع أكثر الاحيان ويستعمل الازدواج ، وما اقتبسه من ابن الداية يورده في الغالب بعبارته او يورد على الاقل مقدمته ويزيد عليها شيئاً من عنده .

كتاب البلوي وكتاب ابن الداية من الكتب التي تقرأها عشر مرات وتحس بعدها انك تشتهي أيضاً ان تعارد قراءتها ذلك لانها استوفت عامة شروط التأليف وكفى ان البلاغة تتدفق من صفحاتها لا تعثر في سببها وترتيبها على عيب تتعلق به . وللقوالب التي تصاغ بها الافكار دخل عظيم في تأثير الكلام ، وما كان لصوغ البلوي هذه الروعة لو لم يكن صادراً عن نفس رويت من معين الآداب وتمثلتها تمثلاً ظاهراً .

وهاكم الآن قصة من قصص البلوي لاندري ان كان جاء بها من عنده او اقتبسها من ابن الداية .

حدث نسيم الخادم قال : كان أحمد بن طولون مولاي على غاية من

الميل والمحبة لمعمر الجوهري ، فلما مات مَعَمَّر الجوهري حزن عليه أحمد ابن طولون حزناً عظيماً ، حتى ظهر ذلك منه للناس كلهم ، فلم يتعزَّ به ولم يسئل عنه . فلحزنه عليه كان يبكر كل يوم سَحَرًا الى قبره ، وأنا معه ، فيتروحم عليه ويقرأ قليلاً ، ويعود الى قصره مع الصبح . فكنا عند موافاتنا قبره نجد في كل يوم امرأة قد سبقتنا الى قبر مقابل قبر مَعَمَّر ، تبكي وتنتحب بِجُرُقة موجعة مؤلمة لقلب من يسمعا ، فكانت تزيد في حزن احمد بن طولون وتبكيه .

فلما كثر ذلك عليه منها قال لها يوماً : يا امرأة أتبيتين ها هنا ؟ فقالت : لا أيها الأمير . فعلم أنها قد عرفته . فقالت : وكيف لي لو نهباً لي المبيت ، حتى أبيت ولا أفارق هذا القبر ، وأدفن فيه مع صاحبه . ولكني أسهر ليلي ، لما أجد في قلبي ؛ فاذا قرب الفجر خرجت وقد شغل الحزن قلبي عن الخوف من وحشة الطريق . فقال لها احمد بن طولون : وما هذه الحال العظيمة التي استحق بها هذا الفعل منك ؟ فقالت : أيها الأمير انها حال عظيمة عندي ، لا يجوز لي أن أذكرها . فقال لها : لا بد أن تخبريني ذلك . ابنك هو ؟ قالت : لا . قال فأخوك ؟ قالت : لا . قال : فزوجك ؟ قالت : نعم . قال : أقسمت عليك لتخبريني بما استوجب به منك هذا الفعل . فقالت : أيها الأمير ، اني أحشم من ذكره ، وأرفع الأمير عن كشفه . قال لها : الزامي لك ذكره قد أزال حشمتك ، وأقام عذرك .

فقالت : أزوجني أبي لهذا الرجل ، وأنا صبية ، ما بلغت مبالغ النساء . فلما عقد النكاح سافر سافراً طال مدة أيسنا منه معها . فخلا بي من النساء من لاخير فيه ، وأنا مع أبي وأمي ، وأفسدوني واستولوا على عقلي وحلوني على أن ساعدتهم فيما كتب علي ، مما لم يكن لي منه محيص ، وصبوت كما تصبو النساء وحملت . فلما تبين والداي جميعاً ذلك ، ورد عليها ما يورد مثله من المصائب ، فبينما هما يركضان في الخيرة في أمري

اذ قدم هذا الرجل من سفره ، فطالب بادخالي عليه ، فدافعه أبي وامي بما يحتاج الى اصلاحه لي ، رجاء أن يزول ما في جوفي ، فلم يدع شيئاً يعمل في طرحه حتى عملاه ، فما نفع ذلك ، لما قضى الله جل اسمه بكونه .

وقربت ولادتي فوافانا هذا الرجل ، وقد طالت المدافعة له ، فحلف بالطلاق أنه يأخذني بعد ثلاثة أيام ، فلم يجد أبي وامي بدآ من ادخالي عليه قد دفعت اليه ، وأنا على حال قد علمها الله جل اسمه غمّاً وقلقاً ، وأبي وامي أعظم بما أنا فيه ، فلما أدخلت عليه ، وأخليت معه ، انصرفت أمي وسائر أهلي ، خوفاً من مشاهدة الفضيحة ، فلما حصلت معه في الكلّة (١) ، ضربني الطلق ، وزاد الأمر عليّ ، فوثبت من الكلّة ، أريد الخروج من البيت الى أمي ، وليس عندي أنها هربت . فما بلغت عتبة باب البيت حتى طرحت الولد من بين رجلي الى الارض ، وسقطت ولا عقل لي ، فوثب هذا الرجل يتأمل ، فرأى طفلاً مطروحاً يبكي فصاح بأخته ، فسمعتة وأنا في كرسي ونعيمي ، يقول لها : يا أختي ! اقض كل حق لي عليك ، بما تأتيه في أمر هذه الامراة ، وانصرف عن البيت ، وتركني مع أخته ، فقامت بي أحسن قيام ، وتولت من أمري ما لا يتولى مثله امي : برفق واشفاق ، وانبساط وجه ، وحسن خلق ، ومزح ومداعبة ، حتى كأن الولد منهم ، وكل ذلك يزيدني خجلاً واحتشاماً ، الا انه قد سكن قلبي بعض السكون .

وبلغ أبي وامي خبري فلم يقربني احد منها حياء واحتشاماً ، وبت ليلتي ، فلما كان من الغد دخل الي بوجه منبسط طلق ضاحك ، فجلس عند رأسي ، وساءلني عن خبري ، وقال لي : ألك حاجة ؟ قلت ، ودموعي تجري : يبيك الله . فبكى لبكائي ، ومضى بنفسه الى ابي وامي ، فحلف عليها حتى جاءني بها وهال لها : لامهرب من قضاء الله عز وجل ، اني ليس في يدي ولا في ايديكما ولا في يدي احد من عبيده

(١) الكلّة : ستر رقيق وهي ما نعب عنه اليوم بالناموسية واقية النائم من الناموس .

جل ذكره منه غير الصبر والحمد له تبارك وتعالى على البأساء والضراء والحمد لله الذي كان هذا من فيض (?) الله جل اسمه ، له الصبر عليه والستر عليكم ، وحمدوا الله جل اسمه . فدعيا له وشكراه ، واستعبدهما بذلك . فكان كل يوم يدخل الى بكرة وبالعشي ، يسألني عن حالي ، ويسألني عن شيء اشتبهه ويستحلفني على ذلك ، فابوس يديه وادعوه له حتى اذا مضى لي اربعون يوماً ، وهي أيام النفاس ، ودخلت الحمام وصلحت له ، دخل اليّ مستبشراً طيب النفس ، فمازحني وجلس عندي واستحضر ابي واممي وانفق نفقة كبيرة واسعة حسنة ، حتى كانت مقام عرس ثان . فلما انقضى يومنا وبات عندي ، وجرى بيني وبينه مايجري بين الرجل وزوجته ، وانا على غاية من الاحتشام والحياء منه ، واصبح ، وهب لي دنائير كثيرة ، وقطع لي ثياباً حسناً . فما مضى الا اشهر حتى حملت فولدت غلاماً فسرّ به غاية السرور ، فكأنني انبسطت قليلاً اليه ، ودعا ايضاً ابي واممي وحلف عليهما ان يلزمانني ولا ينقطعوا عني ، وصاغ لي حللياً حسناً ، وما ترك شيئاً من اكرامي وسروري حتى بلغه لي ، وعاشرتني أخته ولأمي (١) أحسن عشرة ، وفعلت معنا اجمل فعل ، فكنا له ولها كالعبيد .

وما زلت معه على حال ما فوقها مزيد من الاحسان والمجبة ، حتى مضت لي عشر سنين ، وكبر ابني ، وحذق القرآن ، وعلمه جميع الآداب ، وأنجب فعظم بذلك سروره وسروري . ثم اعتلّ علته هذه التي مات فيها فسمعتهم يقرءون في الوصية والذي خلفه من الولد ، ولدان ذكران ، وهما فلان وفلان ، وزوجة وهي فلانة ابنة فلان ، يريدني . فلما سمعت ذلك لحق قلبي ما يلحق قلوب النساء من الغيرة ، ثم فكرت في خيانتني وقبح فعلي ، وجميل فعله ، فأمسكت ، الا اني لما خرج العدول من عنده ، خرجت اليه من وراء مقطع كنت جالسة

(١) الأولى : وعاشرت أُمي .

حلقه فقبلت رأسه ويده ، وقلت له : ياسيدي ، لك عليّ من الاحسان والانعام وجميل الفعل ما قد استعبدتني به ، حتى لو وقفت على أن لك ثلاث نسوة وعدة جوار لملتحن لك على رأسي ، فكان ذلك أقلّ واجبك عليّ ، فكيف يكون لك ولد غير ولدي من امرأة غيروي أو جازية ، فلا تعرفني حتى أتولى خدمتها بنفسي ، وكان ذلك بعض ما تستحقه مني ؟ فقال : كأنك أنكرتي ما سمعته في وصيتي من ذكري ولدين ذكرين ، فقلت : نعم . فحوّل وجهه عني الى الحائط فقال لي : ويحك ، هذا وذاك وتشهد ومات .

فأحضرتني أخته ذلك الطفل الذي كنت رميته ، ووالله ما قدرته يعيش ولا سألت عنه ولا فكرت فيه ، فقالت له : يا بني هذه أمك فبُس رأسها ، فانكبّ على رأسي وبكيت وبكيت أخته ، واذا بها قد اشتوت له داية ، وأفردته في موضع معها ، وكبر فعلته مع ابنه القرآن وجميع ما علمه ابنه من الآداب وأنجب أيضاً ، على أنه بعض ولد الجيران ، وأحضرت أخاه فقالت له : يا ابن أخي هذا أخوك فتعانقا ، ووقف كل منهما على صورة الأمر ، وانفقت الحال بينهما فتسخمت أنا وأخته عليه ، وجززنا شعورنا ، ولزمتنا الحزن عليه ،

فماتت أخته حزناً ، وبقيت أنا وابني وأخوه معي ، وخلف له شيئاً يسدّ حاجتنا . فأنا ألزم قبره ولا أنسى جميل فعله ، ولا يزول من قلبي حزنه . فقال لها أحمد بن طولون : رحمه الله ورضي عنه ، فما في الدنيا أكرم من هذا الرجل ولا أجمل فعلاً ، وأحسن الله جزاءك إذ عرفت له مقدار فعله بك ، وكثر الله في النساء مثلك ، فان يكن لك حاجة ، أو نابتك نائبة ، فعرفيني فقد لزمني حقك ، ووجب عليّ حفظك ، فدعت له وانصرف أحمد بن طولون وقد أبكته وأحزنته .

(٢١)

بديع الزمان الهمذاني

ابو الفضل احمد بن الحسين

(٣٨٠)

نسب الى همدان ، وسكن غزنة زمنياً ، وتخرج بأبي الحسين احمد بن فارس
واخذ عن غيره وخص بحافظة عجيبة « كان ينشد الشعر لم يسمعه قط
وهو اكثر من خمسين بيتاً الامرة واحدة فيحفظها كلها ، ويؤديها من اولها
الى آخرها لا يخزم حرفاً ، وينظر في الأربعة والخمسة الأوراق من كتاب
لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهزها عن ظهر قلبه هزاً ويسردها
سرداً . وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها ، وكان يقترح عليه عمل
قصيدة وانشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت
والساعة . وكان ربما كتب الكتاب المقترح عليه فيبتديء بآخره ثم هلم
جرراً الى أوله ويخرجه كأحسن شيء وأملحه . ويوشح القصيدة الفريدة من
قبله بالرسالة الشريفة من انشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروي من
النثر والنظم ، ويعطي القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة ،
ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر ، فيرتجله أسرع من
الطرف ، على ريق لم يبلعه ، ونفس لا يقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة
وفيض البديهة ، ومسارقة القلم ، ومسابقة اليد للفم ، وكان يترجم
ما يقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات
العربية فيجمع فيها بين الابداع والاسراع .

قال فيه مترجموه انه كان « متعصباً لأهل الحديث والسنة ما أخرجت

ك (١٢)

همذان بعده مثله . « وأوصى » ان يتولى الصلاة عليه اهل الحديث واهل السنة . وهو جماعي يصرح بمذهبه « وينعى على من ينالون من الشيخين ويقول : ولا كل سيرة عدل العمرين . وبما قال في انتشار الرفض : وهذه الكوفة بما اختط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما ظهر الرفض بها دفعة ، ولا وقع الاحاد فيها وقعة ، انما كان اوله النياحة على الحسين بن علي رضي الله عنهما وذلك ما لم ينكره الأنام ، ثم تناولوا معاوية فأنكر قوم وتساهل آخرون ، فتدحرجوا الى عثمان فنفرت الطباع ونبت الاسماع ، وكان القراع والوقاع ، حتى مضى ذلك القرن وخلف من بدمهم خلف لم يحفظوا حدود هذا الأمر ، فارتقى الشتم الى يفاع ، وتناول الشيخين رضي الله عنهما .

كان الهمداني عربياً مجاهراً بعربيته في ارض فارسية كما كان صريحاً في نخلته في بلاد فيها جماع الالهواء . كتب الى الشيخ الرئيس ابي عاصم « نحن أطال الله بقاء الشيخ اذا تكلمنا في فضل العرب على العجم وعلى سائر الامم أردنا بالفضل ما أحاطت به الجلود ، ولم ننكر ان تكون أمة احسن من العرب ملابس ، وأنعم منها مطاعم ، وأكثر ذخائر ، وابسط ممالك ، واعمر مساكن ، ولكننا نقول : العرب اوفى واوفر ، وارقي واوفر ، وانكى وانكر ، واعلى واعلم ، واحلى واحلم ، واقوى واقوم ، وابلى وابلغ ، واشجى واشجع ، وأسمى واسمع ، واعطى واعطف ، وأطى وألطف ، وأحصى واحصف ، وافقى وآفق ، ولا ينكر ذلك الا وقح وفتح ، ولا يجده الا نغفل نغر . وانما قدم الله تعالى ملك العجم ليجتج عليها ، وانما أخرج ملك العرب ليجتج بها ، وما ملكت العجم حتى تواصلت ، وما ملكت العرب الا حين تواصلت ، وما تواصلت العجم الا ياساً من نفوسها ، ولا تواصلت العرب الا لما في رؤوسها ... » .

برز الهمداني في الشعر والنثر ، ونثره ذو طابع خاص يهتز اهتزاز

الغصن الوريث ، وتسمع له جميل الخفيف والافيف ، وحقيقته منبعث من نفسه ورفيفه صادر عن قوى في حسه ، وقل في الكتاب من أحدث له طريقة كطريقته ، وأملى بها صورته وجسم صوته ونعمرته ، وان كتب لك ان تتدبره تدرك في يسر وسهولة ما وصلت اليه الاخلاق في عصره ، وما حدث من متاعب ومعضلات في البقاع النائية من ارض الشرق ، وكان ما كتب في رسائله لوحة نقشت عليها ما كان في زمنه من التزاويق والتهاويل ومن التعمية والتخليط ، فهو يعطيك ما يهيك من الاخبار بما قد تضمن به عليك كتب التاريخ والسير . ويرضيك لانه كان بعيداً عن التقية لايهاب شيئاً عند ارادته بث شعوره وافكاره ، صانع بعض الامراء ، لاعتقاده ان من يخاشنهم يضرب ويُنكب ، وبالتقرب منهم يجمع من نوالهم وجوائزهم ما يعتقد به العقد وتسجل له به صكالك الضياع ، وهكذا كانت طريقة الناس في عصره ، وشعراؤه وكتابه هم ألسنته الناطقة الصداحة .

يتجلى روح الشباب في رسائل ابي الفضل تجلي اغراض اهل زمنه واغراضه هو ، وللشباب وثبات لايساويهم فيها الشيوخ ولو تكلفوا لها وحشدوا ، ولو اصطنع الشاب وقار الشيوخ والشيخ حماسة الفتيان لظهر للناس أمرهما وانكشف المدقق خبيثة نفسها . وفي كتابة الشباب مطامع وآمال ، وفي كتابة الشيوخ حكمة وأناة . وفي الاولى ابتسامات وتفاؤل ، وفي الثانية انقباض وتشاؤم .

وفي المناظرة التي جرت بين الهمداني وابي بكر الخوارزمي بمشهد من القضاة والفقهاء والاشراف وغيرهم وما ظهر من آثار بديهة ابي الفضل ودهشة ابي بكر وسرعة خاطر الاول وجود الثاني ما أطمع في هذا خصمه فبذه وجهه وراهه في قرص القريض وتحبير الخطب دليل على ان سكرة الشباب أحياناً افضل من وقار الشيوخ . هذا والخوارزمي علم من اعلام الادب ، عظيم في عصره ولكنه شيخ يرد دمه أو كاد ، وصاحبه شاب كله حيوية .

ومع كثرة ما وقع بين المتناظرين ترفع الهمداني عن الشماتة بخصمه وقت مرضه ، فقد هناؤه بمرض الخوارزمي فأجاب جواباً دلّ على عظم نفسه وقال : « فكيف يشمت بالحنّة من لا يأمنها على نفسه ، ولا يعدمها في جنسه . والشامت ان أفلت فليس يفوت ، وان لم يميت فسيموت ، وما أقبح الشماتة ، بمن أمن الامانة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان طعمه الحيار ، وظمان شربه الاحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، ام يُسرّ العاقل بسلاح قاتله ، وهذا الفاضل شفاه الله ، وان ظهر بالعداوة قليلاً ، فقد باطناه ودأً جميلاً ، والحرث عند الحمية لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالي الا بصورتها من التوجع لعلمته ، والتعزّن لمرضته ، وقاه الله المكروه ووقاني سماع السوء فيه بجوله ولطفه » ومعنى هذا ان الهمداني وان ألب للخوارزمي نار هجاء ، ونال منه وهو معتاط فأسقطه في بديته وشعره ونثره ، لم تجد الشماتة بمرضه الى قلبه سيدلاً ، وأبي ان يكون من النذالة وسفاسف الخلق ماقد يكون على مثله بعض المتباغضين المتلاعنين والمتنافسين المختصين .

أملى الهمداني اربعمائة مقامة ما عرف الا بعضها ، فهو واضع طريقة المقامات وان قالوا انه نقلها من غيره ، وغيره لم تؤثر له ولا مقامة . ومع أن مقاماته نسق واحد في صنعتها يتحدث بها عن عيسى بن هشام وينسبها الى بطلها ابي الفتح الاسكندري فان مقاماته على طرافتها كانت دون رسائله في الابانة عن حالة العصر .

وهذا الضرب من الادب لم يُفلح كثيراً عند العرب وهو نوع من القصة الخنوقة بتديءه وقلته على نسق واحد ، لا يُقصد بها التعليم اكثر مما يقصد بها بهرجة الالفاظ والاستكثار من زخارف البديع والترصيع والتجنيس ، ولا يقال فيها الا انها ابنة الطبع لا الطبع . ومقاماته ورسائله تُشعرك بسعة محفوظه في المنظوم والنثر ، وبما وعدت حافظته من متن اللغة وآدابها .

ونثره متساق متناسب ، موجز الفقرات بادي القسبات ، تكاد تحمل كل فقرة منه معنى بذاته كقوله : هذا سوس لا يقع الا في صوف الايتام ، وجراد لا يسقط الا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب الا خزانة الاوقاف ، وكردى لا يغير الا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين اليهود والشهود . ولو ادعى مدع ان الكتابة ماختمت بابن العميد كما قالوا بل بالهمذاني لكان حقاً ومذهباً . الهمذاني لا يستغني شاد في الادب عن الاخذ عنه ، ومثل ابن العميد كثار غير قلائل ، وبعضهم اكتب واشعر ، اخلمهم تخلف الدنيا عنهم . وللشهرة اسباب قد تخطيء اعظم مستحق لها .

* * *

بقي ان نلمع الى مكانة بديع الزمان في الجدد ومكاته في الهزل ، ولا احسن في الدلالة على ذلك من نقل نموذجين جميلين في هذين الموضوعين ، فانه في المقامة المضيرية كان من وراء الغاية في هزله ، كما جود كل التجويد في رسالته الى وزير محمود بن سُبُكْتِكِين .

والبيك المقامة المضيرية بنصها الرائق : حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ومعى ابو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة يدعوه فتجيبه ، والبلاغة يأمرها فتطيعه ، وحضرنا معه دعوة بعض التجار فقدمت الينا مَضِيْرَةٌ ثني على الحضارة ، وتترجرج في الغضارة ، وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية رحمه الله بالامامة ، في قصعة يزل عنها الظرف ، ويموج فيها الظرف ، فلما اخذت من الحوان مكانها ، ومن القلوب اوطانها ، قام ابو الفتح الاسكندري يلعبها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويشلبها وطبخها ، وظنناه يمزج فاذا الأمر بالصد ، واذا المزاج عين الجدد ، وتنحى عن الحوان ، وترك مساعدة الاخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العميون ، وتحلّبت لها الأفواه ، وتلهظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى في اثرها الفؤاد ، وانكنا ساعدناه على

هجرها ، وسألناه عن أمرها فقال : قصتي معها اطول من مصيبتني فيها ، ولو حدثتكم بها لم آمن المقت ، واضاعة الوقت . قلنا : هات . قال : دعاني بعض التجار الى مضيرة وانا ببغداد ، ولزمني ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم ، الى ان اجبته اليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يثني على زوجته ، ويفديها بمهجته ، ويصف حدقها في صنعتها ، وتأنقها في طبخها . ويقول : يا مولاي لو رأيتها ، والحرقه في وسطها ، وهي تدور في الدور ، من التنور الى القدور ، ومن القدور الى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدق بيديها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد عبّر في ذلك الوجه الجميل ، واثر في ذلك الحد الصقيل ، لرأيت منظرآ تحار فيه العيون ، وانا اعشقها لأنها تعشقتني ، ومن سعادة المرء ان يوزق المساعدة من حليلته ، وان يسعد بظعينته ، ولا سيما اذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي حثا ، طينتها طينتي ، ومدينتها مدينتي ، وعمومتها عمومتي ، وأرومتها ارومتي ، لكنها اوسع مني خلقاً واحسن خلقاً . وصدعني بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته . ثم قال : يا مولاي ترى هذه الخلة هي اشرف محال بغداد ، يتنافس الاخيار في تزولها ، ويتغاير الكبار في حلولها ، ثم لا يسكنها غير التجار ، وانا المرء بالجار ، وداري في السطة من قلاذتها ، والنقطة من دائرتها ، كم تقدر يا مولاي انفق على كل دار منها ؟ قلّه تخميناً ان لم تعرفه يقيناً ، قلت : الكثير ، فقال : ياسبحان الله ما اكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط . وتنفس الصعداء وقال : سبحان من يعلم الاشياء . وانتهينا الى باب داره ، فقال : هذه داري ، كم تقدر يا مولاي انفق على هذه الطاقة ؟ انفقنا والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ رأيت بالله مثلها ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيها ، وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار . وانظر الى حدق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذ من كم . قل : ومن اين اعلم . هو ساج من قطعة واحدة لا مأروض ولا عفن ،

إذا حرك أن ، وإذا نُقر طن ، من اتخذ ياسيدي ؟ اتخذ
ابو اسحق بن محمد البصري ، وهو والله رجل نظيف الأثواب ، بصير
بضعة الابواب ، خفيف اليد في العمل ، لله در ذلك الرجل ، بجياتي
لا استعنت الا به على مثله ، وهذه الحلقة التي تراها اشتريتها في سوق
الطرائف من عمران الطرائفي بثلاثة دنانير مُعزّية ، وكم فيها ياسيدي
من الشبّه ، فيها ستة ارطال وهي تدور بلولب في الباب ، بالله دورها
ثم انقرها وابصرها ، وبجياتي عليك لا اشتريت الحلق الا منه ، فليس
يبيع الا الاعلاق . ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمرك الله
يادار ، ولا خرّبك يا جدار ، فما امتن حيطانك ، واوثق بنيانك ،
واقوى اساسك ، تأمل بالله معارجها ، وتبين مداخلها وخوارجها ، وسلني
كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتملتها حتى عقدتها . كان لي جار يُكنى
ابا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الحزن ، ومن الصامت
ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف خلفاً اتلفه بين الحمر والزمر ،
ومزقه بين النرد والقمر ، واشفقت ان يسوقه قائد الاضطرار الى بيع
الدار ، فيبيعها في اثناء الضجر ، او يجعلها عرضة للخطر ، ثم اراها
وقد فاتني شرها ، فأتقطع عليها حسرات الى يوم المات ، فعمدت الى
اثواب لا تنضّ تجارتها فحملتها اليه ، وعرضتها عليه ، وساوته على أن
يشترها نسيّة ، والمدبر يحسب النسيّة عطية ، والمتخلف يعتدها هدية ،
وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي ، ثم تغافل عن اقتضائه ،
حتى كادت حاشية حاله ترق ، فأثبته فاقترضته ، واستمهنني فأنظرته ،
والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته ان يجعل داره رهينة لديّ
ووثيقه في يديّ ففعل ، ثم درجته بالمعاملات الى بيعها حتى حصلت لي
بجدّ صاعد ، وبجّت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد ، وانا
بحمد الله مجدود ، وفي مثل هذه الاحوال محمود . وحسبك يامولاي اني
كنت منذ ليال نائماً في البيت مع من فيه اذ قرع علينا الباب فقلت :
من الطارق المنتاب ؟ فاذا امرأة معها عقد لآل ، في جلد ماء ورقة آل

تعرضه للبيع ، فأخذته منها اخذة خلس ، واشتريته بثمان نجس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر بعون الله تعالى ودولتك ، وانا حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدي في التجارة ، والسعادة تنبسط الماء من الحجارة ، الله اكبر لاينبئك اصدق من نفسك ، ولا اقرب من امسك ، اشتريت هذا الحصير في المناداة ، وقد أُخرج من دور آل الفرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت اطلب مثله منذ الزمن الاطول فلا أجد ، والدهر حُبلي ليس يُدرى مايلد . ثم اتفق اني حضرت باب الطاق ، وهذا يعرض في الاسواق ، فوزنت به كذا وكذا ديناراً ، تأمل بالله دقته ولينه وصنعمته ولونه فهو عظيم القدر ، ولا يقع مثله الا في الندر ، واذا كنت سمعت بأبي عمران الحصري فهو عمله ، وله ابن يخلفه الآن في حانوته ، لا يوجد اعلاق الحصر الا عنده ، فبِحياقي لاشتريت الحصر الا من دكانه ، فالمؤمن ناصح لاخوانه ، لاسيما من تحرّم بخوانه . ونعود الى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة . يا غلام : الطست والماء . فقلت الله اكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج ، وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ، انه رومي الاصل ، عراقي النشء ، تقدم يا غلام واحسر عن رأسك ، وشمر عن ساقك ، وانض عن ذراعك ، وافتر عن اسنانك ، وأقبل وأدير ، ففعل الغلام ذلك . وقال التاجر : بالله من اشتراه ؟ اشتراه والله ابو العباس من النخاس ، ضع الطست وهات الابريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلبه وأدار فيه النظر ثم نقره فقال : انظر الى هذا الشبه كأنه جذوة اللهب ، او قطعة من الذهب : شبه الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلائف الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلني متى اشتريته ؟ اشتريته والله عام الجماعة ، وادخرته لهذه الساعة ، يا غلام : الابريق ، فقدّمه ، وأخذه التاجر فقلّبه . ثم قال : وانبويه منه ، لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ولا يصلح هذا الطست الا مع هذا الدست ،

ولا يحسن هذا الدست الا في هذا البيت ، ولا يجعل هذا البيت الا مع هذا الضيف . ارسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام . بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، ازرق كعين السنور ، وصاف كقضيب البلور استقي من الفرات ، واستعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة ، وليس الشأن في السقاء ، الشأن في الاناء ، لا يدلك على نظافة اسبابه ، اصدق من نظافة شرابه ، وهذا المنديل سلمي عن قصته فهو نسج جرجان وعمل ارجان ، وقع اليّ فاشتريته فاتخذت امرأتي بعضه سراويلًا ، واتخذت بعضه منديلاً ، دخل في سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعت من يدها هذا القدر انتزاعاً ، وأسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه ، ثم رددته من السوق ، وخزنته في الصندوق ، وادّخرته للظراف ، من الاضياف ، لم تبذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لما قيها ، فلعل علق يوم ، ولكل آلة قوم ، يا غلام الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع ، والطعام ، فقد كثر الكلام ، فاتي الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجبه بالأسنان ، وقال : عمّر الله بغداد فما اجود متاعها ، واظرف صناعها ، تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر الى عرض ممتنه ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل ؟ فقال : الآن ، عجل يا غلام الطعام ، لكن الخوان قوائمه منه . قال ابو الفتح : فجاشت نفسي وقلت : قد بقي الخبز وآلاته ، والخبز وصفاه ، والحنطة من اين استريت اصلاً ، وكيف اكرتري لها كحلاً ، وفي اي رحى طحن ، واجانة عجن ، واي تنور سجر ، وخباز استاجر ، وبقي الخطب من اين احتطب ، ومتى جلب ، وكيف صفت حتى جفف ، وحبس ، حتى يبس ، وبقي الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخبير وشرحه ، والملح وملاحظته ، وبقيت الشكرجات من اتخذها ، وكيف انتقدها ، ومن استعملها ، ومن عملها ،

والحل كيف انتقى عنبه ، او اشترى رطبه ، وكيف صُهرت معصرته ،
واستخلص لبه ، وكيف قيرُ حبه ، وكُم يساوي دنه ، وبقي البقل
كيف احتيل له حتى قطف ، وفي اي مبقلة رُصف ، وكيف تُؤنق
حتى نظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووفّي شحمها ،
ونصبت قدرها ، وأججت نارها ، ودقت ابزارها ، حتى اجيد طبخها ،
وعقد مرقها ، وهذا خطب يطمُ وامر لايتم ، فقمت ، فقال : اين
تريد ؟ فقلت حاجة اقصيها . فقال : يامولاي تريد كنيفاً يزري بريعي
الامير وخريفي الوزير . قد جصص اعلاه ، وصُهرج اسفله ، وسطح
سقفه وفرشت بالمرمر ارضه ، يزل عن حائطه الذر فلا يعلق ، ويمشي
على ارضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير انه من خليطي ساج وعاج ،
مزدوجين احسن ازدواج ، يتمنى الضيف ان يأكل فيه ، فقلت : كل
انت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف في الحساب . وخرجت نحو
الباب ، واسرعت في الذهاب ، وجعلت اعدو وهو يتبعني ويصيح :
ياأبا الفتح المضيرة ، وظن الصبيان ان المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه
فرميت اقدمهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقي رجل الحجر بعمامته ،
فغاص في هامته ، فأخذت من النعال بما قدّم وحدّث ، ومن الصقع
بما طاب وخبث ، وحشرت الى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النحس .
فندرت ان لا آكل مضيرة ماعشت ، فهل انا في ذا يا آل همدان ظالم ؟
قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنت
المضيرة على الاحرار ، وقدمت الارذال على الأخيار اه .

* * *

وهذه رسالته التي تدل على مبلغه من الجِد كُتب بها الى الفضل بن
احمد الاسفرائيني وهو اول من استوزر لأبي القاسم محمود بن سبكتكين
فانح السند والهند :

ان الله وهو العلي العظيم المعطي ماشاء ، من على الانسان بهذا اللسان ،

خلق ابن آدم واودع فكيه مضغة لحم يصرفها في القرون الماضية ،
ويخبر بها عن الامم الآتية . يخبر بها عما كان بعد ماخلق وعما يكون
قبل ان يخلق ، ينطق بالتواريخ عما وقع من خطب وجرى من حرب ،
وكان من يابس ورطب ، وينطق بالوحي عما سيكون بعد ، وصدق
عن الله بالوعد ، ولم ينطق بالتاريخ بما كان ، ولا الوحي بما يكون بأن الله
تعالى خصّ احداً من عباده ليس النبيين ، بما خص به الامير السيد ميمون الدولة
وامين الملة . ودون الجاحد ان جهد اخبار الدولة العباسية ، والمدة
المروانية ، والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ، والايام الأموية ، والامارة
العدوية ، والخلافة التيمية ، وعهد الرسالة وزمان الفترة . ولولا الاطالة
لعدّنا الى عاد وثمود بطناً بطناً ، والى نوح وادم قرناً قرناً ، ثم لم يجد
قائل مقالاً ان ملكاً وان علا امره ، وعظم قدره وكبر سلطانه
وهبت ريجه طرق الهند فأسر طاغيتها بسطة ملك ثم خلاه ، وعرض
الارض قوة قلب وصبح سجستان وهي المدينة العذراء ، والحطة العوراء
والطيبة الغراء ، فأخذ ملكها اخذة عز وعنف ، ثم خلاه تخلية فضل
ولطف ، ثم لم يلبث ان خاض البحر الى بهاضية والسيل والهيل جنودها
والشوك والشجر سلاحها ، والضجج والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها
والجن والانس انصارها ، فقتل رجالها وغنم اموالها ، وساق اقبالها ،
وكسر اصنامها وهدم اعلامها . كل ذلك في فسحة شتوة قبل ان
يتطرقها الصيف ، توسطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتي الملك من
يشاء وينزعه ممن يشاء . ثم حكمت علماء الأمة ، واتفق قول الأئمة
ان سيوف الحق اربعة وسائرهما للنار : سيف رسول الله في المشركين ،
وسيف ابي بكر في المرتدين ، وسيف علي في الباغين ، وسيف القصاص
بين المسلمين ، وسيوف الامير وفقه الله في موافقه لا تخرج عن هذه
الاقسام . فسيفه بظاهر هراة فيمن عطل الحد ، واتهم بأنه ارتد ،
وسيفه بظاهر غزنة سد في وجه العقوق ، نوعاً من الكفر والفسوق ،

وسيفه بظاهر مرو في من نقض العهد بعد تغليظه ، ونبذ اليمين بعد تأكده
وسيفه بظاهر سجستان في من نبه الحرب بعد رقادها ، وخلع الطاعة
بعد قبولها ، وسيفه الآن في ديار الهند سيف قرنت به الفتوح ، واثنت عليه
الملائكة والروح ، وذلت به الاعنام ، وعزّه به الاسلام ، والغبي عليه
السلام ، واختص بفضله الامام ، واشترك في خيره الانام ، وأرخت
بذكرة الايام ، وأحقيت بشرحه الافلام . وسندكر من حديث الهند
وبلادها ، وغلظ اكبادها ، وشدة احقادها ، وقوة اعتقادها ، وصدق
جلادها ، وكثرة اجنادها نبذاً ليعلم السامع اي غزوة غزاها الامير السيد ،
انها بلاد لو لم تحجبها السحاب بدرها ، لأهلكتها الشمس بجرها ، فهي
دولة بين الماء والنار ، ونوبة بين الشمس والامطار ، تقدمها صعاب
الجبال ، وتحجبها رحاب القفار ، ويعصمها ملتف الغياض ، وتحفها طواغى
الانهار . حتى اذا خرقت هذه الحجب خلص الى عدد الرمل والحصى
رجالاً ، وشبه الجبال افيالاً ، وانزاع الخاض جلاداً ، ومسناف الجمال
طعاناً واركان الجبال ثباتاً ، ثم لا يعرفون غدراً ولا بياناً ، ولا يخافون
موتاً ولا حياة ، ولا يبالون على اي جنبه وقع الامر ، وينامون
وتحتهم الحجر ، وربما عمد احدهم لغير ضرورة داعية ولا حمية باعثة فاتخذ
لرأسه من الطين اكليلاً ، ثم قوّر قحفه فحشاه فتيلاً ، ثم اضرم في
الفتيل ناراً ولم يتأوه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً ، وتأكله جزءاً
فجزءاً . فأما محرق نفسه ومغرقها وآكل لحمه ومفصل عظمه والرامي
بها من شاهق فأكثر من ان يعد ، واقلهم من يموت حتف انفه ، فاذا
مات هذه الميتة احدهم سبّ بها اعقابه وعظم عندهم عقابه . بلاد هذه
حالها ، وفيكّة تلك احوالها وجبال في السماء فلاها ، وفلاة يلع آها ،
وغياض ضيق مجالها ، وانهار كثيرة احوالها ، وطريق طويل مطالها ،
ثم الهند ورجالها والهندوانية واستعمالها . زحم الامير السيد ادام الله ظله
هذه الاحوال بمنكبه محتسباً نفسه معتمداً نصر الله وعونه ، فركض اليهم

بعون من الله لا يخذل ، ومدد من الله لا يفتور ، وقلب من الالهوال
لا يبين ، وحث على المطلوب لا يقصر ، وسيف على الضريبة لا ينكل .
فسهل الله له الصعب ، وكشف به الحطب . ورجع ثانياً من عنانته
بالاسارى تنظمهم الاغلال ، والسبايا تنقلهم الجمال ، والقيلة كأنها الجبال
والاموال ولا الرمال ، فتح ذخره الله عن الملوك السالفة الخالية ،
الكفرة الطاغية ، الجبارة العاتية ، حتى وسمه بناره ، وجعله يعرض
آثاره . والحمد لله معز الدين وأهله ، ومذل الشرك وحزبه ، وصلى الله
على محمد وآله .



(٢٢)

الخوارزمي

ابو بكر محمد بن العباس

(٣٨٣)

أصله من طبرستان ومولده ومنشؤه خوارزم وكان يتسم بالطبري ويعرف بالخوارزمي ويلقب بالطبرخزي ، لانه كانت امه من خوارزم وابوه من طبرستان وهو ابن اخت ابن جرير الطبري ، ادعى انه معتزلي وفي الواقع انه شيعي من نوع لم نعرفه . وخاله الطبري شيخ السنة وعلم أعلام الامة ، فارق وطنه في ريعان عمره وهو قوي المعرفة قويم الادب وكان قوياً في حفظ اللغة والشعر « وكانت قريحته تقصر عن حفظه » وكان يحاضر بأخبار العرب وأيامها وروايتها ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر ، وشعره في جزائه لا يقل عن نثره ، وطلاوة نثره آتية من كثرة ما كتب في المقاصد المختلفة . ولم يزل يتقلب في البلاد ويدخل كور العراق والشام ويأخذ عن العلماء ويقتبس من الشعراء . وقد لقي سيف الدولة في حلب وخدمه وورد بخاري وصحب ابا علي البلعمي ثم هجاه ، وانصل بالأمير ابي نصر الميكالي واستكثر من مدحه ، وداخل ابا الحسن القزويني و ابا المنصور البغوي و ابا الحسن الحكمي فارتفق بهم ، وارتفق من الأمير احمد ومدحه ، ونادم كثير بن احمد ، ثم قصد سجستان وتمكن من واليها طاهر بن محمد ومدحه واخذ صلته ثم هجاه واوحشه حتى اطال سجنه ، ثم نهض الى غرستان وكانت حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شاد ثم انه عاود نيسابور وأقام بها الى ان وفق بقصد حضرة صاحب بن عباد ومدحه فضمه الى ندمائنه ووصله بعرض الدولة بشيراز فارتاش وأيسر ولم يخل صاحب أيضاً

من هجائه ، ثم عاد الى نيسابور واستوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ولما عاد الى شيراز أجري له رسم يصل اليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل من فارس الى خراسان . وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ويفض من سلطان خراسان فأطلق لسانه فيه حتى أخذ وحبس وقيد وصور ، وأخذ خطه بمائتي الف درهم ، ثم اطلق سراحه ورد اليه ما أخذ منه فطاب عيشه وارتفع مقداره الى ان بلي بمساجلة البديع الهمداني فانحزل الخزلاً شديداً ونفذ قضاء الله فيه .

هذه خلاصة ما ترجم له الثعالبي في البيعة وقد عرفه عياناً ، وسيرته كما رأيت سيرة الشعراء المستجدين يمدح على الهوى ويذم على الهوى ويعلو ويسفل بحسب الحال ، وكان الى ذلك لما استقرت به الحال يدرس ويلمي من محفوظاته وينظم ويكتب في الاغراض التي تنبعث لها نفسه وشعره شعر اهل الطبقة الثانية من الشعراء ويجيد في المقطعات اذا كان الموضوع بما تأثر به ، ونثره فيه البديع ، وفيه المتكلف لالتزامه السجع . جاء اكثره مصنوعاً وما اجاد الا عندما صدر عن عاطفته . وقد بلغ من الغلو مبلغاً قل ان وصل الى اكثر منه معظم الشعراء والكتاب ، فضاعت لذلك صنعته في غمار اغرافه ودل على ان فارسيته شديدة وأن اماميته كانت مشوبة بتعصب وعصبية . نقل له الثعالبي طائفة من حكمه وأورد له مقطعات من شعره كانت تخرجه عن اتزانه ورويته أحياناً مع ان المفروض فيه غير ذلك . وخير ما خطت أنامل الخوارزمي كتابه الى جماعة الشيعة بنيسابور وقد كتبه بعاطفته ، وهل التشيع الا عاطفة وعصبية . واذا قصدت الى ان تعرف مقدار الصدق في رسالته البديعة تسقط على ترهات لا يدونها في القرطاس من يأخذ من نفسه للحق . معظم الكتاب كالشعراء يتعذر الركون اليهم في تقرير الصدق ، وخاصة اذا كانوا من الموتورين واصحاب الغايات والدعوات وكلم في الكتب من اختلاق ، والنقاد هم الذين يخرجون من الحديد خبشه ومن الذهب بهرجه .

ان من يقول « ان بني امية الشجرة الملعونة في القرآن وأتباع الطاغوت

والشيطان !» وفي بني العباس : « وما أصف من قوم هم نطف السكارفي
في ارحام القيان وماذا يقال في أهل بيت منهم نبغ البغا وفيهم راح
التخنث وغداوهم عرف اللواط !» ان يطمس الغرض على بصره ويقول
« وقل في بني العباس فانك ستجد بحمد الله تعالى مقالاً ، وجل في عجائبهم
فانك ترى ماشئت مجالا مُجيب فيئهم فيفرق على الديلمي والتركي ، ويحمل
الى المغربي والفرغاني ، ويموت امام من ائمة الهدى وسيد من سادات
بيت المصطفى فلا تتبع جنازته ولا تجصص مقبرته ، ويموت ضراط لهم
او لآعب ، او مسخرة او ضارب ، فتحضر جنازته العدول والقضاة ،
ويعمر مسجد التعزية عنه القواد والولاة ، ويسلم فيهم من يعرفونه دهرياً
او سوفسطائياً ، ولا يتعرضون لمن يدرس كتاباً فلسفياً ومانوياً ، ويقتلون
من عرفوه شيعياً ، ويسفكون دم من سمي ابنه علياً ... » ويقول في
بني العباس انهم « يولون انباط السواد وزارتهم ، وقلف العجم والطباطم
قيادتهم ، ويمنعون آل ابي طالب ميوات امهم وفيء جدهم ، يشتهي العلوي
الاكلة فيحرمها ، ويقترح على الايام الشهوة فلا يطعمها ، وخراج مصر
والاهواز ، وصدقات الحزمين والحجاز تصرف الى ابن ابي مريم المدني
والى ابراهيم الموصلي وابن جامع السهمي والى زلزل الضارب وبرصوما
الزامر . واقطاع بختيشوع النصراني قوت اهل بلد ، وجاري بغا التركي
والأفشين الاشروسي كفاية امة ذات عدد ، والمتوكل زعموا يتسرى
بائني عشر الف سرية ، والسيد من سادات أهل البيت يتعفف بزنجية أو
سندية ، وصفوة مال الخراج مقصور على ارزاق الصفاة ، وعلى موائد
الحخانة ، وعلى طعمة الكلابين ، ورسوم القرادين ، وعلى مخارق وعلوية
المغني ، وعلى زرزر وعمر بن بانه الملهي ، ويبخلون على الفاطمي بأكلة
او شربة ويصارفونه على دانق وحب ، ويشترون العوادة بالبدر ويجرون
ها ما يفي برزق عسكر ...

ان من يقول هذا ويبالغ ويذم الامويين والعباسيين هذا الذم
المقذع ويعمى عن اعمالهم الحسنة التي توازي أضعاف اضعاف ذلك ان

صحت كلها ، مطعون في آرائه ، ولا يقنع عاقل بصحة اقواله ، ولكن بني العباس عرفوا على الغالب نفسيته فطردوه عن بلدهم وحرموه عطاياهم فجال في اطراف ملكهم ينزل على ملوك الطوائف يستجد بهم ويمدحهم ويهجوهم . فرسالته الى شيعة وشتم الامويين والعباسيين جاءت من هذا السخف ، والناقد يرذل من افكارها اكثر ما اورده . وخير الادب ماصدق قائله ، ومن دون الكذب وقال انه ادب فهو مغبون الصفة . اما شعره في هجو من غضب عليه فقد حمل مقابح واقذاعاً لا يليق صدورها عن يصطنع الوقار والجلال أمثاله .

وفي الوافي : والظاهر أن الخوارزمي كان فيه ملل واستحالة لان ابا سعيد احمد بن شبيب الخوارزمي قال فيه :

ابو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مسودته اذا دامت لـحل فمن وقت الصباح الى المساء

وبعد فهذا مثال من ادب هذا الاديب ، وهذه صورة من أخلاقه وطعمته ، وهذا وفاؤه لمن آووه وأغنوه ، وهذه مصانعه لجماعته واغواؤه لمن يضل عقولهم . وقد اثرت له حكم بعضها جميل واكثر معانيها مبتذلة مأخوذة عن سبقه . ونعذر مثل الخوارزمي اذا لم يبرز في حكمه مادام جماع حكمته في حياته ان ينفى وينعم ويغلو ويفرق . ولا يعدم صاحب السخف مهما بلغ من خطئه أن يجد مستمعين لقوله وان كان كلامه الهراء بعينه . قال الحصري : كان ابو بكر الخوارزمي رافضياً غالباً . وقال ياقوت : قرأت في آخر ديوانه له :

بأمل مولدي وبنو جرير فأخوالي ويحكي المرء خاله
فها أنا رافضي عن تراث وغيري رافضي عن كلاله

صوّر من ترجعوا للخوارزمي هذه الصورة التي نقلناها عنهم ، ودلنا بعض رسائله على منازعه ، ولولا هذه الخزيات المموسة في كتابته لكان بما اتقنه من علوم وآداب آية في فنه ، ومع انه جرى طلقاً مع عاطفته

فقد كانت رسائله بما يتعلم منه ، وقليل في حملة الاقلام من جودوا تجويده .
تأمل هذه الظاهرة في أخلاق الخوارزمي تراه على كثرة ماجنى من مال واعتقد من ضياع بمن يصعب عليهم أداء مال السلطان . فمما كتب الى صاحب ديوان الحضرة أنه ورد عليه من عمال الخراج من لأطريه بجرمة ولا أتناوله بطرف ذريعة او وسيلة ، وكأني به وقد حشرني في جملة العامة ، وادخلني في غمار سائر الرعية ، ووقفني على جسر قدماه الحسران وخلفه الهوان ، وفجعتني بدريهمات جمعت بتقحم المهالك واختراق المسالك والممالك ، ودنانير قطعت القفار ، وخاضت البحار ، وناطحت الحوادث والأقدار ، فان بذلتها أبرزت وفرأ طالما كان مخزوناً ، وان منعتها ابتدلت عرضاً لم يزل مصوناً .

وكتب الى صاحب ديوان الخراج بالحضرة : وان درهماً يؤخذ مني لدرهم ثقيل الوضع على السلطان قبيح الأحداث في البلدان ، ولئن كان يعمر به بيت المال ، فانه يجرب بيت الجمال . ولئن كان يزيد به عدد الدراهم ، انه لينقص من عدد المكارم ، ولئن كان يسمى في العامة جباية ، انه يسمى في الخاصة خزاية . وللأس اكفان الموتى ، وسرق أدوية المرضى ، وقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر النبي عليه السلام ، احسن في الأحداث وابعد من العار والنقبصة ، من الزام مثلي خراجاً ، وسومه غرامة واستخراجاً ! » .

وكتب في حالة أخرى الى صاحب ديوان الحضرة : « فان رأى ان لايفجع خراسان بلسانها ، ولا يخليها من سيفها وسنانها فعل » وكتب الى بعض حكام الرساتيق « وما ظن سيدي بضبعة الزمتمني الجزية بعد ان كنت ألزمها الصغير والكبير ، واستأديها الرعية والأمير ، وأخرجتني من عز السلاطين الى ذل الدهاقين ، وجمعت علي فتون الأغنياء وغم المساكين ، وشغلني صداعها عن أشغال الدنيا والدين ، يستغل الناس الغلة ، وأنا أستغل القلة والذلة . ويزرعون في الأرض حباً ، فيحصدون حبوباً ،

وانا أزرع في قلبي كرباً واحصد كروباً ، وقد صرت من اجلها اخدم
قوماً كنت استخدمهم ، وأسلم على أناس كنت اذا كلوني لأكلهم ،
ويحجيني من لو حضر باي من قبل حجبتة ، ويعرض عني من لو سألني
فيما مضى ما اجبته ..

ومن كتاب له الى صاحب ديوان الحضرة : ولقد خصني من بين
الأزمان زمن لثيم ، ووقع في قسمي من البخوت بخت ذميم ، حيث صرت
الزم خراجاً التزم بنو المدبر أضعافه للبحثري ، واضايق في ضيعة وهب
أمثاله محمد بن الهيثم الغنوي لأبي تمام الطائي حيث قال للبحثري :

ولم لا أغالي بالضياع وقد دنا علي مداها واستقام اعوجاجها
اذا كان لي تربيعها واغتلالها وكان عليكم عشرها وخراجها
وقال ابو تمام الطائي :

فدع ذكر الضياع في شماس اذا ذكرت وبني عنها نفار
وما لي ضيعة غير المطايا وشعر لايباع ولا يعار

للخوارزمي مجازفات تعجب وان حادت عن المعقول مثل قوله لأحد
الحجاب لما نكبه ابن عباد : وأنت أيديك الله تعلم انك كنت من الذل
في مكان يتخطاك فيه الناظر ، ويدوسك الحف والخافر ، لايشرفك نسب
ولا يرفعك أدب ، ولا يرجوك صديقك ولا يخافك عدوك ، عن يمينك
الممول ، وعن يسارك الذبول ، وبينهما الفقر الذي لو قسم على الأغنياء
لصاروا فقراء ، والضعف الذي لو فرق على الاقوياء لعادوا ضعفاء ، تصبح
في قل ، وتسمي في ذل ، وتروح الى انثى وتغدو الى طفل : فأنصفك
الدهر الظالم ، وانتبه لك البخت النائم ، واراد الله تعالى ان يرفع من
حكمتك ، ويقوم من قنبور حديثك الخ . وهو كلام فاض
باللؤم والشماتة .

كتب الى صاحب يعرض نفسه فقال « فان اذن الوزير في ورود
عسكره المحفوف بجناح النصر ، المكنوف بجوانب الدولة والكرة ، رأى

مني بحمد الله تعالى فارساً ملء العين ، كما سمع مني عالماً ملء الاذن ،
فيعلم حينئذ ان اقباله خرج له تلميذاً انتظم فيه فروسية اللسان ، وفروسية
السيف والسنان ، ويكر في معركة الطعان ، كما يكر في معركة البيان
ويثبت اسمه في جريدة العلماء والفرسان « وهذا كأكثر ما أثر عنه بفيض
منه البأو وتتدفق الدعوى . ومن هذا البحر قوله : « وقد علم الأمير
ان والدي رحمه الله تعالى خلف علي ما لو خلفه علي اهل بلد لكهاهم ،
ولو فرقه علي فقراء الدنيا لأغناهم . فما زالت صروف الدهر بجوارزم
تقاتلني جهراً ، وتخاتلني سراً ، حتى خرجت منها اعرى من حية ، بعد
ما كنت أكسى من بصلة ، وافقر من الحجر ، بعد ما كنت أغنى من
الكعبة وأعطل من المحرم » . وفي هذا أيضاً من الكذب ما لا يقبله طفل .



(٢٣)

القاضي التنوخي

أبو علي المحسن بن علي

(٣٨٤)

أخذ القاضي عن أئمة البصرة ، ونزل بغداد ، وتقلد القضاء زمناً طويلاً وعرف رجال السياسة في عصره ، ودرس مذاهبيهم وأهواءهم ، ورأى مشاكل الناس ومتاعبهم فاتسع أفقه وكثرت آدابه وتجاربه . وهو من بيت كل أهله فضلاء وأدباء ، كان أبوه عالماً وأديباً ، وهو عالم وأديب وكان سماعه صحيحاً ويميل للأدب والشعر والأخبار .

أتم ما بدأ به استاذ الصولي من تدوين أخبار المجتمع العباسي ، واقتصر الصولي على أخبار الخلفاء والوزراء والكتاب والشعراء ، ودوّن التنوخي الأخبار على اختلاف مصادرها وأشكالها . وقد يروي القصة بأكثر الفاظها ، وإن كانت مولدة أو عامية لئلا يضيع من رونقها ، فهو من هذا النظر ناقل صحيح النقل يجودّ تصوير ما وقع بأمانة ، ولا يخرم شيئاً مما يبلغه عن الثقات ، أو يرى فيه نكتة وعبرة وتسلية .

من مصنفات القاضي التنوخي « الفرج بعد الشدة » و « نشوار المحاضرة » أو جامع التواريخ و « المستجد من فعلات الأجواد » . ألف كتاب الفرج ليفزع اليه من أناخ الدهر بمكروهه عليه ، فيقرأ من الأخبار فيه ما يسليه ويتعظ به . وكان سبقه الى مثل هذا الموضوع ثلاثة من المؤلفين كتبوا فيه أوراقاً ، أما هو فاقصر على أحسن ما روي من الأخبار ، مخالفاً مذهب من تقدمه في التأليف . نوع الأخبار وجعلها أبواباً ، وعزا ما أخرجه من الكتب الثلاثة الى مؤلفيه تأدية للأمانة ، واستيثاقاً في

الرواية ، وتبيناً لما أتى به من الزيادة فأوجز ، وأسقط الحشو وترك
الاكتثار أي أنه جمع ما هب ودبّ أولاً ، ثم أسقط ما أسقط وأبقى
ما أبقى . وحمل كتابه مع هذا من أنواع الحرافات صنوفاً ومن الامور
النايبة عن حد المعقول ضرورياً ، ومن أخبار الفساق والمجان ما نقله على
علاته ارادة الترويح عن النفوس ، وجاء بحكايات ونكات وبعضها بما دخل
في كتابه نشوار المحاضرة . وفي الفرج بعد الشدة . يقول الثعالبي في اليتيمة :
وله كتاب الفرج بعد الشدة وناهيمك بحسنه وامتاع فنه ، وما جرى من
القال بيمنه ، لاجرم أنه أسير من الأمثال ، وأجرى من الخيال .
ومعنى « النشوار » جرة الحيوانات المجترة استعمالها بمعنى الحديث . وهو
حكايات منقحة منسجمة ، كتبت بقلم كاتب تحتذى كتاباته متى ترك التكلف ،
وتكلفه كان ظاهراً في مقدمة كتابيه الفرج والنشوار . وقد قال في
مقدمة النشوار : ولعل قارئها أن يستضعفها اذا وجدها خارجة عن السنن
المعروف في الأخبار ، الراتبة في الكتب ، وذكر اصناف الذين دون
أخبارهم حتى قطاع الطريق والمتلصصين والحراب والمتخربين وأصحاب
العصية والسكاكين وأهل الحسارة والعيارين . ولا تكاد تخطر بالبال
طبقة من طبقات الخلق الا ويعرض لذكر أخبارها . فأثبت من ذلك
ما سمعه منذ وعى على نفسه ، واعتقد اثبات كل ما سمعه من هذا الجنس
بما يحث على قراءته من شعر لمتأخر من المحدثين ، او مجيد من الكتاب
والمتأديين ، او كلام منشور لرجل من أهل العصر أو رسالة أو كتاب
بديع المعنى أو حسن النظم والنثر الى ما شاكل ذلك من مثل طري ،
أو حكمة جديدة ، أو نادرة حديثة ، أو فائدة قريبة المولد ، ليعلم
أن الزمان قد أبقى من القرائح والالباب في ضروب العلوم والآداب
أكثر مما كان قديماً أو مثله ، ولكن تقبل أرباب تلك الدول الأدب
أظهره ونشره ، وزهد هؤلاء الأئمة في هذا الادب غمره وسره ، قال :
والا فقد خرج من أعمارنا وما قاربها من السنين من مكنون أسرار العلم

ما لعله كان معتصماً على الماضين ، وجرى من الحوادث الكبار والانقلابات العجيبة التي لا يوجد مثله سالفاً في أضعاف هذه السنين ما لو قيّد بتأليف الكتب لأوفى على ما سلف وتقدم في علو الرتب .

وزاد أن هذه المدونات نوع لم يسبق الى كتبه ، لأنها مقصورة في الأكثر على ضروب من الأحاديث السابقة والسالفة في زماننا التي تُظلم عندي بأن لا تكتب ، وهي تصلح لمن قد فرغ من أكثر العلوم ، واشتهى قراءة ما يدل على أخلاق أهل الأزمنة وسننهم وطرائقهم وعاداتهم ، وان يقايس بين ما نحن فيه وما مضى ، ليعلم كيف ماتت الدنيا وانقلبت الأهواء وانعكست الآراء ، وفقدت المكارم قال : « وحقاً لو نشر حكيم من أهل تلك الأزمنة حتى يرى ما حصلنا عليه ودفننا اليه ما شك في قيام الساعة او أن الناس بُدّلوا بهائم مهجلة أو جعلوا آلات غير مستعملة لفقد الأحرار ، وشدة الاعسار ، ولطول المتاعب ، وتواتر النوائب .

وفي الكتاب ذكر معتقدات الناس وأوهامهم وكثير من الشعر الرائق والنثر الفائق . ولا نغالي اذا قلنا ان كتاب النشوار أفاد في الكشف عن أحوال القرن الرابع ما لا يستفاد من عشرات من الكتب ، ومنها ما لا يستبين منه حال العصر الذي كتبه فيه الا بشيء من الفرضيات والاستنتاجات . ولو سلم « النشوار » كله وانتقل الى أبناء هذا الجيل كما كتبه مؤلفه لكان أصدق صورة عن ذلك الزمن ، وعدّ في فنه من الأمهات . ومن لم يكتب له مطالعة النشوار يحتاج الى مثال منه يعطيه فكرة في جلال موضوعه وأسلوبه ، قال التنوخي : حدثني القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله قال : حدثني مكرم بن أبي بكر عمر أبي الحسن بن مكرم القاضي قال : كنت خصيصاً بأبي الحسن علي بن عيسى (من أعظم وزراء بني العباس وأعفهم وأعلمهم) وربما شاورني في شيء من أمره قال : دخلت عليه يوماً وهو مغموم جداً فقدرت انه بلغه عن القندر أمر كرهه فقلت : هل حدث شيء وأومأت الى الخليفة فقال :

ليس غمي من هذا الجنس ولكن بما أشد منه ، فقلت : ان جاز أن أقف عليه فلعلي أقول شيئاً ، فقال : نعم كتب اليّ عاملنا بالثغر أن أسارى المسلمين في بلد الروم كانوا على رفق وصيانة الى أن وُلّي آنفياً ملك الروم حدّثان فعسفا الأسارى وأجاعاهم وأعرباهم وعاقباهم وطالباهم بالتنصر ، وانهم في جهد جهيد وبلاء شديد ، وليس هذا بما لي فيه صلة لأنه أمر لا يبلغه سلطاننا ولا الخليفة يطاوعني . فكنت انفق الأموال واجتهد وأجهز الجيوش حتى تطرق القسطنطينية . فقلت : أيها الأمير ها هنا رأي أسهل بما وقع لك يزول به هذا . فقال : قل يا مبارك ، فقلت : ان بأنطاكية عظيماً للنصارى يقال له البطرک وببيت المقدس آخر يقال له القاتليق (الجائليق ؟) وأمرهما ينفذ على ملك الروم ، حتى أنها ربما حرما الملك فيحرم عندهم ويحلاّنه فيحلّ ، وعند الروم أن من خالف منهم هذين كفر ، وانه لا يتم جلوس الملك ببلد الروم الا برأي هذين ، وأن يكون الملك قد دخل الى بيعتها وتقرب بها . والبلدان في سلطاننا والرجلان في ذمتنا ، فيأمر الوزير بأن يكتب الى عاملي البلدين باحضارهما وتعريفهما ما يجري على الأسارى ، وان هذا خارج عن المسئلة ، وانها ان لم يزيلا هذا لم يطالب بجزيرته غيروهما ، وينظر ما يكون الجواب .

قال فاستدعى كاتباً وأملى عليه كتابين في ذلك وأنفذهما في الحال ، وقال سرّيت عني قليلاً . وافترقنا فلما كان بعد شهرين وأيام ، وقد أنسيت الحديث جاءني فُرانتق^(١) من جهته يطلبني فركبت ، وأنا مشغول القلب بمعرفة السبب في ذلك ، حتى وصلت اليه ، فوجدته مسروراً ، فحين رأي قال : يا هذا أحسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني ، فقلت : ما الخبر ؟ فقال : كان رأيك في أمر الاسارى أبرك رأي وأصح وهذا رسول العامل قد ورد بالخبر (وأوماً الى رجل كان بحضرته)

(١) الذي يدل صاحب البريد على الطريق معرب بروانك .

وقال له : خبرنا بما جرى ، فقال الرجل : أنفذني العامل مع رسول البطريرك والقائلين برسالتها الى قسطنطينية وكتبنا الى ملكيها : انكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتما بالاسارى ، وليس لكما ذلك فانه حرام عليكم ، ومخالف لما أمرنا به المسيح من كذا وكذا وعدد أشياء من دينها ، فاما زلتما عن هذا واستأنفتما الاحسان الى الاسارى وتركتما مطالبتهم بالتنصر والا لعنا كما على هذين الكرسيين وحرمنكما . قال فمضيت مع الرسول فلما صرنا بقسطنطينية حجبت عن الملكين أياماً ، وخلينا بالرسول ثم استدعياني اليها فسلمت عليها فقال لي ترجمانها : يقول لك الملكان ان الذي بلغ ملك العرب من فعلنا بالاسارى كذب وتشنيع وقد أذنا في ادخالك دار البلاط لتشهد أسراركم فتري أحوالهم بخلاف ما بلغكم ، وتسمع من شكرهم لنا ضد ما اتصل بكم . قال : ثم حملت الى دار البلاط فرايت الاسارى وكان وجوههم قد أخرجت من القبور تشهد بالضرر وما كانوا فيه من العذاب الا أنهم مرفهون في ذلك الوقت ، وتأملت الى ثيابهم فاذا جميعها جُددُ فعلت اني منعت من الوصول تلك الايام حتى غير زي الاسارى . وقال لي الاسرى : نحن للملكين شاكرون فعل الله بهما وضع ، وأومأوا اليّ أن الامر كما كان بلغكم ، ولكنه خفف عنا وأحسن الينا بعد حصولك هاهنا . وقالوا لي : كيف عرفت حالنا ومن تنبه علينا وأنفذك بسبينا . فقلت لهم : ولي الوزارة علي بن عيسى فبلغه ذلك فأنفذ من بغداد وفعل كذا وكذا قال : فاجوا بالدعاء الى الله تعالى للوزير ، وسمعت امرأة منهم تقول : مر يا علي بن عيسى لانسي الله لك هذا الفعل . قال : فلما سمع ذلك علي بن عيسى أجيش بالبكاء وسجد حمداً لله سبحانه وتعالى وبرّ الرسول وصرفه ، فقلت له : أيها الوزير اسمعك دائماً تتبرم بالوزارة وتتمنى الانصراف عنها في خلواتك خوفاً من آثامها ، فلو كنت في بيتك هل كنت تقدر ان تحصل هذا الثواب ، ولو أنفقت فيه أكثر مالك ، ولا تفعل ولا تتبرم بهذا الامر

فلعل الله يمكنك ويجري على يديك أمثال هذا الفعل فتفوز بثوابه في الآخرة كما تفردت بشرف الوزارة في الدنيا .

والكتاب الثالث من تأليف القاضي التنوخي « المستجاد من فعلات الاجواد » أورد فيه مئة وخمسين قصة في كرماء الجاهلية والاسلام الى عهده التقطها من أصدق المصادر فجاءت صحيفة حكمة وأدب واجتماع وأخلاق ذكر فيها من تقدموا عصره كما ذكر في النشوار من كانوا فيه أو قبله بقليل ، ورسوم به صورة من الكرم قل أن اجتمع مثلها في مصحف واحد ، حملت أطايب الشعر وأزاهير جميلة من النثر ، ومنها ما كان من نسجه ومنها ما نسجه من قبله . فكأن هذا المؤلف العظيم أحب أن يهذب الناس بحكايات جوّد ايرادها حتى تقع في نفوسهم موقعها وهاكم الآث قصة من قصصه في المستجاد وهي مما يجب على كل من يتعاطى الحكم والادارة ان يجعلها نُصب عينه ودليل حكمه :

قال عبد الله بن سليمان : كنت بحضرة والدي في ديوان الخراج بسرة من رأى وهو يتولاه اذ دخل عليه أحمد بن أبي خالد [الصريفي] الكاتب فقام له أبي من مجلسه وأفعدته في صدره ، وتشاغل به ، فلم ينظر في عمل حتى نهض ، ثم قام معه وأمر غلمانته بالخروج بين يديه ، فاستعظمت أنا وكل من في المجلس هذا ، لأن رسم أصحاب الدواوين صغارهم وكبارهم لا يقومون في الديوان لأحد ممن يدخل اليهم ، وتبين أبي ذلك في وجهي فقال لي : يا بني اذا خلونا فسلني عن السبب فيما عملته مع هذا الرجل .

قال : وكان أبي يأكل في الديوان وينام فيه ويعمل عشياً الحسابات فلما جلسنا نأكل لم أذكره الى أن كاد الطعام ينقضي ، فقال لي هو مبتدئاً : يا بني شغلك الطعام عما قلت لك تذكرني به ؟ فقلت : لا ، ولكن أردت ان يكون ذلك على خلوّة فقال : هذا وقت خلوّة ثم قال : الست انكرت والحاضرون قيامي لأحمد بن ابي خالد في دخوله

وحروجه وعمّا عملته معه ؟ فقلت : بلى . قال : كان هذا يتقلد مصر سنين فوليت أعمالها وصرفته عنها ، وقد كانت مدته فيها طالت فتبعته ، فرأيت آثار رجل لم أر أجل آثاراً منه ، ولا أعف عن أموال السلطان والرعية ، ولا رأيت رعية لعامل أشكر من رعيته له ، وكان الحسين الخادم المعروف بعرق الموت صاحب البريد بمصر أصدق الناس له مع هذا ، وكان من أبغض الناس [اليّ] وأشدّهم اضطراباً في أخلاقه ، فلم أتعلق عليه بحجة ، ووجدته قد أخرج رفع الحسابات لسنة متقدمة وسنته التي هو فيها ولم يستتمها لصرفي له عنها ، ولم ينفذه الى الديوان ، فسُئِمته ان يحط من الدخل ويزيد من النفقات والأرزاق ؛ ويكسر من البقايا في كل سنة مائة الف دينار لآخذها لنفسي ، فامتنع من ذلك ، فأغلظت له وتوعدته ونزلت معه الى مائة الف دينار واحدة للسنتين وحلفت له إيماناً مغلظة مؤكدة أنني لا أقنع منه بأقل منها ، فأقام على امتناعه وقال : لا أخون لنفسي فكيف أخون لغيري ، وأرسل ما قام به جاهي من العفاف ؟ فحبسته وقيدته فلم يجب ، وأقام مقيداً في الحبس شهوراً . وكتب عرق الموت صاحب البريد الى المتوكل ، وحلف له أن أموال مصر لا تنفي بنفقتي ومؤنتي ، ويصف أحمد بن أبي خالد ويذكر ميل الرعية اليه وعفته ، فأرسل المتوكل بتوليته . فانا ذات يوم على المائدة آكل اذ وردت علي رقعة أحمد بن أبي خالد يسألني استدعاه لهم يلقيه اليّ ، فلم أشك أنه قد استضر بالحبس والقيد ، وقد عزم على الاستجابة لمراذي ، فلما غسلت يدي دعوته فاستخلاني فأخلى بيته ، فقال : أما أن لك ياسيدي أن ترق لي بما أنا فيه من غير ذنب اليك [ولا جرم ولا قديم ذحل] ولا عداوة ؟ فقلت انت اخترت لنفسك ذلك ، وقد سمعت يميني وليس منها مخرج ، فاستجب لما أريده منك [واخرج] ، فأخذ يستعطفني [ويخدمني ويخدمني] ، [فجاءني ضد ما قدرته] فعاظني فشتمته ، وقلت له هذا الامر المهم الذي ذكرته لي في رقعتك أنك أردت القاءه الي هو أن تستعطفني

وتستجيري وتخضعني ؟ فقال : ياسيدي وليس الآن عندك غير هذا ؟
فقلت : لا ، فقال : اذا كان ليس عندك غير هذا ، فاقراً ياسيدي
هذا ، وأخرج الي كتاباً لطيفاً مختوماً في ربع قرطاس فضفته فاذا هو
بخط المتوكل الذي أعرفه [يأمرني فيه] بالانصراف وتسليم ما أتولاه الي
أحمد بن أبي خالد ، والخروج اليه بما يلزمني ورفع الحساب اليه والامتنال
لأمره وطاعته ، والمسير عن مصر بعد ذلك ، فورد علي أقبح مورد
لقرب عهد الرجل بشتمي له والاساءة اليه ، وأنه في الحال تحت حديدي
ومكارهي ، فأمسكت مبهوتاً ، ولم ألبث أن دخل أمير مصر اذ ذاك
في أصحابه وغلمانه ، فوكل بداري وجميع ما أملكه وأصحابي وغلماني
وجهاذتي وكتابي . وجعلت أزحف من الصدر حتى صرت بين يدي
أحمد بن أبي خالد ، ولست أستطيع القيام وهو في قيوده بعد . فدعا
أمير البلد بمجداد فحلّ قيوده ، فمددت رجلاي ليوضع فيها القيد ، فقال
لي : يا أبا أيوب ضمّ أقدامك ، فوثب قائماً ثم قال لي : يا أبا أيوب :
أنت قريب عهد بعمالة هذا البلد ، ولا منزل لك فيه ولا صديق ومعك
حرّم وحاشية ، وليس يسعك الا هذه الدار ، وكانت دار العمالة ، وأما
أنا فأجد عدة مواضع غيرها وليس لي كبير حاشية ، ومن نكبة وقيد
خرجت ، فأقم مكانك ، وخرج عني وصرف التوكيل عني وعن الدار ،
وأخذ كتابي وأشياعي اليه ، فلما انصرف قلت لغلماني : هذا الذي أراه
في النوم ؟ انظروا من وكل بنا فقالوا : ما وكل بنا أحداً ، فعجبت
من ذلك عجباً شديداً ، وما صليت العصر حتى عاد اليّ من كان حمله
معه من المتصرفين والكتاب والجهاذة مطلقين وقالوا : أخذ خطوطنا
برفع الحساب ، وأمرنا بالملازمة وأطلقنا ، فازداد عجبي ، فلما كان من
غد باكرني مسلماً ورحت اليه في عشية ذلك اليوم ، فأقمت ثلاثين يوماً
ان سبقتني الي الجيء والا رحنت اليه ، وان راح اليّ والا باكرته ،
وكل يوم تجيئني هداياه وأطافه من الثلج والفاكهة والحيوان والحلوى والطيب

فلما كان بعد ثلاثين يوماً جاءني فقال لي : فدعشت مصر يا ابا أيوب والله ما هي طيبة الهواء ولا عذبة ، وإنما تطيب لغير أهلها بالولاية فيها والاكتساب ، ولو قد رحلت الى بغداد وسر من رأى ما أقمت الا شهراً ، ثم تتقلد أجل الاعمال ، فقلت : والله ما أقمت الا متوقعاً لأمرك في الخروج ، فقال : أعطني خط كاتبك بأن عليه القيام بالحساب ، واخرج في حفظ الله ، فأحضرت كاتبي وأخذت خطه كما أراد ، وسلمت الخط اليه ، فقال لي : اخرج أي وقت شئت ، فخرج من غد هو وأمير مصر وقاضيه ووجوهها وأهلها وشيعوني الى ظاهر مصر . وقال لي : تقيم في أول منزل على خمسة فراسخ الى أن أزيح علة قائد يصحبك برجاله الى الرملة ، فان الطريق فاسد ، فاستوحشت من ذلك وقلت : هذا إنما غرني حتى أخرج كل ما أملكه وجميع ما كسبت فيتمكن منه في ظاهر البلد فيقبضه ثم يودني الى الحبس والتوكيل والمطالبة ، ويحتج علي بكتاب ثان ، يذكر أنه « صك » فخرجت وأقمت بالمرحلة التي ذكر مستسلماً للقضاء متوقعاً للشر ، الى أن رأيت أوائل عسكره مقبلاً من مصر ، فقلت لعله القائد الذي يريد أن يصحبني ، أو لعله يريد أن يقبض علي به ، فأمرت غلماني بمعرفة ذلك وما الخبر ؟ فقالوا : العامل أحمد بن أبي خالد قد جاء ، فلم أشك في أنه قد ورد البلاء بوروده ، فخرجت من مضر بي وسلمت عليه ، فلما جلس قال : أخلونا ، فلم أشك في أنه للقبض علي فطار عقلي ، وقام من كان عندي فلما لم يبق عندي أحد قال : أنا أعلم ان أيامك لم تطل بمصر ، ولا حظيت فيها بكبير فائدة ، وذلك الباب الذي سألتني في ولايتك لم أستجب اليك ، وأخرت الاذن لك في الانصراف منذ أول الامر الى الآن ، لأني تشاغلته بالفراغ لك منه ، وقد حطت من الارتفاع وزدت في النفقات في كل سنة خمسة عشر الف دينار تكون للسنتين ثلاثين ألف دينار وهو يقرب ولا يظهر ، ويكون أيسر مما أردته مني في ذلك الوقت ، وقد تشاغلته به حتى جمعت لك ، وهذا المال على البغال ، وقد جئتك به فتقدم الى من يتسلمه

فتقدمت لقبضه وقبلت يده ، وقلت قد والله ياسيدي فعلت ما لم تفعل
البرامكة ، فأنكر ذلك مني وتقبض عنه وقبّل يدي ورجلي .
وقال : ههنا شيء آخر أريد أن تقبله فقلت : ماهو قال : خمسة
آلاف دينار وقد استحققتها من رزقي ، فامتنعت من ذلك ، وقلت :
فيما قد تفضلت به كفاية ، فحلف بالطلاق أن أقبلها منه فقبلتها ، فقال :
وههنا أطاف من هدايا مصر أحييت أن أصحبك اياها ، فانك تمضي الى
كتاب الدواوين ورؤساء الحضرة فيقولون لك : ولّيت مصر فأين نصيبنا
من هداياها ؟ ولم تطل أيامك فتعد ذلك لهم ، وقد جمعت لك منه
ما يشتمل عليه هذا الثبّت ، وأخرج درجاً فيه ثبت جامع لكل شيء
في الدنيا حسن طريف جليل القدر من كل جنس ، من ثياب ديبق
وقصب وخدم وبغال ودواب وحمير وفرش وطيب حتى اقلام ومداد
ما يكون قيمته مالاً كثيراً ، فأمرت بتسليمه وزدت في شكره ، فقال
لي : ياسيدي أنا مغري بحب الفرش وقد استعملت لي بيتاً ارمينياً بارمينية
وهو عشر مصليّات بمخادها ومساندها ومساورها ومطارحها وبسطها وهو
بطرر مذهبة ، قد قام عليّ بخمسة آلاف دينار ، على شدة احتياطي ،
وقد أهديته لك فان أهديته الى الوزير عبدك وان أهديته الى الخليفة ملكته به ،
وان ابقيته لنفسك وتجملت به كان أحب اليّ ، قال : وحمله فما رأيت مثله
قط ، ولم تسمح نفسي باهدائه لاحد ولا باستعماله ، فما ابتذلت منه شيئاً
يابني الا يوم اعذارك ، فاني اتخذت منه الصدر ومسانده ومخاده ، أفتلومني
يابني على ان اقوم لهذا الرجل ؟ فقلت : لا والله ياأبي ؛ ولا على ماهو
أكثر من القيام ، لو كان مستطاعاً .

قال : فكان أبي بعد ذلك اذا صرف رجلاً عن عمل ، عامله بكل
جميل ، ويقول : علمنا ابن ابي خالد أحسن الله جزاءه ، حسن الصرف .

(٢٤)

الباقرى

القاضي محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر

(٤٠٣)

الباقراني نسبة الى الباقر وبيعه من كبار المتكلمين الأشاعرة ومن زعماء مذهب مالك : ولد في البصرة على أصح الاقوال وسكن بغداد وتولى القضاء « وكان حسن الفقه عظيم الجدل وكانت له ببغداد حلقة عظيمة » وصفوه بأنه « سيف أهل السنة في زمانه وامام متكلمي أهل الحق » « كان أعرف الناس بعلم الكلام وأحسنهم فيه خاطراً ، وأجودهم لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأصحهم عبارة » وقالوا « كل مصنف ببغداد لما ينقل من كتب الناس الا القاضي أبابكر فان صدره يحوي علمه وعلم الناس » وقالوا « لو أوصى الرجل بثلاث ماله لأفصح الناس لوجب أن يدفع الى أبي بكر الأشعري » وكان من المكثرين من التأليف والمجودين فيه يكتب كل ليلة خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً من حفظه « فاذا صلى الفجر دفع الى بعض أصحابه ما صنفه ليلته وأمره بقراءته عليه وأملى عليه الزيادات فيه » و « حسبت تواليف القاضي واملاءاته وقسمت على أيام عمره من مولده الى موته فوجد أنه يقع لكل يوم منها عشر ورقات أو نحوها » . واشتهر القاضي بمناظراته فكان في العراق وفارس يناظر المعتزلة ولما شاع ذكره ، وهو ما برح في سن الشباب ، استدعاه عضد الدولة فناخسرو لمناظرة المعتزلة في شيواز وكان عضد الدولة قال في مجلس له أن هذا المجلس عامر بالعلماء الا أنني لا أرى أحداً من أهل السنة والائبات ينصر مذهبه فقال له قاضي القضاة وكان

معتزلياً ان أهل السنة والاثبات عامة رعا ع أصحاب تقليد وأخبار وروايات يروون الخبر وضده ويعتقدونها وواحدهما ناسخ للثاني أو متأول . فجاءوا بالباقلاني وناظر المعتزلة فقبل انه غلبهم وحظي عند عضد الدولة البويهبي وهذا من الشيعة وقد ندبه عنه في جواب رسالة الى الروم فناظر علماءهم في القسطنطينية وقالوا انه كان أبداً الظافر في مناظراته . وله أكثر من خمسين مؤلفاً ولم يطبع له منها الا اعجاز القرآن والتمهيد ، وألف هذا الكتاب لابن عضد الدولة وقد أسلمه أبوه اليه ليعلمه مذهب أهل السنة ، وهو في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة وفي حرص عضد الدولة على تعليم ابنه مذهب السنة دليل تسامحه وبعد نظره فانه رأى كثرة الامة من أهل السنة وأكثر رعيته منهم فأحب ان يتخرج ابنه في مذهبهم حتى يكون ملكاً على رأي الاكثرية بعد أبيه . كان الباقلاني الى الاعتدال في محاجة المخالفين معتدلاً أكثر من غيره ممن يشتمون ويهزأون ولا يستنكفون من المبادرة الى تكفير خصمهم ، وقد عقد فصلاً ممتعاً في آخر كتابه التمهيد عرض فيه لامامة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ورد على من نالوا منهم وقالوا ان خلافتهم موضع نظر رداً دل على علو كعبه في التاريخ وعلى سعة استخراجه ومعرفته بنقض ما يورده العقل . كتب كل ذلك من السهل الممتنع بدون سجع ولا تزويد في الالفاظ ، وأسلوبه هذا ، كما ظهر من اعجاز القرآن والتمهيد لم يجد عنه ، ولذلك حاز القبول وما رأينا له أسجاعاً الا في مقدمة كتابيه وهي أسجاع لطيفة لا تكلف فيها .

وكتابه « اعجاز القرآن » لم يسبق لعالم قبله ولا لعالم بعده أن وفق الى تأليف مثله وهو الى المقصد الذي قصد اليه كتاب في البيان والنقد واللغة حمل فوائد عظيمة في ورقات قليلة . والى القاريء نموذجاً منه وفيه دليل آخر على سعة علمه في الجدل قال : ان نظم القرآن على تصرف واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ،

ومباين المؤلف من ترتيب خطابهم ، وله اسلوب يختص به ويشير في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد . وذلك ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم الى معدل موزون غير مسجع ، ثم الى ما يرسل ارسالاً فطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني المعترضة على وجه بديع وترتيب لطيف وان لم يكن معتدلاً في وزنه ، وذلك شبيهة بجملة الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . . . والقرآن خارج عن هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق . . . ، انه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر ، لان من الناس من زعم انه كلام مسجع ، ومنهم من يدعي ان فيه شعراً كثيراً . . . فاذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم - انه خارج عن العادة وانه معجز ، وهذه خصوصية ترجع الى جملة القرآن ، وتميز حاصل في جميعه .

ومنها انه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة ، والتشابه في البراعة ، على هذا الطول وعلى هذا القدر . وانما تنسب الى حكيمهم كلمات معدودة والفاظ قليلة ، والى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويقع فيها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف ، وقد حصل القرآن على كثيره وطوله متناسباً في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل « الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فأخبر ان كلام الآدمي ان امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال . وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذي بدأنا بذكره فتأمله تعرف الفضل .

وان عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف

اليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام واعذار وانذار ووعيد وتبشير وتخويف وأوصاف وتعليم اخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلح والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الامور .

فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين ، ومنهم من يجود في التأبين دون التقريظ ، ومنهم من يغرب في وصف الابل أو الخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الحمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس اذا ركب ، والنابعة اذا رهب ، وبزهير اذا رغب ، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام . ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى فاذا جاء الى غيره قصر عنه ووقف دونه وبان الاختلاف على شعره . ولذلك ضرب المثل بالذين سميتهم لانه لاخلاف في تقدمهم في صنعة الشعر ولا شك في تبرزهم في مذهب النظم . فاذا كان الاختلال بيناً في شعرهم لاختلف ما يتصرفون فيه استغنيا عن ذكر من هو دونهم وكذلك يستغنى به من تفصيل نحو هذا في الخطب والرسائل ونحوها . ثم نجد في الشعراء من يجود في الرجز ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً ، ومنهم من ينظم القصيد ولكن يقصر فيه مهما تكلفه أو عمله ، ومن الناس من يجود في الكلام المرسل فاذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصاناً عجبياً ، ومنهم من يوجد بضد ذلك . وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد في حسن النظم وبديع التأليف والوصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا اسفاف فيه الى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف اليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة

والقصيرة ، فرأينا الاعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف ، وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند اعادة ذكر القصة الواحدة ، فرأيناه غير مختلف ، ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك انه مما لا يقدر عليه البشر لان الذين يقدرون عليه قد بينا فيه التفاوت الكثير عند التكرار وعند تبين الوجوه واختلاف الاسباب التي يتضمن .

وكلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً في الفصل والوصل والعلو والنزول والتقريب والتباعد وغير ذلك كما ينقسم اليه الخطاب عند النظم وينصرف فيه القول عند الضم والجمع . الا ترى ان كثيراً من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى الى غيره والخروج من باب الى سواه ، حتى ان اهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحثري مع جودة نظمه وحسن رصفه في الخروج من النسب الى المديح ، واطبقوا على انه لا يحسنه ولا يأتي فيه بشيء وانما اتفق له في مواضع معدودة خروج يرتضى وتنقل يستحسن ، وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شيء الى شيء والتحول من باب الى باب ، ونحن نفصل بعد هذا ونفسر هذه الجملة ونبين على ان القرآن على اختلاف ما ينصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة - يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب والمنافر في الافراد الى حد الاحاد . وهذا امر عجيب تبيين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف اه .

والباقلاني كان على فرط اعتداله في المناظرات ورد كلامه مرسومه عارفاً بسياسة العلم وسياسة الخلق ، ذكياً مفرط الذكاء عنده لكل ضيق مخرج . وفي سفارته عن الملك البويهري الى ملك الروم قال ان هذا اخبر بمقدمنا فأرسل الينا من يلقانا وقال : لا تدخلوا على الملك بعلمكم حتى تنزعوها الا ان تكون مناديل وحتى تنزعوا اخفافكم فقلت : لا أفعل ولا أدخل الا بما أنا عليه من الزي واللباس فان رضيتم والا فخذوا الكتب تقرأونها وأرسلوا بجوابها وأعود بها . فأخبر الملك بذلك فقال : أريد معرفة سبب هذا وامتناعه بما مضى عليه رسمي مع الرسل . فسئل القاضي عن ذلك فقال : أنا رجل من المسلمين وما تحبونه مني ذل وصغار . والله تعالى قد رفعنا بالاسلام وأعزنا بنبينا

نحمد صلى الله عليه وسلم وأيضاً فإن من شأن الملوك إذا بعثوا رسلهم الى ملك آخر رفع أقدارهم ولا يتعمد اذلالهم سيما اذا كان الرسول من أهل العلم ، ووضع قدره انه دام جانبه عند الله تعالى وعند المسلمين . فرضي الملك ان يدخل ومن معه كما يشاؤون . وفي رواية ان الملك رضي أن يدخل عليه الباقلاني كما جرى رسم الرعية ان يقبل الأرض بين يدي ملوكها فرأى أن يضع سريره من وراء باب لطيف لا يمكن أن يدخل أحد منه الا راکعاً فدخل القاضي من هذا الباب وأخفى رأسه راکعاً ودخل من الباب مستقبلاً الملك بدبره حتى صار بين يديه ثم رفع رأسه ونصب ظهره ثم أدار وجهه الى الملك فعجب الملك من فطنته ووقعت له الهيبة في قلبه . وكانت هذه السفارة سنة ٣٧١ .

ولما اجتمع الى أحد الرهبان في حضرة ملك الروم سأله الباقلاني عن أهله وأولاده فتعجب الملك من سؤاله وقال اننا ننزه هؤلاء عن الأهل والأولاد فأجاب : أنتم لا تنزهون الله سبحانه عن الأهل والولد فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل من الله تعالى ؟ ولما سأله الملك عن قصة عائشة وما قيل فيها قال هما اثنتان قيل فيهما ما قيل : زوج نبينا ومريم بنت عمران فأما زوج نبينا فلم تلد وأما مريم فجماءت بولد تحمله على كتفها وقد برأها الله بما رميت به فانقطع الملك ولم يجر جواباً .

رزق الباقلاني حظاً عظيماً من البديهة أعانته على التفرد بمناظراته فيه سرعة الحاطر وفيه الحافظة ، وبديهته نفعته في مناظراته الدينية ومواقفه السياسية وقل ظهور أمثاله في العلماء المشهورين وكثرت تأليفه لأنه كان كإن تسمية لا يرجع الى الكتب فيما يؤلف بقدر ما يرجع الى صدره ويعترف من محفوظه .

وقد ترجم له العلامة بروكلمان في معلة الاسلام فقال انه ادخل في علم الكلام آراء جديدة اقتبسها من الفلسفة اليونانية أو من معتقدات الكنيسة الشرقية كالقول بالاجزاء المفردة والقول بالخلاء والقول ان العرض لا يحمل عرضاً آخر وأنه لا يبقى زمانين .

ابن فنرو

أبو الفرج علي بن الحسين

هو من أهل الري لا نعرف ان كان من العرب النازلين فيها أو أنه من أصل فارسي . وهو من رجال البلاغة كاتب شاعر . قالوا كان صاحب ابوة في بلده ولسفه نباهة بالنيابة وخدمة السلطان هناك . وكان متفلسفا قرأ كتب الأوائل على أبي الحسن الوائلي بنيسابور ثم على الحكيم أبي الخير بن الحمار . وكان أحد كتاب الانشاء في ديوان عضد الدولة . وقال البندنجي الشاعر هو من أهل الري شاهدهته بجرجان في سني بضع عشرة وأربعمائة كاتباً بها ، وأنه مشهور في تلك البلاد بجودة الشعر وكثرة الأدب والفضل . وقال فيه صاحب يتيمة الدهر : هو مع ضربه في الآداب والعلوم بالسهم الفائزة ، وملكه رقة البلاغة والبراعة ، فرد الدهر في الشعر ، وأحد أهل الفضل في صيد المعاني الشوارد ، ونظم الفرائد في القلائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الاغراض البعيدة .

ومن تأليفه « انموذج الحكمة » و « المفتاح » في فوائد علم الطب و « الرسالة المشرقية » و « كتاب النفس » ورسائل وديوان وكتب أخر . وفي كتاب المفتاح ان متكلماً كان في جواره وصنف كتاباً في إبطال علم الطب ، وحث تلامذته على درسه فعرض له صداع فبعث تفسرته الى الحكيم أبي الخير فقال الحكيم أبو الخير لرسوله : قل له ضع تصنيفك في ابطال علم الطب تحت وسادتك وضع عليها رأسك فانه لا حاجة لك

الى الطيب والطب . فما عاجله واحد من الأطباء حتى اعترف ببطلان
كلامه ومزق تصنيفه وتاب . ثم عاجناه وشفاه الله تبارك وتعالى .
وقال ان أحد المتكلمين في جواره عرض له خناق فعاده فقال له :
ما ينفعني من طريق الطب ؟ فقلت له : ينفعك ماء الشعير الفاتر مع ماء
الرمانين ورُبّ التوت وخل الجوز وماء الهندباء مع فلوس الحيارشنبه
وفصد القيفال (عرق في اليد) وغير ذلك . فقال : وما يضرني فقلت
ما فيه حرارة . فقال : كيف يكون العسل المصفي والعصيدة التمرية ؟
فقلت ، نعوذ بالله ففيها هلاكك . فقال لتلامذته : أنا اخالف رأي
الاطباء عقيدة ومذهباً ، ولا غفر الله لي ان خالفت عقيدتي وأطعت طبيباً
فقممت من عنده ، فتناول العسل والعصيدة ومات قبل غروب الشمس .
وابن هندو كان على ما ظهر بما قاله المؤرخون فيه عالماً بمتازاً فيما
غلب عليه من صنوف الآداب ، قعد به الحظ فلم يظهر بالمظهر الذي كان
جديراً به من الرياسات والمقامات فكان في الديوان كاتباً دون الدرجات العالية
فأثر ذلك في نفسه وحنق على الدهر والأيام . من ذلك ما حدث به
البندنجي قال : كان الناس يظنون بمنوجهر بن قابوس ما كان في أبيه من
الأدب والفضل ولم يكن كذلك ، فلما انتقل الأمر اليه قصد بما يقصد
به مثله ، وكان لا يوصل اليه الا القليل ولا يتقبل ما يمدح به ، ولا يهش
لشيء من هذا الجنس لتباعده عنه ، وكان مع هذه الحالة فروقة قليل
البطش ، فمدحه ابن هندو بقصيدة وتأنق فيها وأنشده اياها فلم يفهمها ولم
يثبه عليها فقال :

يا ويح فضلي أما في الناس من رجل يحنو عليّ أما في الأرض من ملك
لا كرمك يا فضلي بتركهم واستهين بالأيام والفلك
فقبل لمنوجهر انه قد هجاك لأن اقبه كان « فلك المعالي » فطلبه
ليقتله فهرب الى نيسابور وانفلت منه .

وتحدث أبو الفضل البندنجي الشاعر قال : كان بان هندو ضرب من
السوداء كان قليل القدرة على شرب النبيذ لاجل ذلك ، واتفق أنه كان يوماً

عند أبي الفتح بن أبي علي كاتب قابوس بن وشمكير وأنا معه ، على عادة
لنا في الاجتماع ، فدخل أبو علي الى الموضوع ونظر الى ما كان بأيدينا من
الكتب وتناشد هو وابن هندو الشعر وحضر الطعام فأكلنا وانتقلنا الى
مجلس الشراب ، ولم يطق ابن هندو المساعدة على ذلك فكتب في رقعة
كتبها اليه :

قد كفاني من المدام شميم صالحتي الزهى وثاب الغريم
هي جهد العقول مهي واحاً مثل ما قيل للديغ سليم
ان تكن جنة النعيم ففيها من أذى السكر والخمار جحيم
فلما قرأها ضحك وأعفاه من الشرب . وأنشد أبو الفضل له :
قالوا اشتغل عنهم يوماً بغيرهم وخادع النفس ان النفس تنخدع
قد صبغ قلبي على مقدار حبيهم فما حب سواهم فيه متسع
وحدث أبو الفضل هذا قال : كان ابن هندو يشرب يوماً عند أبي غانم
القصري ، واقتصر على أقذاح بسيرة ثم أمسك فسأله الزيادة فلم يفعل وقال :
أرى الخمر ناراً والنفوس جواهرأ فان شربت أبدت طباع الجواهر
فلا تفضحن النفس يوماً بشرها اذا لم تثق منها بحسن السرائر
وله أيضاً :

تعرضت للدنيا بلذة مطعم وزخرف موشي من اللبس رائق
أراد سفاهاً أن يموت قبحها على فيكر خاضت بحار الدقائق
فلا تخدعنا بالشراب فاننا قتلنا نهانا في طلاب الحقائق
وله :

ضعت بأهل الري في أهلها ضياع حرف الرء في اللثة
صرت بها بعد بلوغ المنى احمد أن تبليغ بي البلغة
وله :

اذا ما عقدنا نعمة عند جاحد ولم نره الا جوحاً عن الشكر
رجعنا ففينا الجميل بضده كذلك يجازى صاحب الشراب الشر

وله أيضاً :

وكافر بالمعاد أمسى يجلبني قوله الخلوب
قال اغتمم لذة الليالي وعدّ عن آجل يريب
طال هواه وجاء يهذي طببت لعينيك يا طيب
أخطأ العالمون طراً وأنت من بينهم مصيب

وله :

حلات وقاري في شادن عيون الانعام به تعقد
غدا وجهه كعبة للجمال ولي قلبه الحجر الأسود

وله :

الا رب مولى غرّني من عهوده يمين عليها صافحتني يمينه
أكابد منه ضد ما أستحقه فأصدق في ودي له ويمين هو
عجيب لآخلاق اللئام كأنهم عن الكرم المعجون في شيمتي نهما

وله :

يقولون لي ما بال عينك مدّرات محاسن هذا الطيبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه فكان لها من صوب أدمعها غسل

وقال :

قوِّض خيامك من أرض تضام بها وجانب الذل ان الذل يجتنب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة فمندل الهند في أوطانه حطب

هذه أمثلة جميلة من شعره الذي حوى النكات مع السلاسة والابداع . بقي
أن ننقل ما أثر له من النثر فمنه : انما المرء حيث يجعل نفسه . عظم
العلم في ذاتك ، وصغر الدنيا في عينك ، واخرج من سلطان شهواتك
وكن ضعيفاً عند الهزل ، قوياً عند الجد ، ولا تلم أحداً على فعل يمكن
أن يعتذر منه ، ولا ترفع شكابتك الا الى من يري نفعه عندك حتى
تكون حكيماً كاملاً . ومن كلماته : العاقل لا يكاف نفسه ما لا يطيق ،
ولا يسعى فيما لا يدرك ، ولا ينظر فيما لا يعنيه ، ولا ينفق الا بقدر
ما يستفيد ، ولا يلتمس الجزاء الا بقدر ما عند صاحبه من الاستطاعة .

وكانت الحكمة تظهر في شعره ، يشبه في ذلك المتنبي كثيراً وقد التقط حكم اليونان وجمعها في مصنف سماه « الكلم الروحانية من الحكم اليونانية » اثبت من كلمات الفلاسفة اليونانيين ما يجري مع الأمثال السواثر ، ويدخل في النوادر ، دون ما يعد من غامض الفلسفة ، ويحصل معناه بعد الكلفة فجمع من شواردها ما ساعد عليه الوقت واستحضره الحفظ ، ناسباً أكثره الى قائله ، وشافياً خفيه بما يجليه .

بدأ بحكم لأفلاطون وقد استغرقت نحو نصف المجموعة ثم ثناها بارسطاطاليس ثم سقراط ثم بجاورات جرت بين أريجانس وسقراط ثم كلمات لاميروس فالاسكندر فباسيليوس ففيثاغورس فبقراط فجالينوس فديمستانس فزينون فديقوميس ففيلامون فنوموس فأكسانوقراطس فغورس فديمطس فدوجانس الى غيرهم من الفلاسفة غير المشهورين في أدبنا المتعارف فيما نقله من حكم أفلاطون : لا تصحبوا الأشرار فانهم يبنون عليكم بالسلامة منهم . وقال لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم . وقال : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون عن مدة العمل ، وانما يسألون عن جودته . وقال : اذا اقبلت الدولة خدمت الشهوات العقول ، واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات .

قال أفلاطون : (لغة في أفلاطون) لا تكمل خيرية الرجل حتى يكون صديقاً لمتعاديين . وقال : اتقوا صولة الكريم اذا جاع والثلثم اذا شبع . وقال : موت الرؤساء أسهل من رئاسة السفلة . موقع الصواب من الجهال مثل موقع الجهل من العقلاء . اذا بلغ المرء من الدنيا فوق مقداره تنكرت أخلاقه للناس . لا تصحب الشرير فان طبعك يسرق منه وأنت لا تدري . وقال : لاتفارق طاعة الرأي والصبر في كل أمورك فانك ان لم تحرز الحظ الذي تبغيه كنت قد أحرزت العذر . قال المؤلف قد أحسن الشاعر في هذا حيث يقول :

لأبلغ عذراً أو أنال رغبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجم
وقال موت الصالح راحة لنفسه وموت الطالح راحة للناس . قال
المؤلف : قريب من هذا ما يحكى عن غير افلاطن : ابك على العاقل
يوم يموت وعلى الأحمق حتى يموت . وقال : الفضيلة تجمع أهلها على المحبة
والرذيلة تفرق بين أهلها بالتنافر والبغضة ، الا ترى ان الصادق يحب
الصادق ويستنم اليه وكذلك الثقة مع الثقة والحسن الخلق مع الحسن
الخلق ، وترى الكاذب يبغض الكاذب والسارق يخاف السارق وكل
واحد منها حذر من مجاورة صاحبه . وقال : المصغي الى الذم شريك
لقائله قال بعض الشعراء :

والسامع الذم شريك له والمطعم المأكول كالآكل
وقال : الفقير اذا تشبه بالفني كان كمن به الورم ويوهم الناس أنه
سمين وهو يستر ما به من الورم . قال المؤلف : كأن أبا الطيب المتنبي
لحظ هذا الكلام حيث يقول :

أعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وقال ارسطوطاليس : الحكيم الصالح لا يخادع أحداً والعاقل الكامل
لا يخدعه أحد . قال المؤلف : أن يكون الانسان مخدوعاً ليس بصفة
محمودة لانه يدخل في باب الغباوة وربما ظن الناس انه صفة مدح لما
يسمعون من قولهم الكريم مخدوع :

ومن قول الشاعر : ان الكريم اذا ما خودع انخدعاً .
ومن قول الآخر :

خادع خليفتنا عنها بمسألة ان الخليفة للسؤال ينخدع
وليس الامر كما يظنون وانما المراد بالانخداع ههنا التكلف مع المعرفة
بالخدعة . وقد صرح أبو تمام الطائي بالواجب في هذا المعنى فقال :
ليس الغيبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي
وقال : يا اسكندر لا يكونن لجائزتك حد فان ذلك أبسط للأمل

فيك . وقال : يا اسكندر اعمر ما خرب بما أنشأه من تقدمك يعمر ما تبنيه
من يعقبك . وقيل لسقراط لم لا نرى أثر حزن فيك ؟ قال : لاني لا أملك
ما أحزن عليه اذا عدته . قال بعض الشعراء :

الم تر ان الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما اسدى

فمن سره ان لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال اوميروس : الكذاب لا يصلح لشيء حتى يصلح الثعلب المذئب .
وقال : الانسان الحخير افضل من جميع الحيوان الذي على وجه الارض
والانسان الشرير اخس من جميع الحيوان الذي على وجه الارض .
وقال : اني لا أعجب من الناس ان مكنهم الله من الاقتداء بالملائكة
فيدعون ذلك ويميلون للاقتداء بالبهايم . قال المؤلف : عندهم ان التفلسف
هو الاقتداء بالله تعالى وأن تعلم الحق وتفعل الخير .

ومن كلام باسيليوس الملك : لا تغتر بحسن الكلام اذا كان الغرض
منه ضاراً فان الذين يسمون الناس يخلطون السم بالحلوات ، ولا يصعبن
عليك الكلام الغليظ اذا كان الغرض منه نافعاً فان أكثر الأدوية الجالبة
للصحة مرة بشعة .

من كلام فيثاغورس ويقال انه أول فيلسوف اجتمعت اليه التلاميذ
قال لابنه : أوصيك بعشرة أشياء فاحفظها تسلم : لا تلاح حديداً ،
ولا تشارب غيوراً ، ولا تساكن حسوداً ، ولا تجاور جاهلاً ، ولا تناهض
من هو أقوى منك ، ولا تؤاخ مرثياً ، ولا تعامل كذاباً ، ولا تكثر
بجالسة النساء ، ولا تصاحب بغيلاً . والعاشرة هي عمدة الوصية وبها سلامة
نفسك الا تستودع سرك أحداً .

من كلام ديمستانس الخطيب ، قال : يجب على من اصطنع معروفاً
ان يتناساه من ساعته ويجب على من أسدى اليه معروف ان يكون
ذكره نصب عينيه . قال المؤلف : قيل في يحيى بن الفضل :
ينسى الذي كان من معرفه أبداً الى الرجال ولا ينسى الذي يعد

من كلام ديوجانس السكبي - والسكبيون فرقة من الفلاسفة يستهينون
بالعادات مثل أن يأكلوا في الطرقات ويلبسوا ما انفق ويناموا حيث
اتفق ولذلك شبهوا بالكلاب - رأى ديوجانس غلاماً منبوذاً أي ملقوياً
يرمى بالحجارة . فقال له : لا ترم فلعلك تصيب أباك وأنت لا تدري . قال
المؤلف : نقل شاعر من العرب هذا المعنى فقال :

لا تهجون أسنَّ منك فربما تهجو أباك وأنت لا تدري

من كلام فندروس قال : كما أن الجسد إذا فارقت النفس فاح منه
النتن في الخارج كذلك الجاهل الذي عدم الحكمة لا يخرج من فيه لفظه
الا كانت أذى ونتاجاً على سامعها ، وكما ان الجسد لا يشعر بما يظهر منه من
النتن لأنه ميت كذلك لا يحس الجاهل بنتن كلامه لأنه ميت التمييز .
قيل لسطيحوس ان اوميروس يكذب كثيراً فقال : الذي يُطلب
من الشاعر انما هو الكلام الحسن اللذيذ فاما الصدق فانما يطلب من
الانبياء عليهم السلام .



(٢٦)

التوحيدى

(٤١٤)

علي بن محمد بن العباس التوحيدى نسبة للتوحيد نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق ، أو الى التوحيد لقب المعتزلة وكانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد وهو الأرجح . وقال الذهبي : وأبو حيان هو الذي نسب نفسه الى التوحيد كما سمي ابن تومرت اتباعه فقال الموحدون وكما سمي صوفيه الفلاسفة نفوسهم باهل الوحدة وأهل الاتحاد . قيل انه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي . وكنيته ابو حيان . ولد في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع وجاء بغداد صغيراً . وسواء كان من أصل فارسي أو عربي فليس في ثقافته أثر ظاهر للفارسية يصح للحكم به على نسبه . قيل انه مات بشيراز سنة ٤١٤ .

تخرج بالسيرافي والرّماني بالنحو ، وبالفقه الشافعي بأبي حامد المرّوروزي وابي بكر الشافعي ، وحضر بين سنتي ٣٦١ - ٣٩١ دروس يحيى بن عدي وابي سليمان المنطقي وغيرهما من الفلاسفة مثل ابي الحسن العامري وابي النفيس الرياضى الفيلسوف .

وصفه ياقوت انه كان جاحظياً يسلك في تصانيفه سلك الجاحظ ويشتهي ان ينتظم في سلكه ، فهو شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وامام البلغاء ، فرد الدنيا الذي لا نظير له ، ذكاء وفضة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن ، حَفَظَ واسع الرواية والدراية . وقال فيه انه كان

صوفي السميت والهيمية وانه كان فقيراً صابراً . وعده السبكي في طبقات الشافعية من المؤرخين .

ولم يكن للتوحيدى مرتقى من السلطان ، واشتغل زمنياً بالوراقة في بغداد . ولما ترامى اليه نبأ مكارم بن العميد وال صاحب بن عباد من وزراء آل بُويّه في الشرق ، وكانا من حماة الأدب كالوزير المهلبى وسيف الدولة ابن حمدان قصدهما في بلديهما فلم يحظ بطائل . وكان من الصاحب أن عرض عليه نسخ كتاب في ثلاثين مجلداً . فقال نسخ مثله يأتي على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد . فأخذ الصاحب في نفسه عليه وعاد الى وطنه وهجاها في كتاب اسماء مثالب الوزيرين أورد فيه حكايات من ثلبيها ومنها ما عزاه الى بعض من روى عنهم .

وإذا فاتت التوحيدى عوارف ابن العميد وابن عباد فقد أكرمه الوزيران ابن سعدان وابن العارض ، ولابن سعدان الف كتاب الصداقة والصديق ولابن العارض كتاب الامتاع والمؤانسة . وللدُّلجى بشيراز ألف كتاب المحاضرات . وله غير ذلك من الكتب طبع منها الصداقة والصديق والمقابسات وثمرات العلوم . وأهم ما طبع من كتبه كتاب الامتاع والمؤانسة ينم عن مبلغ صاحبه من الأدب والعلم والفلسفة والتاريخ والرواية وفيه تفرير وتقرير ونقد ولمز ووعظ وارشاد وأسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات بأسلوب جديد حوى كل مفيد ، يدل على شدة نصرفه بالكلام والتلاعب والآراء والأفكار وهو من نوع الأدب الطريف يدخل عقل المطالع بلا استئذان ويمتعه فيه بكل عجيب .

دون فيه ما دار بينه وبين الوزير ابن العارض في أربعين ليلة عرض فيها لموضوعات جمة في الشعر والكتابة والتفسير والحديث والفلسفة والكلام والملح والمجون والتاريخ والنصوف والطبيعة والحيوان ونفت فيه - كما قال - كل ما كان في نفسه من جد وهزل وغث وسمين وشاحب ونضير وفكاهة وطيب وأدب واحتجاج واعتذار واعتلال واستدلال وأشياء من

طريف المبالغة على وجه قل أن حمل كتاب القدماء في الأدب مثل هذه الأبحاث الطريفة ، فإن أكثر كتب القدماء نقول ينقل المتأخر عن المتقدم ، لا يعزون على الأكثر الى المصدر المأخوذ منه ، وكتاب الامتاع يحوي ما تحوي كتب القدماء ويكثر فيه الجديد الذي لم يسبق اليه . وأما الطريف حقاً فهو مجالس العلماء ومحاضرات الحكماء والحكم على المشهورين منهم ، صورهم صورة غريبة فصور بهم عصرهم بحسنه وقبحه .

وكان الوزير ابن العارض الذي جرت هذه القوائد في مجلسه ، على ما ظهر من أسئلته وأجوبته في تلك الأسفار على جانب من العلم والفهم ومعرفة بالسياسة ، وكان الى هذا يعرف ضعف صاحبه الملك ويخافه فقال عن نفسه : انه وصل الى الجاس مرة فقبل له أعدت الخلعة فالبسها على الطائر الأسعد ، فقال : أفعل وفي تذكرتي أشياء لا بد عن ذكرها وعرضها ، فقال : يتقدم بكذا وكذا ويفعل كذا وكذا فقال صاحبه : عندي جميع ذلك امض هذا كله واصنع فيه ما ترى وما فوق يدك يد ، ولا عليك لأحد اعتراض . فانقلب الوزير الى زاوية في الحجر وأخذت تتحدث دموعه ، ويعلو شقيقه ، ويتوالى نشيجه . فسئل الوزير عن سبب بكائه فقال : اني عرضت على صاحبي تذكرة مشتملة على أشياء مختلفة فأمضاها كلها ولم يناظرني في شيء منها ولا زادني شيئاً فيها ولا ناظرني عليها ولعلي قد بلوته بها ، وأخفيت مغزاي في ضمنها ، فخيّل اليّ هذه الحالة ان غيري يقف موقفني فيقول في قولاً مزخرفاً ، وينسب اليّ أمراً مزيفاً فيمضي ذلك أيضاً له كما أمضاه لي . وصدق الوزير فان الملك لم يلبث أن قتله بوشاية منافس له .

سأل التوحيد مسامره الوزير من أول ليلة ان بأذن له في كاف الخطابية وتاء المواجهة حتى يتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض ويركب جدد القول من غير تقية ولا تحاش ولا محاباة فقال له : لك ذلك وأنت المأذون فيه وكذلك غيرك وقال : ان الله تعالى على علو

شأنه ، وبسطة ملكه ، وقدرته على جميع خلقه ، بواجه بالثناء والكاف ولو كان بالكناية بالهاء رفعة وجلالة وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحق بذلك ومقدماته فيه ، وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله عليهم السلام وأصحابه رضي الله عنهم والتابعون لهم باحسان رحمة الله عليهم . وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة : يا أمير المؤمنين أعزك الله ، وباعمر أصلحك الله ، وما عاب هذا أحد وما أتف منه حسيب ولا نسيب ، ولا أباه كبير ولا شريف . واني لأعجب من قوم يرغبون عن هذا أو شبهه . ويحسبون ان في ذلك ضعة أو نقيصة أو خطأ أو زراية وأظن ذلك لعجزهم وفسولتهم ، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم وقال : هيهات لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء ، ومن مقابح الزهو والكبرياء .

وبالقليل الذي نجا من كتب ابي حيان استدللنا انه كان متصوفاً وفيلسوفاً ، آية في العلوم المعادية والعلوم المعاشية ، لا يتلأأ في الاخذ من كل علم ولا يتعفف من الطعن فيمن لا ترضيه طريقتهم ، وربما سجل لبعضهم شيئاً من الهنات ، وأغفل كثيراً من حسناتهم ، وبهذا كثرت خصومه فخاصموه في علمه وفي رزقه ، وهو النابغة الذي يمضي القرن والقرنان ولا ينبغ مثله في تفكيره .

أضاق ابو حيان في آخر عمره فأحرق كتبه سنة اربعمائة فقال لمن عدله على فعلته : ثم اعلم ، علمك الله الخير ، ان هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلايته ، فأما ما كان سرّاً فلم أجده من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً ، على أني جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ، ومدد الجاه عندهم فحرمت ذلك كله . . . وبما شجذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ، فشق عليّ ان أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي

إذا نظروا فيها ، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها ، فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ، فجوابي لك ان عياني منهم في الحياة ، هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من انسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في اوقات كثيرة الى أكل الخضر في الصحراء ، والى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، والى بيع الدين والمروة ، والى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، والى ما لا يحسن بالحر أن يرسه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينيك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ...

قال : والله يا سيدي لو لم أتعظ الابن فقدته من الاخوان والاختدان ، في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقرّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتهم بالعراق والحجاز والجيل والري وما والى هذه المواضع ، وتواتر اليّ نعيهم ، واشتدت الواعية بهم ، فهل انا الا من عنصرهم ، وهل لي محيد عن مصيرهم . . . وماذا أقول وسامعي يصدق أن زماناً احوج مثلي الى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى ، وضى وشجى ، وما يصنع بما كان ، وحدث وبان ، ان احتجت الى العلم في خاصة نفسي فقليل ، والله تعالى شاف كاف ، وان احتجت اليه للناس ، ففي الصدور منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس ، الى ان تفي الأنفاس بعد الانفاس . فلم تُعَسِّي عيني ، أيديك الله ، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العلى الا بالعمل الصالح واخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ك (١٥)

ما راق من الدنيا وخذع بالزبرج وهوى بصاحبه الى الهبوط . وهل وصل الحكماء والقدماء الى السعادة العظمى الا بالافتصاد في السعي والا بالرضى بالميسور ، والا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم . وختم كتابه بقوله : « على اني لو علمت في اي حال غلب على ما فعلته ، وعند اي مرض ، وعلى أي عسرة وفاقه ، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته ، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته .

بلغ التشاؤم أقصى حده من نفسه فأتى ما أتى من احراق كتبه وهو في عشر التسعين وقد أدقعه الفقر واستولى عليه اليأس ، وغلبت عليه السويداء ، ونفس عظيمة كنفس التوحيد لم تحقق الايام أطعها ، وفشل في مادياته وهي السلم الى معنوياته ، لا بدانه عديم اتزانه في شيخوخته ، والطموح الى العلى كان متجلباً فيه في الكهولة وانقلب في الشيخوخة الى قنوط ، وزاده ما ناله من أعدائه ومنهم من كان هو السبب الاول في استجلاب عداوتهم بما وصفهم به في كتبه من النقائص ، وما أرى انه سلم من لسانه الا أساتذته كعيسى الرماني وابي سليمان المنطقي ويحيى بن عدي وغيرهم اما من عداهم فذكر مساويهم على الغالب ، وما جنح لذكر محاسنهم مع انهم كانوا يعدون شيئاً في عصرهم ومصرهم .

قالوا انه كان قليل الرضى عند الاساءة اليه والاحسان ، الذم شأنه والثلب دكانه ، يشتكى صرف زمانه ، ويبكي في تضاعيفه على حرمانه وقد لامه أستاذه السيرافي يوماً وهو ينقل ذم أعرابي بقوله : « تأبى الا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الاستاذ ، شغل كل انسان بما هو مبتلى به مدفوع اليه » .

أما اتهام بعض الاردباء الاغبياء لشيخنا التوحيد بالزندقة فهي تهمة ألصقت بأكثر من ظهر التجدد في أفكارهم وآرائهم ، وما خلا قرن من قرون الاسلام من كثيرين اتهموا بما هم منه أبرياء ، ومنهم من عذبوا أو قتلوا ومنهم من عاشوا مشردين بعيدين عن عيالهم وأهلهم وعشيرتهم وأوطانهم

وكان حظهم من الكآبة والبؤس غير قليل ، ولو كتب للحكومات أن تحسن سياستهم لأنت على أيديهم خيرات جسيمة للعلم والعقل والمدنية . وصفه صاحب تاريخ بغداد وصاحب معجم الادباء بأنه كان يتأله أي يتنسك ويتعبد ، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته .

يتجلى النبوغ وسعة الادراك وفرط التجدد في كتب التوحيدي ، وكتبه من الاسفار التي بود الناظر فيها ان يعود الى قراءتها مرات فتنبجلي له أمور ما انجلت له في قراءتها أول مرة . هكذا كان في المقابسات وهي وصف مجالس العلماء ، ولا سيما أحاديث استاذه ابي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، ذكر فيها بعض ما وقع اليه من مفاوضات علماء مشهورين كانوا في بغداد يختلفون الى مجلس استاذه ، ومنه أكثر مروياته ، فيذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة وما وراء الطبيعة والادب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب وكان فيهم الجوسي والصابي واليهودي واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيوعي .

وذكر في كتاب الصداقة والصديق ما يتصل بالوفاق والخلاف والمهجر والصلة والعتب ، والمذق والاخلاص ، والرياء والنفاق ، والحيلة والخداع ، والاستقامة والالتواء ، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . قال : ولو أردنا ان نجمع ما قال كل ناظم في شعره ، وكل ناثر من لفظه لكان ذلك عسراً بل متعذراً ، فان انقاس الناس في هذا الباب طويلة ، وما من احد الا وله في هذا الفن حصة ، لانه لا يخلو احد من جار او معامل او حميم او صاحب او رفيق او سكن او حبيب او صديق او أليف او قريب او بعيد او ولي او خليط ، كما لا يخلو أيضاً من عدو او كاشح او مداح او مكاشف او حاسد او شامت او منافق او مؤذ او منابذ او معاند او مزل او مضل او مغفل ...

قال : فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق ومشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى الى جنبي من يصلي معي ، فان اتفق فبقال

او عصار ، او نداد او قصاب ، ومن اذا وقف الى جانبي أسدرني بصنانه ،
وأسكرني بنتنه ، فقد امسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ،
غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً
للحيوة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ...

ورسالته ثمرات العلوم كتبها لقوم لم يفهموا مقصده من العلم وتأولوا
كلامه فجبهم بما كتب وأجاد . قال فيها : ولعمري مازال الناس يعتادون
التقاذف والتقاراف ، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف ، ولا يتناسون
بينهم التعاون والتوازر والتوادف والتناصر ، والذي هاجني لهذه الشكوى ،
وأحوجني الى هذه الدعوى ، قول من قال منكم : ليس للمنطق مدخل في
الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير في الاحكام ، وهذا
كلام من لو انعم النظر ، واستقصى الحال ، لوقف على ما عليه فيه ،
وعرف ماله منه ، فكان يستبدل بالخلاف وفاقاً ، وبالمنازعة خلاقاً ،
عاب هذا الرجل المنطق وهجن طريقة الاوائل ، وزرى على الحكمة .
وفيتل رأي الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ؛ وهذا كله ان
لم يكن قلبه سوء تحصيل ، فانه يوشك أن يكون ضيق عطن ، وخرج
صدر ، ومجازفة في القول ، وانحرافاً عن الصواب .

وفي الحق ان كتابه الامتاع والمؤانسة أمتع كتبه وأجمعها للفوائد
وقد حل فيه مشكلات عظيمة منها القول في رسائل اخوان الصفا قال :
« سأل الوزير أبا حيان التوحيدي في حدود سنة ٣٧٢ عن اخوان الصفا
بقوله : اني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعه قولاً يربيني ، ومذهباً لا عهد
لي به ، وكتابة عما لا احققه ، وإشارة الى ما لا يتوضح شيء منه ،
يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم ان الباء لم تنقط من تحت واحدة
الا لسبب والتاء لم تنقط من فوق اثنتين الا لعلة ، والالف لم تُعجم
الا لغرض وأشباه هذا . وأشهد منه في عرض ذلك دعوى يتعاطم بها ،
وينتفع بذكرها ، فما حديثه وما شأنه وما دخلته ؟ فقد بلغني يا أبا

حيان انك تغشاه وتجلس اليه ، وتكثر عنده ، ولك معه نوادر معجبة ،
ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته ، وامكن اطلاعه على مستكن
رأيه ، وخافي مذهبه ، قلت : أيها الوزير ، أنت الذي تعرفه قبلي قديماً وحديثاً
بالاختيار والاستخدام ، وله منك الامرة القديمة ، والنسبة المعروفة . فقال :
دع هذا وصفه لي ، فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع
في قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة ، وحفظ
أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصر في الآراء والديانات ، وتصرف
في كل فن ، اما بالشدو الموهم ، واما بالنوسط المفهم ، واما بالتناهي
المفهم ، قال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت : لا ينسب الى شيء
ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شيء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف
ما يبدو من بسطته ببيانه وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبحرة زمناً طويلاً
وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن
معشر البستي ويعرف بالمقدسي ، وأبو الحسن علي بن هرون الزنجاني
وأبو أحمد المهرجاني والعموي وغيرهم فصحبهم وخدمهم .

« وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعمرة ، وتصافت بالصدقة ، واجتمعت

على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا
به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : ان الشريعة قد
دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها
الا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا
أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ،
وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علمها وعمليها ، وأفردوا
لها فهرساً وسموها « رسائل اخوان الصفا » وكتبوا فيها أسماءهم ، وبنوها
في الوراقين ، ووهبوا للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية
والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق الموهمة .

« قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة

منها ، وهي مبثوثة من كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات
وكتابات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عدة منها الى شيخنا ابي سليمان
المنطقي السجستاني محمد بن بهرام ، وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً وتبهرها
طويلاً ثم ردّها عليّ وقال : تعبوا وما اغنوا ، ونصّبوا وما أجدوا ،
وحاموا وما وردوا ، وغتّوا وما اطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا
ففلفلوا ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنه يمكنهم
ان يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار
الطبيعة ، والموسيقى الذي هو معرفة النغم والايقاعات والنقرات والأوزان ،
والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالاضافات والكميات والكيفيات في
الشريعة ، وان يربطوا الشريعة في الفلسفة ، وهذا مرام دونه حد ،
وقد تورد على هؤلاء قوم كانوا أحد أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم
اقداراً ، وأرفع اخطاراً ، وأوسع قوى ، وأوثق عرا ، فلم يتم لهم
ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات
واضحة موحشة ، وعواقب مخزية ، فقال له البخاري بن العباس : ولم
ذلك أيها الشيخ ؟ فقال : ان الشريعة مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة
السفير بينه وبين الخلق ، من طريق الوحي وباب المناجاة ، وشهادة الآيات
وظهور المعجزات ، وفي أثناءها ما لا سبيل الى البحث عنه والغوص فيه ،
ولا بد من التسليم المدعو اليه ، والمنتهى عليه ، وهناك يسقط « لم »
ويبطل « كيف » ويزول « هلا » ويذهب « لووليت » في الريح ..
لا جرم أن القاري سيدرك مما نقلناه من نماذج أقواله الى أي موطن
من مواطن البلاغة بلغ قلم التوحيدي ، ويقف على دقة معانيه ورقة الفاظه
وهاكم نموذجاً آخر مما كتبه لصاحبه الوزير : بسم الله الرحمن الرحيم .
أيها الوزير ، جعل الله أقدار دهرك جارية على تحك آمالك ، ووصل توفيقه
ببالغ مرادك في أقوالك وأفعالك ، وممكنك من نواصي أعدائك ، وثبت
أواخي دولتك على ما في نفوس أوليائك . يجب على كل من آتاه الله

رأياً ناقباً ، ونصحاً حاضراً ، وتنبهاً نافعاً ، ان يخدمك متحريراً
 لرسوخ دعائم المملكة بسياستك وريادتك ، قاضياً بذلك حق الله
 عليه في تقويتك وحياطتك . واني أرى على بابك جماعة ليست
 بالكثيرة - ولعلها دون العشرة - يؤثرون لقاءك والوصول اليك ،
 لما تجن صدورهم من النصائح النافعة ، والبلاغات المجدية ، والدلالات
 المفيدة ، ويرون أنهم اذا أهلوا لذلك فقد قضاوا حقك ، وأدوا ماوجب
 عليهم من حرمتك ، وبلغوا بذلك مرادهم من تفضلك واصطناعك ، وتقديمك
 وتكريمك ، والحجاب قد حال بينهم وبينك ، ولكل منهم وسيلة شافعة
 وخدمة للخيرات جامعة ، منهم - وهو أهل الوفاء - ذوو كفاية وأمانة
 ونباهة ولباقة ، ومنهم من يصلح للعمل الجليل ، ولرتق الفتق العظيم ،
 ومنهم من يُمتنع اذا نادى ، ويشكر اذا أطمئنت ، ويبذل المجهود اذا
 رُفِع ، ومنهم من ينظم الدر اذا مدح ، ويضحك الثغر اذا مزح ،
 ومنهم من قعد به الدهر لسنته العالية وجلابيبه البالية ، فهو موضع
 الاجر المذخور ، وناطق بالشكر المنظوم والمنثور ، ومنهم طائفة أخرى
 قد عكفوا في بيوتهم على ما يعينهم من أحوال أنفسهم ، في ترجية
 عيشهم ، وعمارة آخرتهم ، وهم مع ذلك من وراء خصاصة مرة ، ومؤن
 غليظة وحاجات متوالية ، ولهم العلم والحكمة والبيان والتجربة ، ولو
 وثقوا بأنهم اذا عرضوا أنفسهم عليك ، وجهزوا مامعهم من الادب والفضل
 اليك حظوا منك ، واعتزوا بك ، حضروا بابك ، وجشموا المشقة اليك ،
 لكن اليأس قد غلب عليهم ، وضعفت مُنتتهم ، وعكس أملمهم ، ورأوا
 أن سفّ التراب ، أخف من الوقوف على الابواب ، اذا دنوا منها
 دُفعوا عنها ، فلو لحظت هؤلاء كلهم بفضلك ، وأدبنتهم بسعة ذرعك
 وكرم خيمك ، وأصغيت الى مقاتهم بسمعك ، وقابلتهم بملء عينك ،
 كان في ذلك بقاء للنعمة عليك ، وصيت فاش بذكرك ، وثواب مؤجل
 في صحيفتك ، وثناء معجل عند قريبك وبعيدك ، والايام معروفة بالقلب

والليالي ماخضة بما يتعجب منه ذو اللب ، والمجدود من جدّه في جدّه ،
أعني من كان جدّه في الدنيا موصولاً بحظه من الآخرة ، ولأن يوكل
العاقل بالاعتبار بغيره ، خير من أن يوكل غيره بالاعتبار به .

أيها الوزير اصطناع الرجال صناعة قائمة برأسها ، قلّ من يفهم بربها ،
أو يتأتى لها ، أو يعرف حلاوتها ، وهي غير الكتابة التي تتعلق بالبلاغة
والحساب . وسمعت ابن سورين يقول : آخر من شاهدنا ممن عرف الاصطناع
واستحلى الصنائع ، وارتاح للذكر الطيب واهتمز للمديح ، وطرب على
نغمة السائل ، واغتمن خلة المحتاج ، وانتهب الكرم انتهاباً ، والتهب في
عشق الثناء التهاباً ، أبو محمد المهلبى ، فانه قدم قوماً ونوّه بهم ، ونبه
على فضلهم ، وأحوج الناظرين في أمر الملك اليهم وإلى كفايتهم ، منهم
أبو الفضل العباس بن الحسين ، ومنهم ابن معروف القاضي ، ومنهم أبو
عبد الله اليفرّاني ، ومنهم أبو اسحق الصابي وأبو الخطاب الصابي ، ومنهم
احمد الطويل ومنهم ابو العلاء صاعد ، ومنهم أبو أحمد بن الهيثم وابن حفص
صاحب الديوان وفلان وفلان ، هؤلاء الى غير هؤلاء ، كأبي تمام الزينبي
وابي بكر الزهري وابن قريعة وابي حامد المروروزي ، وابي عبد الله
البصري وابي سعيد السيرافي ، وابي محمد الفارسي وابن درستويه وابن
البقال والسري ومن لا يحصى كثرة من التجار والعدول .

وقال لي ابن سورين : كان ابو محمد يطرب على اصطناع الرجال
كما يطرب سامع الغناء على الشبايب (آلة موسيقية) ، ويرتاح كما يرتاح
مدير الكأس على العشائر . وقال عنه انه قال : والله لأكونن في دولة
الديلم اول من يذكر ان فاتني ان كنت في دولة بني العباس آخر
من يذكر اه .

هذا أسلوب التوحيدى السهل الممتنع . وشعره قليل وقد قال عن
نفسه لست من الشعر والشعراء في شيء .

(٢٧)

التهالبي

أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري

(٤٢٩)

هذه النسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها . قيل له ذلك لأنه كان فراءً . نشأ في نيسابور وطاف البلاد . والغالب أنه من أصل عربي ، أخذ عن أبي بكر الخوارزمي وسماه بعضهم جاحظ نيسابور . قال ابن خلكان فيه انه كان في وقته راعي تلعات العلم ، وجامع أشنات النثر والنظم رأس المؤلفين في زمانه ، سار ذكره سير المثل وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب وتوالت فيه كثيرة . وأكبر كتبه يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر وفيه يقول ابن قلاقس :

أبيات أشعار اليتيمة أبكار أفكار قديمة

ماتوا وعاشت بعدهم فلذلك سميت اليتيمة

كان شاعراً عظيماً و كاتباً مجيداً يعرف ما يختار ويدع ، وفي كل ما كتب أجاد وأبدع ونمّ عن ذوق ظريف في الشعر والنثر .

وما جود التهالبي هذه الاجادة النادرة في تأليف اليتيمة الا لأنه تصدى لتصنيفها والعمر في اقباله ، ثم تعاورها بالزيادة والنقص الى أوان نضجه واكتماله قال : « وحين أعرتة على الأيام بصري وأعدت فيه نظري تبينت مصداق ما قرأته في بعض الكتب أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة الا أحب في غدها ان يزيد فيه أو ينقص منه ، هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة ، والنسخة

الاخيرة التي اعتمدها من اليتيمة تجمع » من بدائع أعيان الفضل ونجوم الارض من أهل العصر ومن تقدمهم قليلاً وسبقهم يسيراً تتضمن من ظرفهم وملحهم لطائف أمتع من بواكير الرياحين والثمار ، وأطيب من فوح نسيم الأسحار بروائح الأنوار والأزهار ما لم تتضمنه النسخة السائرة الاولى والشرط في هذه الاخرى ايراد لبّ اللب وحبّة القلب وناظر العين ونكتة الكلمة وواسطة العقد ونقش الفصّ ، مع كلام في الاشارة الى النظائر والأحاسن والسرفات فتأخذ في طريق الاختصار ونبذ من أخبار المذكورين وغرر من فصوص فضول المترسلين يميل الى جانب الاقتصار « بدأ بشعراء الشام وفضلهم في البلاغة على غيرهم وقال ان السبب في تمييز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قريهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومدخلتهم اياهم ، فجمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة . قال : كانت أشعار الاسلاميين أرقى من أشعار الجاهليين وأشعار المحدثين ثم كانت أشعار العصريين أجمع لنوادير المحاسن وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ولانتهاؤها الى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى غايات الجودة والظرف ، تكاد تخرج من باب الاعجاب الى الاعجاز ، ومن حدّ الشعر الى السحر ، فكأن الزمان ادخر لنا من نتائج خواطرم وثمرات قرائنهم وابكار أفكارهم أتم الالفاظ والمعاني استيفاء لاقسام البراعة ، وأوفرها نصيباً من كمال الصنعة ورونق الطلاوة .

بدأ اليتيمة بسيف الدولة والذين كانوا من شعرائه في الذروة ، ثم شعراء مصر والمغرب والموصل ، وشعراء بني بويه وكتابهم ، وشعراء البصرة والعراق وحده ، ثم بغداد وحدها ، واصبهان والجلب وفارس والاهواز وجرجان وطبرستان وخراسان ونيسابور وغيرهم من أهل البلاد التي

نسي اسمها الا من كتب التاريخ وتقوم البلدان ، وكانت تقيم الآداب أسواقاً وتفضل على الادباء والشعراء فتنصر أوراقه وتبضع ثماره .
وكتابه الثاني فقه اللغة وأسرار العربية وهو كتاب كاد يحيط باللغة قسمه أبواباً وضم كل معنى الى شكله وكل لفظ الى ما يماثله وجعله في متناول الخواص والعوام والبنات والبنين وهو كتاب آخذ بناصية الكمال من أوله الى آخره ، قدمه لامي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي وكان أقام عنده زمناً في ضيعته فيروزآباد من رستاق جوين وأمهه بكتب من خزائنه حتى كتب هذا الكتاب الدال على اغراقه في النظام والتنسيق ما يكاد يكون فيه منقطع النظير .

وكتابه الثالث « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » ليس اقل من الثاني تنسيقاً وجمالاً وقد خرج « في احد وستين باباً ينطق كل منها بذكر ما يشتمل عليه أولاً ، ويفصح عن الاستشهاد وسياق المراد آخرأ ، وما منها الا ما يتعلق من المثل بسبب ، وبوفي من اللغة والشعر على طرف ، ويضرب في التشبيهات والاستعارات بسهم ، ويأخذ من الاخبار والانساب بقسم ، ويجيل في خصائص البلدان والاماكن قدحاً ، ويجري في أعاجيب الاحاديث شوطاً » وكتابه هذا كله علم وبحت .

أما كتبه الصغيرة فكثيرة وكلها من الامتاع والاجادة في القصة منها أحسن كلام النبي والصحابة التابعين وملوك الجاهلية وملوك الاسلام ، ومنها كتاب من غاب عنه المطرب ، وأحسن ما سمعت ، والكنيات والتمثيل والمبهيج ، وسحر البلاغة ، والاعجاز والايجاز والأمثال ، وبرد الأكباد في الأعداد ، وخاص الخااص ، وسر الأدب ، وغرر أخبار ملوك الفرس ، والفرائد والقلائد ، ونثر النظم وحل العقد ، والكناية والتعريض ، ولطائف المعارف ، واللطائف والظرائف ، والمؤنس الوحيد ، ومرآة المروآت ، ومكارم الاخلاق والمنتحل الى غير ذلك مما طبع له وكله مجموعة فوائد وغرر في اللغة والتاريخ وتراجم الشعراء وأشعارهم والادباء وأخبارهم والكتاب ومنشورهم

« جمع فيها أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم دلالة على كثرة اطلاعه . ينقل ما ينقل من الكتب المعتمدة المشهورة في عصره ويضم بعضه بنظام راق وعلم واسع يستفيد منه المتعلم والمتفكح حتى لتتألف من كتبه خزانة لطيفة . وكان يلقى المشهورين من الشعراء الممتازين ويستنشدهم شعرهم ويقتبس أحاديثهم ويأخذ من دواوينهم . ومن هؤلاء الذين عاصرهم ضم كتابه طائفة عظيمة كانوا حلية زمانهم وسادة أبناء صناعتهم . ولم يتقزز من نقل أكثر الشعر بذاة كشعر الواساني وابن الحجاج مثلاً فوجاءت يتيمة مرآة العصر الذي كُتبت فيه ومثلاً من أدب أهله ومن سبقهم الى الارض .

وأعظم ما نفعه في تأليفه تنقله في حواضر الاسلام وأخذه من الكتب الموقوفة وكتب الخواص ما طاب له وكفاه ان نشأ في نيسابور ، وكانت في زمنه أعمار مدن الدنيا بالعلم والادب كادت تفوق بغداد في القرن الثالث والرابع ، ونيسابور كاصفهان نبغ بها من كل صنف من أصناف الرجال المشتغلين بعقولهم ما يتعذر احصاؤه .

ومن شعره :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| وسائلٍ عن دمعي السائل | وحال لوني الكاسف الحائل |
| قلت له والارض في ناظري | أوسع منها كفة الحابل |
| بليت والله بمملوكة | في مقلتيها ملكا بابل |
| فان لحاني عاذل في الهوى | يوماً فما العاذل بالعاذل |

ومنه :

| | |
|----------------------------|------------------------|
| سقطت لحيني في فراشٍ لزمته | أضم الى قلبي جناح مبيض |
| وما مَرَّض بي غير حي وانما | ادلس فيكم عاشقاً بمريض |

وكتب الى ابي نصر سهل بن المرزبان ، ولقد لسعته عقرب على قدمه فلما وجدت وقتلت زال الوجع ، بهذه الابيات :

يا عمدة الامراء والوزراء
يا غرة الزمن البهيم وناظر ال
أرأيت همة عقرب وثبت الى
لما ارتقت بالسع أعظم مرتقى
ان ذقت ضراء العقارب فابقين
يا طيب لسعة عقرب، درياقها
وله :

ثلاث قد مُنيت بهن أضحت
ديون أنقضت ظهري وجور
وفقدان الكفاف وأي عيش
ومن شعره ما كتبه الى الامير أبي الفضل الميكالي :

لك في المفاخر معجزات حجة
بجران بحر في البلاغة شابه
وترسل الصابي يزين علوه
كانسوز أو كالسحر أو كالبدر أو
شكراً فكم من فقرة لك كالغنى
واذا تفتق نور شعرك ناضراً
أرجلت فرسان الكلام وورضت أف
ونقشت في فص الزمان بدائعاً
ومن شعره :

لما بعثت فلم توجب مطالعتي
ولم أجد حيلة تبقي على رمقي
وأمعنت نار شوقي في تلهبها
قبلت عين رسولي اذ رآك بها

(٢٨)

أبو الريحان البيروني

(٤٤٠)

معنى بيرون بالفارسية خارج ، والبيروني (بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء وبعدها الواو في آخرها النون) نسبة الى خارج خوارزم فان بها من يكون خارج البلد ولا يكون من البلد نفسه .

بيرون منشأ أبي الريحان ومولده بلدة طيبة فيها غرائب وعجائب ولا غرو فان الدر ساكن الصدف . قال السمعاني وما علمنا هذه الغرائب ولم نعرف عن منشاه وأساتيده شيئاً ، وغاية ما انتهى اليها من بعض المظان أنه تلميذ أبي نصر منصور بن علي الرياضي المشهور ولعل هذا بمن أدرك الاربعائة من الهجرة .

سافر البيروني في بلاد الهند أربعين سنة وزادت تصانيفه على حمل بعير ، رأى ياقوت فهرستها في وقف الجامع بمرو في نحو الستين ورقة بخط مكتظ وهي في النجوم والرياضيات والمنطق والحكمة والتاريخ طبع منها بعض علماء الالمان ثلاثة كتب فقط فقرأنا فيها كل مفيد . قال ياقوت : انه لما صنف القانون المسعودي أجازته السلطان محمود بن سبكتكين بمحمل فيل من نقده الفضي ، فرده الى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به . وكان رحمه الله مكباً على تحصيل العلوم منصباً الى تصنيف الكتب ، لا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر ، الا في يومي النيروز والمهرجان من السنة لاعداد

ما تمس اليه الحاجة في المعاش . وهو أعظم رياضي قام في هذه الملة
« لم يشق المحضرون غباره ولم يلحق المضمرّون المجيدون مضاره » .
دخل عليه أحد اصدقائه وهو يجود بنفسه فقال : كيف قلت لي يوماً
حساب الجدات الفاسدة ؟ فقلت له اشفاقاً عليه : أفي هذه الحالة ؟ قال
لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من أن
أخليها وأنا جاهل بها . فأعدت ذلك عليه وحفظه ، وعلمي ما وعد ،
وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ .

دخل البيروني الهند مع ابن سبكتكين لما فتحها وأقام بينهم وتعلم
لغتهم واقتبس علومهم ، وفيها ألف كتابه الذي لا نظير له في حرية الفكر
وانصاف المخالف في الدين والمذهب المعنوت بتحقيق ما للمهند من مقالة
مقبولة في العقل أو مردولة . وهو من أجل الاسفار التي وضعها علماء
الاسلام في الملل والنحل . لم يكد علماء هذا العصر يكتبون مثلها مجردة
عن الغرض عند الكلام على المخالف . ومن كتبه المطبوعة « الآثار الباقية
عن القرون الخالية » وهو في النجوم والتاريخ ألفه للأمير شمس المعالي
وبين فيه التواريخ التي تستعملها الامم والاختلاف في الاصول التي هي
مبادئها وفيه فوائد تاريخية عن ملوك اشور وبابل وكلدان والقبط واليونان
والروم . قالوا وكان طيب العشرة خليعاً في الفاظه عفيفاً في أفعاله ، لم
يأت الزمان بمثله علماً وفهماً . وله شعر منقطع عن نثره كان يقوله في
المناسبات وفيه بذاءة أحياناً ، وكان على عجمته معجباً باللغة العربية ، ولم
يؤلف في غيرها ويقول ان المهجو بالعربية أحب اليه من المدح بالفارسية .
غاية ما عرف عن البيروني انه فارسي شغف بحب العرب ، وكان بعد
من أئمة اللغة العربية وأدبائها ، يضاف ذلك الى علومه الكثيرة في الرياضيات
والنجوم والتاريخ والملل والنحل . صحب الملوك فأفادهم أكثر مما استفاد
منهم وكان على عزوف وزهد ، لاهم له الا تحصيل العلم وبثه في الناس
واعتماده في ذلك على التأليف . ويقول العلامة بروكلمان انه كانت بينه

وبين الحكيم ابن سينا مكاتبات كان من مجموعها كتابة الآثار الباقية .
ولما فتحت الهند على يد محمود بن سبكتكين درس فيها العلوم اليونانية
وأخذ من كنوز العلوم الهندية .

ولم نعرف جميع أساتذة البهروني ، وخورازم كانت في عصره دار
علم كسائر العواصم الاسلامية الكبرى . والبيروني مثل الأنظار وهو
كبير وسكتوا عن نشأته وأساتيده ، وكان قبل أن بلغ الكهولة رجلاً
مذكوراً بدليل أنه كان من جملة رجال صاحب غزنة .

ومن تصفح كتاب الهند والآثار الباقية يدرك مكانة هذا العالم الذي
لم يترجم له مترجمه بما يستحقه من التوسع ، ولعلمهم كانوا يفضلون عليه
بعض أرباب الحديث والفقه ، وهو الذي أتى أمته بجديد وخدمها فأفاد
ولم يستخدمها في مظهر له ولا في طلب دنيا ، هو أحد أفراد نوابغ
يعدون على الاصابع ومن اولئك تعد مئات ممن لم يبدع جديداً ومعظم
مادونوه وتناقشوا فيه لو حذف من الخزانة تعد كأنها لم تفقد شيئاً .
أخلص للعلم وما شغف بغيره وما طلب عن غيره بديلاً .

قال البيروني : جل خطر الملوك عن المجازاة بالانتقام .
ليس للملك أن يحسد الا على حسن التدبير والسياسة .
الملك أقل الناس خوفاً من الفقر وأكثر الناس خطراً وقرباً الى
الهلاك ، فليس له أن يبخل ويحين فان ما قل عنده لا يكثر وما كثر لا يعدم .
المن يبطل احسان المحسن .

العاقل من استغنى بتدبير اليوم عن تدبير الغد .
لا تحقر الامر الصغير فالأمر الصغير موضع ينفع به والأمر الكبير
موقع لا يستغنى عنه .

ما اجتمعت عليه الالفة والعادة واصطلحت عليه العامة فلا تخالفه .
من كفاه التأديب بالكلام لا يؤدب بالسوط والسيف .
مدارسة أخلاق الحكماء والعلماء تحيي السنة الحسنة وتميت البدعة البينة
السنن الصالحة علامات الخير والحق .

(٢٩)

الماوردي

ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب

(٤٥٠)

الماوردي نسبة الى بيع ماء الورد ، نشأ في البصرة وتلقى العلم فيها ، وهو امام في الفقه والأصول والتفسير ، بصير بالعربية والأدب ، من أعظم الكتاب ، معتدل في تأليفه ، هادىء في أفكاره ، أوحده في فنه وفهمه ، محمود الطريقة ، مطمئن النفس ، حريص على الاستفادة ، بعيد عن الدعوى والهوى . تولى القضاء في بلدان كثيرة ثم عدا أقضى القضاة ، يُفتي بمذهب الشافعي ، وقيل انه كان فيه ميل الى الاعتزال .

قال الصفدي انه كان متهاً بالاعتزال ، وكان لا يتظاهر بالانتساب اليهم ولكن لا يوافقهم على خلق القرآن ولا يرى صحة الرواية بالاجازة ، وانه شافعي المذهب . وكان القادر قد تقدم الى اربعة من الائمة في المذاهب الاربعة ليضع له كل واحد مختصراً في الفقه ، فوضع الماوردي الاقناع ووضع القدوري مختصره ووضع من الحنابلة واحد مختصراً ، وعرضت عليه فخرج الخادم الى الماوردي وقال له : قال لك أمير المؤمنين حفظ الله علمك كما حفظت علينا ديننا . وقلقب باقضى القضاة الى ان توفي .

هذا غاية ما كتبه المؤرخون فيه . وأجمل ما خص به أسلوبه في اسفاره « الاحكام السلطانية » و « أدب الدنيا والدين » و « أعلام النبوة » و « قانون الوزارة » وفيها تتجلى شخصيته عن معرفة ثاقبة بأمر الدولة ، واضطلاع واسع بتاريخ الحركات الفكرية والسياسية في الاسلام .

ك (١٦)

لم يقتصر الماوردي على الأخذ عن الشيوخ وتصفح ما خلفه من تقدموه ، بل قرن الى علمه تجارب تنبيء عن نفسها ، ومعارف منوعة لقفها من الحياة وما عاناه من مشاكل العالم ، وعمّر حتى بلغ السادسة والثمانين ، فكان له دور سكون ارتاح فيه من هزاهز العيش ومشاكل الناس ، وانصرف الى التأليف وخدمة العلم .

تمثل الماوردي وأنت تقرأ « الأحكام السلطانية » كأنك تقرأ كتاب عالم عصري قتل الأيام تجربة ، ودون زبدة الأحكام التي تشغل الأذهان . وكتبه من الكتب التي تدعوك الى نفسها أبدأ وتتجيب اليك ، اذا تصفحتها مرة سافتك بدون تعمد الى معاودة قراءتها ، وكلما تلوتها انصرفت عنها بمجديد . حقاً ان الأحكام السلطانية مرجع فريد في بابها ، ولو لم يكن له غيره من المصنفات لعدّ في زمرة من أبدعوا الابداع كله في مصنفاتهم . واذا حدثت النظر في هذا المصنف تراى لك ان الماوردي لم يتقن من فنون العلم غير هذا الذي يحدثك فيه ويفيض عليك منه . ذلك لأنه لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ ، وتفهم نصوص العلماء في الكتاب والسنة ، بل شفع علمه بتجاربه وما درسه بذاته وهدته اليه الأحوال . جمع الى معرفته الواسعة معرفة أصول الاسلام وفروعه وعلمه وعمله ومنطوقه ومفهومه وكل ذلك يزينه وقوفه على سياسة الخلق ، ومهارته في حسن القضاء بينهم ، وحسن التأليف لأجيالهم .

أفاض في الأحكام السلطانية في الخلافة وتقليدها والوزارات وانواعها والامارات والولايات ، والقضاء وضروبه والمظالم والنقابات والجبائيات والصدقات والافطاعات ، وانواع الدواوين واحكام الجرائم والحسبة والمنكرات والمعروفات الى ماله مساس باقامة العدل بين الرعية . جمع ما كان متفرقاً في بطون الدفاتر ونسقه وعلق عليه وخالف عرف علماء وقته في مسائل اجتهد فيها فتحملوه وما شاكسوه . واكتفى من ديناه بما اعطته فكان خير معلم للناس في حياته وبعد مماته ، أتاهم بكتب تئلى ولا تبلى جديتها على غابر الأحقاب .

ومن تدبر الأحكام السلطانية وقارنه بالأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى يتبين له الفرق بين رجل أفاده دخوله في المجتمع ، ورجل درس الحديث والفقه واقتصر على ما تلقاه في مجالس العلماء فجاء كتابه نظرياً ، وكان كتاب الماوردي عملياً . وكتابه هذا ما امتع هذا الامتاع الا لأن صاحبه كان قاضياً لامعاً وسياسياً مبرزاً ، يقلُّ في أهل صناعته أمثاله ، وأوحت اليه مسائل الخلق والدول اشياء احسن تلقفها وتصويرها والانتفاع بها . كان الماوردي قادراً على ضبط نفسه فيما ليس منه ضرر على الدين أو الدنيا ، يتعد عن اذا رأى محبرة تطير منها ، وان وجد كتاباً أعرض عنه ، وان رأى متحلياً بالعلم هرب منه ، كأنه لم ير عالماً مقبلاً ، وجاهلاً مذبذباً . قال : ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوي منازل وأحوال ، كنت أخفي عنهم ما يصحبني من محبرة وكتاب ، لئلا أكون عندهم مستثقلاً ، وان كان البعد عنهم مؤذناً ومصلحاً ، والقرب منهم موحشاً مفسدأ . وكان اذا عرض أمر يعود على الدين بالضرر يستأسد ويزجر ، وينزع ثوب السياسي ويلبس ثوب العالم الشجاع ، على ما كان منه لما أمر الخليفة ان يزداد في ألقاب جلال الدولة بن بويه لقب « ملك الملوك » فما أفتى الماوردي مع من أفتى بجواز ذلك مع انه كان من خواص جلال الدولة ، ولما أفتى بالمتع انقطع عنه ، فطلبه جلال الدولة فمضى اليه على وجل شديد ، فلما دخل عليه قال له : انا اتحقق أنك لو حابيت احداً لحابيتني لما بيني وبينك ، وما حملك الا الدين ، فزاد بذلك محلك عندي . ولذا قال المؤرخون انه كان محترماً عند الخلفاء والملوك « وكان ذا منزلة من ملوك بني بويه يرسلونه في التوسطات بينهم وبين من يناوئهم ، ويرتضون بوساطته ويقنعون بتقريراته » .

وكتابه الثاني « أدب الدنيا والدين » من أمتع ما كتب علماء الاخلاق والتربية ، مصادر الكتاب والسنة وأقوال الحكماء والبلغاء ، وفيه طائفة من الشعر البديع والنثر المنسجم . وبما قال عن نفسه في كتابه هذا :

« وما أندرك به من حالي انني صنف في البيوع كتاباً جمعت فيه ما استطعت من كتب الناس ، واجهدت فيه نفسي وكدوت فيه خاطري حتى اذا تهذب واستكمل ، وكادت أعجب به ، وتصورت أنني أشد الناس اضطلاعاً بعلمه ، حضرتني وأنا في مجلسي أعرابيان فسألاني عن بيع عقداً في البادية على شروط تضمنت أربع مسائل لم أعرف لواحدة منها جواباً ، فأطرقت مفكراً ، وبجلي وحالهما معتبراً ، فقالا : ما عندك فيما سألتنا جواب ، وأنت زعيم هذه الجماعة ؟ فقلت : لا . فقالا : واهاً لك . وانصرفا ثم أتيا من ينقدمه في العلم كثير من أصحابه ، فسألاه فأجابها مسرعاً بما اقنعها وانصرفا عنه راضيين بجوابه ، حامدين لعلمه . قال فبقيت مرتبكاً وبجالها وحالي معتبراً ، وانني على ما كنت عليه في تلك المسائل الى وقتي . فكان ذلك زاجر نصيحة ، ونذير عظة ، تذلل بها قياد النفس ، وانخفض لها جناح العُجب ، توفيقاً مُنحته ، ورشداً أوتيته ، وحق على من ترك العجب بما يحسن ان يدع التكلف لما لا يحسن ، فقد نهى الناس عنهما ، واستعاذوا بالله منهما » .

وعلى ما عرف به الماوردي من بعد النظر والتحري في قضائه أورد أشياء في كتابه أعلام النبوة اذا وضعت على محك النقد كانت مثار العجب منه ، وهو الراوية الحسن الرواية والمقادة الذي يمتاز باستخراج السقيم من السليم ، وقد نسب اليه هذان البيتان :

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله فأجسادهم دون القبور قبور
وان امره لم يحيي بالعلم صدره فليس له حتى الممات نشور



(٢٠)

ابن حزم

أبو محمد علي

(٤٥٦)

كان جده الأعلى أول من أسلم ، وكان مولى يزيد بن أبي سفيان الأموي ، وأصل أهله من فارس ، وجده الخامس خلف أول من دخل الاندلس من آباءه ، وسكن أول أمره في قرية مَسْتَلِيشَم من إقليم الزاوية في عمل أونبه من كورة لسبلة غرب الاندلس . وسكن أبوه قرطبة ووزر للمنصور محمد بن أبي عامر .

ولد علي سنة ٣٨٤ في قصر ماعرف فيه الا النعيم والنعيم في صباه ، وتولى النساء تربيته ، ربي في حجوهرن ، ونشأ بين أيديهن ، ولم يعرف غيرهن ، ولا جالس الرجال الا وهو في حد الشباب ، وحين تبقل وجهه ، وهنّ علمنه القرآن ، وروّينه كثيراً من الأشعار ، ودرّبنه في الخط ، فكانت ثقافته أرقى ثقافة يتقنها أبناء العظام . وما كانت المظاهر الخلابه التي شاهدها في قصر أبيه لتحول دون رغبته في التناغمي بالعلم والغرام بالأدب ، وما كان ذلك الثراء ليمطره فيشغل نفسه بما لا يجدي عليه في حياته . وناقش مرة أحد علماء الاندلس فقال له هذا : ان أكثر مطالعاته كانت على سراج الحرس فأجابه عليّ : ان أكثر مطالعاته كانت على مناير الذهب والفضة ، يريد أن الغني أمنع لطلب العلم من الفقر .

ولما تغلب البربر على قرطبة وعليّ في الخامسة عشرة من عمره انتقل أبوه من دورهم المحدثه بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة الى

دورهم القديمة في الجانب الغربي ، ثم انتهب البربر دورهم في الجانب الغربي هذا ونزلوا فيها ، فخرج عن قرطبة وسكن المرية . وقال ابن حزم انهم شعلوا « بالنكبات وباعتداء ارباب دولة هشام المؤيد ، وامتنحوا بالاعتقال والتريقب والاغرام الفادح والاستنار . وأرذمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا » ثم نكبه صاحب المرية بدعوى أنه يسعى في القيام بدعوة الدولة الاموية فاعتقل أشهراً ، ثم أخرج على جهة التغريب ثم صار الى حصن القصر ولقي صاحبه النشجبي فأقام عنده شهوراً « في خير دار اقامة وبين خير أهل وجيران » ثم ركب البحر قاصداً بلدنسية عند ظهور أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد وسكن بها وتولى له الوزارة ثم تولاهم لهشام المعتمد بالله .

هذه بالاجمال سيرة ابن حزم السياسية الى العقد الثالث من عمره . ولما رأى ما رأى من تقلقل الدول في الاندلس وعزفت نفسه عن أمور « الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتديير الملك » أقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والانتفاع بدروس أجل رجال عصره . نبغ ابن حزم في الأدب والفلسفة والطب والحديث والفقه والتاريخ وكان أصولياً نظاراً كاتباً شاعراً ، يرتجل الشعر ويبتده الخطب ويضع الكتب ، وكان « أجمع أهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والامخبار » وكان شافعيماً أولاً ثم صار ظاهرياً على مذهب داود بن علي ابن خلف الاصفهاني ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس « وناضل عن مذهبه الجديد فنال منه فقهاء الاندلس ، وكان أكثرهم يميل الى القول بمذهب مالك ، ولولا أن حال صاحب المرية دون تحاملهم عليه لاوردوه حتفه ، واكتفوا بأن أحرقوا بعض كتبه في احدى ساحات اشبيلية وحرموا النظر فيما كتب ، ولولا أن حمل بعض تلاميذه كتبه الى الشرق لما انتشرت في الآفاق . أما هو فظل على كثرة معانديه يقرأ ويقرى . ويدرس في بلده حتى مضى لسبيله .

وفي احراق ابن عباد كتبه قال ابن حزم :
فان تحرقوا القرطاس لاتحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل ان انزل ويدفن في قبوري
دعوني من احراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
والا فعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من سرّ
كذلك النصرارى يحرقون اذا علت أكفهم القرآن في مدن الثغر
وقال :

لايشمتن حاسدي ان نكبة عرضت فالدهر ليس على حال بمتّرك
ذو الفضل كالنبر طوراً تحت ميّقة وتارة في ذرى تاج على ملك
ومن شعره :

قالوا تحفظ فان الناس قد كثرت أقوالهم وأقوايل الورى محن
فقلت هل عيهم لي غير اني لا أقول بالرأي اذ في رأيهم فتن
وانني مولع بالنص لست الى سواه أنحو ولا في نصره أهن
لا أنثني لمقاييس أقول بها في الدين بل حسي القرآن والسنن
يا برد ذا القول في قلبي وفي كبدي وياسروري به لو أنهم فطنوا
دعهم يعضوا على صمّ الحصى كمدأ من مات من قوله عندي له كفن
وبما عدوه عليه أنه كانت « له مجالس مع أولي المذاهب المرفوضة
من أهل الاسلام » أي أنه كان يجتمع الى غير السواد الاعظم ، وعابوا
عليه أنه خالف ارسطو في بعض آرائه ، كأن الاجتماع بالخالف ونقد
صاحب الرأي من الكبار . والذي ينتقد عليه في الحقيقة انخاؤه على
بعض الائمة ومغالاته في رد كل من خالف مذهبه من فرق الاسلام ،
يستعمل لهجة قاسية حتى قالوا انه كان يصك معارضة في علمه صك الجندل ،
وينشقه ملقنه انتشاق الحردل . قالوا : وكان بما يزيد في شأنه تشيعة لاءمراء
بني أمية ماضيهم وباقيهم بالشرق والاندلس ، واعتقاد صحة امامتهم وانحرافه
عن سواهم من قريش .

قال عن نفسه معتذراً عما يبدو في كلامه من الشدة على من لم يتبع مذهبه انه كانت به علة شديدة أصابته فولدت عليه ربواً في الطحال شديداً ، فولد ذلك عليه من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً جاشت به نفسه . وقال انه انتفع بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة ، وهي أنه توقد طبعه ، واحتدم خاطره ، وحيي فكره ، وتيسج نشاطه فكان ذلك سبباً الى تواليف عظيمة النفع ، ولولا استنارتهم ساكنه ، واقتداحهم كامنه ، ما انبعثت لتلك التواليف .

وقال عن نفسه انه جبيل على طبيعتين لاينهؤه معها عيش أبدأ وهما وفاء لا يشوبه تلون ، قد استوت فيه الحضرة والمغيب والباطن والظاهر وعزة نفس لا تقر على الضيم مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو الى نفسها وقال : واني لأجفى فاحتمل وأستعمل الأناة الطويلة والتلوم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فاذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبرت وفي القلب ما فيه . وقال : غاظني أهل الجهل مرتين من عمري احدهما بكلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلي ، والثانية بسكوتهم على الكلام بحضرتي ، فهم أبدأ ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم . وسرقني اهل العلم مرتين من عمري احدهما بتعليمي أيام جهلي والثانية بمذاكرتي أيام علمي .

كان ابن حزم يعرف كيف يحاج المخالفين له ويبدمهم ، لانه كان ارقى منهم كما ظهر ، مع ما أوتيه من بلاغة اللسان وبلاغة القلم ، وحضور الذهن ، ووفرة المادة ، وشدة الاخلاص والصدق ، ولما ضاق به مخالفوه ذرعاً لجأوا الى السلطان فما استطاعوا ان يذلوه وهو العزيز ، ولا ان ينتقصوه وهو الكامل ، ولا ان يجهلوه وهو العالم ، وكيف يصلون الى غاياتهم منه وهو الذي انتشرت في الاقطار كتبه في حياته وما وسع حتى أعداؤه في رأيه ان ينكروا فضله العظيم . ألف تآليف كثيرة بلغت نحو أربعائة مصنف تدخل في ثمانين الف ورقة فكان اكثر علماء الاسلام تآليف بعد ابن جرير الطبري .

وأنت ايها القاريء العزيز اذا أحببت ان تقرأ نطقاً عجيباً من رد ابن حزم على مخالفيه وكيف يزيغ اقوالهم ويشدد في حوارهم طالع « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، واذا شئت ان تطلع على الحكم فيما اختلف فيه الناس من أصول الأحكام في الدين فطالع كتابه الجامع « الاحكام في أصول الأحكام » ، واذا سمت بك همتك الى التبحر في الحجاج ومعرفة الاختلاف وتصحيح الدلائل المؤدية الى معرفة الحق بما تنازع الناس فيه ، والاشراف على احكام القرآن والوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله وتمييزها بما لم يصح ، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار وتمييزهم من غيرهم ، والتنبيه على فساد القياس وتناقضه ، وتناقض القائلين به ، فليكن تصفحك لكتابه « المحلى » . واذا جنحت الى تعرف حكمة العشق يطلعك بمجالس في الحب وعلم النفس على تحليل ارواح النساء والرجال وكشف اسرار الجنسين ، وفي كل أولئك تدرك مبلغ ابن حزم من حرية القول وبعد التفكير ، وتبين درجة أدبه على ما لا يخطر ببالك صدور مثله عن مثله . فاقراً كتابه البارع « طوق الحمامة في الألفة والألاف » يثبت لك من هذا ان ابن حزم لا يقول بالتيقن وهو القائل : « ولا انسك نسكاً أعجيباً ، ومن أدى الفرائض المأمور بها واجتنب المحارم المنهي عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الاحسان ، ودعني بما سوى ذلك » . ومن أحب ان يقرأ فلسفته في الاخلاق وما يصلح الجماعات والمجتمعات فليقرأ كتابه « مداواة النفوس » وهذا كتاب كله زبدة يجزي قارئه عن كثير مما كتب في موضوعه ويبين درجته من الحكمة .

ذاك بعض كتبه التي تخطتها حملات خصومه فسلمت ، وانك لتقرأ أسفاره في الشريعة فتدهش لما ترى من احاطته بأطراف كل موضوع خاض عبايه ، كأن مسائل الدين صفحة واحدة مائة امام عينه استظهرها في الصغر واستخرج ايام نضج عقله وعلمه كل ما فيها من دقائق الحقائق . فكان بهذا حقاً من أعظم علماء الاسلام لم يجي في بابه بضعة رجال من عياره .

ابن حزم امام في كل شأن: في الدين والحكمة والاخلاق والادب والتاريخ، وفي كل ما اتقن من علم وتمثله وألف فيه ، فهو جد عظيم يملك عليك نفسك وانت تنظر فيما شرح او بسط وحاور وجادل ، يتعاطمك بسطان علمه فتكبره وتكبر أدبه ، ويعجبك بشدة غيرته على بث دعوته ، ويسوءك ان يسيء اليه معاصروه وهو الذي كان كله احساناً . ومن « طوق الحمامة » تعرف أي اديب هو ومن « المحلى » تدرك اي عالم ديني هو ، وتنادي لا تبالي : هكذا فليكن العلماء . ناهيك من رجل ينشأ على الفضائل الموهوبة والمكسوبة ، ولم يله ترف القصور عن الاستغراق في معالجة صعاب المسائل . ولما علم تقصيره في بعض الفروع الشرعية وهو في نحو الثلاثين من عمره عاد فقعد مقعد المتعلم بين ايدي العلماء يحصل ما فاته ، وما برح يتلقى عن الشيوخ حتى بلغ درجة الاجتهاد ، وأعظم بها من مرتبة لا ينالها في قطره وعصره الا من استحقها الاستحقاق كله ، خصوصاً وهو بين ظهرا في خصماء غير رحماء واعداء ارياء ، يحسدونه على نعمته ونعمة آباؤه ، وعلى علمه وعلى مكانته ورجاحته .



(٢١)

ابن زيمون

ابو الوليد احمد بن عبد الله بن زيدون

(٤٦٣)

هو من قبيلة مخزوم النازلة في الاندلس ، وأهله من صدورها المعروفين بالحكم والقضاء . ولد في قرطبة سنة ٣٩٤ . ومات أبوه فأسلمه أوصياؤه الى أعظم من علماء عصره فتأدب بأدبهم ، وظهرت عليه أمارات النجابة وهو في سن العشرين ، واستفاضت شهرته في الادب والحكمة ومعاناة السياسة ولما يبلغ الخامسة والعشرين .

ولما حاول دعاة بني أمية أن يعيدوا الملك فيهم ، وثار أهل قرطبة لطرده البربر عن ديارهم ، اضطرب ابن زيدون بحكم مكانة بيته الى خوض تلك المعركة السياسية ، فكان في جملة رجال ابي الحزم بن جوهر صاحب قرطبة بعد جلاء البربر عن تلك الاصقاع .

وأحب ابن زيدون ولادة بنت المستكفي بالله فما عثم ان نازعه حبها ابن عبدوس وزير ابن جهور فهجاه ابن زيدون وهزأ به ، فأضمر له الحقد وما زال يشي به عند الملك حتى اتهمه بانه يدعو للدولة الأموية ، فاعتقله ثم رق له ابنه الوليد بن جهور فأطلقه من اعتقاله . ولكن كانت ولادة قد خرجت عن حكم ابن زيدون . وتشرذ في الاقطار مدة ثم رجع الى قرطبة يخدم الوليد بن جهور بعد وفاة أبيه فوضع ثقته به ، وسفر عنه الى ملوك الاطراف ، ثم غضب عليه ففر . وكان يقيم تارة في دانية وأخرى في باجة وطوراً في اشبيلية ، الى ان اتصل بالمعتضد أمير اشبيلية فجعله أمين سره

ثم ولاه أعظم وزارانه ، وظل بعد وفاة المعتضد على خدمة ابنه المعتمد فأعانه على فتح قرطبة وجعل منها عاصمة ملكه ، وكان منافسه في بلاط المعتمد الوزير ابن عمار قد زج بابن زيدون في فتنة نشبت بسبب اليهود فهلك ، فجزنت عليه عشيرته في قرطبة حزناً شديداً .

ترجم له صاحب الذخيرة بقوله : كان ابو الوليد صاحب منشور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، أحد من جرّ الايام جرّاً ، وفاق الانام طراً ، وصرف السلطان نفعاً وضراً ، ووسع البيان نظماً ونثراً الى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقتوانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الالفاظ والمعاني .

ووصفه صاحب القلائد بقوله : زعيم الفئة القرطبية ، ونشأة الدولة الجمهورية ، الذي بهر بنظامه ، وظهر كالبدر ليلة تمامه ، فجاء من القول بسحر ، وقلده أبهى نحر ، لم يصرفه الا بين ريحان وراح ، ولم يطلعه الا في سما ، مؤانسات وأفراح ، ولا تعدى به الرؤساء والملوك ، ولا تروى هذه الا حظوة كالشمس عند الدولك ، فشرف بضائه ، وأرهف بدائه وروائعه ، وكلفت به تلك الدولة حتى صار ملهج لسانها ، وحلّ من عينها مكان انسانها .

أطلقوا على ابن زيدون لقب « بحتري المغرب » لسلاسة شعره وجزالة رصفه . وذكر العارفون بعلو طبقة الشعر ان ابا بكر بن عمار و ابا الوليد ابن زيدون كانا في حسن الشعر فرسي رهان ورضيعي لبان ، وقال أكثر الادباء بالاندلس انها أشعر أهل عصرهم . والمعقول ان يذهب كل شاعر بمزية لا يشاركه فيها غيره فابن هاني لا تنحط طبقة عن طبقة ابن زيدون وهكذا اذا أردنا المقارنة بين كهراء شعراء الاندلس .

وإذا أجمع أرباب المعرفة على تفرد ابن زيدون في الشعر فان منهم من أشار الى أن نثره شعر أيضاً ، اي انه نازل عن طبقة بين الكتاب

ففي شعره كل معاني الاحسان ، اما نثره فتحسن فيه روحاً شعرياً وهذا لا يستحب كل حين . والطبيعة على ما علمنا لا تجود على كل انسان باتقان الصناعتين ، ولا بد ان تمتاز الملكة في الاولى عن الاخرى . كان هوى ابن زيدون بالشعر ليله ونهاره ، ونثره عارض يستخدمه عند الحاجة ويجيد ، ولكن لا كالشعر الذي أخذ من روحه وقلبه .

وكما كان آية فيما يكتب كان كذلك فيما يخاطب : غزير البيان ، متدفق الطبع ، فصيح اللسان ، حاضر البديهة . قال أحد وزراء اشبيلية وفيه دليل على سعة بيانه : اعهدى بابي الوليد قائماً على جنازة بعض حرّمه ، والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يجيب أحداً بمثل ما أجاب به غيره ، لسعة ميدانه وحضور جنانه . وذكروا ان أقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير الف رئيس بمن يتعين عليه أن يتشكر له ، فيحتاج في هذا المقام الى الف عبارة مضمونها الشكر ، وهذا كثير الى الغاية لا سيما من محزون فقد قطعة من كبده

ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب ترى هل يدين ابن زيدون بشهرته لادبه وشعره ، ووزاراته وسفاراته ام ان لغرامه بولادة دخلاً كبيراً فيما كان له من عظمة . قد يهيم أعظم منه بأعظم من محبوبته ولا يدرى جمهرة الناس بهما ، وغرام ابن زيدون عظم في العيون لانه كان في حسناء تقول الشعر وتعرف أدب الملوك ، فهي كانت تدرك كل الادراك ما عند عشيقها من صفات تليق ببينات الملوك ، وهو موقن انه لا يجد في بذات السوق أمثالها بجمالها وكلمها ، وكان من ذلك الشعر الذي كله روح وحسن .

وصف ابن زيدون أول اتصاله بحبيبتة بقوله .
كنت في أيام الشباب ، وغمرة التصاب ، هائماً بغادة ، تدعى ولادة ،
فلما قدر اللقاء ، وساعد القضاء كتبت الي :

ترقب اذا جنّ الظلام زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر مابدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر

فلما طوى النهار كافوره ، ونشر الليل عنبره ، أقبلت بقدر كالتضيب
ورددف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس المقل ، على ورد الحجل ، فملت
الى روض مديح ، وظل سجسج ، وقد قامت آيات أشجاره ، وفاضت
سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ، وجيب الراح مزور ، فلما شبتنا
نارها وأدرجت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا اليم ما بقلبه ،
وبتنا بديلة نجني اقحوان الثغور ، ونقطف رمان الصدور فلما انفصلت عنها
صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

ودّع الصبر محبٌ ودّعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الحُطي اذ شيعك
يا أبا البدر سناءً وسناً حفظ الله زماناً أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلنكم بت أشكو قصر الليل معك
ويذهب الفكر الى ان هذه العبارة ليست لابن زيدون بل صاغها
غيره والمعنى له ، أو هكذا وقع غرام ولادة في قلب ابن زيدون ، وهو يعذر
على ما بدا من هيامه لانها استوفت على ما يظهر جميع صفات المعشوقات .
اشتهر في الآفاق شعره بسبب هذه الصباية النادرة في العاشقين وما كان
الغرام نفسه السبب الاكبر في شهرته بل لانه غرام كان على غير مثال .
ومن أشهر قصائده فيها القصيدة التي اشتهرت كل الاشتهار :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسمى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فعدت سوداً وكانت بكم بيضاً لبالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا
ومنها :

لم نعتقد بعدكم الا الوفاء لكم رأيا ولم نتقلد غيره ديننا
لا تحسبوا نايكم عنا يغيرونا ان طال ما غير النأي المحبيننا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا
وله في ولادة :

يا نازحاً وضمير القلب مشواه
أهتك عنه فكاهات تلذُّ بها
علّ الليالي تبقيني الى أمل
وله يتشوق اليها :

اني ذكرك بالزهراء مشتاقا
وللنسيم اعتلال في أصائله
والروض عن مائه الفضي مبتسم
يوم كأيام لذات لما انصرفت
نلهو بما يستميل العين من زهر
كأن أعينه اذ عاينت أرقى
وله يتشوق اليها أيضاً :

غريب بأقصى الشرق يشكر للصبيا
وما ضر أنفاس الصبا في احتالها

ولا يبعد أن يكون ما قاله في ولادة أكثر مما روى الرواة في ديوانه ،
امتنعوا من نقله كما امتنع صاحب الذخيرة من نقل شعر ولادة لأن فيه
هجاء . وكما أجاد كل الاجادة في التغزل بولادة أجاد أيضاً في مدح
ابن جهور والمعتمد والمعتمد ولا سيما فيما قدم له من النسب من قصائد
مدحهم ومدح غيرهم . فشعره في الملوك والوزراء والاصحاب شعر دنياه
ومناصبه ، وشعره في الغزل والنسب وتغزله بولادة شعر لذاته ونعيمه .
وما أحلى قوله :

سأحب أعدائي لانك منهم يا من يُصح بمقلتيه ويسقم
أصبحت تُسخطني فأمنحك الرضا محضاً ونظامي فلا أتظلم
يا من تألف ليله ونهاره فالحسن بينهما مضيء مظلم

فدكان في شكوى الصباية راحة لو أنني أشكو الى من يرخم
وله ، وقد قال صاحب الذخيرة انه كتب بها من بطليوس أيام تكدره
عليها ، وهي من غرر نظامه ودرر كلامه :

| | |
|------------------------------|---------------------------|
| وبأ فؤادي آن أن تذوبا | يادمع صب ما شئت ان تصوبا |
| لم أر لي في أهلها ضربا | ان الرزايا أصبحت ضروبا |
| في الغرب ان رحمت به غريبا | قد ملأ الشوق الحشا نُدوبا |
| أضنى الضنا اذ ابعده الطيبا | عليل دهر سامني تعذيبا |
| ريح يروح عهدا قريبا | ليت القبول أحدثت هبوبا |
| تعطرت منه الصبا جنوبا | بالافق المهدي ينسا طيبا |
| يا متبعاً أساده التأوبا | يبود حره الكعبد المشبوبا |
| أما سمعت المثل المضروبا | مشرقاً قد سمّ التغريبيا |
| ارسل حكيماً واستشر لبيدا الخ | |

وقال من أخرى :

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| وسبيل الهوى وقصد الدموع | أنت معنى الضنى وسر الضلوع |
| لك عند الغروب فضل الطلوع | أنت والشمس ضربتان ولكن |
| ب دلالاً من الرضا المطبوع | ليس بالمؤيدي تكلفك العت |
| كوكب يستقيم بعد الرجوع | انما أنت ، والحسود معنى |

وقال :

| | |
|-----------------------------|--------------------------------|
| الا ذكرتك ذكر العين بالاثر | ما جال بعدك لحظي في سنا القمر |
| الا على ليلة مرت مع القصر | ولا استطلت زمام الليل من أسف |
| قد استعار سواد القلب والبصر | يا ليت ذاك السواد الجون متصل |
| ان الحوار لمفهوم من الحور | جمعت معنى الهوى في لحظ طرفك لي |

هذه نماذج قليلة من شعره المرقص المطرب ، أما نثره فألطف ما وصفوه
به أنه أقرب الى الشعر . وليس معنى هذا أن فيه ما يعاب وهو على
كل أحظ من شعره وفيه التكلف مائل أحياناً . وقد ملأ بعض رسائله

بمسائل تاريخية وإشارات أدبية ومنازع هزلية وجدية ، شرحها الشراح ودلوا على ما فيها من لمع أدبية وغيرها .

وهذه رسالة كتب بها إلى رئيسه أبي الوليد بن جهور من ملوك الطوائف بالأندلس (٤٤٣) يستعطفه لما كان في اعتقاله :

يا مولاي وسيدي الذي ودادي له واعتمادي عليه واعتمادي به ومن أبواه الله ماخي حد العزم ، واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة .

إذا سلبتني أعزك الله لباس انعامك ، وعطلتني من حلي ايناسك ، واظمأتني إلى برود اسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأحم ثنائي عليك ، وأحس الجمد باستنادي إليك ، فلا غرو فقد يغص الماء شاربته ، ويقتل الدواء المستنفي به ، ويؤثي الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمني في أمنيته ، « والحين قد يسبق جهد الحريص » .

كل المصائب قد تمر على الفتي وتموت غير شماتة الحساد واني لأتجد وأري الشامتين « اني لريب الدهر لا أتضعض » فأقول : هل أنا الا يد أدامها سرارها ، وجبين عض به اكليله ، ومشرقي الصقه بالأرض صاقله ، وسهمري عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقساً ليزدجرا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة « سحابة صيف عن قليل تقشع » .

ولن يريني من سبدي ان ابطأ سحابه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطل الدلاء فيضاً أملاً ، وأثقل السحاب مشياً احقلها ، وأنفع الحيا ما صادف جذباً ، وأذ الشراب ما أصاب غليلاً ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه في اغفاله .

وان يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سرورت ألوف ك (١٧)

واعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاول الذي لم يستغفره تطولك ، والتجامل الذي لم يف به احتمالك . لا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك ، أو مسيئاً فأين فضلك .

الا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
حنانك قد بلغ السيل الزبى ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما أُراني
الا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح اركب
معنا فقلت : سأوي الى جبل يعصمني من الماء ، وأمرت ببناء صرح لعلي
اطلع الى اله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، وتعاطيت
ففقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت ، وقدت القبل
لأبرهة ، وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة ،
ونفرت الى العير ببدر ، وانخذلت بثلك الناس يوم أحد ، وتحلفت عن
صلاة العصر في بني قريظة ، وجئت بالافك على عائشة الصديقة ، وأنفت
من أمارة أسامة ، وزعمت ان خلافة أبي بكر كانت فلتة ، ورويت ربحي
من كتيبة خالد ، ومزقت الاديم الذي باركت يد الله عليه ، وضجيت
بالاشط الذي عنوان المسجد به وبذلت لقطام

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المصمم
... والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انخرفت عنك بعد الصاغية ،
ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت ياساً منك مع ضمان
تسكفت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن بك ، فقيم عبث الجفاء بأزمتي ،
وعاث العقوق في مواتي ، وتمكن الضياع من رسائلي ، ولم ضاقت منه
اهبتي ، وأكدت مطالبي ، وعلام رضيت من المركب بالتعليق بل من الغنيمة
بالاياب ، واني غلبني المقلب ، وفخر علي العاجز الضعيف ، ولطمتني غير
ذات سوار ، ومالك لم تمنع مني قبل ان افترس ، وتدركني ولما أمزق ،
أم كيف لا تنزرم جوانح الاكفاء حسداً لي على الحصوص بك وتنقطع

أنفاس النظراء منافسة في الكرامة عليك ، وقد زانني اسم خدمتك ،
وزهاني رسم نعمتك ، وأبليت البلاء الجميل في سماطك ، وقمت المقام
المحمود في بساطك .

والرسالة مطولة اكتفينا منها بهذا دلالة على أسلوب ابن زيدون في النثر .
وله رسالة خاطب بها أبا مروان بن حيان مؤرخ الاندلس وقد أهداه
احمالاً من الزيت والبرّ في سنة ١١٠٤ هـ قال في فصل منها : والذي اسكن
اليه من حسن قبولك وجميل تأويلك ، أقابل بالحقير وأواجه بالتافه اليسير
ويعلم الله تعالى اني لو ناصفتك عمري مارأيت ان ذلك كفؤ بقدرك ولا وفاء
ببرك فكيف ما دونه ، فلك المنزلة التي لا تسامى ، والجلالة التي لا توازى ،
وما شيء وان جلّ الا محقر لك مستصغر عند محلك . ويصل مع موصل
كتابي هذا ما ثبت ذكره في الدرجة طيه وأنت بمعاليك تفضل بقبوله
وتصل أجل صلة بالتغاضي عن راحته (؟) والاستجازة لزارته ، مقتضياً
بذلك شكري وحمدي ، ومستبداً منهما بجميع ما عندي .

قد يسأل من تلا هذه النمودجات القليلة من نظم ابن زيدون ونثره
واطلع على جانب من حياته السياسية : هل كان اشتهاه بشعره النادر أم
كان بما ساس من أمور الملك وتنقل بين صاحبي قرطبة واشبيلية يجالس
الملوك في خلواتهم ويصبرونه في خواصهم وصحابتهم ويسفر لهم في مهماتهم
ثم يغضبون عليه ويعتقلونه أو يصبح طريداً شريداً ؟ الأرجح ان استفادة
شهرته أنت من حبه ولادة ، والأرجح ان غراؤه بها زاد في طلاوة أدبه .
ومتى أدرك الكاتب والشاعر ان كلامه سينلوه من يعجب به يتأنق فيه
الى التي ليس بعدها ويمده الله بمدد لا يدرك سره .

قالوا ان عبث الاغنياء وموت الفقراء لا يحس بهما ، وعبث ابي الوليد
اشتهر وذاع وملا القلوب والاسماع ، فكان في ذلك سعاداته بأدبه حياً وميتاً ،
وكذلك كان شأن عمر بن أبي ربيعة ، سبحانه خص من شاء بما شاء .

عبد القاهر الجرجاني

ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن وقيل ابن عبد الواحد

(٤٧١ - ٤٧٤)

خلاصة ما قال فيه مترجموه انه كان من كبار أئمة العربية أخذها عن ابي الحسين الفارسي النحوي ابن اخت ابي علي الفارسي ، وقرأ على القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني واغترف من بحره ، وكان اذا ذكره في كتبه تبخبيخ به وشيخ بأنفه بالانتماء اليه ، وكان يُرحل اليه من الآفاق ، ولقب بالنحوي ، وقال صاحب الطراز : انه علم المحققين ، وأول من أسس قواعد علم البلاغة ، وفكّ قيد الغرائب بالتقيد ، وفتح أزهاره من أحكامها ، وفتق ازرارها بعد استغلاقتها واستبها مهابها . وقالوا انه شافعي المذهب منكلاً على طريقة الأشعري مع تدين وورع ، ولم يخرج من بلده . وقالوا انه كتب كتباً في النحو منها شرح الايضاح في ثلاثين مجلداً وله غيره . وأهم كتبه المطبوعة « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » وبها خلد اسمه في عالم الادب . ودلائل الاعجاز صحيفة من الادب العالي لم يكتب البيان ولا النحو ولا الفقه بمثل هذا اللسان العذب . ولا يجازف اذا قلنا ان جودة كلام عبد القاهر في تقرير القواعد والذاتير قل ان يدانيه فيه أحد من المصنفين ، ونعني بالمصنفين أرباب التواليف في قرون ازدهار اللغة والكتابة . تظن نفسك وأنت تتلو فصلاً من دلائل الاعجاز انك في كتاب ادب كتب بسلاسة وعذوبة لا في كتاب علم جاف يقرر حقائق ويأتي بمسائل فيحلها ، ويناقش مخالفه ويعضب منهم ويعضبهم ، ويورد

من الامثلة ما يؤيد دعواه . وربما لا نعدو الحق اذا قلنا ان عبد القاهر كاتب القرن الخامس ، وهو اكتب من صديقه جار الله الزمخشري ، فجار الله انما اشتغل بمتن اللغة كثيراً ، وهذا انصرف الى البيان والتبيين وجمع بين صحة المباني وجودة المعاني . وخصلة اخرى وهي انك اذا قرأت صفحة من دلائل الاعجاز تعتقد لساعتك ان المؤلف من الرعيل الذين هضموا ما تعلموا ، وعرفوا كيف يحملونه الى من يحاولون تعليمهم .
كان الجرجاني ينظم الشعر في بعض ما تتأثر به نفسه وعرفنا بالقليل الذي رووه عنه انه كان حانقاً على الايام متبرماً باهل زمانه . فما عزوه اليه وهو مشهور قوله :

كبر على العلم يا خليلي (١) وول الى الجهل ميل هائم
وعش بليداً (٢) تعش سعيداً فالسعد في طالع البهائم
وله في شكاية ابناء الزمان واستيلاء نقصهم على فضله :
هذا زمان ليس فيه سوى النذالة والجهالة
لم يرق فيه صاعد الا وسئلته النذالة
وله أيضاً :

لا يوحشك انهم ما ارتاحوا بما جلاه عليهم المداح
فهم كقوم علققت بازائمهم بيض المرئي والوجوه قباح
ومن شعره :

لا تأمن النفثة من شاعر ما دام حياً سالمأ ناطقا
فان من يمدحك كاذباً يحسن أن يهجوكم صادقاً
ذكروا له شعره ولم يذكروا كتابته ، وكتابته هي موضع السمو
فيه ، ذلك لأنه لم يتول من أعمال السلطان ما تكذب له به شهرة ، وجرت

(١) في تاريخ الاسلام للذهبي : لا ترمه ، بدل يا خليلي .

(٢) وفي المصدر نفسه : حاراً ، بدل بليداً .

عادة أصحاب التراجم ان يهتموا أبداً بتلقط شعر المترجم لهم اكثر من اهتمامهم بالنقاط نثر الناثرين وكتابة المنشئين .

ومن كلامه يصف كساد سوق الفضل في عصره : « ثم انا وان كنا في زمان هو على ما هو عليه من احالة الامور عن جهاتها ، وتحويل الاشياء عن حالاتها ، ونقل النفوس عن طباعها ، وقلب الحقائق المحموده الى اضدادها ، ودهر ليس للفضل وأهله لديه الا الشر صرفاً ، والغيب بحتاً ، والا ما يدهش عقولهم ، ويسلبهم معقولهم ، حتى صار أعجز الناس رأياً عند الجميع من كانت له همة في ان يستفيد علماً ، أو يزداد فهماً ، أو يكتسب فضلاً ، أو يجعل له ذلك مجال شغلاً » .

الازدواج في كلام عبد القادر أكثر من السجع ، واذا سجع فسجعه ينطوي على معنى آخر قد لا تجده في السجعة الاولى ، ورفض الالفاظ ومثانة التراكيب هو محل العجب في كلامه . ونرى ان عدم التكلف في ارسال جملة هو الذي سلس به بيانه . انظر اليه يقول في وصف اعجاز القرآن لا يخرج عما يقوله في درس او يحاور به شخصاً : فاذا كنت لا تشك في ان لا معنى لبقاء المعجزة بالقرآن الا ان الوصف الذي له كان معجزاً قائم فيه أبداً وان الطريق الى العلم به موجود والوصول اليه ممكن فانظر اي رجل تكون اذا انت زهدت في ان تعرف حجة الله تعالى ، وآثرت الجهل فيه على العلم ، وعدم الاستبانة على وجودها ، وكان التقليد فيها أحب اليك ، والتعويل على علم غيره آثر لديك ، ونح " الهوى عنك ، وراجع عقلك ، وصدق نفسك ، بين لك فحش الغلط فيما رأيت ، وقبح الخطأ الذي توهمت . وهل رأيت رأياً أعجز ، واختياراً أقبح ، ممن كره ان تعرف حجة الله تعالى ، من الجهة التي اذا عرفت عنها كانت أنور وأبهر ، وأقوى وأقهر ، وآثر ان لا يقوى سلطانها على الشرك كل القوة ولا تعلو على الكفر كل العلو .

ونختم الكلام في هذا العظيم ، ونحن معترفون بالعجز عن توفيقه
بعض حقه ، بقوله في خلط بعض المفسرين في عدم التفريق بين الحقيقة
والمجاز في الالفاظ قال : ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم
ان توهموا ابدأ في الالفاظ الموضوعه على المجاز والتمثيل انها على ظواهرها
يفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا انفسهم والسامع منهم العلم
بموضوع البلاغة وبمكان الشرف ، وناهيك بهم اذا هم اخذوا في ذكر الوجوه
وجعلوا يكثرون في غير طائل . هناك ترى ما شئت من باب جهل قد
فتحوه ، وزند ضلالة قد قدحوا به .



(٢٢)

أبو عبيد البكري

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد

(٤٨٧)

كان جده قاضياً في لبنة وأبوه من الأمراء وكان قائداً في شلطيـش وأوثنية من قواد الخليفة الأموي هشام المؤيد . ولما سقطت دولته ولم يستطع ابنه عبد العزيز بعده أن يعصي أمير اسبيلية المعتضد ، وكان هذا يرمي الى توحيد امارات الأندلس بأسرها ، فرّ من شلطيـش بذخائره سرّاً ومعه ابنه عبد الله ثم اعتصم بقرطبة . وفي هذه المدينة نشأ أبو عبيد وأتم ثقافته على أعظم علماء تلك الحاضرة . ثم انصل بأمر المرية وتصرّف له ، وفيها أخذ عن ابن حيان مؤرخ الأندلس وسفر عن صاحب المرية ، ولما استولى المرابطون على الأندلس اعتزل العمل في قرطبة وانصرف الى العلم والتأليف .

اشتهر البكري بالشعر ، ومعظم شهرته بأبحاثه اللغوية والجغرافية والأدبية والتاريخية . قال ابن مکتوم انه من أهل شلطيـش سكن قرطبة يكنى أبا عبيد ، روى عن أبي مروان بن حيان وابي بكر المصحفي وابي العباس العذري سمع منه بالمرية وأجاز له ابو عمر بن عبد البر الحافظ وغيرهم وكان من أهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بمعاني الشعر والغريب والأنساب والاحبار منقناً لما قيده ، ضابطاً لما كتبه ، جميل الكتب ، مهتماً بها ، يُمسكها في ثياب الشرب (أي الرقيق من الكتان) وغيرها اكراماً لها وصيانة . رواه ابن بَشْكَوَال .

وترجمه الفتح بن خاقان في قلائد العقيان بما صورته : عالم الأوان
ومصنفه ، ومقرط البيان ومشفه ، بتواليف كأنها الحرائد ، وتصانيف
أهبي من القلائد ، حلى بها من الزمان عاطلاً ، وأرسل بها غمام الاحسان
هاطلاً ، وضعها في فنون مختلفة وأنواع ، وأقطعها ماشاء من اتقان
وابداع . وأما الادب فهو كان منتهاه ، ومحل سهاه ، وقطب مداره ،
وفلك تمامه وابداره . وكان كل ملك من ملوك الأندلس يتهداه
تهادي المقل للكري ، والآذان للبشري ، على هنات كانت فيه فانه رحمه
الله مباكر للراح ولا يصحو من خمارها ، ولا يحو رسم ادمانه من
مضارها ، ولا يُريح الا على تعاطيها ، ولا يستريح الا الى مساطيها ،
قد اتخذ ادمانها هجيره ، ونبذ من الافلاع عنها نبذ عاصم بن الأيمن
بجيره ، فاذا حان انقراض شعبان وانصرامه كانت فيه مستبشعة الذكر ،
مستشعة التكر ، تجها الاوهام والحواطر ، ويثبتها السماع المتواتر .
وقد أثبت مايشهد لك بتقدمه ، ويريك منتهى قدمه . رأيتيه وأنا
غلام ما أقر هلالي ، ولا نبع في الذكاء كوثري ولا زلالي ، في مجلس
ابن منظور ، وهو في هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سبلة يروق
العيون ايامها ، ويغرق السواد بياضها ، وقد بلغ سن ابن محلم ، وهو
يتكلم فيفوق كل متكلم . فجرى ذكر ابن مقلة وخطه ، وأبيض في
رفعه وحطه فقال :

خط ابن مقلة من أرواه مقلته ودّت جوارحه لو أصبحت مقلا
فالدري يصرّف لاستحسانه حسداً والورد يحمر من ابداعه خجلا
وله فصل في كتاب راجع به الفقيه الاستاذ أبا الحسن بن دري
رحمها الله :

وتالله أني لأطعم جنى محاورتك فيقف في الالهة ، وأجد لتخيل مجالستك
ما يجده الغريق للنجاة ، وأعتقد في مجاورتك ما يعتقده الجبان في الحياة .
متى تخطيء الأيام في أن أرى بغيضاً ينائي أو حبيباً يقرب

ورأيت رغبتك في الكتاب الذي لم يتحرر ولم يتهذب ، وكيف
التفرغ لقضاء أرب ، والنشاط قد ولي وذهب ، فما أجده إلا كما قيل :
نزرأ كما استكرهت عائر نفحة من فارة المسك التي لم تفتق
وبعد فقد رأيت مما ترجم له صاحب القلائد كيف طعن عليه لادمانه
ابنة العنقود وكيف شهد ضمناً بأنه يمتنع عن تعاطيها في شهر رمضان
أي أنه مؤمن بخطيئته . والغالب أن طول عشرته للملوك والامراء جنت
عليه من هذه الناحية فزادته غراماً بالحجر ، وحسناته الكثيرة تغفر له
هذه الزلة ولو لم يكن من كبار العلماء ما كانت تعد شيئاً يذكر ،
والسكاري أكثر من الصحاء .

وأهم ما وضع أبو عبيد من النأليف معجم ما استعجم ذكر فيه جملة
ما ورد في الحديث والأخبار والنواريخ والأسفار من المنازل والديار
والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار
منسوبة محدودة . وأفاض في المقدمة في الكلام على جزيرة العرب وحدودها
وقبائلها وما الى ذلك من الفوائد الجغرافية واللغوية والنحوية . وعده
السيوطي في النحاة وترجم له في طبقاتهم .

رتب أبو عبيد معجمه على حروف ابي جاد ، وهي طريقة المغاربة في
المعاجم وغيرها ، وذلك لتسهيل عليه المبالغة في التنقيح في كل صفحة من
صفحاته ولكتابته من اسمه نصيب (معجم ما استعجم) وكان ، كما قال احد
علماء المشرقيات ، ضرورياً يرجع اليه في دراسة التاريخ القديم وعلم تقويم
البلدان وشعراء الأقدمين والحديث . وعلق أستاذنا طاهر الجزائري على
نسختنا ان عدد الأسماء التي في هذا المعجم نحو ٤١٠٠ ، وأما الأبيات فهي
أكثر من ذلك بكثير .

ورزق أبو عبيد حظاً كبيراً من النقد يشهد له معجمه الذي طبقت
الآفاق شهرته ، وكان آية تدقيقه وضبطه ، وكذلك كان كتابه « التنبيه على
أوهام ابي علي في أماليه » نقد فيه أمالي ابي علي القالي ، وفيه ايضاً مثال

من أدبه الجيم ، قال في مقدمته : « هذا كتاب نبهت فيه على أوهام ابي علي في أماليه تنبيه المنصف لا المتعسف ولا المعاند ، محتجاً على جميع ذلك بالشاهد والدليل . فاني رأيت من تولى مثل هذا من الرد على العلماء ، والاصلاح لاغلاطهم والتنبيه على أوهامهم ، لم يعدل في كثير مما رده عليهم ، ولا أنصف في جمل مما نسب اليهم ، وأبو علي رحمه الله من الحفظ وسعة العلم والنبيل ، ومن الثقة في الضبط والنقل ، بالمحل الذي لا يجهل ، وبحيث يقصر عنه من الثناء الاحفل ، ولكن البشر غير معصومين من الزلل ، ولا مبرئين من الوهم والحطل ، والعالم من عدت هفواته ، وأحصيت سقطاته . وكفى المرء نبلاً ان تعد معايبه » . وبهذا الادب نقد ذاك الراوية العظيم المشهود له في كل نادٍ فدل أيضاً على صفاء نفسه وعالي خلقه .

هذا غاية ما عرف من سيرة فريد قطره ووحيد فنه ، ابن الاندلس العظيم في عهد ترددها السياسي ، وقد وقاه الله شر السياسة فلم ينغمس فيها كما انغمس أجداده ، فأحبه ملوكهم وأخذوا يتهادونه ووسيلته اليهم بل وسيلتهم اليه ادبه وعلمه . ألقته نفوسهم واغتبطوا بمنادمته فأعطى لكل عمل وقته ، حقق وأجاد في تحقيقه ، وأبدع فأحسن في ابداعه ، لا تقول وانت تنظر في موضوعاته وهي بما لا تقبله كل الاذواق الا أنك في صحابة رجل جذّاب الحديث يأخذ كلامه بجماع القلوب وأنه تمثل ما حمل عن أولئك العظماء ، ولا سيما ابن حيان مؤرخ الاندلس وكاتبه الا كتب . واذا لم تكتب له الشهرة من طريق السياسة وفيها ما فيها من اضاعه العمر على الاكثر ، فقد كتبت له الشهرة بتأليفه ، وكانت بيئته صالحة كل الصلاح لمن كان في مثل حاله من المؤلفين ، عرف ما عند المشايخ وما عند الخاصة والعامه وما عند الملوك والعظماء ووقف على ما يجري في مجالسهم وما تجول فيه أفكارهم .

(٢٤)

الراغب الاصفهاني

الحسين بن محمد

(٥٠٢)

لاتصال العلماء والأدباء برجال السلطان وتصرفهم لهم في القضاء والعمالات او تقريبهم منهم بالمناداة والتأديب والشعر دخل كبير في استفاضة شهرتهم وتناقل آرائهم وتأليفهم . ولم من عظيم لم يتول قضاء ولا عملاً للدولة بقي على خمول لا يكاد يشعر به ، ولا يعرفه غير بعض ابناء حيتّه ، ومنهم على ما يظهر الراغب الاصفهاني .

لم يتوهم له حتى اصحاب الطبقات من اهل مذهبه وغاية ما اتصل بنا من أخباره انه كان صاحب لغة وعربية وحديث وشعر وكتابة وأخلاق وحكمة ، وانه عارف بعلوم الأوائل وغير ذلك ، وانه كان مقبولاً عند الخاصة والعامّة ومن أئمة السنة شاعبي المذهب ، وقرنوه بالغزالي ، وقيل ان الغزالي كان يستصحب كتابه الذريعة ويستحسنه لنفسه ، وان القاضي البيضاوي اعتمد على كتابه مفردات الراغب في التفسير .

أما ابن قرأ الراغب وعمن اخذ ، وكيف نبغ وكيف نفع الى غير ذلك من خصائصه وحليته ورحلته فلم نقف على شيء منه يبلّغ الغلة . وكانت اصفهان في أيامه عش العلماء والأئمة على ما كانت نيسابور ، لم تكد تخرج مدينة من المدن في فارس امثالهم في كل فن ولا سيما الحديث وحفاظه على اننا لانعرف ان كان الراغب نشأ في تلك المدينة الجميلة ام أنها موطن أسرته وهو عاش في مدينة أخرى من فارس .

وكان لسان الحال نادى من غفلوا أو تغافلوا عن التنويه به في كتبهم :
انكم ياهؤلاء اذا اهلتموني فالقدرة تعلقت بأن تناقل الناس كنيي وانتفعوا
بها في مختلف الاعصار والافطار . وهل يستغني طالب الوقوف على اسرار
التنزيل عن الأخذ من كتابه « المفردات في غريب القرآن » وقد شاع
بين الناس باسم « مفردات الراغب » ؟ وهل تسد حاجة المتفقه بغير كتابه
« الذريعة الى مكارم الشريعة » اذا اراد الجمع بين احكام الشرع ومكارمه
علماً وعملاً ؟ وهل يتم أدب المتأدب اذا لم يأخذ من كتابه « محاضرات
الادباء ومحاولات الشعراء والبلغاء » الذي اطلق عليه الناس اسم « محاضرات
الراغب » تخفيفاً فاقترن باسمه على الدهر ؟ وهل المتعلم في غنية عن مدارس
كتابه « تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين » .

الراغب لا يتكلم عن نفسه ، بل ينقل في العلم والأدب - اللهم اذا
حكمتنا عليه بما بقي لنا من تمتع تراثه هذا ، وهي الكتب الاربعة السابقة
- كلام من تقدمه ويضع الدساتير ويحتط الحطط ، وقد امتاز بأن العقل
يتجلى في سطره ، فهو من أعظم العلماء الذين يحسنون استخراج الآي
من القرآن ويوردونها عند الاقتضاء دليلاً على ما يريدون الاضافة فيه .
ومن اعظم من طبقوا الحكمة أي علم العقل على الشرع ، كما امتاز
بتنسيق فصول كتبه وسهولة عبارتها مع بلاغتها ، واقتصاره في
تقريره على ما يجب ان يبقى في الذهن ولا تعافه النفس لطوله
ولفه ودورانه .

يقول لك الراغب في المفردات « ان اول ما يحتاج ان يشتغل به من
علوم القرآن العلوم اللفظية ، ومن العلوم اللفظية تحقيق الالفاظ المفردة
فتحصيل معاني مفردات الفاظ القرآن في كونه من اوائل المعاون لمن
يريد ان يدرك معانيه كتحصيل اللب في كونه من أول المعاون في
بناء ما يريد ان يبنيه ، وليس ذلك نافعاً في علوم القرآن فقط ، بل هو
نافع في كل علم من علوم الشرع ، فالفاظ القرآن هي لب كلام العرب

وزيدته وواسطته وكرامته ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكام في أحكامهم
وحكمتهم ، واليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ...»
ويقول لك في الذريعة انه باكتساب المكرمة يستحق الانسان ان
يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعني بقوله تعالى : « اني جاعل في الارض
خليفة » ، وبقوله تعالى « ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون »
وبقوله تعالى : « وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضكم فوق
بعض درجات ليباؤكم فيما آتاكم . » وان خلافة الله عز وجل لا تصح
الا بطهارة النفس كما ان اشرف العبادات لا تصح الا بطهارة الجسم .
ويقول لك في تفصيل النشأتين ان العقل لن يهتدي الا بالشرع والشرع
لا يتبين الا بالعقل فالعقل كالاس والشرع كالبناء ، ولن يغني أس مالم
يكن بناء ، وان يثبت بناء مالم يكن أس . وأيضاً فالعقل كالبصر
والشرع كالشعاع ولن يغني البصر مالم يكن شعاع من خارج ، ولن
يغني الشعاع مالم يكن بصر ، ولهذا قال الله تعالى « لقد جاءكم من الله
نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم
من الظلمات الى النور باذنه » ، وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي
يمده فان لم يكن زيت لم يحصل السراج ومالم يكن سراج لم يضيء الزيت
قال الله تعالى « الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح
المصباح في زجاجة الزجاجه كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة
زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، نور على
نور يهدي الله لنوره من يشاء » والله هو الهادي ، وأيضاً فالشرع عقل من
خارج العقل شرع من داخل وهما متعاضان بل متحدان ولكون الشرع
عقلاً من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من
القرآن نحو قوله : « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » ، ولكون العقل شرعاً
من داخل قال في وصف العقل « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل
لخلق الله ذلك الدين القيم » فسمى العقل ديناً ولكونها متحدتين قال « نور

على نور» اي نور الشرع ونور العقل ثم قال «يهدي الله لنوره من يشاء» فجعلها نوراً واحداً ، فالشرع اذا فقد العقل عجز عن أكثر الامور عجز العين عند فقد الشعاع .

بينما يقول لك هذا اذا به في محاضراته اديب لا يتورع عن نقل كل ما ندعوه بالادب الواقع أو المكشوف في جملة ما ينقل من فرائد الشعر ويتيمات النثر ، هو هناك اديب على أكمل وجه عرف به اديب ويقول «ومن لا يتحلى في مجلس اللهو الا بمعرفة اللغة والنحو كان من الحصر صورة بمثلة أو بهيمة مهملة ، ومن لا يتبع طرفاً من الفضائل المخلدة من السنة الاوائل كان ناقص العقل .

ويبدأ كتابه بباب العقل والعلم . فهو معلم صادق في كل ما كتب لا يجب التزم ويبعد عن التقية ، ويلقنك ما يعتقد صحته وفصاحته بدون مواربة . كتب كتابه هذا لأمير من أولئك الامراء على ما يظهر وخاطبه بسيدنا عمر الله بمكانه مراتب الكرم ، ليجعل هذه المحاضرات «صيقل الفهم ومادة العلم» لانه كان ممن سلك في زمانه طريقاً قلَّ سالكوه ، جعل مراعاة الادب شعاره ودثاره .

قالوا ان فضل الراغب ، صاحب اللغة والعربية والحديث والشعر والكتابة والاخلاق والحكمة وعلوم الاوائل وغير ذلك ، أشهر من ان يوصف . وفي «روضات الجنات» : كفاه منقبة أن له قبول العامة والخاصة أي اهل السنة والشيعة .

هذه ننتفة من سيرة عظيم الشرع ونابعة العقل ، ولم نعرفه إلا كما عرفنا أكثر العلماء ، مثلهم لاعيننا كباراً من أول يوم وما وقفوا على بيوتهم ونشأتهم ودراساتهم وشيوخهم ومعاشرهم وصفاتهم وما وقع لهم من الاحداث في حياتهم بما كانوا لا يرون فيه كبير أمر ومن لا نتصور الرجال الا به .

(٢٥)

الغزالي

أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي

(٥٠٥)

من الرواة من يشددون الزاي من الغزالي ومنهم من يخففها وهي الرواية الشائعة . ولد أبو حامد بطوس من بلاد خراسان سنة خمسين وأربعمائة ، وقيل انه ولد في غزاة من أعمال طوس ، وقيل كان والده يفتل الصوف ويبيعه . وحرص الأب على ان يكون ابنه فقيهاً لجه الفقهاء واختلاطه بهم ، وادعى به وبأخيه احد الصوفية وقال انه يأسف أسفاً عظيماً على عدم تعلمه الحظ وأشتهى استدراك ما فاتني في ولدي هذين ، فعلمهما ولا عليك ان تنفذ جميع ما أخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما الى ان فني المال فجعلهما في مدرسة ليحصلوا على قوتها . وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأبى الا ان يكون لله .

قرأ أبو حامد في صباه طرفاً صالحاً من الفقه ببلده ثم سافر الى جرجان واتصل بابي نصر الاسماعيلي ، وعلق عنه التعليقة ، ثم رجع الى طوس ، ثم قدم نيسابور ولازم امام الحرمين ، ونبغ في أيام استاذة هذا وصنف وهو شاب قال سبط ابن الجوزي : وتفقه على ابي المعالي الجويني وبرع في النظر في مدة قريبة وفاق الاقران وتوحد وصنف الكتب الحسان في الاصول والفروع التي تفرد بحسن وضعها وترتيبها وتحقيق الكلام فيها حتى انه صنف في حياة استاذة الجريني فنظر في كتابه المسمى بالمتحول فقال : دفنتني وأنا حي هلا صبرت حتى اموت ، واراد ان كتابك قد غطى على كتابي . ولما هلك استاذة قصد الوزير نظام الملك ، وكان

مجلسه بجمع أهل العلم وملازمهم ، فناظر العلماء فاعترفوا بفضله فولاه التدريس في المدرسة النظامية ببغداد فقدمها في سنة اربع وثمانين واربعمائة ، فأعجب الخلق حسن كلامه وإكمال فضله وفصاحته ، وبعد سنين قضاها في النظامية خرج الى الحج ودخل دمشق وبيت المقدس ، ثم عاد الى جلق وأخذ يطوف الاصقاع ، فدخل مصر وتوجه منها الى الاسكندرية فأقام بها مدة حاول على ما يظهر ان يركب البحر من الاسكندرية الى المغرب ليلتحق بان تومرت صاحب الدولة هناك . وكان جاء العراق وأخذ عن ابي حامد مذهب الاشعري فلما عاد الى المغرب قام في المصامدة يفقههم ويعلمهم . فلما بلغت ابا حامد وفاة ابن تومرت رجع . وقيل ان الغزالي كان يبطن مذهباً سياسياً اراد ان يتعاون مع تلميذه ابن تومرت على تحقيقه خدمة للدين أو بغية قيام دولة فتيه . وعاد ابو حامد الى نيسابور ودرس مدة بالمدرسة النظامية ، ثم رجع الى طوس واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاهاً للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من تلاوة القرآن ومجالسة ارباب القلوب وتدريس طلبة العلم ، الى ان انتقل الى جوار ربه .

خلق الغزالي صوفياً ومارس التصوف زمناً ، ولكن العلم غلب عليه فتبحر في الفقه والكلام والفلسفة ، ورزق لساناً بليغاً وقلماً سيالاً وحافظة نادرة وذاكرة واعية وجراحة لايني معها عن الصدع بالحق الذي عرفه ، والنور الذي قذف في قلبه ، وكثيراً مانعى على علماء السوء الذين نافقوا في دينهم ، وتقربوا من الأمراء والسلاطين بالعبث بالدنيا والدين . وان رجلاً يحضر مجلس درسه في النظامية ببغداد ثلثائة عالم من الأعيان المدرسين ، وأكثر من مائة من أبناء الأمراء ، لأهل أن يحسد ويسعى به الى الملوك . ولقد طعن في بعض كتبه المصنفة في أسرار المعاملات فقام المشاغبون يزعمون ان فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين والمشايع المتكلمين وقالوا ان العدول عن مذهب الأشعري ولو في قيد شهر كفر ، ومباينته ك(١٨)

ولو في شيء نزر ضلال وخسر ، فكتب رسالة « التفرقة بين الاسلام والزندقة »
وبما قال فيها : « واستحق من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر
أو الضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله
عليه وسلم وقد قالوا انه مجنون من المجانين ، وأي كلام أجل وأصدق من
كلام رب العالمين وقد قالوا انه أساطير الأولين . وإياك ان تشتغل بخصامهم ،
وتطمع في افحامهم ، فتطمع في غير مطمع ، وتصوت في غير مسمع ،
أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد ترجى سلامتها الا عداوة من عاداك من حسد
قيل انه صنف الاحياء في دمشق وقت اغترابه فانفتح الخلق به
لاحتوائه على أدب الشريعة بأسلوب مرتب منظم حتى قال فيه بعض المحققين
لو لم يكن للناس من الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم
بين النقل والنظر والفكر والاثر غيره لكفى » وغالى بعضهم فقال : لو
ضاعت الشريعة لأجزأ الاحياء عنها . لا جرم انه كتاب التربية الاسلامية
العالية مشوب بقليل من التصوف والدعوة الى مجاهدة النفس والعزوف عن الدنيا .
أملى المؤلف من ذلك اجزاءً كبيرة فيها افاضة في كل ما أثر . ولو
كان فيه الضعيف من الأثر . وكل ما فيه ينم عن فكر على أي حال
طبق فيه الغابر على الحاضر ، وأبدع في التأليف وتفنن في حصر مسائل
بعينها ومناقشتها . فالاحياء كتاب حمل ماجاء عن الشارع ، يخلص منه
قارنه الى مارآه مؤلفه من البدع والضلالات ورده باعتدال . ولما كانت
التصوف غالباً عليه خصوصاً في أخبار أيامه رشح قلته منه بالضرورة
رشحات لا يقول بأكثرها بعض الراسخين في العلم من الأقدمين والمحدثين ،
لأنها تهدد الناس في الحياة ، والحياة تتوقف على عمل وجهاد ، وهذا ما فهم
من روح الشريعة . وكان الغزالي طلب الكثير من المؤمنين ليصح له
القليل ، وهو بمن لا يرى التضييق والخرج ، ويقول ان من أشد الناس
غلواً واسرافاً طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا ان من

لا يعرف الكلام معرفتهم ، ولم يعرف العقائد الشرعية بأدلتهم التي حرروها فهو كافر . فقال « انهم ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده اولاً ، وجعلوا الجنة وفقاً على شذمة يسيرة من المتكلمين » .

حمل الاحياء آراء كثيرة للغزالي كاد يتفرد بها منها : الشيخ في قومه كالنبي في أمته ، وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته ، بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله ، ولذلك ترى الاتراك والاكراد واجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ومنها : فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد فكيف في القرى والبوادي ومنهم الاعراب والاكراد والتركمانية وسائر اصناف الخلق . ومنها : ان الفتوى قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جهة الفروض المهجلة ولا يلتفت الفقهاء اليها واقربها الطب اذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتماد شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعاً ، ولا يرغب احد من الفقهاء في الاشتغال به . ومنها في الكلام على غرام بعض الفقهاء في المناظرات : ولا ترى المتناظرين يهتمون بانتقاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيتسع مجال الجهل فيها . اطلق الطبوليات والطبول على المسائل التي يراد بها الشهرة . ومنها : ولا ينفك المناظر عن التكبر على الاقران والامثال والترفع الى فوق قدره ، حتى انهم ليتقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها ، والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق .

من أجمل الظاهرات في تأليف الغزالي انه يبسط الكلام ويأتي بحجج خصومه وينقضها على نظام مدقق ، ففي كتاب تهاافت الفلاسفة ، قال ان أقوم الفلاسفة بالنقل والتحقيق من المتفلسفة في الاسلام العارابي ابو النصر وابن سينا ، فاقصر على ابطال ما اختاروه ورأوه الصحيح من مذهب رؤسائهم ، ورأى تكفيرهم في ثلاث مسائل فقط : قدم العالم وقولهم ان

الجواهر كلها قديمة وقولهم ان الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الاشخاص ، وانكارهم بعث الاجساد وحشرها .

قال وما عدا هذه المسائل الثلاث من تصرفهم في الصناعات الالهية واعتقاد التوحيد فيها فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة ، ومذهبهم في تلازم الاسباب الطبيعية هو الذي صرح المعتزلة به في التولد ، وكذلك جميع ما نقلناه عنهم قد نطق به فريق من فرق الاسلام الا هذه الاصول الثلاثة فمن يرى تكفير اهل البدع من فرق الاسلام يكفرهم أيضاً ومن يتوقف عن التكفير يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل .

وصرح بمثل هذا في كتابه « الافتصاد في الاعتقاد » فقال الذين يصدقون بالصانع والنبوة ويصدقون النبي ولكن يعتقدون أموراً تخالف نصوص الشرع ويقولون ان النبي محق ، وما قصد بما ذكره الا صلاح الخلق ، ولكن لم يقدر على التصريح بالحق لكال افهام الخلق عن دركه ، وهؤلاء هم الفلاسفة ويجب القطع بتكفيرهم في ثلاث مسائل : انكارهم حشر الاجساد والتعذيب بالنار والتنعيم في الجنة وقولهم ان الله لا يعلم الجزئيات وانما يعلم الكلليات وقولهم ان العالم قديم وان الله تعالى متقدم على العالم بالرتبة . ولولا ان الحوض في مباحث الفلسفة يخرجنا عن موضوعنا لنقلنا زبدة ما رده ابن رشد على الغزالي في كتابه « تهافت التهافت » وهو الكتاب الذي كسره فيلسوف الغرب في الاسلام على نقد تهافت الفلاسفة للغزالي . ولا يزال الفقهاء والفلاسفة مختلفين منذ انتشرت الفلسفة في الامة الاسلامية . كل يصحح رأيه ويومي مخالفه بالبهتان والضلال .

افتح أي كتاب أو رسالة من تأليف الغزالي تقع في الحال على منزعه وتنشق ريح تصوفه وتدرك مبلغ عطفه على المتصوفة وهو الذي اعتقد ان « حاصل علمهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى » . وكان عنده ان اصناف الطالبين اربع فرق : المتكاملون والباطنية والفلاسفة

والصوفية ، وقال انه درس مذاهب هؤلاء كلها درساً عميقاً ثم تعلق قلبه بالصوفية . ورأى الثلاث الفرق الأولى ليست الطريق الموصل الى الحق ، فحاول ان يحمل الناس على الأخذ بنزعة ما نزع اليها لولا مزاج خاص فيه ، عيننا بذلك التصوف . وهذه نقطة الضعف في الغزالي أعلم علماء الشافعية على الاطلاق ، وأي كبير او أي انسان تجرد من الضعف . وكتابه « المنقذ من الضلال » هو تقايد ما عرض له من أول أمره الى قبيل وفاته بسنين قليلة قال فيه : « ولم ازل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد أناف السن على الحسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، واتهمج على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ... وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريمان عمري ، غريزة وفطرة من الله وضعنا في جبتي لا باختيارى وحيلى . حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة » .

ورأى علم الكلام بعد ان حصله وعقله وصنف فيه غير واف بمقصوده فتركه ، وبعد الفراغ منه أخذ بالتعمق في الفلسفة لأن « من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي اعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته » لا يعني الغناء المطلوب . قال : انه لم ير أحداً من علماء الاسلام صرف همته وعنايته الى ذلك فاستبان له الضرر من علوم الفلاسفة بعد البحث الشديد ، ونظر كذلك في مذهب التعليم أو الباطنية ، وبعد أن وصفهم ووصف علومهم قال : فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تقابلهم ، فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضاً .

ووصف السبب الذي حدها على ترك التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد ، وقد تولى التدريس فيها أربع عشرة سنة كان فيها موضع اعجاب

العلماء ، فقال انه رأى الا مطمع له في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكفّ النفس عن الهوى ، وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، ورأى نيته في التدريس غير خالصة لوجه الله ، بل باعثها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فصمم على الخروج من بغداد ، وشهوات الدنيا تتجاذبه سلاسلها الى المقام ، ومناذي الايمان يناديه : الرحيل الرحيل . فلم يزل يتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة اشهر ، أصيب خلالها بشيء من عقدة اللسان ، وقطع الاطباء طمعهم عن العلاج ، فصح عزمه على مغادرة تلك البلاد معرضاً عن الجاه والمال والاهل والولد والاصحاب ، وأظهر عزمه على الخروج الى مكة وهو يورثي في نفسه سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمه في المقام بالشام ، فتلطف بلطائف الحيل في الخروج عن بغداد على عزم أن لا يعاودها ، واستهدف لائمة أهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الاعراض عما كان فيه سبباً دينياً . قال وكان ذلك مبلغهم من العلم « ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخساً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم أصلح منه » .

قال : « ثم دخلت الشام وأقيمت به قريباً من سنتين لاشغل لي الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالياً بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصد منارة المسجد طول النهار وأغلقت بابها على نفسي » . قال ثم تحركت فيه داعية فريضة الحج ولم يذكر هنا أنه زار مصر ودخل الاسكندرية الى أن قال : ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به اني علمت يقيناً

أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق الى آخر قوله .

قال : وبعد طول الغربية وألحاح الأهل بالعودة ، أمر سلطان الوقت ، من نفسه لا بتجريك من خارج ، أمر الزام بالنهوض الى نيسابور لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً كاد ينتهي لو أصررت على الخلاف الى حد الوحشة ، وبعد أن استشار جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات عرف أن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ، وقدر عليه سبحانه باحياء دينه « يشير الى ماورد في الاثر من أن الله تعالى يبعث لهذه الامة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها . وبعد عزلة احدى عشرة سنة عاد الى نيسابور .

كتب الغزالي زهاء سبعين مصنفاً بين كتاب في مجلدة أو مجلدات وبين رسالة . طبع منها لحسن الحظ نحو خمسين بنيت أكثرها على فكر خاص ذات موضوع تشتد حاجة المسلمين اليه . وألف بالفارسية كتاب « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » وعربه غيره و « عمدة المحققين وبرهان اليقين » ألفه للسلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي . وكتب بالفارسية كيمياء السعادة وخلاصة التصانيف . ومن تأليفه « فضائح الباطنية » أهداه الى الخليفة المستظهر العباسي وكتبه بإشارته على ما يظهر ، وله « القسطاس المستقيم » و « المضمون به على غير أهله » ومن أجل كتبه « المستصفي » في الاصول ، وعلم الفقه وأصوله ، يأخذ كما قال من صفو الشرع والعقل سواء السبيل فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبني على محض التقليد الذي لا يشهد له العقل بالتأييد والتسويد « يقول شيخنا العلامة طاهر الجزائري ان أهم الكتب التي ألفت في هذا العهد على طريقة المتكلمين أربعة كتب كتاب البرهان لامام الحرمين والمستصفي للغزالي ، وهما من أهل السنة ، وكتاب العمدة للقاضي عبد الجبار وشرحه المعتمد لأبي الحسين البصري وهما من المعتزلة .

ومن تأليفه « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » يريد به العروج من مدارج معرفة النفس الى معرفة الحق جل جلاله يعتمد في فهمه على المنطق « أما الجامد البليد الذي يأخذ العلم بالتقليد ، فهو عن معرفة مثل هذه العلوم بعيد ، اذ كل ميسر لما خلق له » .

ولم تصادف كتب الغزالي اجماعاً على قبولها واعلمها أحرزت أكثرية ، فأصحاب الحديث ومنهم ابن تيمية يزيفونها ، والمتصوفة ، على ما غمست فيه من التصوف ، لم يرضوا كثيراً عنها ، مع أن كتبه من أحسن ما كتب في عصره وفي العصور الاخيرة في معنى التصوف . يقول ابن تيمية في النبوات : ان أبا حامد الغزالي بين علماء المسلمين وبين علماء الفلاسفة ، علماء المسلمين يذمون على ما شارك فيه الفلاسفة مما يخالف دين الاسلام ، والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الاسلام ، وعلى كونه لم ينسلخ منه بالكافية الى قول الفلاسفة ، ولهذا كان الحفيد ابن رشد ينشد فيه :

يوماً يان اذا ما جئت ذا بين وان لقيت معدياً فعدنان

ولما دخلت كتب الغزالي المغرب أمر أمير المسلمين باحراقها ، وتوعد بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال الى من وجد عنده شيء منها ، واشتد الامر في ذلك ثم رفع عنها هذا الحرج وضعف التضييق عن كتبه والنظر فيها .

وذمه أبو نصر القشيري على الفلسفة ، وكانوا يقولون أبو حامد قد أمرضه الشفاء - كتاب شفاء ابن سينا - ولبعض العلماء كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة ، واعلماء الاندلس في ذلك مجموع كثير . وذكروا أن الغزالي قال في ميزان العمل : ان الفاضل له ثلاث عقائد عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلاً ، وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم كالكلام ، الثالثة لا يطلع عليه أحد الا الخواص ، ولهذا صنف الكتب المضمون بها على غير أهلها وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك ابن سينا .

قال ابن الجوزي في « تلبيس ابليس » ان أبا حامد صنف للصوفية كتاب الاحياء على طريقة القوم ، وملاه بالأحاديث الباطلة وهو لا يعلم بطلانها ، وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه ، وقال كلاماً من جنس كلام الباطنية . وان الصوفية في حال يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور الى درجات يضيق عنها نطاق العقل ! . وقال سبط ابن الجوزي في المرآة ان الغزالي أخذ في تصنيف الاحياء في القدس ثم تمه في دمشق الا أنه وضعه على مذهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه .

وكيف كان حكم بعض العلماء على الغزالي فان الهنات التي عزوها اليه لا تقدر كثيراً في كتبه ، ومن سعادته أن آراءه تنوقلت وهو حي حتى قال انه سمع مرة أحد المدرسين في دمشق يقول : وقال الغزالي ، فترك البلد من الغد ، والناس لا يعرفون ان الغزالي حاضر في الدرس ، قال انه فعل ذلك مخافة أن يقع في الغرور .



(٢٦)

الحريري

ابو محمد القاسم بن علي البصري

(٥١٦)

الحريري نسبة لصنع الحرير أو بيعه ، نشأ الحريري عليها ثم تركها وانقطع للعلم والادب ، فبرز في النحو واللغة وفي النثر والشعر ، ولقب بالشيخ الرئيس ، وتولى في بلده « المشان » على مقربة من البصرة منصب صاحب الخبر (الاستخبارات) واشتهر بالغنى ، ويحكى أنه كان يملك ثمانية عشر ألف نخلة وكان يغشى منزله في البصرة عطاء القوم وفضلاؤهم . وقال سبط الجوزي : ولم يزل الحريري صاحب الخبر بالبصرة في ديوان الخليفة ، ووجدت هذا المنصب لاولاده الى آخر العهد المقتفوي ، وله رسائل معجبة وكلام غريب كالضرب ماله ضرب . . . كان مسكنه البصرة في محلة بني حرام وبيت عمله المشان .

هذا ما عرف من حياته المادية ، وحياته الادبية عظيمة ، وعظمتها بتأليف المقامات التي كانت كما قال فيها تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الادب ونواده ، الى ماوشحها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورضعه فيها من الامثال العربية ، واللطائف الادبية ، والاحاجي النجوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والحطب المحبرة ، والمواعظ المبكية ، والاضاحيك الملهية . وصفه ابن خلكان بأنه أحد أئمة عصره ، وورثه بالتقامات الحظوة التامة ، لما اشتملت عليه من كلام العرب من لغاتها وامثالها ، ورموز أسرار

كلامها ، قال : ومن عرفها حق معرفتها ، استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده ابو القاسم عبد الله قال : كان أبي جالساً في مسجد بني حرام فدخل شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح الكلام ، حسن العبارة ، فسأله الجماعة من أين الشيخ فقال : من سروج . فاستخبروه عن كنيته فقال أبو زيد ، فعمل ابي المقامة المعروفة بالحرامية وهي الثامنة والاربعون وعزاها الى ابي زيد المذكور واشتهرت فبلغ خبرها وزير المسترشد بالله ، قيل انه القاشاني وقيل ابن صدقة ، فاعجبته وأشار على والذي أن يضم اليها غيرها فأتها خمسين مقامة ، وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله : فأشار من اشارته حُكْم ، وطاعته غُثْم ، الى أن أنشيء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع . وأما تسمية الراوي بالحارث بن همام فانما عنى به نفسه ، وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم كلكم حارث وكلكم همام . فالحارث الكاسب والهمام الكثير الاهتمام . وما من شخص الا وهو حارث وهمام ، لان كل واحد كاسب يهتم بأموره .

قال الحريري : فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم - يوم رؤية أبي زيد السروجي - فضلاء البصرة فهكيت لهم ماشاهدت من ذلك السائل فحكى كل واحد منهم أنه سمع من هذا السائل في مسجده معنى آخر فضلاً بما سمعت ، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله فتعجبوا منه ، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات . عملها أربعين مقامة أولاً ثم حملها من البصرة الى بغداد وادعاها ، فلم يصدقه في ذلك جماعة من الادباء ، وقالوا انها ليست من تصنيفه بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت أوراقه اليه فادعاها ، فاستدعاه الوزير الى الديوان وسأله عن صناعته فقال : أنا رجل منشيء . فاقترح عليه انشاء رسالة في واقعة عينتها ، فانفرد في ناحية من الديوان وأخذ الدواة والورقة ومكث

زمناً كثيراً فلم يفتح الله سبحانه عليه بشيء من ذلك . فقام وهو
خجلان ، فلما رجع الى بلده عمل عشر مقامات آخر وسيّرهن واعتذر
من عيّه وحصره في الديوان مما لحقه من المهابة .

والغالب ان وظيفته الرسمية شهرت اسمه في البصرة وبغداد وهو لا يعدم
حيلة لبلوغ الشهرة . وكان في حياته يباهى بانه أمر بنسخ سبعمئة نسخة
من مقاماته ، وتعاورها الشراح بالشرح شأنهم في كل كتاب نفيس . وترجمت
في عهدنا الى عدة لغات ومنها الألمانية والانكليزية وعني بدراستها كثير
من المستعربين من علماء المشرقيات معجبين بها وبصاحبها .

فتح بديع الزمان الطريقي أمام الحريري بما أنشأ من مقاماته ، والبديع
أقرب الى عدم التكلف وتصنيع الحريري ظاهر ، الا أنه مقبول .
ومقاماته كلها متشابهة وموضوعاتها ليست مما يأخذ بالالباب . لاتبه القصة
التي وضع الافرنج طريقها ولا تشبه طريقة الأخبار على ما ترى مثلاً منها
في كتب طيفور والصولي والقاضي التنوخي وأبي حيان ، هي من نط
يكاد يكون جديداً او غير تلك الأنماط المتعارفة ، والمحور الذي تدور
عليه التفنن في ايراد الالفاظ وصياغتها على الاسلوب الذي عرف في عصر
الحريري وهو أرقى أسلوب في نظر الأدباء يومئذ .

طريقة المقامات بعيدة عن التوسع في الخيال والتفنن بما ترتاح اليه نفس
القاريء ، لأن طالب المقامات لا ينبغي منها الا اللغة أولاً وفي سبيل النقاط
دررها يغتفر هذا التكلف ، ولو خلت المقامات من هذا التحبير ما رزق
بها صاحبها هذه الحظوة ، وما تناقل طلاب الادب كلامه خلفاً عن سلف
وما تنافس في تفهم فصاحته من يقره على طريقته ومن لا يقره .

فالمقامات ينظر فيها الادباء أولاً الى النكت الادبية واللغوية وفيها
من الشعر المستملح قدر غير يسير ، وربما كان النقد الى نثره أكثر من
نقد شعره لان الشعر تستر عيوبه بقوافيه وأوزانه وليس كذلك النثر .
فمن سجع المتكلف وقد يقع له في أول المقامة قوله : « طعنت الى
دهياط عام هياط ومياط » « أزمعت الشخوص الى برقعيد وقد شمت

برق عيد ، « آنت من قلبي القساوة حين حلت ساوة » « يمت ميافارقين
مع رفقة موافقين » « عاشرت بقطيعة الربيع في ابان الربيع » « حلت
سوق الاهواز لابساً حلة الاعزاز » « الجاني حكم دهر قاسط الى ان انتجع
واسط » « اصعدت الى صعدة وأنا ذو شطاط يحكي الصعدة واشتداد يبدو
بنات صعدة » « فطوحت الى مرو ولا غرو » « ازمنت التبريز من تبريز
حين نبت بالذليل والعزير وختت من المجير والمجيز » « نزع بي الى حلب
شوق غلب وطلب ياله من طلب » الخ .

ويقال على الجملة ان اسلوب المقامات اسلوب خاص بدأه البديع وكمل بالحريري
والزحشري نضج . معها واحترق بعدهما . هو اسلوب لا يصلح للرسائل ولا للخطب
ولا للنأيف ، جعل لهذا النوع من الفكاهة والحكاية استعذبه أهل عصور السجع
ولذ لهم كثيراً فما حاسبوا صاحبه ان كان كلامه منظوياً على المعاني
والخيالات ، وبقيت للمقامات روعتها ما دام السجع رائجاً فلما كسدت
سوقه ، وكانت قائمة منذ القرن الثالث الى القرن الثالث عشر اي مدة الف
سنة ، زهد رجال الادب في هذا الضرب من الكلام الذي حرم الانسجام
وراحوا ينظرون في الكتب المسجوعة نظرم الى اثر تاريخي غريب يقدرون
نسجه ولا يتكلمون احتذاء مثاله .

وملاك الامر في السجع كما قال ابن الاثير في المثل السائر ان تكون
كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت
عليه اختها ، فان كان المعنى فيها سواء فذاك هو التطويل بعينه ، لان التطويل
انما هو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها ، واذا وردت
سجعتان تدلان على معنى واحد كانت احدهما كافية في الدلالة عليه ، وجل
كلام الناس المسجوع جار عليه ، واذا تأملت كتابة المفلقين بمن تقدم
كالصايي وابن العميد وابن عباد وفلان وفلان فانك ترى أكثر المسجوع
منه كذلك والاقبل منه على ما أشرت اليه . ولقد تصفحت المقامات
الحريرية والخطب النباتية على غرام الناس بها واكباهم عليها فوجدت
الاكثر من السجع فيها على الاسلوب الذي أنكرته . هذا ما قاله ابن

الأثير صاحب البأو العجيب بكلامه ، وسجعه ماخلا من هذه المأخذ ،
وسجع الحريري انما كان نمطاً خاصاً بالمقامات وهاكم نموذجاً من نثره
وبديع شعره في المقامة الدينارية :

روى الحارث بن همام قال : نظمني واخذاناً لي ناد ، لم يجب فيه
مناد ، ولا كبا قدح زناد ، ولا ذكت نار عناد ، فيينا نحن نتجاذب
فيه أطراف الاناشيد ، وتوارد طرف الاسانيد ، اذ وقف بنا شخص
عليه سهل ، وفي مشيته قزل ، فقال : يا أخاير الذخائر ، وبشائر العشائر
عموا صباحا ، وانعموا اصطباحا ، وانظروا الى من كان ذا ندي وندى
وجدة وجدى ، وعقار وقرى ، ومقار وقرى ، فما زال به قطوب
الخطوب ، وحروب الكروب ، وشرشر الحسود ، وانتياب النوب السود
حتى صفرت الراحة ، وقرعت الساحة ، وغار المنبع ، ونبا المربع ، وأقوى
المجمع ، وأفض المضجع ، واستحالت الحال ، وأعول العيال ، وخلت
المرايط ، ورحم الغابط ، وأودى الناطق والصامت ، ورتي لنا الحاسد
والشامت ، وآل بنا الدهر الموقع ، والفقر المدقع ، الى ان احتذينا
الوجى ، واغتذينا الشجى ، واستبطننا الجوى ، وطوينا الاحشاء على الطوى ،
واكتحلنا السهاد ، واستوطننا الوهاد ، واستوطننا القناد ، وتناسينا الافتداد ،
واستبطننا الحين المجتاح ، واستبطننا اليوم المتاح ، فهل من حرّ آس ،
او سمح مواس ، فوالذي استخرجني من قبلة ، لقد أمسيت أخا
عيلة ، لا أملك بيت ليلة .

قال الحارث بن همام فأويت لمفاقره ، ولويت الى استنباط فقره ،
فأبرزت دينارا ، وقلت له اختبارا ، ان مدحته نظماً ، فهو لك حتماً ، فانبرى
ينشد في الحال ، من غير انتحال :

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| أكرم به أصفر رافت صفرته | جواب آفاق ترامت سفرته |
| مأثورة سمعته وشهرته | قد أودعت سر الغفر أسرته |
| وقارنت نبح المساعي خطرته | وحببت الى الانام غرته |
| كأنما من القلوب نقرته | به يصول من حوته صرته |

وان تقاتت أو توانت عتوته يا حبذا نضاره ونضرتيه
وحبذا مغنانه ونضرتيه كم أمر به استتبت امرته
ومتوف لولاه دامت حسرتيه وجيش هم هزمتيه كرتيه
وبدر تم أنزلته بدوتيه ومستشيط تتلظى جمرتيه
أسر نجواه فلانت شرتيه وكم أسير اسلمته أسرتيه
أنقذه حتى صفت مسرتيه وحق مولى أبدعته فطرتيه
لولا التقى لقلت جلت قدوتيه

ثم بسط يده ، بعد ما أنشده ، وقال : انجز حرماً ما وعد ، وسح
خال اذ رعد ، فنبذت الدينار اليه ، وقلت له : خذه غير مأسوف
عليه ، فوضعه في فيه ، وقال : بارك الله فيه ، ثم شمر للثناء ، بعد
توفيه الثناء ، فنشأت لي من فكاهته نشوة غرام ، سهلت عليّ ائتشاف
اغترام ، فجردت ديناراً آخر وقلت : هل لك في أن تدمه ، ثم تضمه ،
فأنشد مرتجلاً وشدا عجلاً :

تباً له من خادع ، مذاق أصفر ذي وجهين كلناثق
يبدو بوصفين لعين الرامق زينة معشوق ولون عاشق
وحبه عند ذوي الخناثق يدعو الى ارتكاب سخط الخالق
لولاه لم تقطع يمين سارق ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا ائتماز باخل من طارق ولاشكا المطول مطل العائق
ولا استعيز من حسود راشق وشر ما فيه من الخلائق
ان ليس يعني عنك في المضايق الا اذا فرّ فرار الآبق
واهاً لمن يقذفه من حالق ومن اذا ناجاه نجوى الوامق
قال له قول الحق الصادق لا رأي في وصالك لي ففارق

فقلت له : ما أغزر وبلك ، فقال والشرط املك ، فنفتحته بالدينار
الثاني ، وقلت له عودهما بالثاني ، فألقاه في فمه ، وقرنه بتوامه ، وانكفاً
يحمد مغداه ، ويمدح النادي وزداه .

قال الحارث بن همام : فناجاني قلبي بانه ابو زيد ، وان تعارجه
لكيد . فاستعدته وقلت له قد عرفت بوشيك ، فاستقم في مشيك .
فقال : ان كنت ابن همام فحييت باكرام ، وحييت بين كرام ،
فقلت : انا الحارث ، فكيف حالك والحوادث ، فقال : أتقلب في الحالين
بؤس ورخاء ، وأنقلب مع الريحين زعزع ورخاء ، فقلت كيف ادعيت
القول ، وما مثلك من هزل ، فاستسره بشره الذي كان تجلي ، ثم
أنشد حين ولى :

تعارجت لا رغبة في العرج ولكن لأقرع باب الفرج
وألقي جبلي على غاري وأسلك مسلك من قد مرج
فان لامني القوم قلت اعذروا وليس على أعرج من حرج
ومن شعره الذي خلا من التكلف قوله :

إني امرؤ أبدع بي بعد الوجى والتعب
وشقتي شاسعة يقصر عنها خبي
وما معي خردلة مطبوعة من ذهب
فجملتي منسدة وحيروني تلعب بي
ان ارتحلت راجلاً حقت دواعي العطب
وان تخلفت عن الر فقه ضاق مذهبي
فزفرتي في سعد وعبرتي في صعب
وأنت منتجع ال راجي ومرمى الطلب
هناكم منهلة ولا انهلال السحب
وجاركم في حرم ووفركم في حرب
مالاذ مرتاع بكم فيخاف ناب النوب
ولا استدر آمل حياكم فما حي
فانعطفوا في مقى وأحسنوا منقلي
فلو بلوتم عيشتي في مطعمي ومشربي

لساءكم ضري الذي أسلمني للكرب
ولو خبرتم حسبي ونسبي ومذهبي
وما حوت معرفتي من العلوم النخب
لما اعترتكم شبهة في أن دائي أدبي
فليت اني لم أكن أرضعت ثدي الأدب
فقد دهاني شؤمه وعقني فيه أبي

وليس أجمل من هذا في الوصول الى الغرض الذي يتطلبه ابو زيد
السروجي بمن قصد اليهم ليقمش من مالههم . ومثال آخر :

إذا ما حويت جني نخلة
وأما سقطت على بيدر
ولا تلبث اذا ما لقط
ولا توغلن اذا ما سبه
وخاطب بهات وجاوب بسوف
ولا تكثون على صاحب

فمؤذجات لا تخلو من نكتة وخفة روح . ومن شعره في الحكمة :

لا تقعدن على ضر ومسغبة
وانظر بعينيك هل أرض معطلة
فعدّ عما تشير الانعيباء به
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به
واستنزل الري من در السحاب به
ومن الحكيم قوله :

لا تزر من نجب في كل شهر
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم
ومن شعره :

أخذ بجهلك ما يذكبه ذو سعة
فالعلم أفضل ما ازدان اللبيب به
من نار غيظك واصفح ان جني جاني
والاخذ بالعمو احلى ما جني جاني

وبقدر ما تحمل المقامات من ألفاظ وألغاز وأحاجٍ يحمل كتابه «درة الغواص في أوهام الخواص» من تحقيقات لغوية ونقد تراكيب صرت على الألسن والأفلام في عهده ، وهذا أيضاً نموذج من أسلوبه فيه : «... ومثله في اختلاف الرواية قول عروة بن أذينة :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
فروى أكثرهم لفظه الاسراف بالسین المغفلة وبعضهم بالسین المعجمة
ليكون معناها التطلع الى الشيء والاستشراق له وهو اختيار المرتضى
ابي القاسم الموسوي رحمه الله . ولهذا البيت حكاية تحث على استشعار اليقين
واعلاق الأمل بالخالق دون الخلقين فجنحت بها تحلية لعاطله ونبهة على
صدق فائده ، وهي ما روته من عدة طرق ان عروة هذا وفد على هشام
ابن عبد الملك في جماعة من الشعراء فلما دخلوا عليه عرف عروة فقال له
ألسنت القائل :

لقد علمت وما الاسراف من خلقي ان الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعنيني
وأراك قد جئت تضرب من الحجاز الى الشام في طلب الرزق فقال له :
لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ واذكرت ما أنسانيه الدهر .
وخرج من فوره الى راحلته فركبها وسار راجعاً نحو الحجاز . فمكث
هشام يومه غافلاً عنه ، فلما كان في الليل تعار على فراشه فذكره وقال
في نفسه : رجل من قريش قال حكمة ووفد اليه فجبته ورددته عن
حاجته ، وهو مع هذا شاعر لا آمن ما يقول . فلما أصبح سأل عنه
فأخبر بانصرافه فقال : لا جرم ليعلمن ان الرزق سيأتيه . ثم دعا بمولى له
وأعطاه ألفي دينار وقال له : الحق بهذه ابن أذينة فأعطه اياها فسار اليه
فلم يدركه الا وقد دخل بيته ، ففرغ الباب عليه فخرج فأعطاه المال .
فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له : كيف رأيت قولي سمعت
فأكدت ورجعت الى بيتي فأتاني فيه الرزق .

(٢٧)

الزخمشري

ابو القاسم محمود بن عمر

(٥٣٨)

ولد ابو القاسم الزخمشري سنة ٤٦٧ في قرية كبيرة من قرى زخمشري من بلاد خوارزم (وتوفي في جرجانية خوارزم) وأخذ العلم في بخارى وورد بغداد غير مرة ، وأخذ الأدب عن ابي الحسن علي ابن المظفر النيسابوري وتخرج بأبي مَضَرَّ محمود بن جرير الضبي الاصفهاني . وكان هذا وحيد دهره في علم اللغة والنحو والطب . أقام بخوارزم مدة وتخرج به جماعة من الأكابر منهم الزخمشري ، وهو الذي ادخل الى خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها ، فاجتمع عليه الحلق لجلالته وتمذهبوا بمذهبه ، ومنهم الزخمشري وكان حنيفياً فأخذ بمذهب أهل العدل والتوحيد وجاهر به .

أخذ أبو القاسم عن كثير من الشيوخ في خوارزم والعراق ، وجاور في مكة فتلقت بجار الله وفخر خوارزم . وما منعه من التنقل في الافطار ما كان من عاهة في رجله ، وكان أصابه في شبابه خراج فيها فقطعها ووضع عوضها رجلاً من خشب . وكان مقبولاً من القلوب كثير الاصحاب والتلامذة ، وعلل هو اشادة العلماء والشعراء بذكره بما رأوا من حسن النصح للمسلمين ، وبلوغ الشفقة على المستفيدين ، وقطع المطامع ، وعزة النفس ، والاقبال على خويسته . فهذه الصفات أورثته مكانة زادت في الاقبال عليه ، وحببت الاخذ عنه والانتفاع بكتبه .

كان جار الله اماماً في التفسير ، وتفسيره الكشاف من خير التفاسير

وهو المعتمد عند أكثر طلاب هذا العلم في عصرنا هذا وقبله ، وكتابه « أساس البلاغة » وفيه فرق بين الحقيقة والمجاز آية في التحقيق . واشتهر له بالطبع كتب أخرى وهذان الكتابان أجلهما . ومن كتبه « الفائق في غريب الحديث » لم يقتصر فيه على أحاديث الرسول بل تعرض لشرح احاديث الصحابة والتابعين وتابعيهم فهو كتاب جيد في بليغ القول جعله كأساس البلاغة على حروف المعجم وشرحه . ومن كتبه مقدمة الأدب ومقاماته ، واطباق الذهب في المواعظ والخطب ، واعجب العجب شرح لامية العرب وكتاب الجبال والامكنة والمياه ، والكلم النوابع أو نوابع الكلم ، والمفصل في صناعة الاعراب . وكلها مفيدة لا تخرج عن اللغة والاعراب ، والمفصل أمتنها وأفيدها لما حمل من شواهد تدعم القواعد ، أما طريقته في الانشاء فطريقة أهل القرن الخامس والسادس الا انها تنم عن تمككه في اللغة تمكناً عظيماً . ونعني بهذه الطريقة اعتماده على التسجيع في كلامه حتى كاد يأتي على محاسن كلامه ويذهب برونق بلاغته ، ولا نجبل القارىء الا على مقدمتي الكشف والأساس وهما كتاباه الخالدان ، ولو عرتنا من السجع لاستجمعتا أسباب النكال كله ، وكذلك مقاماته وأطوافه ونوابغ كله . ومن رأيه « ان ما سماه الناس البديع من تحسين الالفاظ وتزينها بطلب الطباق فيها والتجنيس والترصيع لا يملح ولا يبرع حتى يوازي مصنوعه مطبوعه ، والا فما قلق في أماكنه ، ونبا عن موافقه ، فمنبوذ بالعراء ، مرفوض عند الخطباء والشعراء » .

واضطلاع الزمخشري باللغة اضطلاع اللغوي الذي تمثل مانقل وبوبه ونسقه وأبرزه في قالب أخرجه من جفاف اللغة بعض الشيء . ومن يطالع كتبه يستفيد لغةً وألفاظاً وتراكيب فصيحة ، أما البلاغة وهي في السبك فأمر ثان ، ذلك لأن عصره متأخر وهو يقصد في الكشف والمفصل ومقدمة الأدب امداد من يريد اتقان العربية بالمادة اللازمة باديء بدء ، ثم هو وان درس دراسة عظيمة قل ان يتيسر مثلها لغير أبناء العربية لا يخرج عن

كونه أعجبياً وبيئته غالبه عليه ، على كثرة مقامه في أرض العرب ، قالوا : وكان لا ينطق بلغته الاصلية الا اذا أراد ان يشرح شيئاً لمن يأخذون عنه ، والا فهو يتكلم العربية ، وقد فاخر في مقدمة الفصل بنفسه فقال : الله احمد على ان جعلني من علماء العربية . وجباني على الغضب للعرب والعصية . وحمده على ان لم ينضو الى لفيف الشعوبية قال : ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون ان يخفصوا مارفع الله من منارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجبهم خلقه ولكن في عربيه ، لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج ، وزيفاً عن سواء المنهج ، والذي يقضي منه العجب حال هؤلاء في قلة انصافهم ، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك انهم لا يجدون علماً من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية بين لا يزيع .

ان الرجل الذي ضرب به المثل في علم الادب وكان الغاية في ادب النفس والعزوف عن الدنيا لم يخل من حساد أيضاً ، ومن كلامه يخاطبهم :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| اذا سألوا عن مذهبي لم ابع به | وأكتمه كتمانته لي أسلم |
| فان حنفياً قلت قالوا بأنني | أبيع الطيلا وهو الشراب المحرم |
| وان مالكياً قلت قالوا بأنني | أبيع لهم أكل الكلاب وهم هم |
| وان شافعيماً قلت قالوا بأنني | أبيع نكاح البنت والبنت تحرم |
| وان حنبلياً قلت قالوا بأنني | تقبل حلولي بغيض مجسم |
| وان قلت من أهل الحديث وحزبه | يقولون تيس ليس يدري ويفهم |
| تعجبت من هذا الزمان وأهله | فما أحد من ألسن الناس يسلم |
| وأخرفني دهري وقدّم معشراً | على أنهم لا يعلمون وأعلم |
| ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني | أنا الميم والأيام أفلح اعلم |

وقال :

| | |
|---------------------|-----------------------|
| زمان كل حب فيه خيب | وطعم الحيل خل لو يذاق |
| لهم سوق بضاعته نفاق | فنافق فالنفاق له نفاق |

ولما مات استاذہ ابو مضر قال في رثائه :

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقطها عيناك سمطين سمطين
فقلت لها الدر الذي كان قد ملا أبو مضر أذني تساقط من عيني
أصيب جار الله في سنة ثنتي عشرة بعد الحسمائة بالدرسة المنهكة التي
سماها المنذرة فكانت سبب انابته وفيئته ، فأخذ على نفسه الميثاق ان
من الله عليه بالصحة ان لا يظأ بأخصه عتبة السلطان ، ولا واصل بخدمه
السلطان اذ ياله ، وأن يربأ بنفسه ولسانه عن قرض الشعر فيهم ، ورفع
العقيرة في المدح بين أيديهم ، وان يعف عن ارتزاق عطياتهم ، وافترض
صلاتهم ، مرسوماً وادراراً وتسويفاً ونحوه ، ويجد في اسقاط اسمه من الديوان .
ان ما خلفه الزمخشري من مصنفاته لاغنية لطالب لغة العرب عن
تدارسه كلما عرض له مشكل من مشاكلها ، وكلها منسوجة أجمل نسج ، مرتبة
خير ترتيب واضحة كل الايضاح ، ليست بالمطولة حتى يملها الطالب ولا
بالمختصرة حتى ينقطع دون بعينه ، ومن حفظ الكشاف والأساس والفائق
والمفصل جاء منه عالم لا يحتاج الى أشياء كثيرة أخرى .



(٢٨)

ابن القلانسي

حمزة بن أسد بن علي أبو يعلى التميمي

(٥٥٥)

ترجم له ابن عساكر فوصفه بالعميد وانه كانت له عناية بالحديث وكان أديباً له خط حسن ونثر ونظم . وكان فيه تخصص وصنع تاريخياً للحوادث بعد سنة اربعين واربعمئة الى حين وفاته ، وتولى رياسة دمشق مرتين ، وكان يكتب له في سماعه ابو العلاء المسلم بن القلانسي فذكر انه هو وانه كذلك كان يسمى

وفي تاريخ الاسلام انه كان كاتباً أديباً ، وجمع بين كتابة الانشاء وكتابة الحساب ، وحمدت ولايته . توفي في عشر التسعين . وفي طبقات الأدباء انه الأديب الكاتب الشاعر المؤرخ ، كان من اعيان دمشق ومن أفاضلها المبرزين ، ولي رياسة ديوانها مرتين . وقالوا فيه أيضاً انه كان كاتباً متوسلاً أي متثبتاً ومعنى انه كان فيه تخصص انه يعرف علوماً اختص بها لا يعرفها غيره او فاق فيها غيره .

وكل ذلك لايفي بالغرض في الترجمة له وكان السياسة غالت أدبه ، والرياسات تقتضي صرف أوقات . ولم يصرح من ترجم لابن القلانسي هل كانت ملكة السياسة فيه أم ملكة العلم والأدب ؟ وعندني ان كل واحد منهما اعان الشق الآخر على النمو ، ولولا أدبه ماوصل الى هذه المرتبة ، ولولا سياسته ماانتفعت به بلده وعدم حسناته ، ولولا جميل اخلاقه ماحمدت ولايته . والأرجح أن ابن القلانسي حصر جهوده في مدينته وما ينفعها ولم يتعد اجتهاده الى بحث

غيرها فأنقص ذلك من شهرته ، ولو رحل الى عواصم أخرى وأطال
لرحلة لذكرته تواريخ هذا الشرق القريب ولعرفنا أموراً نجعلها عنه بما
شغل به في خدمة وطنه .

الف ابن القلانسي تاريخه وسماه الذيل ، وكان فيه قسم لأواخر عهد
الفاطميين وقد ذكر من ظلمهم وتقلقل سياستهم ما كان فيه حجة لأنه
دمشقي يكتب في دولة ظالمة تحكم امة يخالف سوادها الأعظم في مذهبهم .
وهو من سياسة البلدة في صميمها ومن بعد النظر وسعة العقل بالمكان الأسمى .
وصف بعض رجال الفواطم وبعض ملوكهم أجمل وصف كما أحسن
الاحسان كله في الترجمة لمن ترجم لهم من الطارئین علی الفيحاء من
العلماء ، ومنهم من رثاهم على قرب عهده بصدقتهم . وما أجمل قوله في
وصف الحاكم بأمر الله : وقال المغالون في المذهب انه غائب في سره (؟)
ولا بد ان يؤوب ، ومستتر في غيبه ولا بد ان يرجع الى منصبه
ويثوب . ووصف ولاية معلى بن حيدرة بن منزو على دمشق وقد وليها
قهرأ وغلبة وقسراً من غير تقليد ، ولم يلق أهل البلد من التعجرف
والظلم والعسف بعد جيش بن الصمصامة ما لقوه في ولايته . وفي أيام
الفاطميين تغلب على دمشق قسام الحارثي من أهل قلفيتا في جبل سنير
وكان تراباً ينقل التراب على ظهور الدواب .

ومن ذكاء ابن القلانسي انه كان يلتزم الكتمان في بعض الاحوال
وبخاصة هو يعرف أن الدول في عصره متقلقلة متحولة ، فمن فاطمية الى
سلجوقية الى نورية وهو لا يعرف لمن تم الغلبة الاخيرة ، ولهذا كان
يجمجم أحياناً وهو على صواب في جمجمته ، ويتقي وهو غير آثم في تقيته
قال : ولما اضطربت المسالك والاعمال ، وانطلقت أيدي التركان والحرامية
في الافساد في الاطراف ، واستولى نور الدين محمود على دمشق قال
قصيدة مطولة وقال انها نظمت (لهجول) في صفة هذه الحال أبيات

شعر تنطق بذكرها بأنها له لأنه سبق له أن نظم في الحكم كثيراً .
جاء في آخرها :

ومن ذا الذي ينجو من الدهر سالمًا
ومن رام صفوآ في الحياة فما يرى
فاياك لا تغبط مليكاً بملكه
فان كان ذا عدل وأمن لحائف
وقل للذي يبني الحصون لحفظه
فكم ملك قد شاد قصرًا مزخرفاً
وأصبح ذاك القصر من بعد بهجة
وفي مثل هذا عبرة ومواعظ
ومن شعره :

يا من تملك قلبي طرفه فغدا
أمنن بوصل لعلي أستجير به
مالي منيت بممنوع يعذبني
لا برا الله قلبي من تخوفه
اذا ترخم قمري على فنن
وكم أسر غرامي ثم أعلنه
لا برد الله شوقي ان نويت لكم
وله أيضاً :

يانفس لا تجزعي من شدة عظمت
كم شدة عرضت ثم انجلت ومضت
وله أيضاً :

اياك تقنط عند كل شديدة
وانظر أوائل كل أمر حادث
فشدائد الايام سوف تهون
أبدًا كما هو كائن سيكون

وبعد فليس تاريخه المختصر الذي جعله على السنين ومزجت فيه السياسة بوفيات الرجال هو كل ما يجب ان يخلفه ابن القلانسي المقتن البارع ، والغالب ان مشاغل البلد وسياستها شغلته عن وضع تأليف ، وقد طال عمره ، اذا لم يؤلفها أمثاله فمن يؤلفها بيد انه لم يفعل . والرياسات مها كانت أعباؤها خفيفة تستغرق الوقت ، وهو ما قصد من تاريخه الا الوفاء بغرض ان لم يقيم هو به ضاعت حوادث كثيرة من تاريخ الاسلام ولا سيما تاريخ بلده ، وهو يحبه ويتفانى في محبته خصوصاً ما كان منها متعلقاً بأخبار الفاطميين الذين شهد ظلمهم الفظيع وتعصبهم الذمير لا يدون بعضها أشياءهم وأتباعهم .



(٣٩)

البيهقي

ظهير الدين ابو الحسن علي بن زيد

(٥٦٥)

البيهقي هذا من سلالة خُزَيْمَة بن ثابت الملقب بذي الشهادتين صاحب رسول الله . وكان خزيمة قاتل مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صيفين سنة تسع وثلاثين وقتل في جملة مَنْ قتل من عظماء الملة ، ونزل أبناء خزيمة فارس وما أنستهم بيثهم الجديدة نسبهم العربي الصحيح ولا أدخلت الضيم على لغتهم وأضافوا إليها لغة أخرى وأدباً حديثاً ، شأن ألوف من العرب حلوا أرض العجم .

وفي قصبة سابزوار من نواحي بينهق من أعمال نيسابور عاصمة خراسان ولد ظهير الدين سنة ٤٩٩ هـ من أب عالم وام حافظة للقرآن عالمة بوجوه تفاسيره . ثم رحل به أبوه الى ناحية ششمند من قرى تلك العمالة ، ولوالده بها ضياع . فأسلمه الى الكتاب وحفظ كتاب الهادي للشادي ، والسامي في الأسماء من تصنيف الميداني صاحب الامثال ، واستظهر المصادر للزوزني والتلخيص في النحو والمجمل في اللغة . وحضر بنيسابور دروس أبي جعفر المقرئ مصنف كتاب ينابيع اللغة ، وحفظ كتابه تاج المصادر ، وقرأ عليه نحو ابن فضال وفصلاً من كتابه المقتصد والامثال لابي عبيد والامثال للميكالي . ثم حضر درس الميداني وصحح عليه السامي في الاسامي وجمع الامثال وكتاب المصادر للفاضي والمنتحل وغريب الحديث لابي عميد

وصحاح اللغة للجوهري . وأخذ الكلام عن ابراهيم الحراز ، وسمع من محمد الفزاري غريب الحديث للخطابي . واختلف مدة الى الامام ابي الهيثم الهروي وقرأ عليه ما شاء . بن دقائق العلوم .

وانتقل بعد وفاة والده الى مرو فقرأ على يحيى بن عبد الملك بن عبيد ابن صاعد ووصفه بأنه كان ملكاً في صورة انسان ، وخاض في المناظرة والمجادلة سنة جرداء حتى رضي عن نفسه ورضي عنه أستاذه . وأخذ يعقد مجالس الوعظ في الجوامع . وكان في تلك الحقبة ينظر في الحساب والجبر والمقابلة وأحكام النجوم ، فأتم هذه الصناعة في خراسان على أستاذاها عثمان ابن جاذوكار فصار فيها مشاراً اليه ، ومضى الى سرخس وقد شهد من نفسه أنه مقصر في علم الحكمة فاتصل بالطبسي النصري ولم يفارقه إلا في سنة ٥٣٦ أي بعد أن بلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً .

هذا ما كتب للبيهقي ان يدرسه من العلوم وهؤلاء من أخذ عنهم من الائمة . روى ذلك صاحب طبقات الادباء ولم يقل لنا كيف أتقن الفارسية حتى ألف فيها أيضاً فكانه عدداً شيئاً طارئاً عليه لا شأن له بالنسبة الى الفروع التي أتقنها بالعربية ، فجاء كاتباً شاعراً واعظاً مؤلفاً مفكراً . او ان من ترجم له ذكر النواحي التي أهمته من حياته وما احتفل بما أتقن من أمور أخرى لا تخلو من أثر في تكوين شخصيته العظيمة .

وقد عدد ياقوت كتبه فكانت أربعة وسبعين كتاباً ، منها ما دخل في مجلدين فأكثر ، ومعظمها في العلوم الدينية ، ومنها ما كان في الادب والتاريخ مثل تنمة دمية القصر ، ودرة الوشاح ، ومشارب التجارب ، وعرائس النفائس ، وذخائر الحكم ، ومنها بضعة كتب في الحكمة ككتاب أسرار الحكم وأطعمة المرضى والمعالجات الاعتبارية ، وكتاب السموم وكتاب في الحساب وخلاصة الزيجة وأساس الادوية وخواصها ومنافعها وهو المعنون بتفسير العقاقير . وكتاب أمثلة الاعمال النجومية وكتاب مؤامراتها وكتاب

معرفة ذات الحلقة والكرة والاسطراب ، وكتاب احكام القراءات الى غير ذلك . ووضع بضعة كتب بالفارسية ومنها تاريخ بيهق . ويقول الصفدي في الوافي بالوفيات : للبيهقي تاريخ بيهق ، لعله كتبه بالعربية أو كتبه بالفارسية أولاً ثم نقله الى العربية (طبع في أوربا)

وقد ذكر صاحب المعجم طرفاً من شعره وقال انه كان يبتدئه الشعر . ونقل ما قاله العماد الكاتب الاصفهاني في الحريدة من وصفه له بالرياسة والشرف ، وروى ما قاله والد العماد في معرض الثناء على البيهقي انه ما نظر الى نظيره ولا مثلت لعينيه عين مثله . وذكره ابن خلكان في ترجمة الباخري صاحب دمية القصر . ومن شعره .

يا خالق الخلق حسنت الورى لما طغى الماء على جاريه
وعبدك الآن طغى ماؤه في الصلب فاحمله على جاريه
ومن شعره :

تراجعت الامور على قفاها كما يتراجع البغل الجموح
وتستبق الحوادث مقدمات كما يتقدم الكبش النطوح
وقال من قصيدة :

الى كم أرجي من زما في مسرة وقد شاب من رأس الزمان قذال
وبال على الطاوس ألوان ريشه وعلم الفتى حقاً عليه وبال
ولدهر تفريق الاحبة عادة وللجهل داء في الطباع عُضال
لقد ساد بالمال المصون معاشر وأخلاقهم للمخزيات عيال
وبينهم ذل المطامع عزة وعندهم كسب الحرام حلال
وترجم له الصفدي في الوافي واستشهد له من شعره بقصيدة جاء في مطلعها :
سرى طيفه وهنا ولي فيه مطمع وبرق الاماني في دجى الهجر يلمع
وعلق عليها بقوله : شعر متوسط واستعارات بعيدة ، وأراد بقوله
فسكن ماء العين البيت أن يذكر الاربعة العناصر كما قال الآخر :

جفوني تذكي نارها نار حاسدي اذا الريح جاءتنا بريّا تراهبا

فلم يلفظ مثل هذا .

كان البيهقي سنياً جماعياً ، وكثرة أهل بلده متشعبة غالية ، يُفهم ذلك من ثبّت مشايخه الذين أخذ عنهم وكانوا من أهل السنة والجماعة . شهد في أيامه مشهداً مؤملاً ، شهد الغزّ الترك يجربون في سنتي ٥٤٨ و ٥٥٦ بلاد خراسان ولا سيما نيسابور دار العلم فيها ويدكون جوامعها ويجرقون خزائن كتبها ويقتلون علماءها ويجربون مدارس الشافعية والحنفية .

قضى ظهير الدين حياته متعلماً يرتاد البلاد ويلقى الرجال ويأخذ عنهم وتثقف ثقافة جمعت بين علم الآخرة والدنيا فكان عالماً واعظاً متكلماً أديباً مؤرخاً حكيماً طيبياً ، وانصرف الى التأليف والوعظ والتدريس وتمحض للعلوم والآداب ، وكان فوض اليه ، وهو في السابعة والعشرين من سنه ، قضاء بيهق فقال عن نفسه : انه بجل بزمانه وعمره على انفاقه في مثل هذه الامور التي قصاراها ما قال سُريح القاضي : أصبحت ونصف الناس علي غضبان « والغالب انه كان من الموسع عليهم يعيش من ربيع ما تركه له ابوه من ملك ، فما أحب التصرف ولا تولى القضاء .

له مؤلف كتاب تنمة صوان الحكمة تأليف أبي سليمان المنطقي السجستاني من حكماء القرن الرابع ، وهو الذي نشرناه باسم تاريخ حكماء الاسلام ولم يذكر المؤلف في التنمة ما سبق لصاحب الصوان ذكره لايقانه أنه جوّد في الترجمة لهم ، واقتصر على بعض حكماء خوارزم وخراسان وفارس والعراق . والتنمة كتاب في الفلسفة فيه تراجم حكماء اليونان خاصة . ولم يتعرض لذكر أحد من الشام وافريقية والاندلس . وكان على ما يظهر من بُعد المؤلف عن الشام وما وراءها ، وشدة الحروب الصليبية في أيامه ، وانقطاع المواصلات بين الشرق والغرب معذرة على ما يظهر عن قصوره في الترجمة لاهل الحكمة من أبناء الشرق القريب . على أن سوق الفلسفة كانت كاسدة في الشام ومصر وغيرهما من اقطار الاسلام ، حاشا الاندلس ، فان

عظماء فلاسفتها نبغوا في تلك الحقبة . وفي الحق ان مصر والشام لم تخرج فلاسفة كما أخرجت أرض العجم والاندلس ، وكان غرامها بالحديث والفقه والشعر ثم التاريخ ونقل علوم القدماء .

فمعظم من ترجم لهم البيهقي كانوا من أهل القرن الخامس والسادس وبعضهم من الصابئة والمجوس واليهود واليعاقبة والنساطرة ممن نشأوا في ديار الاسلام وكتبوا تأليف بلغته . وأكثر غير المسلمين فيهم من أهل القرن الثالث والرابع ممن اقتبسوا الحكمة من يونان . ويمكن ان يقال ان تيمة صوان الحكمة كتب في زمن نضجت فيه الفلسفة عند المسلمين . ولم ينشأ في القرن السابع وما بعده فلاسفة عظماء على ما كان في القرن الثالث الى السادس ، ولا قام عالم من عيار الرازي والبيروني وابن هيثم وابن زهر وابن باجة الا على الندرة ، وفي القرون الكثيرة مثل ابن خلدون في افريقية وكال الدين بن يونس في الموصل .

وعرفنا ممن ترجم لهم المؤلف كثيراً من الحكماء والمهندسين والاطباء والفلكيين والمنجمين وما كان لهم من تصانيف في الطب والحكمة والنجوم والهندسة وما وضعوه من الازياج والنقاويم ، وعرفنا بعض الاماكن التي حفظت فيها كتب الحكمة وضمانة الحكماء بها ، ورأيه فيما قرأه واستفاده ، وغرام الملوك والسوقة بالازياج وأخذ الطوابع من الافلاك ، وبلغ اعتقادهم في صحتها على ما كان العرب في الجاهلية يعتقدون بالجن .

وادر كنا حرص اصحاب السلطان على ارتباط الحكماء والاطباء بهم والانقطاع الى قصورهم ، وان بعض العظماء كانوا يشاركون مشاركة حسنة في العلم ، وان من الحكماء من تجردت نفوسهم عن المطامع فكانت نسبة الزاهدين فيهم أعلى من نسبتها في الفقهاء والمتصوفة ، وان الالفاظ الطنانة استفاضت في عصر المؤلف وقبله بعد أن كان يكتفي بتكنية مثل ابن سينا بابي علي والفارابي بابي نصر على جلاله قدرهما في العلوم والحكمة ، وعرفنا من كتابه ان التعصب كان بعيداً جداً عن الحكماء وعهدنا بأكثر

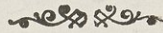
المؤلفين في تلك القرون يترجمون لاهل الاسلام كما يترجمون لمن لم يمتل ملته بدون غرض ولا هوى . وقد ترجم المؤلف لنحو عشرين منهم من أصل مئة وخمسة عشر حكيمياً ، وأعطاهم حقهم غير منقوص عاداً لهم جزءاً من أجزاء العلم الاسلامي ، ومفخرة من مفاخر تلك الاقطار كأهل صناعتهم من المسلمين حذو القذة بالقذة .

وأنا كتابه ببرهان آخر على ان المدنية الاسلامية وحدة لا تتجزأ وان كل قطر متعمم للاقطار الاخرى ، فاذا كانت خراسان خصت برجال الحكمة ، فالاقطار السائرة أخرجت رجالاً في فروع العلم غير قليلة ، واذا امتازت دمشق مثلاً بمؤرخيها وشعرائها ومحدثيها فان بغداد امتازت بفقهاءها ومؤدبيها وندماها .

ترجم البيهقي من ترجم لهم بالايجاز على الاكثر ، وقد توسع في ترجمة ابن سينا خاصة وأوجز في الترجمة للفارابي والبيروني والرازي وابن الهيثم وابن سهلان والراغب ومسكويه والبتاني وابي زيد البلخي والبوزجاني ويحيى بن عدي وحنين ابن اسحق وابن الضبي .

ومن أهم ما حرص على ذكره ما أثر لهم من حكم لطيفة اهتم بالنقاطها أكثر من اهتمامه بتدوين سني ولاداتهم ووفياتهم . وقد يغفل ترجمة الرجل ويكتفي بنقل ما عزي اليه من كلام جميل ، وكثيراً ما يذكر الرجل بكنيته فقط ، ولا يعني بتحقيق اسمه واسم ابيه ، وقد يذكر أم الرجل كما يذكر أباه . وقد صور لنا كيف كانت تعج نيسابور واصفهان وجرجان وزنجان وشيراز ومرو والري وبلخ وغزنة بالحكام ، هذا وهو لم يترجم لغير الناهين ، وهناك المغمورون ، وهناك الشادون ممن لم يكتب لهم حظ الانضمام الى المترجم لهم . علمنا مبلغ عناية أهل عصره بالاختد من كتب أرسطو والفارابي وابن سينا . وأنا كتابه ببرهان آخر على أن العربية كانت في بلاد فارس كما هي في كل بلد دخله الاسلام لغة الدين والعلم والدولة ، وانه قل في هؤلاء الحكماء من كتب كتبه بغير العربية وندر فيهم من ألقوا باللغتين العربية والفارسية .

وإذا جئنا نعارض بين تراجم حكماء الاسلام للبيهقي وطبقات الحكماء
للقفطي نجد لكل من الكتابين مزية اختص بها لا يكاد يشاركه فيها صنوه
فالقفطي ألف كتابه بعد البيهقي بنحو مئة سنة وفيه تراجم حكماء اليونان
وبعضهم لم نعرف عنه شيئاً الا من كتابه . أما البيهقي فترجم لعظماء
من فلاسفة الاسلام لم يتعرض لهم القفطي لانه لم يطلع على ما كتب
سلفه ولو وقع القفطي على ما دون البيهقي قبله لضم تراجمهم الى كتابه ،
وهم احرىء أن يحشروا الى جانب أمثالهم من حكماء الاندلس ومصر
والشام والعراق وغيرها ، وكذلك رأينا البيهقي أغفل جماعة أبي حيان
التوحيدي لعدم اطلاعه على أمرهم .



(٤٠)

الحافظ ابن عساكر

ابو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن
الملقب ثقة الدين والمعروف بابن عساكر

(٥٧١)

معظم من ترجوا للحافظ ابن عساكر ومنهم ابنه في سماعته لم يذكره
بهذه الكنية ، وقيل انه ما كان يرتاح الى التكني بها ، ومع ذلك ما اشتهر
بغيرها . وبيت ابن عساكر من بيوت دمشق المشهورة بالعلم ، نسلسل
فيها بطناً بعد بطن . وكان خاله ابا المعالي محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي
دمشق ، وكان الحديث والفقہ أهم ما تدور عليه معارفهم . واشتهر بنو
عساكر بالتقوى والتصدي لنفع الناس في دينهم .

ولد الحافظ في دمشق سنة تسع وتسعين واربعمائة وأخذ شيئاً من
العلم عن أهله وانتفع بصحبة جده ابي الفضل في النحو ، وتفقه في حدائنه
على الفقيه ابي الحسن السلمي ، ورحل في صباه الى الشرق رحلة دامت
خمس سنين ، وقام برحلات غيرها طالت أشهراً ، وسمع بمكة ومنى والمدينة
والكوفة واصبهان القديمة واليهودية ومرو الشاهجان ونيسابور وهراة وسرخس
وأبيورد وطوس وبسطام والري وزنجان وبلاد كثيرة في العراق وخراسان
والجزيرة والشام والحجاز .

والظاهر انه اكنفى بمن أخذ عنهم من الشيوخ في هذا الجزء من آسيا
ولم يتعدا الى افريقية ، لما اشتهر من تخلف المصريين في علم الحديث ،
وحضر الدرس بالمدرسة النظامية في بغداد ، وعلق مسائل الخلاف على

ابي سعيد الكرمانى . وبلغ عدة شيوخه ألفاً وثلاثمائة شيخ وثمانين امرأة
ونيفاً ، ومن أخذ عنهم فأكثر ابو سعيد السمعاني ، وروى هو عنه وكان
رفيقه في بعض رحلاته .

حفل وطاب الحافظ بما تلقاه من محدثي عصره وعلمائه ، فغدا محدث
الشام ومن أعيان فقهاء الشافعية ، بل « فخر الشافعية وامام أهل الحديث
في زمانه وحامل لوازمهم » و « غاب عليه الحديث واشتهر به وبالغ في
طلبه الى ان جمع منه ما لم يتفق لغيره » قال ابن خلسكان : « وصف
التصانيف المفيدة وخرج التخاريج ، وكان حسن الكلام على الاحاديث
محظوظاً في الجمع والتأليف » . وقالوا فيه انه كان « مواظباً على صلاة
الجماعة ملازماً لقراءة القرآن وكان يختم في رمضان والعشر كل يوم ختمة ،
ولم يُرَ الا في الاشتغال بعلم وعبادة يحاسب نفسه على كل لحظة » و « لم
يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة منذ اربعين سنة ،
بلازم الجماعة في الصف المقدم ، الامن عذر مانع » و « الاعتكاف والمواظبة
في الجامع ، واخراج حق الله ، وعدم التطلع الى اسباب الدنيا ، واعراضه
عن المناصب الدينية كالامامة والخطابة بعد ان عرضتا عليه » و « كان
الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي قد بنى له دار الحديث النورية فدرس
بها الى حين وفاته غير ملتفت الى غيرها ولا متطلع الى زخرف الدنيا » .

اتصل الحافظ بالملكين العادلين نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين
يوسف بن ايوب اتصالاً وثيقاً يأخذان عنه الحديث والفقه ، وكان لهما المستشار
الامين ينصح ولا يقول الا الحق ، وكان من تشاكل الاستاذ مع الآخذين
عنه في الفكر والسياسة ما عاد بالنفع على الامة ، ولو لم يكن الملكان
من المعجبين بالحافظ ما اقتطعا من وقتها الثمين ساعات للتلقي عنه والتبرك
بروايته ودرايته ، في عصر كثرت فيه المشاكل السياسية من حرب الصليبيين
العظيمة وفيها ما يشعل عن كل شي* . ولما مات الحافظ شيع صلاح الدين
جنازته وحضر الصلاة عليه ، والعظيم يعرف العظيم . ولا نعدو الصواب

ذا ادعينا ان منزلة الحافظ من الملوك العظمين كانت منزلة الاستاذ من تلميذه أو الأخ من أخيه . ويروى انه بينما كان يلقي الحديث على صلاح الدين في المدرسة العادلية سقطت سرجة على طرف ثوب السلطان رماها بعض المايكة عن غير قصد وهو يلعب مع رفاقه ، فتشاغل الملك عنهم فالتفت اليه ابن عساكر وكلمه كلاماً فيه بعض اللوم على الافراط في الحلم وقال له انه كان أيام الماضي نور الدين يروي الحديث فيستمع اليه كل من في الدار كأن على رؤوسهم الطير . ونور الدين هو الذي كان السبب في تعجيل الحافظ بتأليف كتابه تاريخ دمشق .

بلغت تأليف ابن عساكر اربعين مصنفاً واجلها « تاريخ مدينة دمشق » واخبارها وتسمية من حلها أو ورد لها او اجتاز بنواحيها » ، وهو على نسق تاريخ بغداد ، اتى فيه بالعجائب كما قال العارفون : قال ابن خلكان : وقد جرى ذكر هذا التاريخ مع العلامة المنذري حافظ مصر واخرج منه مجلداً ، وكان الحديث في امره واستظامه ، ما أظن هذا الرجل الا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت ، والا فالعمر يقصر عن ان يجمع فيه الانسان مثل هذا الكتاب ، بعد الاستغفال والتنبه . واردف ابن خلكان ذلك بقوله : ولقد قال الحق ، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول ، ومتى يتسع للانسان الوقت حتى يضع مثله ، وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره ، وما صح له هذا الا بعد مسودات ما يكاد ينضب حصرها وله غيره تواليف حسنة . وعبارته في مقدمة تاريخه « ورفي خبر جمعي له الى حضرة الملك الكامل العادل الزاهد الجاهد المرابط الهمام ابي القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر الامام ادام الله ظل دولته ... وبلغني تشوقه الى الاستنجاز له والاستتمام ، ليلم بمطالعة ما تيسر منه بعض الامام ، فراجعت العمل فيه راجياً الظفر بالتام ... » ومن تأليفه « تبين كذب المفتري على ابي الحسن الاشعري » وهو كتاب فتجلى فيه شخصيته الدينية كما نم عليه تاريخه العظيم الذي ظهر به

تفننه في الترجمة للناس والعرض لآخبارهم وشعرهم ونثرهم ، وقد جمعه على شرط المحدثين بالسند والرواية ، ولا شك انه طالع مئات من الكتب ليقتبس ما يلزمه منها ، وهو كنز عظيم من كنوز الاجداد عجز الجماعة عن وضع مثله فكيف بفرد لم يعمر طويلاً بالقياس الى المعمرين ، ولكن الحافظ بورك له بساعات عمره لما حرص هو على عدم اضاعته .

ماخرج ابن عساكر عن الحديث والفقهاء والتاريخ والاعخبار والادب وهي الموضوعات التي خاض عباها ، وما كان اعتماده على النقل فقط بل كان يستعمل العقل ، وفي القليل بما وصل اليها من مصنفاته برهان على ذلك . فقد رأيناها معنياً بكل المشاكل يناقش ويجادل بعيداً في الجملة عن تعصب أهل مذهبه ، وكأنه أقرب الى الاجتهاد منه الى الجرد والتقليد ، والوقوف عند أقوال من كان قبله ، والتاريخ يوسع العقل ويورث صاحبه نوراً لا يستضيء بمثله عقل من لم يرزق حظاً عظيماً من النظر فيه .

نفعت الحافظ صفاته الشخصية الممتازة ومن أهمها أمانة المؤرخ وصدق الحديث ، وهما من أعظم ما يطلب منهما ، فكانت له الخطوة التامة عند الامة وعند الملوك ، ومن اشتهر بهذه الصفات الغرّ كان حريماً بأن يقبل الناس على ما يقول ويكتب ، ومن أهم ما نفعه في دراسته رحلاته المتعددة في ديار الاسلام أيام صباه ، وتلقيه العلم على أئمة العلماء ، والأخذ عن اشتهر في الأمصار من الرجال فعلا سنده وغزر علمه ، واتسع أفق نظره وزادت معارفه فيما أخذ نفسه به وذلك بالاطلاع على مجاميع ومصنفات ما كانت تتيسر له في بلده . ولما كان الجدُّ مرماه في عامة أموره ، أدى ذلك الى جودة انتاجه ووفرته .

يعدُّ ابن عساكر من المكثرين من التأليف والمجودين فيه ، ألف ما ألف لدواع دعته ، ومناسبات تقاضته جهداً عظيمة ، ولا قصد له الا خدمة الاسلام والمسلمين ، ولو قد سلمت مصنفاته كلها من التلف لكان منها خزانة لطيفة تنطق ببعد غور صاحبها ، وبها أثبت أن شهرته

كفاء علمه الواسع ، وأنه من أنبغ رجال الدين ، عُني بتعبيد الطرق الى اقتباس العلم وتقريب مناله على المستفيدين .

ترجم للحافظ رفيقه وصديقه الحافظ السمعاني فقال : انه كان كثير العلم غزير الفضل حافظاً متقناً ديناً خيراً ، حسن السميت ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ، مثبتاً محتاطاً . وقال العماد في الخريدة انه كان يتردد اليه في دمشق ورآه قد صنف تاريخ دمشق وذكر انه في سبعمائة كراسه كل كراسه عشرون ورقة . وقال انه في خمسمائة وسبعين جزءاً والنسخة الجديدة ثمانمائة جزء . قال العماد : وسمعت بعضه منه ، ودخلت عليه ذات يوم فعرضت عليه ما أورده السمعاني في حقه وسمعت المقطعات الثلاث اللامية والتائية والغينية من لفظه . وقال : صدق السمعاني . قال العماد : هو الحافظ الذي تفرد بعلم الحديث والاعتقاد الصحيح ، المنزه عن التشبيه ، المحلى بالتنزيه ، المتوحد بالتوحيد ، المظهر شعار الاشعري بالحد الحديدي والجد الجديد والأيد السديد .

قال : وبما أنشدني لنفسه وقد أعفى الملك نور الدين أهل دمشق من المطالبة بالحشب فورد الحبر باستيلاء عسكره على مصر فكتب اليه يهنئه قصيدة من أبياتها .

لما سمعت لأهل الشام بالحشب عوّضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسباً للأجر جوزيت خيراً غير محتسب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد أصبحت تملك من مصر الى حلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن منقلب
وشعر ابن عساكر شعر الفقهاء . وكان يختم معظم دروسه بإيراد شيء من شعره ، ونثره ارقى نثر في عصره ، واذا ترك السجع واستعمل المرسل كان رصفه من الجيد البديع .

قد يسأل سائل وهل تعدت يائري شهرة ابن عساكر أرض الشام

وما اليها أو تجاوزتها الى بيئات أخرى؟ فالظاهر انه كان عالماً في شهرته بين أرباب الحديث وحملة التاريخ في الاقطار ، وانتقلت أخبار علمه الى بلدان ما كان له بحسب الظاهر اتصال بها . وفي حياته كان صيته بحديثه على ما يظهر أكثر من شهرته بتاريخه ، وبعد مماته شهر بتاريخه واستفاضت شهرته حتى سرت الى من لم يكن يظهر انها تسير اليهم . والناس في معظم العصور مولعون بهذين الفنين السهلين الصعبين الحديث والتاريخ فلذلك كثروا الآخذون من تأليف مؤلفنا ، لأنها أخذت بنصيب من التنقيح والامتناع .

ويكفي أن يقال عن تاريخ دمشق انه حوى عدة كتب مستقلة ، كما قالوا في تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري ، فكل طالب يجد فيه ضالته ، وقد يستغني الناس عن كتاب لأن في غيره ما يشبهه او يقرب منه ، ولكن تاريخ دمشق لاغنية لكل مهذب عن النظر فيه ، واتخاذ جليسه وسفيره ، والاعتماد عليه في الوقوف على تراجم من كان لهم شأن في هذا المجتمع . أخذ عن سبقة وجود الأخذ ، وتعلقت الاقدار ان ضاع بعض مصادره ، ولولا ان جمعها في هذا التصنيف الممتع لمضاع جانب عظيم من تراجم الرجال ، وتاريخ هذه الأمة .

ومن أجل هذه المزايا التي جمعها هذا التاريخ كان ينظر اليه على أنه تاريخ العالم الاسلامي وينظر اليه أهل كل قطر نظرهم الى كتاب حوى بفيتهم ولا يستغنون عن الأخذ منه .

وكان مؤلفنا شعر بأن الناظرين في تاريخه العظيم قد يعرفون الملل من كثرة أسانيده فجلاله بالشعر يروي لمن كان لهم شعر من الرجال ، ويستطرد استطرادات في محلها للترويح عن النفوس ، فأثبت أنه فنان يحسن التأثير في قلب سامعه . ومع هذا بدا لبعض العلماء من القديم أن يختصروا تاريخه ليخفف حمله فاختصروا منه على ما يروقه من صفحاته فقد اختصر المؤرخ أبو شامة (٦٦٥) صاحب كتاب الروضتين الاكبر

من مختصره في خمسة عشر مجلداً ، والاصغر في خمس مجلدات ، وكان القوم يتلقون من أبي شامة في جامع دمشق تاريخ ابن عساكر وتاريخ الروضتين ، واختصر تاريخ دمشق ابن عبد الدائم المقدسي (٦٨٠) وسماه «فاكهة المجالس وفكاهة المجالس» أخذ ما رافقه من الشعر والنثر والجد والهزل وأخبار الماضين والملوك السالفين ، ومن اختصره ابن المكرم (٧١١) صاحب لسان العرب في نحو ربعه ، وبدر الدين العيني (٨٧٥) ، وانتقى منه جلال الدين السيوطي (٩١١) سماه «تحفة المذاكر المنتقى من تاريخ ابن عساكر» واختصره من المتأخرين الشيخ عبد القادر بدران . ولتاريخ دمشق أذبال منها ذيل ولد المصنف القاسم ولم يكمله ، وذيل صدر الدين البكري ، وذيل عمر بن الحاجب ، وذيل عليه الحافظ علم الدين البرزالي وذيل ابي يعلي بن القلانسي وغيرهم .

قلنا ان تاريخ دمشق كتاب عظيم يحمل في تضاعيفه عدة كتب ويسهل استخراج دراسات مختلفة الموضوعات منه . وكان للؤلف الفضل في جمع هذه الاخبار والاساطير لأنه حرص على ألا يخلي كتابه بما يفيد جميع الطبقات ، وقد يسرد أشياء لا يعتقدونها فيما نحسب ، والعقل يحص وينفي الزغل . وأي كتاب للمحدثين والاقدمين سلم من نقد ومؤاخذة . وكانت أماني الباحثين أن يحمل اليهم الكتاب القديم كما كتبه مؤلفه . وكان يقوم من العلماء القرن بعد القرن من يجمع وينسق وينشره للعبارة أو للتفككة أو لغير ذلك من المقاصد . وليس من العقل اختيار كل شيء وفي هذا التاريخ على سقم بعض الروايات أشياء مهمة من الصحاح تدل على عناية العلماء قديماً برواية الحديث والفصل بين صحيحه وسقيميه .

وبعد فان عقلاً كعقل الحافظ ابن عساكر من المستحيل ان يقول بهذه الحرافات والاساطير التي وردت في مقدمة تاريخه وهو من أعرف العلماء بالاحاديث الضعيفة والموضوعة ، وقد قال العلماء مثلاً كل ما يروى من الاحاديث في فضل

البلدان لأصل له . والمؤرخ قد ينقل أخبار أهل النحل والمذاهب من دون ان ينفقها أو يقرها على ما جرى أبو الريحان البيروني في وصف مذاهب الهند ولم يطعن فيها ولا هزأ بما يعتقد المعتقدون فيها ، واكتفى بتصحيح الرواية وابتعد عن التزديد . ثم ان العلم في القرن السادس كان غير ما هو عليه في هذا القرن ، والمؤلف انما كان يكتب في قرن ما ارتقت فيه العلوم ارتقاءها لعهدنا ، وما ألف المؤلفون أن يدرسوا التاريخ كما أخذ المعاصرون يدرسونه ، وكان الفضل في ذلك لابن خلدون واضع فلسفة التاريخ .



(٤٦)

عماد الدين الطائف

محمد بن محمد

(٥٩٧)

قالوا خرج من اصبهان من العلماء والأئمة في كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن وعلى الخصوص علم الاسناد فان أعمار أهلها تطول ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث ، وبها من الحماظ خلق لا يحصون ولها عدة تواريخ . والعماد الكاتب هو من هذه المدينة الجميلة ، نشأ بها وجاء ببغداد شاباً ، فانتظم في سلك طلبة المدرسة النظامية وتفقه بأجلة فقهائها ومحدثيها واجازوا له ، ثم رجع الى اصفهان فتفقه بها أيضاً على الحنفي والوركاني ، وعاد الى بغداد واستغل بصناعة الكتابة فبرع فيها ونبع . واتصل بالوزير يحيى بن هبيرة فولاه النظر في البصرة ثم بواسط ، ولما توفي ابن هبيرة أقام العماد ببغداد مدة منكد العيش ، ثم انتقل الى دمشق فأنزله قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالمدرسة النورية ، وكان للعماد معرفة بنجم الدين أبوب والد السلطان صلاح الدين ، عرفه بتكرير حين كان نجم الدين والياً عليها ، فلما سمع نجم الدين بوصوله بادر للسلام عليه في منزله ومدحه العماد بقصيدة جاء في مطلعها :

يوم النوى ليس من عمري بحسوب ولا الفراق الى عيشي بمنسوب
ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى كرها بما ليس يا محبوب محبوبي
وكان القاضي الشهرزوري يذكر العماد عند السلطان نور الدين وذكر له تقدمه في العلم والكتابة وأهله لكتابة الانشاء ، فتروى العماد في الدخول

فيا لم يتقدم له اشتغال طويل به ، مع توفر مواد هذه الصناعة عنده ، خوفاً من التصير فيما لم يمارسه ، ثم أقدم بعد الاحجام فباشرها وأجاد فيها حتى زاحم القاضي الفاضل بمنكب ضخيم . وكان ينشيء الرسائل بالفارسية أيضاً فيجيد فيها اجادته بالعربية .

وعلت منزلته عند نور الدين وصار صاحب سرّه وفوض اليه تدريس المدرسة العمادية ، وولاه الاشراف على ديوان الانشاء . ولما توفي نور الدين وولي ابنه الملك الصالح اسماعيل اغراه بالعماد جماعة كانوا يحسدونه ويكرهونه ، فخاف على نفسه وخرج من دمشق قاصداً بغداد ، فوصل الى الموصل ومرض بها ، ولما أبلّ من مرضه بلغه خروج السلطان صلاح الدين من مصر قاصداً دمشق ليستولي عليها ، فعزم على الرجوع الى الشام وخرج من الموصل فوصل الى دمشق وسار منها الى حلب فازم بابه ينزل بنزول السلطان ويرحل برحيله .

هذا ما نقله ياقوت ، قال : ولم يزل يغشى مجالسه ملازماً لخدمته ، حتى قربه واستكتبه واعتمد عليه ، فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة ، وعلا قدره وطار صيته . قالوا ولما دخل القاضي الفاضل على صلاح الدين لما أدخل عليه العماد الكاتب قال له غداً يأتيك تراجم الاعاجم وما يحلها مثل العماد . فقال له السلطان مالي عنك مندوحة أنت كاتبني ووزيرني ورأيت على وجهك البركة ، فاذا استكتبت غيرك تحدث الناس . فقال : العماد يحل التراجم ولربما أغيب أنا فاذا غبت قام مقامي . وكان اذا انقطع القاضي الفاضل عن الديوان ناب عنه في النظر عليه ، وألقى اليه السلطان مقاليد وركن اليه بأسراره فتقدم الأعيان وأشير اليه بالبنان . وكان عماد الدين محل ثقة القاضي الفاضل آمناً من توثبه عليه ولهذا كان يطمئن اليه اذا غاب عن السلطان . وكان شديد الحرص على تحصيل الدنيا ، وكان الفاضل يلومه ويعتبه ويعزله ويؤنبه على ذلك فلا يروعوي وله في هذا حكايات منها أن رجلاً من اهل حمص جاءه بطبق كيزان

وتفصيلة كتان قيمة ذلك كله نحو خمسين درهماً ، وسأل حاجة فأخذ قصته
وقراها على السلطان وكان قد بلغه الخبر فلم يجبه ، فأعاد العماد عرض
القصه وقراءتها مرات في مجالس عدة والسلطان لا يأمر فيها ولا ينهي ،
ففطن العماد وعلم ان الخبر قد انصل بالسلطان فأعاد عرض القصه فلم يجبه
عنها . قال : يامولانا الطبق الذي أحضره صاحب هذه القصه باق الى
الآن لم أتصرف فيه ، فان كان ما ينقضني شغله اعدت عليه طبقه ، فضحك
السلطان وعجب من دناءة نفسه وأمر بقضاء شغل الرجل .

وكان شديد التهافت على اخذ الختموم الذهب التي تجيء على كتب
الفرنج ، فوصل منهم كتاب بغير حضوره ففتحه السلطان بيده وأخذ
بعض الحاشية الختم ، فلما جاء العماد قيل له اكتب جواب هذا الكتاب
فقال يكتب جوابه من اخذ الختم فعز قوله على السلطان وقال له : لم
اخرج ، الوقت ما هو محتاج اليك . فأتى الى الفاضل وعرفه ما كان فقال
له رُح الى الخانكاه واقعد بها مع الفقراء والبس زيهم ، فاذا طلبك
السلطان قل انا دخلت في أمر لا أخرج منه ثم لا تخرج حتى يأتيك السلطان
بنفسه مترضياً . وكان من هذا التدبير ان جاءه السلطان وترضاه .
ومن شعره :

هي كتبي فليس تصلح من بعد دي لغير العطار والاسكاف
هي اما مزود للعقاقير واما بطائن للخفاف
ولما توفي صلاح الدين اختلف احوال العماد ولزم بيته وأقبل على
التصنيف والافادة حتى توفي . وله من المصنفات خريدة القصر وجريدة
العصر تراجم شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس ممن
كان بعد المائة الخامسة الى ما بعد سنة سبعين وخمسمائة ، وله البرق الشامي
والفتح القسي في الفتح القدسي وهذا مطبوع ، وله غير ذلك من
الكتب والدواوين .
أما انشاؤه فسجع وفي الفتح القسي منه مثال يأتي على حلم الحليم ،

لما أكثر فيه من الجناس وأتى من أنواع البديع . وقد شهد القاضي الفاضل بأنه كالزناد ظاهره بارد وباطنه فيه نار . ونحن نقول ان شهرته أعظم من حقيقته . لا جرم أنه متمكن من اللغة بصرفها كما يشاء بقلمه ، وتكلفه لا يخفى على صاحب هذا الفن . وفي الفصل الذي عقده في الفتح القسي لوصف نساء الافرنج اللاتي فدين أنفسهن في الحروب الصليبية للتوفيه عن بني قومهن في فلسطين مثال بين من ذلك . وما قيل في نثره يقال في شعره ، فانه يكثر فيه الجناس أيضاً حتى يفقد سلاسته ، ولنا أن نقول انه شاعر أرقى من الوسط وناثر كذلك ، هيأت له الأيام شهرة طالما تحطت من بذره وما ساواهم في أدبهم وأخلاقهم . ومن قصائده الطوال في مدح السلطان صلاح الدين قصيدة ضمنها فتح القدس وفلسطين قال في مطلعها :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كهمودكم وقد كرت من دوس آثارها درسا
وقد كان في حدس لكم كل طارف وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
أري حدثان الدهر ينسى حديثه وأما حديث العذر منكم فلا ينسى
تزول الجبال الراميات وثابت رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى
حسبت حبيبي قاسي القلب وحده وقلب الذي يهوى بجمل الهوى أقسى
ومنها :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا وأشرف من أضحى واكرم من أمسى
وقيل لنا في الارض سبعة أبحر ولسنا نرى الا أنامله الحمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى وبطشته الكبرى وعزته القعسا
فلا عدت أيامنا منه مشرقاً ينير بما يولي لياينا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم أعاديك جنأ في المعارك او انسا

ومن غزلياته قوله :

أفدي الذي خلبت قلبي لواحظه
صفات ناظره سقم بلا ألم
على حياه من نار الصبا شعل
ومن حكمياته :

أفنع ولا تطمع فان الغنى
فانما ينقص بدر الدجى
وقال :

وما هذه الايام الا صحائف
ولم أر في دهري كدائرة المني
وخلفت لذعات الوجد في كبدي
سكر بلا قدح جرح بلا قود
وورد خديه من ماء الجمال ندي
كإله في عزة النفس
لأخذه الضوء من الشمس
يؤرخ فيها ثم يمحي ويمحق
توسعها الآمال والعمر ضيق

(٤٢)

ياقوت

عبد الله شهاب الدين

(٦٢٦)

كان مولد ياقوت في الروم ، وأخذه المسلمون أسيراً وهو طفل ، واشتراه في بغداد تاجر يعرف بعسكر الجموي فنسب اليه فقيل له ياقوت الجموي كما قيل له الرومي ، وجعله سيده في الكتاب يتعلم ما يستفيد هو منه في ضبط متاجره ، وقرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار ، وفي سنة ٥٩٦ أعتقه فاشتغل بالنسخ بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد . ودعاه مولاه القديم فأعطاه شيئاً وسفره الى كيش وعُمان ولما عاد من سفرته كان سيده قد مات ، فأعطى أولاده وزوجته ما أرضاهم به ، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً ، وسهل عليه ان يطوف الشام والعراق والجزيرة وخراسان واستوطن مرو ودخل خوارزم وجاب البلاد ما بين جيحون والنيل « وكانت له هممة عالية في تحصيل المعارف » وشهد غارات التتر في خراسان ايام كونه فيها ووصف أعمالهم في الافطار الاسلامية ، وفقد ثروته غير مرة فعدّ من المفلوكين . قيل انه كان طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك في ذهنه منها طرف قوي ، وتوجه الى دمشق في سنة ٦١٣ وقعد في بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصب لعلي وجرى بينهما كلام أدى الى ذكره علماً بما لا يسوغ ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فسلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً .

ويدرك المرء بعد هذه الامامة اليسيرة بسيرة ياقوت كيف ساعدته
الاقدار فدرس الكتب واستفاد من نسخها وزاده تنقله في الاقطار توسعاً
في المعارف فاطلع على ما لم يطلع عليه غير فلائل من المؤلفين ، فكان ذلك
بما ضاعف الامتاع بكتبه فكتب لها البقاء لحاجة الناس اليها ، ولأن
صاحبها كتبها عن درس ومشاهدة وخبرة ، ويمتاز على غيره بأنه عرف
جزءاً عظيماً من ديار الاسلام معرفة اكيده وأدرك الرجال ولقي شيوخ عصره .
كان ياقوت رقيق العاطفة مرهف الحس ذو وباً على العمل يحمل نفساً
زكية دراية . كان صريحاً في قوله لا يدالس ولا يصانع ، يقول ما يعلم
وان اغضب وارضى ، فيه صدق العلماء بالحق وصدق الصادقين من الرواة .
قال عن نفسه : اني كنت قدمت نيسابور في سنة ٦١٣ وهي الشاذياخ
فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته واشترت بها
جارية تركية لا ارى الله تعالى خلق احسن منها خلقاً وحلقاً ، وصادفت
من نفسي محلاً كريماً ، ثم ابطنني النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها
فامتنع عليّ القرار ، وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار
فأشار عليّ بعض النصحاء باسترجاعها فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن
فلم يكن الى ذلك سبيل لأن الذي اشتراها كان ممولاً ، وصادفت من
قلبه أضعاف ما صادفت مني ، وكان لها ميل اليّ يضاعف ميلي اليها فخاطبت
مولاهما في ردها عليّ بما أوجبت به علي نفسها عقوبة فقال في ذلك
قصيدة يصف الحال :

| | |
|---------------------------|-----------------------------|
| فاني اليها ما حيت طروب | ألا هل ليالي الشاذياخ تؤوب |
| الشمال ويقناد القلوب جنوب | بلادها تصبي الصبا ويشوقنا |
| ودمعي لفقدان الحبيب سكوب | لذاك فؤادي لا يزال مروّعا |
| محب ولم يجمع عليه حبيب | ويوم فراق لم يرده ملالة |
| عن الالف حزن أو يحول كئيب | ولم يجد صاد بالرحيل ولم يرع |
| ويدعو غرامي وجده فيحبيب | إنّ ومن أهواه يسمع أني |

وأبكي فيبكي مسعداً لي فيلنقي
شبهت خلان الصفا ويريب
على أن دهري لم يزل مذ عرفته
على القرب باب محكم ورقيب
ألا يا حبيباً حال دون بهائه
خمار خمار للمحب طيب
فمن يصح من داء الخمار فليس من
ويهوى وصائي ميله ويثيب
بنفسي أفدّي من أحب وصاله
ويأبى زماني ان ذا لعجيب
ونبذل جهدينا لشمّل يضمنا
وقد زعموا ان كل من جدّ واجد

هذا مثال من شعر ياقوت وكان مقلّاً منه، وقد أورده ابن خلكان رسالة مطولة كتبها من الموصل الى القاضي الاكرم القفطي وزير صاحب حلب حين وصوله الى خوارزم هارباً من التتر يصف فيها بالسجع ما لقيه من البلاء وما ارتكبه التتر من الشرور . ووصف تلك الديار وأهلها وعلمهم وأخلاقهم وصفاً جيداً . وفي هذه الرسالة استشهد بأبيات كثيرة من الشعر دلّ بها على وفرة محفوظه وحضور ذاكرته .

ثلاثة كتب طبعت لياقوت اشهرها وخذ ذكره : (معجم البلدان) و (المشترك وضعاً والمختلف صقاً) و (ارشاد الاريب الى معرفة الاديب) . أو طبقات الادباء ، وكلها بما أحياه المستعربون من الغربيين لهذا الرومي المستعرب العظيم ، وقد خدم بها تاريخ الرجال وتاريخ البلدان خدمة عظيمة ، فهو في الجغرافيا العربية والآداب العربية نسيج وحده حقق في كل ما وضع تحقيقاً لا يصل غيره الى مثله في عصره وبعد عصره .

رتب معجم البلدان على حروف المعجم وذكر فيه أسماء البلدان والجبال والأودية والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران والأصنام والأوثان معتمداً في تأليفه على من كتب قبله في تقويم البلدان من العرب وعلى اللغويين ودواوين العرب والمحدثين ونواريخ أهل الأدب ، والتقط من أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهد في أسفاره وحققه بنفسه من أسماء البلدان ما عظمت به فائدته .

كان ياقوت محتاطاً فيما ينقله عن غيره قال مثلاً في إحدى المدن :
ولها قصة بعيدة من الصحة لمفارقتها العادة وأنا برىء من عهدتها إنما اكتب
ما وجدته في الكتب المشهورة التي دونها العقلاء . وقال فيما نقل عن
الصين : « وهذا شيء من أخبار الصين الاقصى ذكرته كما وجدته لأضمن
صحته ، فان كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذباً فتعرف
ماتقوله الناس ، فان هذه البلاد شاسعة مارأينا من مضى اليها فأوغل فيها
وانما يقصد التجار اطرافها » وكأنه بما ينقل من الاوهام والخرافات يحاول
ان لا يخلي كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ، ليستفيد منه الجاهل
ويتفككه به العالم ، ويزيد به المتعلم الاديب درساً ، وقد توسع خاصة في
الكلام على المدن التي انشأها العرب .

حرص في معجم البلدان على الامام باخبار فتوح البلاد وعمرانها
وامرالها ومرافقها وعادياتها وأخلاق اهلها ومن خرج منها من المشاهير وما
وقع فيها من الوقائع التاريخية وما قيل فيها من الاشعار البديعة ، فأمتع
قارئه بكل مفيد حسب ما وصل اليه علمه ، ووقع عليه في كتاب او
استقرأه بنفسه ونقله عن الثقات . وهذا جماع ما في معجمه مما ادركه
في عصره او اقتبس من الاصول المتقنة في خزائن مرو قال : « كانت
سهلة التناول ، لا يفارق منزلي منها ما أتت مجلد واكثر ، وبغير رهن ، تكون
قيمتها مائتي دينار فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها ، وانساني حبها
كل بلد والهاني عن الاهل والولد ، واكثر فوائد هذا الكتاب (معجم
البلدان) وغيره بما جمعه فهو من تلك الخزائن ، وما كان له ان يفارق
مرو لولا ورود التتر الى تلك الارحاء .

ومن معجم البلدان فقط يتألف ديوان لطيف من المقاطيع والقصائد
التي استشهد بها ، وكتاب في عجائب البلدان والحديقة وأخلاق الناس وعاداتهم
ودرجة الرفاهية والثروة في عصره او قبل عصره . ويفيض في كلامه
على الحواضر يذكر من خرج منها من الاعيان ولا سيما رجال الحديث ،
وقد تظفر فيه بتراجم مطولة لرجال أغفل بعض مصنفى الطبقات ذكرهم .

وهو كتاب خاص بديار الاسلام والشرق كتب بكثير من التحفظ اذا وقع التنظير بين ما نقله وما نقله المؤلفون في عصره وبعد عصره . فقد قال في الروم مثلاً « وفي أخبار بلاد الروم اسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً ، فقد أذنت له في اصلاحه مأجوراً » وهذا ديدن العلماء في القديم والحديث يدعون العارفين الى تصحيح هفواتهم أو الى تقديمهم للوصول الى الحقائق .

أما كتاب « المشترك وضعاً والمفترق صقماً » فقد انتزعه بنفسه من معجم البلدان واقتصر فيه على ما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطاً ووافق شكلاً ونقطاً وافترق مكاناً وعملاً ، توفيراً لوقت المطالع الذي يجب السرعة في تلقف الفوائد ، وبعداً به عما ذكره في معجمه الكبير من الاشتقاق والشواهد والمكت والفوائد والأخبار والاشعار . ودعا ياقوت على من يختصر بعده كتابه معجم البلدان ، وما نجا مع هذا من أناس حاولوا اختصاره ، ومنهم صفي الدين عبد المؤمن اختصره وسماه « مرصد الاطلاع » .

بقي ان نطلق القول في كتاب ياقوت الثالث وهو « ارشاد الارب الى معرفة الاديب » وفيه جمع ما وقع من اخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والاختباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين واصحاب الرسائل المدونة وارباب الخطوط المنسوبة وكل من صنف في الادب تصنيفاً ، مثبتاً وفياتهم ومواليدهم وتصانيفهم واخبارهم وانسابهم واشعارهم . قال : فأما من لقيته او لقيت من لقيه فأورد لك من أخباره وحقائق اموره ما لا اترك لك بعده تشوقاً الى شيء من خبره ، وانه جمع للبريين والكوفيين والبغداديين والحراسانيين والحجازيين واليمنيين والمصريين والشاميين والمغربيين وغيرهم على اختلاف البلدان وذلك على حروف المعجم ايضاً . وقال في الاعتذار عن نفسه ولئن يقول

له ان الاشتغال بأمر الدين اهم : ان هذه اخبار قوم عنهم اخذ القرآن والحديث ، وبصنائهم تنال الامارة ويستقيم امر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الاسلام ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام ، وان كتابه هذا هو علم الملوك والوزراء والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ونزهة لنفوسهم . قال : وربما قال بعضهم ان (معجم الادباء) تصنيف رومي بملوك وما عسى ان يأتي به ؟ ان القوم لا ينظرون ما قيل انما يسألون عن من قال . ولو عاش ياقوت ورأى القوم بعد ان اتى على كتابه سبعة قرون كيف اشتهر كتابه معجم البلدان ومعجم الادباء لا يستغني عنها باحث ولا اديب ، واثبتت الايام أنهما من الكتب التي حرت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسناً ، لا غتبط وادرك ان ما كان يقدر ان الناس يقولونه في كتبه قالوه في امثاله ، ثم ذهب لغط القوالين والطاعنين ، وثبت علم العالمين والمتأدبين الباحثين .

ولياقوت كتب كثيرة لم تطبع ، وما طبع له كاف في الحكم على سعة علمه وسعة عمله . يقول احد علماء المشرقيات : ما كان ياقوت الا بعض أولئك الجامعين من المؤلفين عند العرب . اي انه يعنى بنقل كلام غيره فليس له يدٌ فيما دَوَّن ، ولا صدر فيما صدر عن بحث واعمال قريجة ، ولكن البحث الشخصي يتمثل في كتب ياقوت ولا سيما في معجم البلدان ثم في معجم الادباء على ما قلته . ومعجم الادباء لم يصل الينا الا ناقصاً وما نشر على انه من ياقوت ينادي على نفسه بانه ليس له بل هو مذبسوس عليه ، ويتجلى ذلك لمن يعارض بين التراجم التي هي من حصول قلمه والفصول الاخيرة من الكتاب وقد ألصقت به الصاقاً ، فالفرق بين بين افاضة ياقوت في الترجمة للرجال والاقتضاب الخزي في التراجم التي فحلوها له .

عبد اللطيف البغدادي

هذا عالم ندر ان يتسع صدر رجل ما اتسع له صدره من ضروب العلم والآداب . قال العلامة هوتسما : انه كان يعرف جميع العلوم المعروفة في عصره . والسبب في تفننه في العلم نصيحة صدرت له من رجل مغربي نزل بغداد كان ، كما قال هو عنه ، يجلب القلوب بصورته ومنطقه وإيhamه فإلأ قلبه شوقاً الى العلوم كلها . عدّ له ابن ابي أصيبعة زهاء مئة وخمسين كتاباً ومقالة ورسالة ، ومنها ما وقع في مجلدات مثل اخبار مصر الكبير ، وكتاب الجامع الكبير في المنطق والطبيعي والالهي زهاء عشر مجلدات ، وكتاب القياس يدخل في اربع مجلدات ، والسماع الطبيعي مجلدان . ومنها ردود على بعض الفلاسفة مثل ابن سينا والرازي وابن الهيثم ، ولم يطبع من جميع كتبه فيما علمنا سوى كتاب المشاهدة والاعتبار في اخبار مصر وفيه ترجمته بقلمه . وفي هذا الكتاب الصغير حوادث مهمة وقعت في ايامه في مصر والشام وصفها وصف عيان . فنحن اذاً لا نعلم شيئاً من تصانيفه يسوغ لنا به اصدار حكم عادل عليه .

قال ابن ابي أصيبعة : كان كثير الاشتغال لا يجلي وقتاً من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة : والذي وجدته في خطه اشياء كثيرة جداً بحيث انه كتب كتباً كثيرة من تصانيف القدماء . قال : وكان حسن الكلام لكثرة ما يرى في نفسه ويستنقص فضلاء زمانه وكثيراً من المتقدمين ، وكان يكثر الوقوع في علماء العجم ومصنفاتهم وخصوصاً الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه .

ولما استوفى حظه من الاخذ عن علماء بغداد جاء الموصل فلم تعجبه واجتمع بكال الدين بن يونس وكان بمن يقول بالكيمياء وعبد اللطيف يخالفه في ذلك فرحل عنها ونزل دمشق وفيها الف كتباً كثيرة .

ثم توجه الى زيارة القدس ، ثم قصد الى صلاح الدين بظاهر عكا فاجتمع بهاء الدين بن شداد قاضي العسكر يومئذ قال : وكان قد اتصل به شهرتي بالموصل فانبسط اليّ واقبل عليّ وقال نجتمع بعهد الدين الكاتب ، فقمنا اليه وخيمته الى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتاباً الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة وقال : هذا كتاب الى بلدكم ، وذكري في مسائل في علم الكلام وقالوا قوموا بنا الى القاضي الفاضل ، فدخلنا عليه ، فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة اعضائه . وسألني القاضي الفاضل عن قوله سبحانه وتعالى : « حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » ابن جواب اذا ، وابن جواب لو في قوله تعالى « ولو أن قرآننا سيرت به الجبال » وعن مسائل كثيرة ، ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملاء . وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك الجرايات فقلت : أريد مصر فقال : السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها ، فقلت : لا بد لي من مصر فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها ، فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله ، وهو ابن سناء الملك ، وكان شيخاً جليل القدر نافذ الامر ، فأنزلي داراً قد أزيحت عليها وجاءني بدنانير وغلة ، ثم مضى الى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضي الفاضل . فدرت الهدايا والصلوات من كل جانب وكان كل عشرة أيام او نحوها تصل تذكرة القاضي الفاضل الى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية في حقي . وكان قصدي في مصر ثلاثة : ياسين السيميائي والرئيس موسى بن ميمون اليهودي ، وأبو القاسم الشارعي وكلهم جاءوني أما ياسين فوجدته محالياً كذاباً مشعبداً يشهد للشاقاني بالكيمياء ويشهد له الشاقاني بالسيمياء ويقول عنه انه يعمل اعمالاً يعجز موسى بن عمران عنها وانه

يحضر الذهب المضروب متى شاء ، وبأي مقدار شاء ، وبأي سكة شاء ،
وانه يجعل ماء النيل خيمة ويجلس فيه وأصحابه تحته . وكان ضعيف
الحال . وجاءني موسى فوجدته فاضلاً لا في الغاية قد غلب عليه حب
الرياسة وخدمة ارباب الدنيا . قال وكنت ذات يوم بالمسجد وعندني جمع
كثير فدخل شيخ رث الثياب نير الطلعة مقبول الصورة فهابه الجمع
ورفعوه فوقهم واخذت في اتمام كلامي ، فلما تصرم المجلس جاءني امام
المسجد وقال اتعرف هذا الشيخ هذا ابو القاسم الشارعي ، فاعتنقته وقلت
اياك اطلب فأخذته الى منزلي وأكلنا الطعام وتفاوضنا الحديث فوجدته
كما تشتهي اللسان وتلذ الاعين . قال : وكنا اذا تفاوضنا الحديث اغلبه بقوة
الجدل وفضل اللسن ، ويغلبني بقوة الحجة وظهور الحججة . وانا لا تلين
قناتي لغمزه ، ولا أعيده عن جادة الهوى والتعصب برمزه ، فصار يحضرنى
شيئاً بعد شيء من كتب ابى نصر والاسكندر وثامسطيوس ، يؤنس بذلك
نفاري ، ويلين عريكة شماسي ، حتى عطفت عليه .

وشاع ان صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس فقادت الضرورة
الى التوجه اليه ، فأخذ من كتب القدماء ما أمكنه ، وتوجه الى القدس
قال : فرأيت ملكاً عظيماً يملأ العين روعة ، والقلوب محبة ، قريباً بعيداً
سهلاً جيبياً ، وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون الى المعروف كما قال
تعالى : « ونزعنا ما في صدورهم من غل » وأول ليل حضرته وجدت
مجلساً حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاجتماع
والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، وينفقه في ذلك
ويأتي بكل معنى بديع . وكان مهتماً في بناء سور القدس وحفر خندقه ،
يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسي به جميع الناس
الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء حتى العماد السكاتب والقاضي الفاضل .
قال وكتب لي صلاح الدين بثلاثين ديناراً في كل شهر على ديوان
الجامع بدمشق ، وأطلق اولاده روانب حتى تقرر لي في كل شهر مائة

دينار ، ورجعت الى دمشق وأكبت على الاشتغال واقراء الناس بالجامع .
وبعد وفاة صلاح الدين عاد المترجم له الى مصر مع ابنه الملك العزيز .
وكان في تلك المدة يقريء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو
الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره ، وآخر النهار يرجع
الى الجامع الارهر فيقرأ قوم آخرون . وأقام في القاهرة الى أن ملك
الملك العادل ابو بكر بن ايوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق
وتفرقت اولاد اخيه الملك الناصر صلاح الدين ، فتوجه الى القدس وأقام
بها مدة ثم عاد الى دمشق ومكث بها زمناً ينفع الناس بعلمه ، ثم سافر
الى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة ، وكان في خدمة الملك
علاء الدين داود بن بهرام صاحب ارزنجان ، وكان مكيناً عنده عظيم المنزلة
وله منه الجامكية الوافرة والافتقادات الكثيرة . ثم توجه الى ارزن الروم
ورجع الى ارزنجان فكأخ فديركي فملطية فحلب . وأقام بحلب يشتغل عليه
الناس وكان له من شهاب الدين طغريل الخادم أتابك حلب جارٍ حسن ثم
خطر له أن يهجم ويجعل طريقه على بغداد وان يقدم بها للخليفة المستنصر
بالله أشياء من تصانيفه ولما وصل بغداد مرض وتوفي بها بعد أن غاب
عنها خمساً واربعين سنة .

ومن كلامه : ينبغي ان تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت الى منامك
وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها وما اكتسبت
من سيئة فتستغفر الله منها وتقلع عنها ، وترتب في نفسك ما تعمله في
غداك من الحسنات ، وتسأل الله الاعانة على ذلك . وقال : أوصيك أن
لا تأخذ العلوم من الكتب وان وثقت من نفسك بقوة الفهم ، وعليك
بالأستاذين في كل علم تطلب اكتسابه ، ولو كان الأستاذ ناقصاً فخذ
عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه ، وعليك بتعظيمه وترحيبه ، وان قدرت
ان تفيد من دنياك فافعل والا فبلسانك وثنائك . واذا قرأت كتاباً
فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه وتوهم ان الكتاب قد

عدم وانك مستغن عنه لا تخزن لفقده . واذا كنت مكباً على دراسة كتاب وتفهمه فإياك ان تشتغل بآخر معه ، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره اليه . وإياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة ، وواظب على العلم الواحد سنة او سنتين او ما شاء الله ، فاذا قضيت منه وطرك فانتقل الى علم آخر ، ولا تظن انك اذا حصلت علماً فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمي ولا ينقص ، ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكير واشتغال المبتدئ بالحفظ والتعلم ومباحثة الاقران واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف . واذا تصديت لتعليم علم او للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم ، فان كل علم مكثف بنفسه مستغن عن غيره ، فان استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء اقسامه ، كمن يستعين بلغة في لغة أخرى اذا ضاقت عليه أو جهل بعضها .

قال : وينبغي للانسان أن يقرأ التواريخ وان يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الحالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم . قال : وينبغي ان تكون سيرتك سيرة الصدر الأول فاقراً سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وتبوع أفعاله وأحواله واقنف آثاره وتشبه به ما أمرك وبقدر طاقتك ، واذا وقفت على سيرته في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرضه وتطبيه وتمتعته وتطبيه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد .

قال : وينبغي أن تكثر إيمانك لنفسك ولا تحسن الظن بها ، وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم ، وثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبداد الزلل ، ومن لم يعرق جبينه الى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة ، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس ، ومن لم يبكتوه لم يسود ، ومن لم يحمّل ألم التعلم لم يذق لذة العلم ومن لم يكسح لم يفلح . واذا خاوت من التعلم والتفكير فحرك لسانك بذكر الله

وبتساويحه وخاصة عند النوم فيتشربه لبك ويتعجن في خيالك وتتكلم به في منامك ، واذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا فاذا ذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات ، واذا حزبك أمر فاسترجع واذا اعترتك غفلة فاستغفر ، واجعل الموت نصب عينيك والعلم والتقوى زادك في الآخرة . واذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكاناً لا يراك فيه ، واعلم أن الناس عيون الله على العبد ، يريهم خيره وان أخفاه ، وشره وان ستره ، فباطنه مكشوف لله ، والله يكشفه لعباده ، فعليك أن تجعل باطنك خيراً من ظاهرك وسرك أصح من علانيتك ، ولا تتألم اذا أعرضت عنك الدنيا فلو عرضت لك لشغلتنك عن كسب الفضائل ، وقلم يتعمق في العلم ذو الثروة الا ان يكون شريف المهمة جداً او ان يثري بعد تحصيل العلم . واني لأقول ان الدنيا تعرض عن طالب العلم بل هو الذي يعرض عنها لأن همته مصروفة الى العلم فلا يبقى له التفات الى الدنيا ، والدنيا انما تحصل بحرص وفكر في وجوها ، فاذا غفل عن أسبابها لم تأته . وأيضاً فان طالب العلم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات ، وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم ولبعض اخرائنا بيت شعر :

من جد في طلب العلوم أفاته شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج الى فراغ لها وحذق فيها وصرف الزمان اليها ، والمشتغل بالعلم لا يسهه شيء من ذلك وانما ينتظر ان تأتبه الدنيا بلا سبب وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها ، وهذا ظلم منه وعدوان ، ولكن اذا تمكن الرجل في العلم وشهر به خطب من كل جهة وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة ، وأخذها وماء وجهه موفور وعرضه ودينه مصون . واعلم أن للعلم عبقة وعرفاً ينادي على صاحبه ، ونوراً وضياء يشرق عليه ويدل عليه ، كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته ، وكمن يمشي بمشعل في ليل مدلهم ، والعالم مع هذا محبوب

أينما كان وكيفما كان ، لا يجد الا من يميل اليه ويؤثر قربه ويأنس به ويرتاح
بمداناته ، واعلم ان العلوم تغور ثم تفور ، تفور في زمان وتفقور في
زمان بمنزلة الزبات أو عيون المياه ، وتنتقل من قوم الى قوم ومن صقع
الى صقع .

عالم عظيم استجمع شروط العلم في ذاته ، وانقطع الا عما شغل قلبه
به من صغره من الدرس والتدريس والتأليف والتصنيف ، فطَمَ نفسه
عن المظاهر التي لا تأتي المعرم بها الا من طريق الدولة والسلطان ،
ولا يتصدر في المجالس الا بقوة الملوك وما يفضلون به عليه من المراتب .
عظم موقعه من نفوس ملوك عصره وكانوا يعتبطون اذا رأى نزول ساحتهم
وقبول أعطياتهم يستميلون قلبه بما يرضيه ، ليتوكوا له وقته بصرفه كما
يجب في بث العلم في الناس .

في العادة أن تعظم شهرة العالم بعد وفاته ، وهذا على ما رأينا ضوّلت
شهرته عما كانت عليه في حياته . وكان الباعث على ذلك فقدان كتبه
الا جزءاً صغيراً من كتاب ، وما صنفه من الأسفار غير قليل ، وما
كتب له البقاء منها أقل من القليل . دثرت كتبه لأنها في موضوعات
فلسفية لا يجبها الفقهاء والمحدثون ، والحكماء في ملتنا أفراد يعدون على
الأصابع في عصور بعينها يعانونها في سرّ ويكتمون عن الدهماء أمرهم ،
فسبحان من له هذا السر في خلقه .



(٤٤)

ابن أبي أصيبعة

موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس
السغدني الخزرجي

(٦٦٨)

هو من الخزرج من ولد سعد بن عبادة . ولد بدمشق وقرأ مباديء
الطب على والده ، ثم اتصل بعلماء اجلاء أخذ عنهم التاريخ والأدب والطب
ومن تلقى عنهم الطب مهذب الدين الدخوار الذي انتهت اليه رياسة
صناعة الطب في عصره . ولما أقام الدخوار بدمشق شرع في تدريس
صناعته ، فاجتمع اليه خلق كثير من أعيان الاطباء وغيرهم يقرأون عليه ،
وأقام موفق الدين بدمشق لأجل القراءة عليه ، وكان يشتغل عليه في
المعسكر لما كان أبوه والحكيم الدخوار في خدمة السلطان . قرأ على
الدخوار كتب جالينوس ولازمه في وقت معالجته للمرضى فتدرب معه
وباشر عندئذ أعمال صناعة الطب ، وكان مع شيخه لمداواة المرضى في
البيارستان النوري الحكيم عمران من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة
والتصرف في أنواع العلاج ، فتضاعفت الفوائد المقتبسة من اجتماعها وبما
كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها وبما كان يصفانه للمرضى .
فالدخوار هو الذي تخرج به المؤلف في الطب واقنيس في المعالجة
فوائده وفوائد الحكيم عمران . أما شيوخه في الأدب والتاريخ وغيرهما
فلم نعرفهم . وكان مبرزاً في الأدب ينثر وينظم ، اشتهر بنظمه من مدحه

صدر صناعته ، وكان يقول الشعر على البديهة ويجتمع الى الشعراء ، ومن
اصدقائه فتيان الشاغوري من اكبر شعراء دمشق في عصره ، ومن شعره
قصيدة يتشوق فيها الى دمشق ويمدح موفق الدين عبد السلام .

قال فيها :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| لعل زماناً قد تقضى بجلق | يعود وتدنو الدار بعد التفرق |
| وان تسمح الايام من بعد جورها | بعدل واني بالأحبة نلتقي |
| فكم لي الى اطلالها من تشوف | وكم لي الى سكانها من تشوق |
| ترنخي الذكرى اليها تشوقاً | كما رنحت صرف المدام المعتق |
| ومن عجب نار اشتياقي بأضلعي | لها هب من دمعي المتفرق |
| لقد طال عهدي بالديار وأهلها | وكم من صروف البين قلبي قد لقي |
| ولو كانت للمرء اختيار وقدرة | لقد كان من كل الحوادث يتقي |
| ولكنها الافدار تحكم في الوري | وتقضي بأمر كنهه لم يحقق |

ومن قصيدة له في الوزير صاحب امين الدولة ابي الحسن بن غزال
وهو الذي أهدي اليه كتاب الطبقات :

| | |
|-------------------------|-----------------------------|
| فؤادي في محبتهم أسير | وأنى سار ركبهم يسير |
| يحن الى العذيب وساكنيه | حنيناً قد تضمنه سعير |
| ويهوى نسمة هبت سحيراً | بها من طيب نشرهم عبير |
| واني قانع بعد التذاني | بطيف من خيالهم يزور |
| ومعسول اللثمي مر التجني | يجور على الحب ولا يجير |
| تصدى للصدود ففي فؤادي | بوافر هجره ابداً هجير |
| وقد وصلت جفوني فيه شهدي | فما هذي القطيعة والنفور ... |

وهبط موفق الدين مصر وأكمل صناعته في المستشفى الناصري ، ثم انتقل
الى صرخد في جبل حوران وكان مالكاها عز الدين ايبك ، وفي صرخد
هلك ودفن ، والى صرخد كذب اليه شرف الدين الرجبي يحثه على العودة
الى دمشق ويكره اليه البلد الذي نزل به قال :

موفق الدين ما ذا السهو منك على
اتعبت نفسك بالنزر الحقيق لقد
أتمت في بلد يزري بساكنه
نائع عن الخير ذي جذب فليس به
مضيعاً فيه عمراً ما له عوض
أتحسب العمر مردوداً تصرفه
أم تحسب العمر ما ولت لذاذته
إذا تولى شباب المرء في نفص
لو كان ما انت فيه مكسباً لغنى
فكيف مع قلة الجاري وخسته
فعد الى جنة الدنيا فقد برزت
ولا تقم في سواها مع حصول غنى
واقطع زمانك طيباً في محاسنها
الى آخر القصيدة فجاوبه ابن ابي أصيبعة بقصيدة مدحه بها ومن أبياتها :

وإني بعدما جسد الفراق بنا
وكيف يلتذ عيشاً من اتاح به
لم يعرفوا قدر ذي علم لجملهم
أتيت من ضاع فضلي في فيناه وهل

والبعد لم يصف لي عيش ولم يطب
هذا الزمان الى قوم من الخطب
وإيس ذلك في الجهال بالعجب
عباوة العجم تدري فطمة العرب

الى آخر ما استدللنا به على أنه لم يكن في صرخد على فراش من
الورد وان الحاجة أو الشيخوخة دفعته الى الرضا بالاستخدام عند صاحبها
الأعجمي في بلد يغلب الجهل على أهله .

هذا ما كان من نشأته وتمحضه لصناعة الطب ، وكان من أمره بالبراعة
في التأليف أنه ألف كتابه النفيس « عيون الأنبياء في طبقات الأطباء »
واسطة : فقد تأليفه والدررة البيتمة التي خلد فيها على الأيام ذكره ، وذلك
في سنة ٦٤٣ وهو في سن الكهولة ، وبقي خمساً وعشرين سنة يحو ويثبت

كما فعل ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ترجم فيه للموافق والمخالف وأنصف جميع من ترجم لهم كأبناء مذهبه ، أو كأبناء مذهب واحد وهو مذهب العلم . وأودعه نكتاً وعميماً في مراتب المتميزين من الاطباء القدماء والحديثين ومعرفة طبقاتهم على توالي أزممتهم وأوقاتهم وأودعه نبذة من أقوالهم وحكاياتهم ونواديرهم ومحاوراتهم وشيئاً من أسماء كتبهم ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم ، قال : فان كثيراً منهم وان قدمت أزمانهم وتفاوتت أوقاتهم فان لهم علينا من النعم فيما صنعوه ، والمثني فيما قد جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ، ما هو تفضل المعلم على تلميذه ، والمحسن الى من أحسن اليه .

قسم كتابه الى خمسة عشر باباً الباب الأول في كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها . الثاني في طبقات الاطباء الذين ظهرت لهم أجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها وهم ثلاثة . الثالث في الأَطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقيليبوس وهم ستة . الرابع في الاطباء اليونانيين الذين أذاع ابقراط فيهم صناعة الطب وهم تسعة . الخامس في الاطباء الذين كانوا منذ زمان جالينوس وقريباً منه . السادس في الاطباء الاسكندرانيين ومن كان في أزممتهم من الاطباء النصارى وغيرهم . السابع الاطباء الذين كانوا في أول ظهور الاسلام من اطباء العرب وغيرهم وهم عشرة . الثامن في الاطباء السريانيين الذين كانوا في ابتداء ظهور دولة بني العباس وهم أربعة وثلاثون . التاسع الاطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم وهم سبعة وثلاثون . العاشر الاطباء العراقيون وأطباء الجزيرة وديار بكر وهم اثنان وثمانون طبيباً . الحادي عشر الاطباء الذين ظهوروا في العجم وهم ثلاثة وعشرون . الثاني عشر الاطباء الذين كانوا في الهند وهم ستة . الثالث عشر الاطباء الذين ظهوروا في بلاد المغرب وأقاموا بها وهم تسعة وثمانون . الرابع عشر الاطباء المشهورون من أطباء مصر

وهم سبعة وخمسون . الخامس عشر الاطباء المشهورون من اطباء الشام
وهم تسعة وخمسون .

ورتب من ترجم لهم على سني وفياتهم ، ولا تعد هذه الطبقات كتاباً
للطب والاطباء بل كتاب الحكمة والحكام والمفنيين من العلماء ، يقع القارىء
فيه على اشياء في مدينة الاسلام وعيون المسائل الصحية والعلمية وأسماء
التراجم عن اليونانية والسريانية وغيرها تتراوح فيه بين التعريف بالاطباء
والفلاسفة والحكم المستعذبة والاشعار اللطيفة والنثر البديع ، فهي كتاب
أدب ومحاضرة كما هي كتاب حكمة وطب ، تنتقل بين الاستفادة من
هذه وترويح النفس بتلك ، الى غير ذلك من الفوائد التاريخية والاجتماعية
والطبية عدا ما فيه من النكات والفكاهات .

ومن فكاهاته ما رواه عن يوحنا بن ماسويه الطيب العالم المشهور
وكان فكهاً ذا دعابة وظرف قال : شكا اليه رجل جرباً قد أضر به
فأمره بفصد الأكل من يده اليمنى فأعلمه انه قد فعل . فأمره بفصد
الاكل أيضاً من يده اليسرى فذكر انه قد فعل . فأمره بشرب المطبوخ
فقال : قد فعلت . وأمره بشرب الاصطمخيقون فأعلمه أنه قد فعل .
فأمره بشرب ماء الجبن اسبوعاً وشرب مخيض البقر اسبوعين . فأعلمه انه قد
فعل . فقال له : لم يبق شيء مما أمر به المتطبخون الا وقد ذكرت
انك فعلته وبقي شيء مما لم يذكره بقراط ولا جالينوس وقد رأيناه
يعمل على التجربة كثيراً فاستعمله ، فاني ارجو ان ينجع علاجك ان
شاء الله . فسأله ما هو ؟ فقال : ابتغي زوجي قرطيس وقطعها
رفاعاً صغيرة واكتب في كل رفعة : رحم الله من دعا لمبتلى بالعافية ،
وأنت نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام ، والنصف الآخر في المسجد
الغربي وفرقها في المجالس يوم الجمعة فاني ارجو ان ينفعك الله بالدعاء إذ لم
ينفعك بالعلاج .

توسع المؤلف في حرية القول الى التي لم يصل زمانه الى اوسع منها

وحرص على نقل الشعر ولا سيما شعر الأطباء ، وفيه المستملح وفيه العالي ،
والكثرة غرامه بالحرية نشر طائفة من الشعر الذي نصفه بالأدب المكشوف ،
أراد أن يجعل كتابه مرجعاً كبيراً ومورداً فائضاً في كل أطروبة
وأطروبة . ولما أهدى نسخاً لبعض من يغلب عليهم الوقار حذف هذه
الزائدات ، ومن رأهم يجبون الأشياء على أصلها استنسخ لهم من كتابه نسخة
تامة ، وهذا هو السبب في اختلاف النسخ التي ظفر بها طابع الكتاب -
قله أستاذي الجزائري .

والغالب ان الأطباء ومهنتهم تقتضيهم النظر في أعضاء البدن كافة
لا يتحرجون ، كسائر الشعراء ، من النظم في الأدب المكشوف تسليمة لأنفسهم
ولغيرهم في صناعة صعبة تحتاج الى مرح ودعابة ، وقد وقع لهم في عهد
المدنية العربية من ذلك أشياء كثيرة قصد بها ادخال السرور على النفوس ،
ولولا أن بعضهم يشمرون من ذكر هذه المسائل ماتوقفت عن ان أتقدم
أول المؤلفين في اثبات ما قالوا ما دام أجدادنا لم يجمعوا عن انشادها
وتدوينها أيام عزة الاسلام .

ومن حرية المؤلف أنه نشر النسخة التي كتبها ابن حمويه المتصوف
لعمه رشيد الدين علي بن خليفة بالباسه خرقة التصوف . ولعله قصد باثباتها
في مصنفه لينعي على بعض أهل هذه الطريقة تحريفهم ، خصوصاً وقد ادعى
ابن حمويه انه أخذها عن والده عن جده وأنه أخذها عن الخضر عليه
السلام ، والخضر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخضر كالعنقاء والمهدي
ما جاء آ قط . وبنقله هذه النسخة فضح معتقداً واهياً بقي يجوز على عقول
العامة قروناً .

لموفق الدين عدة كتب لم تصل إلينا ووصل إلينا طبقات الأطباء
وهو بحق من الأمهات المعتبرة حفظت فيه مطالب مهمة جداً لولاه
لضاعت على العلم العربي .

(٤٥)

ابن خيطان

شمس الدين أحمد الاربلي

(٦٨١)

قاضي القضاة الكملة ، شيخ المؤرخين ، علم المحققين ، المتفنن في العلوم ، البارِع في تصنيفه ، العظيم في تفكيكه ، المجيد في شعره ونثره ، ينمُّ ما كتب على ذوق عال في الأدب وعلى اطلاعه الواسع في جميع فروعه ، ماهر بالمناسبات والمقارنات ، صاحب اليد الباسطة في النقد وليس بمن يقنعه النقل المجرد ، يجمع بين معرفة نفسية الناس ومعرفة التاريخ ومعرفة الشريعة ومعرفة السياسة ومعرفة الأدب ، والنفوذ أبدأً الى الحقائق ومعرفة العلوم المتنوعة التي أعانته على التجويد في تأليفه .

ولد سنة ثمان وستمائة في مدينة اربل بمدرسة سلطانها مظفر الدين ابن زين الدين ، وكان والده يتولى التدريس فيها . وقيل في نسبه أنه ينسب الى البرامكة فهو احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان ابن باول بن عبد الله بن شاكل ابن الحسين بن مالك بن جعفر بن يحيى ابن خالد بن برمك . قال ابن العديم انه من بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية . وقال غيره : كان اماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً مفتناً ، مجموع فضائل ، معدوم النظير في علوم شتى ، حجة فيما ينقله ، محققاً لما بورده ، متفرداً في علم الادب والتاريخ ، وكان ولي قضاء دمشق مرتين ثم عزل وقدم القاهرة وأفتى ودرس ودام بها نحو سبع سنين ثم أعيد الى قضاء دمشق وسر الناس بعوده ومدحته الشعراء بعدة قصائد . من ذلك ما قال رشيد الدين الفارقي :

أنت في الشام مثل يوسف في مصر وعندي ان الكرام جناس
ولكل سبع شداد وبعد السبع عام فيه يغاث الناس
وقال سعد الدين الفارقي :

أذقت الشام سبع سنين جديلاً غداة هجرته هجرأ جميلاً
فلما زرتـه من أرض مصر مددت عليه من كفيك نيلاً

وكانت مدة مقامه بدمشق عشر سنين كوامل لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً ، وعاد الى القاهرة فصادف فيها كتباً كان يؤثر الوقوف عليها فطالها وأخذ منها حاجته . « وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من بقية المذاهب فاستقلوا بالأحكام بعد ما كانوا يكونون من نوابه » وأثرت هذه المأثرة للظاهر بيبرس وكان بينه وبينه صلوات ود وشغل . والظاهر هو الذي جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة المعتمدة عند أهل السنة والجماعة قاضياً يقضي بينهم .

ذكر في مقدمة كتابه أن ما دعاه الى جمع تاريخه أنه كان مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم ومن جمع منهم كل عصر فوقع له منه شيء حملة على الاستزادة وكثرة التتبع فعمد الى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن وأخذ من أقوال الأئمة المتقنين له ما لم يجده في كتاب فرتبه على حروف المعجم ، ولم يذكر أحداً من الصحابة ولا من التابعين الا جماعة يسيرة تدعو حاجة كثير من الناس الى معرفة أحوالهم ، وكذلك الخلفاء فانه لم يذكر أحداً منهم ، وذكر جماعة من الأفاضل الذين شاهدتهم ونقل عنهم أو كانوا في زمنه ولم يروهم ، ولم يقصر مختصره على طائفة مخصوصة من العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء ، بل كل من له شهرة بين الناس ، وقيد من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفه وذكر من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أو رسالة ليتفكك به متأملاً ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمليه ، والدواعي انما تنبعث لتصفح الكتاب

إذا كان مفننا وأسماء « وفيات الاعيان وأبناء أبناء الزمان » بما ثبت بالنقل أو السماع وأثبتته البيان .

وطلب في مقدمة الكتاب وخاتمته بمن وقف عليه من أهل الدراسة بهذا الشأن ورأى فيه خللاً فهو المثاب في اصلاحه بعد النثبت فيه . وطلب في آخر كتابه بمن وقف عليه من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل ألا يعجل بالموأخذة فيه ، قال : فاني توخيت فيه الصحة حسبما ظهر لي مع أنه كما يقال : أبي الله أن يصح الا كتابه . أي أنه بذل الجهد في التدقيق فان ظهر ما فيه خلل بعد ذلك فانه أجاز العالم المطلع عليه أن يصلحه ، وأي أمانة للعلم أعظم من هذه الامانة .

أعجب علماء المشرقيات بكتاب الوفيات وقالوا انه ليس في لغاتهم من كتب التراجم ما يماثله في التحقيق ، وما أعجبوا به الا لأنه نشره لما حقق كل ما فيه وتمثله وهضمه ، فهو كتاب في التحقيق معجب لا يحتاج مطالعه عند تلاوة ترجمة من الترجمات الى مزيد ، اذا انتهى من الترجمة شرح ما يخشى أن يعسر فهمه على القارئ من ألفاظ لغوية غامضة وكلمات قد تكون مبهمة على القارئ في الجغرافيا والتاريخ والنسب .

وعندي ان هذا هو الكتاب المحرر ، وهكذا يجب أن تكون الكتب يتعب المؤلف أعواماً طويلة في تأليفه ليخرجه كسيكة الذهب فيستريح من يتناوله بعده الأستفادة ، ولو كانت كل كتبنا على هذا المثال في التحقيق لسقط قسم كبير من المؤلفات وبقي السليم المفيد والزبدة الخالصة . قالوا : كان فيه سكون الطائر المعهود في القضاة وعدم التسرع بما يعرض له باديء الرأي ، لا يبت في فصل القضايا اذا رأى في حسبها ضرراً ، وكذلك فعل بتأليفه فما أخرجه للملاي الا بعد مضغه وهضمه ، وتدوقه وهي مزية امتاز بها بعض المؤلفين الذين كتب الخلود لمؤلفاتهم . وحسنة أخرى كانت تبدو في كتابه وهي انه استخدم كل ما حواه صدره من المعارف وما بلغه من عظم التجارب في القضاة في تأليف

كتابه الممتع فقد يكون المؤرخ عند نفسه انه تام الادوات بما أحكمه من فنه فيكتبو في فنون كانت تلزمه للتحقيق ، يدرك هذا النقص كبار المحققين .

وعلى استغراق أوقات ابن خلكان في « فصل القضايا الشرعية والاحكام الدينية » وجد وقتاً لمطالعة القدر الممكن من الامهات يزين بنصوصها كتابه ، ووجد وقتاً للتدريس في عدة مدارس بدمشق لم يجتمع لغيره ولم يبق معه في آخر الوقت سوى الامينية وبيد ابنه كمال الدين موسى سوى النجيبية . ولعل لاستثنائه بعدة مدارس على ما لم يجتمع لغيره دخلاً في امالة بعض الوجوه عنه ، ففتح المجال لحساده أن يزنّ بأمر هو منها بريء ، ذلك أن مشايخ المدارس أنكروا ولا شك هذا الطمع من قاضي القضاة ، وربما كان باكتفائه بمدرسة واحدة أكبر داع الى تجويد التدريس والانتقان في العمل ، وارضاء بعض المدرسين بتوزيع هذه التداريس عليهم خير من ضمها في يد واحدة .

وترجم له ابن الكتبي في فوات الوفيات الذي جعله ذيلاً على كتاب ابن خلكان ترجمة من يفرح بالمساويء ويغضي عن المحاسن واتهمه بحب المرء ، وأورد له بيتين يقال انه قالهما في ابن صاحب حماة وربما كان يقصد النكته ، وسكت عن محاسنه ، ولم يذكر كتاب وفيات الاعيان وأين الأصل من الفرع ، الوفيات كله تحقيق والفوات جله تلفيق .

وروى الكتبي أن ابن خلكان كان في المدرسة العادية وبات ليلة يدور حول بركتها ويكرر هذين البيتين الى أن أصبح وتوضأنا وصلينا والبيتان هما :

أنا والله هالك آيس من سلامتي
أو أرى القامة التي قد أقامت قيامتي

ونقل له أبياتاً كلها من الغراميات منها :

وسرب طباء في غدير تخالهم بدوراً بافقي الماء تبدو وتعرب

يقول عذولي والغرام مصاحبي
وفي دمك المطول خاضوا كما ترى
ومن شعره :

يا رب ان العبد يخفي عيبه
ولقد أتاك وماله من شافع
ومن شعره :

تملتمو لي والديار بعيدة
وناجاكمو قلبي على البعد والنوى
فأستر بجلالك ما بدا من غيبه
لذنوبه فاقبل شفاعته شيبه
فخيل لي ان الفؤاد لكم مغنى
فأوحشتمو لفظاً وأنستمو معنى



لسانه المرين ابن الخطيب

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الساماني

أصله من لوشة على مرحلة من غرناطة ، كان له بها سلف معروفون في وزارتها ، ونشأ لسان الدين بغرناطة وقرأ وتأدب على مشيختها ، واختص بصحبة الحكيم يحيى بن هذيل وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرز في الطب وانتحل الأدب ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر فرقتاه إلى خدمته وأثبتته في ديوان الكتاب ببابه ، مرؤوساً بابن الحباب شيخ العُدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية . ولما هلك ابن الحباب ولي السلطان محمد بن الخطيب رياسة الكتاب ببابه وثناه بالوزارة ولقبه بها ، فاستقل بذلك وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدو ، وسفر عن سلطانه إلى ملك بني مرين بالعدوة معزياً بأبيه فجلسى في أغراض سفارته .

ثم هلك السلطان أبو الحجاج وبويع ابنه محمد بالأمر لوقته ، فأقر ابن الخطيب بوزارته كما كان لأبيه ، واتخذ لكتابته غيره ، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره وتشاركاً في الاستبداد معاً ، ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى ملك بني مرين مستمدين له على عدوهم الطاغية على عادتهم مع سلفه ، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه تقدم الوفد الذي معه من وزراء الاندلس وفقهاء استأذنه في انشاد شيء من الشعر يقدمه بين يدي نجواه فأذن له وأنشد وهو قائم ، أبياتاً اهتز السلطان لها ، فأذن له في الجلوس

وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع اليهم الا بجميع عطائهم . ثم أنقل
كاهلهم بالاحسان ورددهم بجميع مطالبهم . قال القاضي ابو القاسم الشريف :
لم يُسمع بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا .
وبعد ذلك اعتقل الرئيس القائم بالدولة هذا الوزير ابن الخطيب وضيق
عليه في محبسه ، الى أن شفع فيه . ثم سار في ركاب السلطان الى وادي
آش قادمين على السلطان أبي سالم ، فأرغد هذا عيش ابن الخطيب في
الجراية والاقطاع ، ثم استأذن السلطان في التحول الى جهات مراکش
والوفود على آثار الملك بها ، فأذن وكتب الى العمال باتحافه ، فبادروا في
ذلك وحصل منه على حظ . وعندما مر بسلا في قفوله من سفره دخل
مقبرة الملوك بسالة ووقف على قبر السلطان ابي الحسن وأنشد قصيدته على
روي الرء الموصولة يرثيه ويستثير به استرجاع ضياعه بفرناطة مطلعها :
ان بان منزله وشطت داره قامت مقام عيانه أخباره
قسّم زمانك عبرة أو غبرة هذا ثراه وهذه آثاره
فكتب السلطان أبو سالم في ذلك الى أهل الأندلس بالشفاعة فشفعوه
واستقر هو بسلا منتبذاً عن سلطانه طول مقامه بالعدوة . ثم عاد السلطان
المخلوع الى ملكه بالأندلس فاستقدم ابن الخطيب من سلا وورده الى منزله
كما كان ، وبعد ذلك فصل من الوزارة ، ثم أعيد الى مكانه من الدولة من
علو يده وقبول اشارته . وأدرسته الغيرة من عثمان بن يحيى مقدم القوم
في الدولة فأنكر على السلطان الاستكفاء به والتخوف من هؤلاء الاعبياص
على ملكه ، فحذره السلطان وأخذ في التدبير عليه حتى نكبه وأباه واخوته
وأودعهم المطبق ثم غرهم بعد ذلك ، وخلا لابن الخطيب الجو وغلب
على هوى السلطان ودفع اليه تدبير المملكة ، وخلط بينه وبين ندمائه
وأهل خاوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت اليه الوجوه
وعلقت عليه الآمال ، وغشي بابه الخاصة والسكافة وغصت به بطانة السلطان
وحاشيته ، فتوافقوا على السعاية فيه وقد صمّ السلطان عن قبولها .

وفي خلال ذلك استحكمت نفرة ابن الخطيب لما بلغه عن البطانة من القدح فيه والسعاية ، وربما خُيِّل اليه ان السلطان مال الى قبولها وانهم قد أحفظوه عليه ، فأجمع التحول عن الاندلس الى المغرب فسار اليها في ثلة من فرسانه ، ومعه ابنه علي الذي كان من خالصة السلطان ، فأجاز الى سبتة وتلقاه السلطان بأنواع التكرمة ، فاهتزت له الدولة ، واركب السلطان خاصته لتلقيه وأحله بمجلسه بمحل الايمن والغبطة ، ومن دولته بمكان الشرف والعزة ، وطلب الى صاحب الاندلس أهله وولده فجاء بهم على أكمل الحالات من الايمن والتكرمة . ثم لفظ المنافسون له في شأنه ، وأغروا سلطانه بتتبع عثراته ، وشاع على السنة أعدائه كلمات منسوبة الى الزندقة أحصوها عليه ونسبوها اليه ، ورفعت الى قاضي الحضرة فاسترعاها وسجل عليه بالزندقة ، وراجع صاحب الاندلس وأيه فيه وبعث القاضي الى ملك العدو في الانتقام منه وامضاء حكم الله فيه فصم لذلك ، وأنف لذمته ان تخفر وجواره ان يردى ، وقال لهم : هلا انتقمتم وهو عندكم وأنتم عالمون بما كان عليه ، وأما أنا فلا يخلص اليه بذلك أحد ما كان في جوارى . ثم وفر الجراية والافطاع له ولبنيه ولمن جاء من فرسان الاندلس في جملته .

فلما هلك سلطان العدو سار هو في ركاب الوزير أبي بكر بن غازي القائم بالدولة فنزل فاس واستكثر من شراء الضياع وتأنق في بناء المساكن واغتراس الجنات ، وحفظ له القائم بالدولة الرسوم التي رسمها له السلطان المتوفى . ولما استولى السلطان أبو العباس على البلد الجديد دار ملكه فُبِض على ابن الخطيب وأودعوه السجن وطيروا بالخبز الى السلطان ابن الأحمر فبعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب ابن زمرك فقدم على السلطان أبي العباس وأحضر ابن الخطيب بالمشورة في مجلس الخاصة وأهل الشورى ، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه ، فعظم عليه النكير فيها فوبخ ونكل وامتنع بالعذاب بمشهد ذلك الملا ثم تل الى

محبسه واشتوروا في قتله بموجب تلك المقالات المسجلة عليه ، وأفتى بعض الفقهاء فيه . ودس سليمان بن داود رديف وزير السلطان لبعض الاوغاد من حاشيته بقتله ، فطوقوا السجن ليلاً ومعهم زعانفة جاءوا في لفيف الخدم مع سفراء السلطان ابن الاحمر وقتلوه خنقاً في محبسه ، وأخرجوا شلوه من الغد ، فدفن ثم أصبح من الغد على شأفة قبره طريحاً ، وقد جمعت له أعواد وأضمرت عليه نار فاحترق شعره واسود بشره وأعيد الى حفرته ، وكان في ذلك انتهاء محنته . هذا ما قاله ابن خلدون وأتبعه بأن الناس عجبوا من هذه السفاهة التي جاء بها سليمان واعتدوها من هناته وعظم التكبير فيها عليه وعلى قومه وأهل دولته . وكان أيام امتحانه بالسجن يتوقع مصيبة الموت فتجيش هواتفه بالشعر يبكي نفسه وبما قال في ذلك :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| بعدنا وان جاورتنا البيوت | وجئنا بوعظ ونحن صموت |
| وانفاسنا سكنت دفعة | كجهر الصلاة تلاه القنوت |
| وكنا عظاماً فصرنا عظاماً | وكنا نقوت فيها نحن قوت |
| وكنا شمس سماء العلا | غربن فناحت عليها البيوت |
| فكم جدات ذا الحسام الطبا | وذو البخت كم جدلته البخوت |
| وكم سيق للقبر في حرقة | فتي ملئت من كسام التخوت |
| فقل للعدا ذهب ابن الخطية | ب وفات ومن ذا الذي لا يفوت |
| فمن كان يفرح منكم له | فقل يفرح اليوم من لا يموت |

وترجم لسان الدين نفسه ووصف كيف قلده السلطان الوزارة والقيادة أي أصبح ذا الوزارتين وزير السيف والقلم واستعمله في السفارة الى الملوك واستنابه بدار ملكه ورمى الى يده بخاتمه وسيفه ، واثمنه على صوان حضرته وأعلى مجلسه ، وقصر المشورة على نصحه ، الى ان كانت الكائنة وحمله أهل الشحنة من أعوان ثورته على القبض عليه بعد ان كبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، واستوصلت نعمته ، ولم تكن بالأندلس من ذوات النظائر ولاربات الامثال ، ولما رد على السلطان أبي

عبد الله ملكه عمل في القدوم عليه ، وجنح لسان الدين الى الانفصال لبيت الله الحرام فأراه السلطان أن مؤازرته أكبر القرب ، فعدل عن الحج فرمى اليه بمقاليد رأيه . قال : ولم أعدم الاستهداف للشُرور والاستعراض للمحذور والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون ، شيمة من ابتلاه الله بسياسة الدهماء ورعاية سخطة أرزاق السماء ، وقتلة الأنبياء ، وعبدة الأهواء ، ممن لا يجعل لله تعالى ارادة نافذة ولا مشيئة سابقة ولا يقبل معذرة ، ولا يجعل في الطلب ولا يتلبس مع الله بأدب .

هذا يجعل حال حسنة الأندلس مع الملوك وكانوا معجبين به لما فُطر عليه من صفات لا نظير لها في رجالهم ورجال عصرهم ، وهذا حاله مع الوزراء ومن والاهم وما حاكوه من دسائس ليطرحوه أرضاً ويستأثروا دونه بهذا المقام ، فلم يروا أقرب من اثبات الزندقة عليه ، وقتلوه على هذه الصورة الفاجعة فبكت العيون عظيماً ترضن القرون بظهور مثله .

وإذا جئنا نعرض لادبه وعلمه فغصن الطيب للمقري الذي كسره على وصفه ونخصه باحواله ونقل أخباره ومنظومه ومنشوره يكفيننا المؤونة ، وهناك تأليفه وهي تبلغ الستين مصنفاً منها ذو المجلدات ومنها المجلد الصغير لم يبق منها الا ثلثها كما قال العلامة زيبولد وأهمها في نظره الاحاطة في أخبار غرناطة ، وقد طبع ثلثاه فقط ولم يجدوا منه نسخة تامة صحيحة ، وفي هذا الكتاب تجلي لنا أسلوب لسان الدين في الترجمة للرجال وعرفنا جمال نثره وجمال شعره ، فما استطعنا ان نقول انه شاعر ولا انه كاتب بل حكمنا له بالملكيتين الكتابة والشعر ، وفي كتابته نسقط على تعابير والفاظ قل ان وقع لاحد من كتاب الاندلس استعمال مثلها ولا سيما المعاني المبتكرة والتراكيب البارعة .

أما دعوى الاحاد على لسان الدين فهي من الدعاوي التي طالما وجهت الى العظماء من العلماء ، وتاريخ المساهين غاص بمن قتلهم السياسة ، والزندقة حجة في قتلهم . لا جرم ان لسان الدين اعتاد الانطلاق في الفكر ، وهو

صريح الى أبعد غايات الصراحة ولعلمهم جمعوا له جملاً وقعت في بعض كلامه وأولّوها على هواهم حتى صحت لهم دعوى الاحاد . وفي كتابه الاحاطة نمودجات ظاهرة من هذا القبيل .

وصف الحاكم باديس وهو من الملوك الجبارة قائل الرأي خليع الرسن فقال : وقد أدال اعتقاد الخليفة في باديس بعد وفاته وقدم العهد بتعرف أخبار جبروته وعتوّه على الله سبحانه لما جبلهم عليه من الانقياد للاوامام والانصياع للأضاليل فعلى حفرته اليوم من الازدحام لطلاب الخوائج والشفاء من الأسقام حتى أولو الدواب الوجيعة ما ليس على قبر معروف الكرخي وأبي يزيد البسطامي . ووصف جعفر بن أحمد الخراعي الغرناطي من مشايخ الطرق ، ورقص جماعته في الذكر ، فقال : « وربما استدعاهم السلطان الى مصره محمضاً لطائف نعيمه باخشيشانهم مبدياً التبرك بهم » . قال : والطرق الى الله تعالى على عدد أنفاس الخلائق . وهذه معان لا يرضاها العامة وبخاصة من استهواهم مثل هؤلاء المشايخ .

واليكم الآن جملاً قليلة جاءت في مقدمة كتابه الاحاطة في وصف غرناطة : ويرّدها لذلك من المنقب الشتوي شديد ، وتجمد بسببه الادهان والمائعات ويتراكم بساحتها الثلج في بعض السنين ، فجسوم أهلها بصحة الهواء صلبة ، وسحناتهم خشنة ، وهضومهم قوية ، ونفوسهم لمكان الحر الغريزي جريئة . وهي دار منعة ، وكروسي ملك ، ومقام حصانة . وكان ابن غانية يقول للمرابطين في مرموتة وقد عوّل عليها للامتسك بدعوتهم « الاندلس درفة وغرناطة قبضتها فاذا تجشمت يا معشر المرابطين الفبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » ومن أبدع ما قيل في الاعتذار عن شدة بردها بما هو غريب في معناه قول القاضي أبو بكر بن شبرين :

رعى الله من غرناطة متبروءاً يسرُّ كئيباً أو يجير طريداً
تبرؤم منها صاحبي عندما رأى مسارحها بالبرد عدن جليدا
هي النغر صان الله من أهلت به وما خير ثغر لا يكون برودا

وذكر أن جند دمشق نزلوا كورة البيرة أشرف الكور ، وفحصها لا يشبه بشيء من بقاع الارض طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .
وحقيقة كما قال ، وأنا رأيتها الا أن غوطة دمشق شجراء وغوطة غرناطة
جرداء ، وكانت أيام حكم العرب كغوطتنا بأشجارها الملتفة .

ووصف أيام الاندلسيين وعاداتهم فقال : فتبصرهم في المساجد أيام
الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة . قال :
وعادة أهل هذه المدينة الانتقال الى حبل العصير أو ان ادراكه بما تشتمل
عليه دورهم ، والبروز الى الفحوص بأولادهم وعيالهم ، معولين في ذلك
على شهامتهم وأسلحتهم على أكتاد دوابهم واتصال أمصارهم بمحدود أرضه ،
وحليتهم في القلائد والدمالج والشنوف والحلائل من الذهب الخالص
الى هذا العهد في أولي الجدة ، واللجين في كثير من آلة الرجلين فيمن
عداهم . والأحجار النفيسة من الياقوت والزبرجد والزمرد النفيس الجواهر
كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة الى ظل الدولة أو أصالة معروفة موقرة ،
وحریمهم حریم جميل موصوف بالحسن وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور
ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن
المحاورة ، الا أن الطول يندر فيهن ، وقد يبلغن من التفنن في الزينة
لهذا العهد والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس بالذهبيات والدياجيات ،
والتاجن في أشكال الحلي الى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها عين
الدهر ، ويكف كف الغدر ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ،
وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفي لطفه بعزته وقدرته .
هذه لمعة من سيرة ذي الوزارتين لقيه بذلك السلاطين في زمنه ، أحط
أزمان الأندلس ، وقد استولى العدو على معظم قواعدها مثل اشبيلية وقرطبة
ومرسية وجبان والمرية . واقبه الناس بذوي العميرين لأنه كان مبتلى
بالأرق يسهر الليل الا أقله ، ويصرف هذه الليالي في التأليف والتأمل ،
فكانه كان يعمل ليله ونهاره ،

(٤٧)

سبع الربوة

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري

(٧٢٧)

قال فيه صاحب الدرر الكامنة انه كان يصنف في كل علم سواء عرفه أم لا لفرط ذكائه . وحكمه هذا جائز منبعت ، والله أعلم ، من كون شيخ الربوة لم يؤلف كثيراً في علوم الدين كما كان شأن معاصريه وألف في علوم لم يعرفوها . قال الصفدي : ولد سنة ٦٤٥ وعانى الاشغال فمهر في علم الرمل والافاق ونحو ذلك ، وكان ذكياً وعبارته حلوة ما تمل محاضراته . وكان يدعي أنه يعرف الكيمياء ، ودخل على الأفرم فأوهمه شيئاً من ذلك ، فولاه مشيخة الربوة ، وله السياسة في الفراسة وله غيره ، ومن شعره :

للنفس وجهان لا تنفك قابلة
بما تقابل من عال ومستقل
كنحلة طرفاهما في مقابلة
فيها من اللسع ما فيها من العسل
ومن شعره في الغوطة :

شموس وأقمار من النور طلّعت
لذي اللهو في أكنافها متمتع
كأن عليها من مجاجة طلبها
لآليها إلا انها منه المع
نشاوى تنميتها الرياح فتنثني
يعانق بعض بعضها ثم يرجع

ولد في دمشق وتوفي في صفد بعد أن لحقه صمم قبل موته ، وذهبت عينه الواحدة ، وكان صبوراً على الفقر والوحدة ، كثير الآلام والأوجاع وترجمه الصفدي أيضاً في الوافي فنعتة بالصوفي وقال انه المعروف

بشيخ حطين أولاً ثم بشيخ الربوة آخرآ ، رأيت به بصدّ امرات واجتمعت به مدة مديدة ، كان من أذكى العالم له قدرة على الدخول في كل علم وجراة على التصنيف في كل فن ، رأيت له عدة تصانيف حتى في الأطفمة وفي أصول الدين على غير طريق اعتزال ولا أشاعرة ولا حشوية لأنه لم يكن له علم وإنما كان ذكياً فيوماً أجده وهو يرى رأي الحكاء ويوماً أراه يرى رأي الحشوية ويوماً أراه يرى رأي ابن سبعين وينحو طريقته ... وكان له نظم ليس بطائل وكان ربما عرض عليّ القصيدة وطلب مني تنقيحها فأغبر منها كثيراً ، وكان يتسكلم في علم الكيمياء ويدعي فيها أشياء والظاهر انه كان يعرف ما يندج به العقول ويلعب بألباب الانمار ... وهو شيخ النجم الحطيني وصاحبه لما كان شيخ خانقاه حطين ببلاد صفد فورد عليهم انسان أضافوه وأراد السفر في الليل وعلم النجم ان معه ذهباً فاتبعه وقتله فبلغت القضية الأمير سيف الدين كراآي نائب صفد اذ ذلك ، فأحضر الشيخ شمس الدين المذكور وضربه على ما قيل لي الف مقرعة وعوقب ثم أفرج عنه قال . وكان فكه المحاضرة حلو المنادرة يتوقد ذكاء ، وتوفي ببيمارستان الأمير سيف الدين تنكز بصفد في سنة خمس وعشرين فيما أظن .

وكتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر « في العلم بهيمة الأرض وأقاليمها وتقاسيمها ، واختلاف القدماء في ذلك وعلاماتها ومعمرها من البحار المتصلة والمنفصلة ، والجزائر والجبال والأنهار والحرّات والآجام العظيمة والعيون والممالك ومسالكها ، والأمصار الكبار ورساتيقها والآثار القديمة والعمائر العظيمة والعيون والآبار والينابيع العجيبة ، والحيوان النادر الشكل ، والنبات الغريب ، والمعادن الذائبة والمتطرقة وتوابعها في المعدنية والأحجار الشريفة الثمينة والتي تليها وتشبهها في الشرف والقيمة والتي تلي ذلك بما هو ممتاز من التراب لوصف خاص او خاصة ذاتها ، ووصف ألوان الأحجار الثمينة وطبائعها وخواصها ، ونعت بقاعها

ومعادنها وذكر أسباب توليدها على ما ذكره الافدمون ، وذكر مساحة الارض ومسافات اقسامها بالساعات والاميال والبرُود والفراسخ ، والدرج الفلكية ، وأطوال الجبال وعرضها ، ونعت الامم المبتوثين فيها ، وذكر معالم انسابهم وآبائهم الاولين ، وذكر عامة اختلاف الامم المشهورين منهم ونعت خلقهم ، وذكر خصائص البلاد المختصة ببقعة دون بقعة ، وبلد دون بلد ، وذكر ظواهر خصائص البشر المشتركة فيها النوع الانساني دون باقي الحيوانات ، ونعت معالم رسوم الملبين وأسماء شهورهم وأعيادهم وقرابينهم على ما وجد من آثار علومهم وما يتعلق بلوازم ذلك ولو احاقه .

قال : « وختمته بصورة جغرافية دهاناً بالاصباغ وتخطيطاً محروراً على مثل مواقع الاطوال والعروض والاصقاع في المعمور لتكون مثلاً حسيماً مشاهداً بالحس ، يشهد منه ما وضعت وصفه من الهيئة وليكون الوصف برهاناً لما مثلت أمثلته بالجغرافية المذكورة ، وكل ما هو من الدهان بها أزرق فهو مثال بحر مالح صَغُر أو كَبُر ، دقّ أو عرض ، وفي الزرقة من لون مخالف فهو مثال جبل أو جزيرة ، وكل ما هو في ذلك وفي باقياها من لون أخضر فهو مثال بحيرة حلوة ونهر جار ، وكذلك طال أو قصر دق أو عرض ، وكل ما هو فيها من لون جلناري أو خمري أو أصفر أو حجري أو أبيض أو غير مستطيل مخطط خطوطاً بالسواد فهو مثال جبال وربوات مشهورة ، وكل ما هو صورة خط أسود مستطيل من مشرق الجغرافية الى مغربها فهو مثال فصل ما بين اقليم واقليم من الاقاليم السبعة وما وراءها ، وما خلف خط الاستواء منها ، وكل ما صورة عمارة وتفصيل حجارة بالتخطيط فهو مثال سور أو برج أو مدينة أو هيكل مشهور في الارض . »

وكتابه عدا فن الجغرافيا يحوي فنوناً كثيرة مثل علم طبقات الارض وعلم المعادن وعلم خصائص الشعوب وعلم الانسان وعلم الحيوان وعلم الانساب

والتاريخ والآثار وغير ذلك وقد أجاد في وصف جغرافية الشام فصور حالتها في القرن السابع والثامن ، والأرجح أنه طافها كلها ، ولم يقصر في جغرافية مصر عن هذه الغاية . أما في بحثه عن الآثار فانه في الغالب يتلقى كلامه عن الأفواه أو عن ألقوا في القصص والحكايات والغرائب . واذ وسم كتابه بعجائب البر والبحر فهو يحشوه من هذا القبيل ومنها المفيد مع ذلك ، ومنها ما لا يقبله العقل .

اما في الجغرافية فقد وصف بلاد السودان والزنج والبربر ونهرهم في أواسط افريقية مما لم يطلع عليه علماء الجغرافية الا في العهد الأخير ، وكذلك وصف من أمم جزائر البحر المحيط الهندي وما والاه من الأمم وأورد من أسمائهم ما لا يعرف الآن ، أما في أوربا فقد ألم المأمأ خفياً ببعض مدن جنوبها أما شمالها فاكتمى على عادة أكثر جغرافي العرب بأن قال انه يسكنها أقوام من الافرنج . أما اميركا فلم تكن قد كشفت في عهده ، ولكن أجاد في الكلام على بحر الظلمات والافيانوس الاطلانطي وما فيه من الجزر وعلى سواحلها من المدن ، وما فيه من الصور يدل على تفنن فيه ، وان العرب ايام كانوا أشبه بالغربيين اليوم يميلون الى تصوير المواد العلمية .

وقال في ذكر توليد الجبال والهضاب والرمال والكلام على كيفية تكوين ذلك وعلته وسببه : قال العلماء بذلك ان الجبال الصغار والتلال قد تكون من الزلازل الكائنة من الرياح المحقونة في الأرض المتموجة تحتها حيث ترفع بعضاً وتخفض بعضاً ، ومن صحة ذلك انه في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة كان المطر في الشام قليلاً ، وقصرت ينابيع العيون ، أرسل الله عز وجل زلزلة في أيام الصيف فخرجت العيون وزادت الانهار زيادة بقدر ما كانت ثلاث حرار واربع حرار . وهذا صحيح وقد يكون باستيلاء الرياح العاصفة على بعض أجزاء الارض بالكشف والحفر الى أن يصير ما غابت عليه غوراً . ومن صحة ذلك انه في سنة تسع عشرة وسبعمائة

كان على الجبل الاقرع شجر زيتون كثير نيف على ثلاثائة ، فحمله الريح الى أرض بعيدة بتوابه ، وكأنه لم يكن مخلوقاً الا من تلك الارض ، وكأنه لم يكن على الجبل شجر مزروع قط . وفي تلك السنة أيضاً حملت الريح ديراً يقال له دير سمعان قريب من تلك الارض بجارته ورهبانه ، وما كان في الدير من قمحهم وخزنيهم وبقرهم ودوابهم وعددهم ، حتى كأنهم لم يكونوا ، ولم يعلم لهم خبر ، ولم يطلع لهم على أثر ، وسَطُر بذلك محضر شرعي ، وطلعوا به الى السلطان محمد بن قلاوون خلد الله سلطانه ورحم ملوك المسلمين اجمعين . وفي سنة سبعمائة نزل جبل عال شامخ في بيت المقدس بقرب من عين فروج التي على الطريق فبقدر ما كانت مرتفعاً توطأ في الارض وهو الى الآن أرق مياها تتفق لها حركة على جزء من الارض دون الآخر فيحفر ما يسيل فيه ويبقى ما لا يسيل فيه رايباً ، ثم لا تزال السيول تغوض في الجزء الاول الى ان يعود غوراً ويبقى ما انحرف عنه سامياً . ومن العجب العجيب مغارة بالشام يخرج منها جدول ماء ما يجاوز كعبي قدم الخائض فيه ، فاذا دخلها الانسان وجدها واسعة طويلة المدى نحواً من أربعة آلاف خطوة تحت الارض ، والماء يقطر من جوانبها ، وهي كصورة الازج الطويل والقبو المبنى ، ولكنها مغارة منحوتة وتجد تحت كل ماء قطر من سقفها حجارة جامدة من الماء المتقاطر مختلفة الالوان والشكل ، فمنها كهيئة العسل في لونه وكهيئة الثمار ، وهيئة النجوم ، وهيئة الاعضاء ، وهيئة الجبوب ، وهيئة النقل ، وهيئات منوعة ، وكلها حجارة جامدة من تقاطر الماء . أصباغها صادقة في الحمرة والسواد وغيره ، وسميت مغارة العجب كذلك قالوا ، وقد تتكون أنواع الحجارة في النار .

وقال في ذكر نوادر الاحجار الثمينة المهدي بها بعض الملوك الى بعض وذكر قيمتها : « ومن ذلك ما وجد في خزائن الخلفاء والوزراء من الجوهر النفيس والذخائر الفاخرة الدرة اليتيمة ، وسميت بذلك لانها لم يوجد لها في الدنيا نظير ، حملها مسلم بن عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بتسعين

ألف دينار، ومنه الفص الياقوت الاحمر المسمى بالجبل كان وزنه أربعة عشر مثقالاً ونصفاً اشتراه الرشيد بثمانين ألف دينار. وكان للمتوكل فص ياقوت أحمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار، وكان له سبعة فيها مائة حبة جوهر وزن كل حبة مثقال اشترت كل حبة بالف مثقال. وأهدى بعض ملوك الهند الى الرشيد قضيب زمرد أطول من ذراع على رأسه مثال طائر ياقوت أحمر لا قيمة له، فقوم هذا الطائر بمائة ألف دينار، ودفع مضعب بن الزبير حين أحس بالقتل الى مولاه زياد فصاً من الياقوت الاحمر وقال: أنج بهذا. كانت قيمته ألف ألف درهم. وسقط من يد الرشيد فص في أرض كان يتصيد بها فاغتم لفقده، فذكر له فص ابتاعه صالح صاحب المصلي بعشرين ألف دينار فأحضره ليكون عوضاً عما سقط منه فلم يره عوضاً، ووهب المأمون للحسن بن سهل عقداً قيمته ألف ألف درهم ومائة ألف درهم وستة عشر الف درهم. وكان فيما أهدى ملك الهند الى كسرى جام ياقوت أحمر فتحة شبر في شبر مملوء دراً، قيمة كل درة الف وخمس مائة مثقال. وكان لمحمود صاحب غزنة حجر ياقوت كمنصاب المرأة اذا ركب قبض عليه بيمينه فتبين طرفاه من جانبي يده حيث ينظر اليه الناس.

« ولما انهزم ابو الفوارس بن بهاء الدولة من أخيه سلطان الدولة بن بويه أباغ جوهرتين كانتا على جبهة فرسه لزين الدولة بعشرين الف دينار فقال له: من غلظك تجعل هذا علي جبهة فرسك وهذه قيمتها. ووجد في خزائن مروان ابن محمد مائدة جَزَع أرضها بيضاء فيها خطوط سود وجر وسعتها ثلاثة أشبار وأرجلها ذهب، يقال انها صنعت على شكل المشتري، من أكل عليها لا يشبع ولا يتخم، ووجد في خزانته أيضاً جام زجاج فرعوني محكم غلظ اصبع وفتحة شبر، وفي وسطه أسد ثابت وقدامه رجل جاث على ركبتيه، وقد وضع سهماً في قوس بيده يريد أن يرمي الأسد، ولم تعرف له خاصة. وكان لأنوشروان بساط يسميه بساط الشتاء مرصع بأزرق الجواهر وأحمره وأصفره وأبيضه وأخضره فعيل أخضره مكان أغصان الأشجار، وألوانه

بموضع الزهر والنوار ، فلما أخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في
وقعة القادسية حمل اليه في الفيء ، فلما رآه عمر قال ان أمة أدت هذا الى
أميرها لأمناء ، ثم فرقه فوقع منه لعلي بن أبي طالب قطعة في قسمه مقدارها
شبر في شبر باعها بخمسة عشر ألف دينار .

ولما فتح الملك الظاهر ركن الدين بيهوس رحمه الله سيس دخل بعض
الغلمان الى دار صاحب سيس فوجد نرداً بياذقه ياقوت احمر واصفر
وسُكَّرُجَمته من حجر الماس ورقعته زرکش ، فخطف الغلام النرد فوقع
منه قطعتان تركهما داهشاً فوقعت القطعتان المنسبتان في يد الملك الظاهر
فقال : ما كان الا كاملاً فاستدعى بعريف سوق الصرف وأراه القطعتين وقال
له ان مسكت من هذا قطعة مع أحد الناس فعلت معك كل خير فما
كان الا قليلاً وقد أتى الغلام ليبيعه فمسك وأتى به الى الملك فوجدوا
الباقى معه فأخذ الملك الظاهر ودفع الى الغلام عشرة آلاف درهم .

ولما كان الملك المنصور قلاوون رحمه الله بدمشق سنة اثنتين وثمانين
وسمائة احضر اليه من المدرسة الجوهريه مائدة ذهب وزنها ثمانية أرتال
وربع بالدمشقي وعليها تمثال دجاجة من ذهب وصيصان من ذهب ، في
منقار كل واحد لؤلؤة بقدر الحصة ، وفي منقار الدجاجة درة بقدر البندقة ،
وفي وسط المائدة سكرجة من زمرد سعتها مثل كفة الميزان التي للدرهم
السوقي الكبير مملوءة حبات من الدر ، قيل ان الملك الناصر صاحب حلب
اودعها لنجم الدين الجوهري فأكنزها بدهليز مدرسته فوشى بها الى الملك
المنصور جارية من جواري الجوهري وكان على جميع المائدة شبكة من
ذهب منسوج صغيرة الأعين حاوية لكل ما في المائدة ولها ثمان قوائم .
وأهدى مقدم زاوية عكا الى الملك المنصور طشتاً من ذهب في وسطه
بيت مربع له أربعة خروق في أسفله يدخل منها دم الفصاد الى داخل
البيت ، وفي البيت بسقفه تمثال انسان متواري في البيت ورأسه وعنقه
بارز من سقفه وكلما سقط في الطشت من دم الفصاد وزن عشرة دراهم

ارتفع ذلك التمثال بصدرة وظهرت على صدره كتابة عشرة الدراهم ،
ولا يزال كذلك الى مقدار ثلاث اواق دمشقية ، فيقف التمثال قائماً
ويسمع من جوفه كلمة يونانية معناها حسبك حسبك ا ه .

* * *

وكتابه الثاني : « السياسة في علم الفراسة » قال فيه أن أصول هذا
العلم مستندة الى العلم الطبيعي وتفاريحه متقررة بالتجارب فكان مثل
الطب سواء ، وقال انه على قسمين أحدهما أن يحصل خاطر في القلب
بأن هذا الانسان من صفته كيت وكيت من غير حصول امارة جسمانية
ولا علامة محسوسة ، والثاني الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق
الباطنة ، وهو علم يقيني الأصول ظني الفروع . تكلم في القيافة (النظر
الى بشرات الناس وجلودهم) والربافة (معرفة الماء المستجن في الأرض)
والعيافة (تتبع آثار الأقدام والاختفاف والحوافر في الطرق) وعرض
للبحث في أخلاق الحيوان الأول سبع البهائم ، أو ذوات الأظلاف
والاختفاف والطيور وغيرها ، ونظر في الكنفوف والأصابع والأظفار
والصدر والبطون والأفخاذ والأعجاز والاوراك وأعضاء النسل والساق
والركب والضحك والتبسم والقهقهة ، وعلامات الرجل الجاهل الشرير
المؤذي ، والرجل الحخير الدين الحميد الطيب ، والكافر والفاجر والسفاك
والشجاع والوقح والكذاب والجبان والكسلان والسخي . وتكلم عن
الافلاك والبروج .

وبما قاله في بيان أخلاق أهل الآفاق : فأهل مصر يغلب عليهم العقل
ونقص الغيرة ، وقلة الفطنة وظهور الشح ، وتركبة النفس ، وكثرة
الشبق في النساء ، وفيهم المحاكاة والتخيل ، وقلة الاعناء بالامور ،
ولا يكادون يحققون علماً ، ولا يعمقون في بحث . وأهل بربر فطناء وغلظ
حريصون حفظاء أشعاء كذابون جفاة ونساؤهم لطاف ، والمكر فيهن
قليل . وأهل الشام غفول متكبرون مبذرون بارون شرهون ، سليمة

قلوبهم منقادون ، والغالب عليهم اللهو والعبث بالناس ، مللون متكروهون
دعابون ، باطنهم الخير وظاهرهم الكبر ، مأمونو الغائلة ، كثيرو التصديق
فصحاء يحبون المحمّدة . وأهل الروم غلاظ متكفون صلفون فيهم وفاء
أشحاء ، وفيهم الغفلة فاشية ، ويغلب عليهم الجبن والجهل والهلع وحب
جمع المال . وأهل الحجاز أذكيا كرماء مواسون أهل وفاء فهما حفاظ ،
رقاق الانفس بشجاعة واقدام وفهم ، وفيهم الدعابة والشبق والتعشيق
والتحيل والحداع بالنطق ، وتأنيث الشماثل وحب اللهو والمعازف ، وفي
نساءهم الغلظة والكرم . وأهل العراق غدارون ماكرون منافقون مستهزئون
أشحاء بمارون متكبرون ، أولو فطنة وذكاء وفهم ، ودهاء وخديعة
وطمع ، وتحيل باستعلاء ، وفيهم الشبق وعدم المبالاة وقلة الوفاء ، وفي
النساء اغتلام شديد وتجب الى الرجال . وأهل العجم أذكيا عقلاء
أقوياء الابدان والنفوس أشحاء أولو فهم ، متكبرون محتقرون من
سواهم ، يحبون الطرب ويشتهون الاحداث دون النساء ، ونساؤهم جيدات
الطبع متحبيات الى الرجال . وأهل بنخشان أذكيا فظناء أريحيون
عصبيون يحبون المحمّدة وسفك الدماء . وأهل بنخشان الاسفل أهل طرب
ومعازف وتغزل ، والجمال فيهم ظاهر . وسيا كورة اسكندرية فارس
والشح فيهم . وأهل الهند الاعلى شجعان جهلة غفل غدارون كثيرو
الشبق خوانون كذابون سيئة اخلاقهم ، صبرهم قليل والنسيمة فيهم .
وأهل الجزرات الهندية صالحون عقلاء حكاء أوفياء ، سهل عليهم هلاك
أنفسهم بأيديهم . وأهل الصين طياشون مكورة حسدة فظناء أذكيا
محاكون ، متقنو الصنائع بأيديهم ، وفيهم الغدر والنفاق والجبن ظاهر .
وأهل التبت والخطا أشبه بأهل الصين ، وفيهم الوفاء وحسن المعاملة ،
وقل أن يكونوا غير مسرورين . وأهل اليمن مصدقون منقادون ،
ضعاف النفوس ، فيهم الشبق ، مأمونو الغائلة ، وفيهم تحيل وعجز وغفلة .
وأهل الحبشة أهل غفلة وديانة وأمانة ووفاء وحسن محبة ، ونقص فهم

وغلظ طبع . وأهل النوبة أهل لعب وعبث وطيش وشح وخيانة وسوء خلق وجهالة وخبت وشبق ودناة . وأهل السواحل غالباً أهل أمانة ووفاء وذكاء وشبق ونقص غيرة وسرعة فهم وبطء حفظ . وأهل الجبال غالباً أهل غفلة وغلظة طبع وشح واضطراب حال وعقول وفكر . وأهل المغرب أذكىاء ذوو فطن أشحاء سيئون في أخلاقهم متحميلون مهتمون (كذا) غلاظ الطبع أشرار . وأهل الشرق أذكىاء فطناء ذوو همم عالية ، وأنفس أبية وبصائر ثاقبة وكبر وممارة وشح وسياسة واعتناء بالأمور وعقول رزينة بها مكررة . واليونان علماء عقلاء حكماء أذكىاء فطناء فهما ، وفيهم الصلف ورقة الطبع وعلو الهمم . ويقال : ظهرت الحكمة بأدمغة اليونان وألسنة العرب وأيدي الصين .

هذا فصل من فصول كتاب الفراسة وفيه الصحيح وفيه غيره ، أوردته نموذجاً من علم المؤلف وبحثه . يقول ناشر كتاب نخبة الدهر أن شيخ الربوه من المؤلفين الجماعين سار على خطة المسعودي وأبي عبيد البكري ومع ذلك خص كتابته بالكلام عن المعادن والاحجار الثمينة بما لم يتأت القيام بمثله لمؤلف حتى اليوم .



(٤٨)

ابن تيمية

تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم الحراني

(٧٢٨)

ولد بجران سنة احدى وستين وستائة و قدم مع والده وأهله الى دمشق ، وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار و قدموا دمشق سنة سبع وستين . فسمع الحديث من أئمة في دمشق ، وسمع مسند أحمد مرات و معجم الطبراني الكبير و الكتب الكبار والأجزاء . و عني بالحديث وقرأ بنفسه الكثير و لازم السماع مدة سنين ، و نسخ و انتقى و كتب الطباق و الاثبات ، و تعلم الخط و الحساب في الكتب ، و اشتغل بالعلوم و حفظ القرآن و أقبل على الفقه ، وقرأ أياماً في العربية على ابن عبد القوي ثم فهمها و أخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه ، و برع في النحو و أقبل على التفسير اقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق ، و أحكم أصول الفقه ، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة ، فعجب الفضلاء من فرط ذكائه و سيلان ذهنه و قوة حافظته و سرعة ادراكه .

ذاك ما قاله من ترجموا له في نشأته . أما أخلاقه فقالوا انه نشأ في تصوف تام ، و عفاف و تأله ، و اقتصاد في الملبس و المأكل ، و لم يزل على ذلك خلقاً صالحاً براً بوالديه تقياً ورعاً عابداً ناسكاً صواماً قواماً ، ذا كراً الله تعالى في كل أمر ، رجاعاً الى الله تعالى في سائر الأحوال و القضايا ، و قافاً عند حدود الله تعالى و أوامره و نواهيه ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر « فارغاً من شهوات المأكل و الملبس و الجماع ، لالذة له

في غير نشر العلم وتدريسه ، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيختي الشيوخ فلم يقبل « وقبل وظائف والده في التدريس وله احدى وعشرون سنة . وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم ، ودرّس هو بعده فاشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وما أتى له ثلاثون سنة حتى كان من أعظم علماء عصره ، بل أعظم عالم في عصره ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، ولا تروى من المطالعة ، ولا تملّ من الاشتغال ، ولا تكمل من البحث ، وقل أن يدخل في باب من أبواب العلوم الا وفتح له من ذلك الباب أبواب ، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حذاق أهله .

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره فيتكلم ويناضر ويفهم الكبار ويأتي بما يحار منه أعيان البلد . وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشرة سنة . قال الحافظ الزملاكاني : كان اذا سئل عن فن من الفنون ظن الرأي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله . كان الفقهاء من سائر الطوائف اذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك ، ولا يُعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها الا فاق فيه أهله والمنسوب اليه . وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين .

وقالوا فيه : « وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه فكان ما يقوله من غير توقف ولا تلثم ، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح . وانتهت اليه الامامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأناة والجلالة والمهابة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصدق والامانة والعفة والصيانة وحسن القصد والاخلاص والابتغال الى الله تعالى وشدة الخوف منه ودوام المراقبة له ، والتمسك بالامر والدعاء الى الله تعالى وحسن الاخلاق ونفع الخلق والاحسان اليهم . وكان رحمه الله سيفاً مسلواً على

المخالفين ، وشجراً في حلوق أهل الاهواء والمبتدعين ، واماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين ، طنت بذكره الأعمار ، وضفت بمثله الأعصار . وقال الذهبي انه صار من أكابر العلماء في حياة شيوخه ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر ، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع ، وكان يتوقد ذكاء ، وسماعاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ ومعرفة بالفسير اليها المنتهى ، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه مما لا يلحق فيه ، وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلاً عن مذاهب الأربعة فليس له فيه نظير وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه مثيلاً ، ويدري جملة صالحة من اللغة ، وعربيته قوية جداً ، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب .

قال : فان ذكر التفسير فهو حامل لوائه ، وان عدد الفقهاء فهو مجتهدهم المطلق ، وان حضر الحفاظ نطق وخرسوا ، واستزيد وأبلسوا واستغنى وأفلسوا ، وان سمي المتكلمون فهو فردهم واليه مرجعهم ، وان لاح ابن سينا يقدم الفلاسفة فلسفهم ونجسهم وهتك أستارهم ، وكشف عوارهم . وله يد طولى في معرفة العربية والصرف واللغة ، وهو أعظم من أن تصفه كلي أو تبينه اشارة قلبي .

وقال في مكان آخر : وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث ، وبالعالى والنازل ، وبالصحيح وبالسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه ، واليه المنتهى في عزوه الى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه ان يقال كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ، ولكن الاحاطة لله ، غير أنه يعترف فيه من بحر وغيره يعترف من السواقي .

وقال أيضاً : كان يقضي منه العجب اذا ذكر مسألة من مسائل

الخلاف واستدل ورجح ، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه . قال : وما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ، كأن السنة نُصب عينيه وعلى طرف لسانه ، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة . . . ومن خالطه وعرفه قد ينسبني الى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني الى التعالي فيه ، وقد أوديت من الفريقين من أصحابه وأضداده . وكان أبيض أسود الرأس والاحية قليل الشيب شعره الى شحمة أذنيه كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال بعيد ما بين المنكبين جهوري الصوت فصيحاً سريع القراءة تعتويه حدة لكن يقرها بالحلم . . وقال تعتويه حدة في البحث وغضب تزوع له عداوة في النفوس .

كتب الذهبي الى السبكي يعاتبه بسبب كلام وقع منه في حق ابن تيمية فأجابه : وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين فالمملوك يتحقق كبير قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكثر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لالغرض سواه وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من الزمان . وقال ابن سيد الناس إنه برز في كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه بدأت محنة شيخ الاسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم فناقشوه وكفروه وبدعوه واعتقله الولاة وغربوه ، وكان منذ سنة تسع وتسعين ظهرت شخصيته السياسية في البلاد وبدأ تعويل الامة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان ، فقام بأعباء الامر بنفسه واجتمع بناؤه وجرأ على المغول وتوجه بعد ذلك بعام الى الديار المصرية لما اشتد الامر بالشام من المغول واستصرخ بأركان الدولة

وحضهم على الجهاد، ثم عاد بعد أيام الى دمشق وظهر اهتمامه بجهاد التتار
وتحريضه الائمة على ذلك الى ورود الخبر بانصرافهم، وقيامه القيام المحمود
في وقعة شقحب سنة اثنتين وسبعمئة واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب
الحل والعقد وتحريضهم على الجهاد، ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمئة
لقتال الكسروانيين واستئصال شأفتهم، ثم مناظراته للمخالفين في سنة خمس
في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم
بالحجة والبيان، ورجوعهم الى قوله طائعين مكرهين. ثم توجهه بعد ذلك
في السنة المذكورة الى الديار المصرية في صحبة قاضي القضاة الشافعية
وعقدهم له مجلساً حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة، ثم حبسه في
الجب بقلعة الجبل ومعه اخواه سنة ونصفاً، ثم اخراجه بعد ذلك وعقدهم
له مجلساً ظهر فيه على خصومه، ثم عقدهم له مجلساً سنة سبع لكلامه في
طريقة الاتحادية، ثم الأمر بتسفيره الى الشام على البريد، ثم الأمر بوجه من
مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً، ثم اخراجه منه وتوجهه الى الاسكندرية
وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر، ثم توجهه الى مصر واجتماعه بالسلطان
في مجلس ضم القضاة واعيان الامراء، واکرامه له اكراماً عظيماً ومشاورته
له في قتل بعض اعدائه وامتناع الشيخ عن ذلك، ثم سكناه القاهرة، ثم
توجهه الى الشام، ثم ملازمته بدمشق لشر العلوم وتصنيف الكتب واقفاء
أخلق الى ان تكلم بمسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك
الاقفاء بها في سنة ثمان عشرة فقبل اشارته دفعاً للفتنة، ثم ورد كتاب
السلطان بعد ايام بالمنع من الفتوى بها، ثم عاد الشيخ الى الاقفاء بها وقال:
لا يسعني كتاب العلم، وبقي كذلك مدة الى ان حبسوه بالقلعة خمسة أشهر
وثمانية عشر يوماً ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم الى ان ظفروا
له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الانبياء والصالحين، كان أجاب
به من نحو عشرين سنة، فشنعوا عليه بسبب ذلك وورد مرسوم السلطان
في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة، فأخلت له قاعة حسنة

واقام فيها ومعه أخوه يخدمه ، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتهر وآل الأمر الى ان منع من الكتابة والمطالعة ، واخرجوا ما عنده من الكتب ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة ، وكتب عقيب ذلك بفهم . وكان اخراج الكتب من عنده من أعظم النقم ، وبقي اشهرآ على ذلك وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الاسلام ومع ما حاول أعداؤه أن ينفصوا عيشه دأب في كل زمن على التأليف فألف ثلثمائة مجلد وكلها في الشرع وفي حل مسائل عويصة من الدين نقرأ فيما وصلنا منها مثلاً من علمه النفيس وعمله الذي عقت القرون أن يأتي رجل بما يائله . كثرت تأليفه لأنه كان يؤلف من صدره ، حفظ الكتاب والسنة وما دون في شروحها وما قاله العلماء في تفسيرهما ، وقد ساعدته كثرة محفوظه وفيض خاطره وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه ، ولو لم يكن له الا منهاج السنة لكفاه على الايام فخراً لا يبلى ، ففيه مثال من علمه وقوة حجته ومعرفته بالملل والنحل ، واذا قلنا أنه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لاهل السنة لصدقنا كل منصف من أهل القبلة . وكتاب منهاج السنة من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفة الشرع وما تقلب عليه ، وما حاول بعض أهل الاهواء من العبث به ، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها ، وكان عنوان مداركه الواسعة بتاريخ الاسلام وتاريخ الممل والنحل ، ولو ادعينا أنه لم يأت عالم يعرف ما طراً على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ساعة وبوماً بوماً ما قدر أحد على ردّ دعوانا .

رد على المعتزلة وعلى الجهمية وعلى الشيعة وعلى الفلاسفة وعلى غيرهم فجاء بالعجيب من الآراء التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعده نظره وشدة بحثه فما كتب لامام من الائمة في عصره وبعده عصره أن يناقضه ويرد أقواله .

وعلى كثرة ما حرص الشافعية للتفوق على هذا الخبلي ، واقناع العلماء
بفتاويهم وتزييف فتاويه ، ما كانوا معه الا كالاطفال أمام الرجال ، وفي
مقدمتهم المشايخ بنو السبكي ، وما كان لهم في دولة مصر والشام من
السلطان . اعتقلوه في القاهرة والاسكندرية أشهراً لم تمنعه عن التأليف
والتدريس والوعظ ، وما حالوا دون اعجاب المنصفين من العلماء به وقول
الحق فيه ولا دون تقديس الامة له يوم موته ، وهي التي عرفته سابقاً
الى كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها ، وكان له في انتصار دولة
المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر ، ودل أنه في السياسة كما هو
في الدين امام عظيم وان الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره .
وما سمع لأحد علماء الدين في عصره صوت مثل صوته في احقاق الحق ونصرة
سلطان الاسلام . ونسبه قوم الى أنه يسعى في الامامة الكبرى فانه
كان يلهج بذكر ابن تومرت ويطريه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه .
ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلى عن الاسرى من النصارى
واليهود فقال انهم ذمتنا ولا بد من ارجاعهم الى ديارهم . وكم له من
مثل هذه الحسنات التي أصبحت كأنها قواعد من قواعد الشرع والسياسة
لا يستغني عنها خليفة ولا سلطان .

ان استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال
الى قبور الانبياء والاولياء والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي أقروها
والشريعة تنكرها انكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز وهدي
الصحابة والتابعين والعلماء العاملين واغتيالهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك
المعركة الشديدة قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين وبقيت
الامة على اقران الخرافات والبدع الى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين
كافة وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام ومزجوها بالشريعة
الاصلية رغم أنوف الخواص فركبوا عار الأبد ولعنوا بما بدلوا وحرفوا ،
هو لم يأت ببدع وهم سلموا بكل البدع . فكان العالم العامل حقاً ،

وكانوا عبدة أو هام وضلالات . أراد شرعاً نقياً من الأدران ، وهم تساوت عندهم العقاة والنفاية لأنهم يقصدون بمنافساتهم الظهور وكسب قلوب الغوغاء على أي حال .

لو عمت دعوة ابن تيمية ، ولدعوته مايمثلها في المذاهب الاسلامية ، ولكنها عنده كانت حارة وعند غيره فاترة ، لسلم هذا الدين من تحريف الخرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الديار الاسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضرباً تشد اليه الرجال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ماينكره دين أتى للنوحيد لا للشرك ولسلامة العقول لا للخبال والحيال . كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء ، وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي ، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية أن يساموه للعامة عليهم يقتلونهم فما استطاعوا أكثر من حجز حرية أشهراً في سجن ، وكان الملوك يحمونهم من تعصب خصومه ويعرفون قدره . وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام ابن تيمية كثيراً وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء ، وحسه على أن يفتيه في قتل بعضهم فأنكر أن ينال أحداً منهم بسوء وقال له : اذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم فقال له : انهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً . فقال الشيخ من آذاني فهو في حل ، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه ، أنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح . وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : مارأينا مثل ابن تيمية حرصاً عليه فلم نقدر عليه ، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا . فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون : يجب التضييق عليه ان لم يقتل والا فقد ثبت كفره ، ونحن نقول ان هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه ، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم وهو كان يهتم للأخرى فقط ، وشتان بين المطلبين . كان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلبه

وهمَّهم أن يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبلوا أيديهم .

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنه غازات : لو لم يبق فيها الا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك ان استطعت ، فسلمت القلعة من أذى التتار ، وكان يدور كل ليلة على الأسوار يجرس الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط ، وكذلك كان شأنه في وقعة شقحب وكان يعد المسلمين بالنصر هذه المرة ويؤكد كلامه في ذلك حتى نصرروا على عدوهم . وفي قتال الجرديين والكسروانيين ابان أيضاً عن سياسة رشيدة وأرجع بعض الناشزين من أهلها الى الاسلام .

من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية أن يناووا بها منه مسألة شد الرحال الى قبور الصالحين وغيرهم قال ابن كثير : ان جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء الصالحين وانما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر الى مجرد زيارة القبور . وزيارة القبور من غير شد رحل اليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى . والشيخ لم يمنع الزيارة الحالية عن شد رحل بل يستحبها ويندب اليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك ، ولم يتعرض الى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ولا قال انها معصية ولا حكي الاجماع على المنع منها ولا هو جاهل قول الرسول : « زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة » .

ثار عليه مرة جماعة من الحسدة وشكوا منه أنه يقيم الحدود ويعزر ويحلق الرؤوس أيضاً وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبين خطأهم . وراح مرة في ثلة من أصحابه ومعهم حجارون وأمرهم بقطع صخرة كانت بنهر قلوط بدمشق تزار وينذر لها فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً . قال ابن كثير : وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا له العداوة ، وكذلك بكلامه بان عربي وأتباعه فحسد على ذلك وعودي ولم يصلوا اليه بمكروه وانما أخذوه وحبسوه بالجاه .

قال : ولم يزل الشيخ ملازماً لاستغلال الناس في العلوم ونشر العلم وتصنيف الكتب واقتناء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية . ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده من موافقة أئمة المذاهب الاربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهيبهم . وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف .

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي ويحاول قتله ، والتعزير عند المالكية القتل ، ولا تستفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتى ينادى بدمشق : من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة . وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الامام الشافعي .

قال الصلاح الصفدي كان كثيراً ما ينشدني :

تموت النفوس بأوصابها ولم يدر عوآدها ما بها
وما أنصفت مهجة تشكي إذاها الى غير أحبابها

وأنشد على لسان الفقراء (جماعة الطرق) :

والله ما فقرنا اختيار وانما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى وأكلنا ماله عيار
تسمع منا اذا اجتمعنا حقيقة كلها فشار

(٤٩)

الذهبي

محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز

(٧٤٨)

شمس الدين أبو عبد الله التركي الفارقي ، جاءته النسبة الى الذهبي لأن والده برع في صنعة الذهب المدقوق وتميز فيها

مؤرخ ولا كالمؤرخين ومحدث ولا كالمحدثين . هو رجل ساير العقل فتفرد في تأليفه ، ونظر في ما حواه صدره من أصناف العلم نظرة بليغة ، فأتى بجديد ضمه الى القديم فسد ثلثة كانت لولاه فارغة ، وقام بغرض كان بعضهم يعده نافلة . هو امام تعب بعلمه حتى يستريح من بعده . كتب التخليد والتأييد لتأليفه وجاءت على توخيه فيها الاختصار زبداً من علم الاسلام وتكملة لتاريخ رجاله ، تلمح في صفحاتها بعد النظر وسداد الرأي ، وانصاف الحكم ، وتقف أمامها تكبر صنع واضعها ومدونها ، وتقول ان دمشق يحق لها اذا عدت في مفاخرها الحافظ ابن عساكر في القرن السادس أن تفخر بأنها كانت مجال علم الحافظ الذهبي في القرن الثامن ، وكلاهما لم تقف شهرته والانتفاع بما كتب عند حد دمشق أو الديار الشامية بل تعدتها الى الشرق والغرب فعدا من أعظم المؤرخين في المسلمين .

ترجم الصفدي للذهبي في نكت الهميان ، وعده في العميان لأنه أضر قبل موته بأربع سنين أو أكثر ، فقال : حافظ لايجارى ولافظ لايبارى ،

أتقن الحديث ورجاله ، ونظر علاه وأحواله ، وعرف تراجم الناس وأزال
الابهام في تواريخهم والالتباس ، مع ذهن يتوقد ذكاؤه ، ويصحح الى
الذهب نسبه وانماؤه ، جمع الكثير ، ونفع الجهم الغفير ، وأكثر من
التصنيف ، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف . وقف الشيخ
كمال الدين ابن الزملكاني على تاريخه الكبير المسمى تاريخ الاسلام جزءاً
بعد جزء الى أن أنهاه مطالعة وقال : هذا كتاب علم .

قال الصفدي : اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من
تصانيفه ، ولم أجد عنده جمود المحدثين ، ولا كودنة النقلة ، بل هو
فقيه النظر ، له دربة بأقوال الناس ، ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب
المقالات . وأعجبتني ما يعاينه في تصانيفه من أنه لا يتعدى حديثاً يورده
حتى يبين مافيه من ضعف متن ، أو ظلام اسناد ، أو طعن في رواية .
والكودنة من الكودن هو البرذون يوكف ويشبهه به البليد يقال ماأبين
الكدانة فيه أي المهجنة . وقالوا فيه : هو « رجل الرجال في كل سبيل
كأنما جمعت آلاته في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها اخبار من
حضرها » « ما زال يخدم هذا الفن - فن الحديث - حتى رسخت فيه
قدمه ، وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلبه ، وضربت باسمه الامثال »
« ورغب الناس في تواليفه ورحلوا اليه بسببها وتداولوها قراءة ونسخاً
وسماعاً » .

وهذه الجمل القليلة تنبيء بما حملت نفس الذهبي العظيمة ، وما صرف فيه
أيام عمره التي بورك له فيها فصنف التصانيف الكثيرة الجليلة منها تاريخ
الاسلام الكبير في أحد وعشرين مجلداً ، ومختصره سير النبلاء في عدة مجلدات ،
ومختصره العبر ، وطبقات الحفاظ ، وطبقات مشاهير القراء ، والتاريخ الممتع
في ستة أسفار ، وكل ذلك لم يطبع والمطبوع من تأليفه « دول الاسلام »
ومشبهه النسبة ، وتذهيب التهذيب وميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيره .
ومن ألقى نظرة على المشتبه عرف تفرد الذهبي بمعارف جليلة وأدرك

أحاطته . وقد اختصر عدة تواريخ وكتب في الطبقات ، وله تصانيف أخرى لم تشتهر .

جمع الذهبي القراءات السبع ، وسمع الحديث ببلاذ كثيرة من خلائق يزيدون على ألف ومائتين بالسماع والاجازة وسمع وأملى « مالا يحصى كثرة من الكتب الكبار والاجزاء على خلق كثير » والغالب أنه لم تتعد رحلته الشام ومصر والحجاز ، ذكر في تاريخ الاسلام في ترجمة كمال الدين أبي الفرج البغدادي أنه انتهى اليه علو الاسناد في عصره ، وعمر دهرأ طويلاً قال وكنت في سنة أربع وتسعين وسنة خمس أتلف على لقيه وأتخسر وما يمكنني الرحلة اليه لمكان الوالد ثم الوالدة .

قال في الدرر الكامنة انه تخرج على علماء عصره في دمشق والقاهرة ومهر في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً ، وجمع تاريخ الاسلام فأرنب في فيه على من تقدمه بتحرير أخبار المحدثين خصوصاً ، وقطعه من سنة سبعمائة ، واختصر منه مختصرات كثيرة منها العبر وسير النبلاء وملخص التاريخ قدر نصفه وطبقات الحفاظ وطبقات القراء والاشارة وغير ذلك ، واختصر السنن الكبيرة للبيهقي فهذبه وأجاد فيه ، وله الميزان في نقد الرجال أجاد فيه أيضاً ، واختصر تهذيب الكمال لشيخه المزي ، وخرج لنفسه المعجم الكبير والصغير والمختص بالمحدثين ، فذكر فيه غالب الطبقة من أهل ذلك العصر ، وعاش الكثير منهم بعده الى نحو الاربعين سنة ، أخرج لغيره من شيوخه ومن أقرانه ومن تلامذته . وقالوا فيه انه خرج لجماعة من شيوخه وأقرانه وعدل وخرج وصحح واستدرك وأفاد وانتقى واختصر كثيراً من تواريخ المتقدمين والمتأخرين .

وطعن عليه ابن الوردي في ذيل تاريخ أبي الفداء وقال انه منقطع القرن في معرفة أسماء الرجال محدث كبير مؤرخ ، وقال انه استعجل قبل موته فترجم في تواريخه الاحياء المشهورين بدمشق وغيرها ، واعتمد في ذكر

سير الناس على أحداث يجتمعون به وكان في انفسهم من الناس فآذى بهذا السبب في مصنفاته أعراض خلق من المشهورين .

وكلام ابن الوردي موضع نظر فان الذهبي يتعذر عليه أن يقف على تراجم المئات ممن ترجم لهم بدون أن يستعين بتلاميذه وأصحابه ، وهو ليس له تارات على أحد حتى يعلي منهم ويخفض على هواه ، ولكن الناس لا يرضيهم اذا أعطوا حقهم من الترجمة ولو بزيادة قليلة ويفغبطون اذا زادهم المؤلف ما يربو على استحقاقهم . فان غلطة واحدة غلطها ابن الوردي في المبالغة بأبي الفداء أكبر من كل غلطة للذهبي اذا صح أنه غلط في ترجمة بعضهم ، وما راق ابن الوردي الا الطعن بالذهبي ، وأي غلطة أعظم من أن يقول ابن الوردي انه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل من أبي الفداء وما كان هذا في حقيقته أكثر من وال عند المالميك يقبل الارض بين أيديهم لتصفو له عمالة حماة وهذه كل بمملكته ، واذا رجعنا الى تأليفه نجد تاريخه خلاصة ما كتبه ابن الاثير وغيره ، وكتابه تقويم البلدان منقول من كتاب آخر وليس هو بأكثر من فهرس معجم جغرافي ، فكيف يكون من هذه سياسته وهذا علمه ثاني المأمون العباسي ! .

وبالطبع كان المخالفون للذهبي في مذهبه يطعنون عليه بأنه يتحيز لجماعته ويحط من أقدار مخالفه . شنشنة قديمة للنيل من المؤلفين بل لنيل المغمورين من المشهورين . قارن حافظ الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة رجال طبقات الصدر الاول ، والبرزالي في العصرين ومن قبلهم من الطبقات القريبة منهم ، وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينها تأييداً لقول بعض مشايخه ، على أن الاهواء قلما تتغلب على المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي اه . وقالوا ان الذهبي شديد الميل الى آراء الحنابلة لا ينصف الاشاعرة في التراجم . وقال فيه السبكي في طبقاته ، وبنو السبكي من غلاة الشافعية صنف التاريخ الكبير وما أحسنه لولا تعصب فيه . وعداوة الشافعية

للحنابلة مشهورة . ومثل الذهبي بعلمه يود كل شافعي وكل حنبلي أن
ينطق باسم أهل مذهبه ويرعاهم وينحى على خصومهم ، وهذا يستحيل على
من تشبع بروح التاريخ كالحافظ الذهبي ، وميله الى الحنابلة أمر طبيعي .
فهو امام الحديث ، والحنابلة لا يقيمون وزناً قبل كل شيء لغير الحديث .
تولى الذهبي مشيخة الظاهرية قديماً ومشيخة النفيسية والفاضلية والسكرية
وأمام الملك الصالح ، وتولى في شبابه سنة (٧٠٣) خطابة قرية كفر بطنا
من الغوطة ، وأقام بها ولما تولى دار الحديث الظاهرية نزل عن خطابة
كفر بطنا ، وقيل انه ولد في كفر بطنا والارجح أنه ولد في دمشق ،
وهو من أصل تركماني وفي أجداده من اسمه قايماز ، أما الفارقي فنسبته
لمبارفارقين من بلاد الجزيرة قريبة من آمد « ديار بكر » ومن شعره :

تولى شبابي كأن لم يكن وأقبل شيب علينا تولى

ومن عاين المنحني والنقي فما بعد هذين الا المصلي

ومنه :

إذا قرأ الحديث علي شخص وأخلى موضعاً لوفاة مثلي

فما جازى باحسان لائي أريد حياته ويريد قتلي

عاش الحافظ خمساً وسبعين سنة وأنتج هذا الانتاج العجيب ، فهو
من أفراد الدهر .

(٥٠)

ابن فضل الله العمري

شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله

(٧٤٩)

ولد في دمشق سنة ٧٠٠ ومات فيها ، ويتصل نسبه بعمر بن الخطاب فهو قرشي عدوي عمري ، وببنته بيت رياسة وعلم جاء نقي الدم سامي البيئته .
قرأ العربية على ابن قاضي شعبة ثم على قاضي القضاة شمس الدين مسلم وتفقه على قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد عبد الله وعلى الشيخ برهان الدين الفزاري ، وقرأ الأحكام الصغرى على الشيخ تقي الدين بن تيمية ، والعروض على الشهاب محمود وعلاء الدين الوداعي وقرأ عليه جملة من دواوين العرب ، والأصول على الشيخ شمس الدين الاصفهاني ، وأخذ اللغة عن الشيخ أنير الدين ، وأجازته العارفون أن يفتي على مذهب الشافعي ، وروى الحديث عن كثير من الرجال والنساء ومنهن ست الوزراء وست القضاة ، وفي بيته وعن أبيه أخذ فن السياسة ، وزاده تمرسه بها في ديوان القاهرة لما غدا أمين سر السلطان ، والسلطان يومئذ الناصر قلاوون أرقى سلاطين المماليك ، والدولة المصرية في عهده متصلة بالغرب اتصالاً وثيقاً وترهبها أوربا لقوتها .

هذا علمه وهؤلاء من تخرج بهم وهم من الأفاضل في فنونهم ، فكانه خريج مدرسة جامعة في هذا العصر ، تعاورت تثقيفه أيدي اخصائين معروفين ، ونمى معلوماته بالعمل أكثر من النظر ، ومن تأمل أساتذته وما تلقاه عنهم من المعارف لا يحكم الا بأنه عالم ديني تبجر في علوم

الادب فقط ، ولكنه اعتمد على مطالعته الخاصة فجاء منه مؤرخ وجغرافي وفلكي وسياسي ومهندس ومصور » وكان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره في مدة « وأجمل ما فيه أخلاقه النبيلة وأخلاقه في عامة حالاته .

وصفه ابن كثير بأنه « يشبه القاضي الفاضل في زمانه وانه كان حسن الذاكرة ، سريع الاستحضار ، جيد الحفظ ، فصيح اللسان ، حسن الاخلاق ، يحب العلماء والفقراء » وله مواطن تجلي فيها شدة اخلاصه لدينه وعقيدته وأمانته لسلطانه ودولته . حدث أن أرسل ملك فرنسا « ريد فرنس » الى السلطان قلاوون رسولاً يطلب بيت المقدس على أن يبذل مائتي الف دينار تعجيل ، ويحمل في كل سنة دخل نصف البلاد ويطرف بغرائب التحف والهدايا . وحسّن هذا كتاب من كتبة القبط كانوا صاروا رؤساء في الدولة ، فقام مؤلفنا هو وأبوه ليوليا السلطان عن رأيه ان أصغى الى أولئك الافئدة ، وأزمعاً أن يكلمها السلطان وان خضبت ثيابها بالدم . ولما ولي أبوه كتابة السر في القاهرة كان هو يقرأ كتب البريد على السلطان ، ثم غضب هذا عليه وصادره واعتقله ، ثم رضي عنه واستدعاه واستحلفه على المناصحة ، فباشر الانشاء ، وبعد سنتين عزل ورتب له مرتبات عظيمة ، وبقي بطالاً الى أن هلك بحمى الربيع يوم عرفة عن تسع وأربعين سنة .

وصفه المقرئ بجدة المزاج وشراسة الخلق وقوة النفس . وان صحت هذه الشراسة فلا تكون في غير مصلحة الدولة : مثال ذلك ان السلطان قرر في كتابة السر علم الدين ابن القطب ، فغض ابن فضل الله من القطب وقال انه قبطي فلم يلتفت السلطان لذلك ، فكتب له توقيعه على كرهه ، وأمره أن يكتب فيه زيادة في معلومه فامتنع ، فعاوده فنفر ، وقام بين يدي السلطان مغضباً وقال : خدمتك علي حرام . فلانظة شراسة شديدة ، والاولى أن يوصف بصلابة العود أو يكتفى بقوة النفس . لابن فضل الله كتابان جليلان لانظير لهما في بابها ، قل أن ظهرت بعد

عصره تأليف في معناها بلغت هذه المبالغ من التنقيح وعدم الحشو . الاول
أوحى اليه تأليفه صلته بديوان الانشاء وهو « كتاب التعريف بالمصطلح
الشريف » وهو سفر بديع لم يبق شاردة في ترتيب الدولة الا أتى عليها
ففيه نموذجات مما يكتب به الى ملوك الأطراف ، وكل ما يتعلق بدواوين
الملك من رتب المكاتبات وعادات العهود والتقاليد والتقاويض والتواقيع
والمراسيم والمناشير ، ونسخ الايمان والامانات والدفن والهدن والمواضعات
والمفاسخات ، وما هو داخل في نطاق كل مملكة وما هو مضاف اليها
من المدن والقلاع والرساتيق .

أما كتابه الثاني الذي ينادي على وجه الدهر باتساع علمه ومعرفته
في تقويم البلدان والتاريخ والرجال والأدب والاجتماع والهندسة والسياسة
والفلك والنقش والتصوير والبناء فهو كتاب « مسالك الابصار في بمالك
الأمصار » جاء الاصل في سبعة وعشرين مجلداً تحمل الشيء الكثير من
تحقيقات صاحبه وحسن تأتبه في بحثه ، فلم يذكر عجيبة حتى فحص عنها
ولا غريبة حتى ذكر الناقل لها لتكون عهدتها عليه ويتبرأ هو منها .

وطريقته في نقل الاخبار التحقيق لاكثر ما يعرف بتكرار السؤال
واحداً بعد واحد ، عما علمه من أحوال بلاده وما فيها ، وما اشتملت
عليه في الغالب . قال : وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر
لاؤف على الحق فما انفتحت عليه أقوالهم أو تقاربت أثبتته وما اختلفت
فيه أقوالهم أو اضطربت تركته . ثم اني أترك الرجل المسؤول مدة ،
اناسيه فيها عما قال ، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت ،
فان ثبت على قوله الاول أثبت مقاله ، وان تزلزل أذهبت في الريح
أقواله . كل هذا لا تزوي في الرواية وأتوثق في التصحيح .

شرع في وضع مسالك الابصار أيام الناصر محمد بن قلاوون ، ووشحه
باسمه مشفوعاً بألقاب ضخمة ، وسَمَّه باسم عظيم عاش في نعمته ، وكان
آل بيت فضل الله في أسبابه ومن صنائعه .

ومن أجمل ما كُتِبَ في التعريف بابن فضل الله قول الصلاح الصفدي في حقه « هو الامام الفاضل البليغ المفوه الحافظ ، حجة الكتاب امام أهل الادب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلاً ، وتوسلاً الى غايات المعالي وتوصلاً ، واقداماً على الاسود في غاباتها ، وارغاماً لاعدائه بمنع رغائها صرف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الازراق بقلبه ، ورويت تواقيعه وهي سجلات حكمه وحكمته . ولا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه ولا أعتقد أن بينه وبين القاضي الفاضل من جاء مثله هذا مع ما فيه من لطف أخلاق ، وسعة صدر ، وبشر محيياً . رزقه الله أربعة أشياء لم أرها اجتمعت في غيره وهي الحافظة فما طالع شيئاً الا كان مستحضراً لاكثره ، والذاكرة التي اذا أراد ذكر شيء من زمن متقدم كان ذلك كأنه مرّ بالأمس ، والذكاء الذي يتسلط به على ما أراد ، وحسن القرينة في النظم والنثر . اما فكره فلعله في ذروة كان أوج الفاضل لها حضيضاً ولا أرى أحداً يلحقه فيه جودة وسرعة . واما نظمه فلعله لا يلحقه فيه الا الافراد ، وأضاف الله تعالى له الى ذلك كله حسن الذوق الذي هو العمدة في كل فن ، وهو أحد الابداء الكملة الذين رأيتهم . وأعني بالكملة الذين يقومون بالادب علماً وعملاً في النظم والنثر ومعرفة تراجم أهل عصره ، وقد تقدمهم على اختلاف طبقاتهم ، وبخطوط الافاضل وأشياخ الكتابة . ثم انه شارك من رأته من الكملة في أشياء وانفرد عنهم بأشياء بلغ فيها الغاية لانه جود في الانشاء ، والنثر وهو فيه آية والنظم وسائر فنونه ، والتوسل البارع عن الملوك . ولم أر من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيز خان وهلم جراً معرفته ، وكذلك ملوك الهند والامتراك . وأما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الاعفانم والبلدان وخواصها ، فانه فيها امام وقته ، وكذلك معرفة الاسطرلاب وحلّ التقويم وصور الكواكب . وقد اذن له العلامة شمس الدين الاصفهاني

في الافتاء على المذهب الشافعي فهو حينئذ أكل الكلمة الذين رأيتهم .
ولقد استطرد الكلام يوماً في ذكر القضاة فسرد ذاكراً القضاة الأربعة
الذين عاصروهم شاماً ومصرأً ، وألقاهم وأسماءهم وعلامة كل قاض منهم حتى
أتى على ماكدت أفضي العجب مما رأيت .

هذا هو العظيم الذي جمع الى معرفة السياسة علماً عظيماً ، وما عاقه
التصرف للسلطان عن الاكثار من التأليف والاجادة فيه . لم يعمر كثيراً
وكان انتاجه بالقياس الى أيام عمره عظيماً جداً ، وأعجب الناس بما كتب
في شبابه وكهولته ، وماذا كان يتم على يده لو بلغ الشيخوخة . اثر في
الدولة بعقله واخلاصه ، واثر في أندية الأدياء والعلماء بأدبه وفنه ، فهو
واسع أفق النظر ، بليغ تام الثقافة ، لا يصلح الا أمثاله لدواوين الملك ،
لم يجمد على ما قرأ وأخذ من بيئته كل نافع حتى أنه ربما كان الفرد الذي
يعرف ديار الغرب وأمم الافرنج ، وفيهم صنف كتاباً لم يصلنا ،
ولا عجب ان عرف المغل والترك وغيرهم من أمم الشرق معرفة لم يدانه فيها
مدان ، وان يتمثل علمه تمثلاً قلما بلغه مؤلف في عصره وبعد عصره .

ذكر له الصلاح الكتبي أبياناً تم عن حسن ذوقه وجمال أدبه منها :

| | |
|-----------------------|------------------------|
| سل شجياً عن فؤاد نزحا | وخلياً فيهم كيف صحا |
| ومحباً لم يذق بعدهم | غير تبريح بهم ما برحا |
| مزج الدمع بذكرى لهم | مثل خدي من سقاء القدحا |
| زاره الطيف وهذا عجب | شبح كيف يلاقي شبحا |

وقال :

| | |
|-------------------------------|---------------------------------|
| أحبابنا والعدر منا اليكم | إذا ما شغلنا بالنوى أن نودعا |
| أبشكمو شوقاً أباري ببعضه | حمام العشايا رنة وتوجعا |
| أبيت سمير البرق قلبي مثله | أقضي به الليل التام مروءعا |
| وما هو شوق مدة ثم ينقضي | ولا أنه يلقي محباً مفعجا |
| ولكنه شوق على القرب والنوى | أغص الإهاتي مدمعاً ثم مدمعا |
| ومن فارق الاحباب في العمرساعة | كمن فارق الاحباب في العمر أجمعا |

(٥١)

الصفري

صلاح الدين خليل بن أيبك

(٧٦٤)

نبغ في القرن الثامن زمرة من المؤرخين في الشام ومصر اشتهروا بما
نشروا وأمتعوا بما دونوا . فكان في مصر ابن المتوج والأدفوي والثوري
وإبن الفرات وإبن دقماق وبيبرس المنصوري . وفي الشام البرزالي وإبن
كثير والذهبي وإبن فضل الله العمري وأبو الفداء وإبن مفلح وإبن شاكر
وإبن الوردى . وكان بعض المؤرخين في هذا العصر من الشاميين أرجح
وزناً من المصريين . ومن نوابغ المؤرخين في الشام أبو الصفاء صلاح الدين
الصفدي . كان والده من المماليك من عنصر تركي . وولد إبنه في صفد
ونشأ على ما ينشأ عليه أبناء المماليك نشأة عربية خالصة «وتعاني صناعة
الرسم فمهر فيها ، ثم أُحبب إليه الأدب فولع به ، وكتب الخط الجيد
وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفى عشرين سنة ،
فطلب بنفسه وقال الشعر الحسن ، ثم أكثر من النظم والنثر والترسل
والتواقيع . » وكان من ولوعه بالرسم لأول نشأته ما أخرج منه خطاطاً
مبدعاً ، وقوي فيه موهبة التصوير في الشعر والنثر ، وجمّل أدبه
في كتبه .

لم يجيد الصفدي بغيته من العلم عند علماء بلده ، وكان فيه جماعة
مشهورون في الحديث والرواية والأدب ، فرحل إلى دمشق يقرأ على
علمائها وكانوا من أجلّ الرجال أمثال إبن نباتة وأبي حيان النحوي والحافظ
المزي وإبن جماعة والحافظ الذهبي وإبن سيد الناس ، وعن الأول أخذ

الشعر وعن الثاني اللغة وعن الثالث والرابع الفقه على مذهب الشافعي وعن الخامس التاريخ وعن السادس المغازي والسير ، وولي المناصب في دواوين الانشاء والأموال في صفد والقاهرة ودمشق وحلب والرحبة ، ولا ندري ان كان برز في خدمة الدولة كما برز بتأليفه ، وقد أتقن علوم الأدب والحديث والفقه والتاريخ وغلب عليه التاريخ ولا سيما تاريخ الرجال . قال من ترجموا له انه من بقايا الرؤساء الاغنياء وانه كان اليه المنتهى في مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ، وكان محبباً الى الناس ، حسن العشرة ، جميل المودة .

أدب الصفدي من أفتد أساليب الادب في دهره لا يلتزم السجع كثيراً ، خصوصاً اذا ترجم للرجال ، وشعره كثير وبعضه جيد وأجود ، ويعد في باب التأليف من المكثرين المجودين . كتب بيده كما قال ما يقارب خمسمائة مجلد دخلت في خمسين مصنفاً . قال ولعل الذي كتبه في ديوان الانشاء ضعفاً ذلك .

وفي كتابة التاريخ راعى ما يراعيه كبار المؤرخين من القيود قال مقتبساً عن غيره : « يشترط في المؤرخ الصدق ، واذا نقل يعتمد اللفظ والمعنى ، وألا يكون الذي نقله أخذه من الذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وان يسمى المنقول عنه ، فهذه شروط أربعة فيما ينقله ، ويشترط أيضاً لما يتوجه من عند نفسه ولما عساه يطول في التراجم من القول أو يقصر أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة علماً ودينياً وغيرهما من الصفات وهذا عزيز جداً ، وان يكون حسن العبارة عارفاً بمدلولات الالفاظ ، وان يكون حسن التصور ، حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه ، والا يغلبه الهوى ، فيخيل اليه هواه الاطناب في مدح من يحبه والتقصير في غيره بل ان يكون مجرداً عن الهوى وهو عزيز ، وان يكون عنده من العدل ما يقهر به هواه ، ويسلك طريق الانصاف . فهذه شروط أربعة أخرى ، ولك أن تجعلها خمسة ، لأن حسن تصويره وعلمه قد لا يحصل معها الاستحضار

حين التصنيف ، فيجعل حضور التصور زائداً على حسن التصور والعلم ،
فهي تسعة شروط في المؤرخ ، وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في
العلم فانه يحتاج الى المشاركة في علمه ، والقرب منه حتى يعرف مرتبته .
عمل الصفدي بهذه الشروط شروط المؤرخ في عصره فما استهدف لغضب
المترجم لهم ، ولا آثار حفاظ الملوك والأمرء ، وهو لم يعن كثيراً
بتاريخ السياسة وتدوين وقائع الملوك . وساعده على الظفر بالمواد اللازمة
له تنقله في ربوع مصر والشام ، وخزائن الكتب يومئذ موفورة ، والملوك
وأهل الخير من العلماء والاعيان يمدون المدارس والجامع وغيرها بالكتب ،
ويتنافس المساهمون في اقتناء كل جيد ، ويحرصون كل الحرص على الظهور
بمظهر الخير ، وعمل كل ما يجلبه لهم وللناس .

كتب الصفدي في الادب والتاريخ كثيراً ، وكتبه في الادب شروح
وتعاليق وتقاييد وكناسات وبعضها مطبوع . وقد طبع له كتاب « نكت
الهميان في نكت العميان » وهو في تراجم من أصيبوا بالعمى منذ خلقوا
أو أصيبوا به على كبر . وهو منسق تنسيقاً جميلاً كسائر ما طالعناه من
كتبه ، ومقدمة نكت الهميان من أبداع المقدمات في موضوعه ، وابداعه
في كتبه يظهر من مقدماتها وله كتاب « الشعور بالعمور » (تحت الطبع) ،
وشرح لامية العجم للطغرائي (٥١٤) أثبت فيه تمكنه من علوم العربية
وقد أورد فيه شيئاً من المجون ومنها الفاحش ، وحلى كتابه بنكات وفوائد
وأشعار وأخبار تلذُّ وتشوق .

أما كتابه العظيم الذي خلد به ذكره ، وما وصلت همم الجمعيات
العلمية الى تصنيف أعظم منه ، وهو يعني عن عشرات من الكتب ،
ويعد معلمة رجال الاسلام في ثمانية قرون ، فهو « الوافي بالوفيات » دخل
في ثلاثين مجلداً وفيه نحو اربعة عشر الف ترجمة ، ترجم فيه للخلفاء والصحابة
والتابعين والأمرء والقضاة والعمال والوزراء والقراء والمحدثين والفقهاء
والشيوخ والأتقياء والأولياء والنحاة والادباء والكتّاب والشعراء والاطباء
والعلماء وأهل العقل والذكاء وأرباب المقالات ورؤساء المذاهب والمتفلسفين

وكل من اشتهروا بعلم وشأن . وقد يطيل وبوجز في ترجمة من ترجم لهم بحسب ماله من المواد او بقدر ما يليق ان يكسبهم من حلة تليق بهم .

ومقدمة هذا الكتاب العظيم من امتع ما كتب مؤرخ تدل على سعة اطلاعه وسمو أدبه وعلى تدقيقه واستقصائه . وفي كتابه ما في وفيات الاعيان لابن خلكان وطبقات الادباء لياقوت مع زيادات كثيرة فانت هذين المؤلفين او حدثت بعدهما . يقول العلامة كرينكو انا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة نحاول عبثاً الظفر بمثلها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها ، والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الاجزاء المعروفة من هذا الكتاب يتألف منها مجلد ضخيم .

افتتح الوافي فيمن اسمه محمد فبدأه باسم صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام وثني بمن اسمه محمد من الاعيان ، ثم عاد فساق التراجم على حروف المعجم بعبارة تقرأ فيها التحقيق بهذا الانشاء الرقيق . وقد خص المقدمة بمصطلحات الأمم ولا سيما العرب والفرس واليهود في حساب السنين والتاريخ وكيفية كتابة التاريخ وفي الانساب والكنى والالقب والعلم وفي الهجاء والاملاء والاختصار وفيمن كتب في التاريخ وفيما يراد بالوفاة والوفيات وفي فائدة التاريخ وصفات المؤرخ وتواريخ الشرق وقد ساق اسم ٢٨٢ تاريخياً من تواريخ المشرق وتاريخ المغرب والتواريخ الجامعة وتواريخ الملوك والوزراء والعمال والقضاة والقراء والعلماء والشعراء . قال واما كتب الجرح والتعديل والانساب ومعاجم المحدثين ومشیخات الحفاظ والرواة فانها شيء لا يحصره حد ، ولا يقصره عد ، ولا يستقصيه ضبط ، ولا يستدنيه ربط .

وهذا نموذج من تراجمه :

ناصر الدين ابن المقدسي : ولي سنة ٦٧٨ وكالة بيت المال ونظر جميع الاوقاف بدمشق وفتح ابواب الظلم وخلع عليه بطرحة غير مرة ، وخافه الناس وظلم وعسف ، وعدا طوره وتحامق حتى تبرم به النائب ومن

دونه ، وكتبوا فيه فجاء الجواب بالكشف عما أكل من الاوقاف ،
ومن أموال السلطان والبرطيل ، فرسموا عليه بالعدراوية ، وضربوه
بالمقارع فباع ما يقدر عليه ، وحمل جملة وذاق الهوان ، واشتقى منه
الاعادي ، وكان قد أخذ من الناصري الزنبقية ، وكان يباشر شهادة
جامع العقيبة فحصل بينه وبين قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي نفرة
فتوجه الى مصر ودخل على الشجاعى فأدخله على السلطان وأخبره بأشياء
منها : أمر بنت الملك الأشرف موسى بن العادل وأنها باعت أملاكها ،
وهي سفينة ، تساوي أضعاف ما باعته ، فوكله السلطان وكالة خاصة وعامة
فرجع الى دمشق وطلب مشتري أملاكها بعد أن أثبت سفنها فأبطل
بيعها ، واسترجع الاملاك من السيف السامري وغيره ، وأخذ منهم
تفاوت المغل وأخذ الخان الذي بناه الملك الناصر قريب الزنجيلية وبساتين
بالنيرب ونصف حزرما ودار السعادة وغير ذلك الخ ثم طلب الى مصر
فوجد مشنوقاً بعاملته .

وقال في ترجمة رجار صاحب صقلية : رجار ملك الفرنج صاحب صقلية
هلك في الحوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، ويقال فيه اجار بهمة
بدل الراء وجيم مشددة وبعد الالف راء ، كان فيه محبة لاهل العلوم
الفلسفية ، وهو الذي استقدم اليه الشريف الادريسي صاحب كتاب « نزهة
المشتاق في اختراق الآفاق » من العُدوة ليصنع له شيئاً في شكل صورة
العالم ، فلما وصل اليه أكرم نزله ، وبالغ في تعظيمه ، فطلب منه شيئاً
من المعادن ليصنع منه ما يريد ، فحمل اليه من الفضة الحجر وزن أربعمائة
الف درهم ، فصنع منها دوائر كهيئة الافلاك وركب بعضاً على بعض ،
ثم شكلها له على الوضع المخصوص ، فأعجب بها رجار ودخل في ذلك
ثلث الفضة وأرجح بقليل ، وفضل له ما يقارب الثلثين ، فتراكه له اجازة ،
وأضاف لذلك مائة الف درهم ومركباً موسقاً كان قد جاء اليه من برشلونة
بأنواع الاجلاب الرومية التي تجلب للملوك ، وسأله المقام عنده قائلاً :

ومتى كنت في بلاد المسلمين لا تأمن ملوكهم على نفسك ، ومتى كنت
عندي أمنت على نفسك ، فأجابه الى ذلك ورتب له كفاية لا تكون
الا للملوك ، وكان يجيء اليه راكب بغلة فاذا صار عنده يتنحى له عن
جلسه فيأتي فيجلسان معاً وقال له : أريد تحقيق أخبار البلاد بالمعاينة ،
لأنما ينقل من الكتب ، فوقع اختياره على أناس ألباء فطناء أذكياء
وجهزهم رجار الى أقاليم الشرق والغرب جنوباً وشمالاً ، وسفر معهم
مصورين ليصوروا ما يشاهدونه عياناً ، وأمرهم بالتقصي والاستيعاب لما
لا بد من معرفته . وكان اذا حضر أحد منهم بشكل أثبتته الشريف
الادريسي حتى تكامل ما أراد وجعله مصنفاً ، وهو كتاب « نزهة المشتاق »
الذي للشريف الادريسي . وكان رجار المذكور قد أخذ طرابلس الغرب
عنة بالسيف في يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة احدى وأربعين وخمسة
وقتل أهلها وسبى الحریم والاطفال وأخذ الاموال ، ثم انه شرع في
تحصينها بالرجال والعدد ، ثم انه أخذ المهديّة سنة ثلاث وأربعين وخمسة
لأن صاحبها الحسين بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي عجز عن
مقاومته ، فخرج من المهديّة هارباً بما خف من النفائس ، وخرج من قدر
على الخروج . ولما هلك رجار ملك بعده ولده غليلم ، وعليه قدم ابن قلاص
الاسكندري سنة ثلاث وستين وخمسة وامتدحه بقصيدة الى آخر ما قال .

وانظر الى هذا النموذج من تحقيقه العلمي أتى عليه بالمناسبة في شرح
لامية العجم وذلك رأيه في سلامة الترجمة من اللغات الاعجمية الى العربية
قال : وللتراجم في النقل طريقتان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن
الذاعمة الحمصي وغيرهما وهو ألا ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات
اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية
ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الاخرى وكذلك
حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين أحدهما
أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية ولهذا

وَقَعَ فِي خِلالِ هَذَا التَّعْرِيبِ كَثِيرٌ مِنَ الِالْفَافِظِ الْيُونَانِيَّةِ عَلَى حَالِهَا . الثَّانِي
أَنَّ خِوَاصَّ التَّرْكِيبِ وَالنَّسَبِ الْإِسْنَادِيَّةِ لَا تَطَابِقُ نَظِيرَهَا مِنْ لُغَةٍ أُخْرَى
دَائِمًا . وَأَيْضًا يَقَعُ الْخَلَلُ مِنْ جِهَةِ اسْتِعْمَالِ الْمَجَازَاتِ وَهِيَ كَثِيرَةٌ فِي
جَمِيعِ اللُّغَاتِ . الطَّرِيقُ الثَّانِي فِي التَّعْرِيبِ طَرِيقَةُ حَنِينِ بْنِ إِسْحَاقَ وَالْجَوْهَرِيِّ
وغيرهما وَهُوَ أَنَّ يَأْتِي إِلَى الْجُمْلَةِ فَيَحْصُلُ مَعْنَاهَا فِي ذَهْنِهِ وَيُعْبَرُ عَنْهَا مِنْ
اللُّغَةِ الْآخَرَى بِجُمْلَةٍ تَطَابِقُهَا سِوَاءَ سَاوَتِ الْإِلْفَافِظِ أَمْ خَالَفَتْهَا . وَهَذِهِ
الطَّرِيقُ أَجْوَدُ وَلِهَذَا لَمْ يَحْتِجْ كَتَبُ حَنِينِ بْنِ إِسْحَاقَ إِلَى تَهْدِيدِ الْآلِ فِي
الْعُلُومِ الرِّيَاضِيَّةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ قِيَمًا بِهَا بِخِلَافِ كَتَبِ الطَّبِّ وَالْمَنْطِقِ وَالطَّبِيعِيِّ
وَالْإِلَهِيِّ فَإِنَّ الَّذِي عَرَبَهُ مِنْهَا لَمْ يَحْتِجْ إِلَى إِصْلَاحِ فَأَمَّا أَوْقَلِيدِسُ فَقَدْ هَذَبَهُ
ثَابِتُ بْنُ قُرَّةِ الْحَرَانِيِّ وَكَذَلِكَ الْمَجْسطِيُّ وَالْمَتَوَسُّطَاتُ مِنْهَا أ ه .



ابن خلدون

ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

(٨٠٨)

جرى أكثر المؤلفين على اتباع سنن من قبلهم في نظام تأليفهم ونظام تفكيرهم لا يخرجون عما كتبوه ولا يبدلون فيما دونوه . وقد بلغ ببعضهم أن يأخذوا من الماضين الفاظهم ومعانيهم لا يخرجون منها حرفاً ، ولذلك هان التأليف على الضعاف وندر الإيجاد والاجادة . وفي أهل هذه الطبقة من أرباب التواليف تقرأ مئات من الصفحات ولا تخرج منها الا بزيادة قليلة حتى ليسوء ظنك بالمؤلفين وتعتقد أن منهم من لم يجروا على التأليف الا ليحشر نفسه في زمرةم فقط .

كان ابن خلدون من النوابغ الذين استعملوا عقولهم فيما قرأوا ، ورددوا رأيهم فيما رووا ، وفتح لنفسه باب الاستنباط والاستنتاج فتجلى بعد نظره فيما كتب ، وأتى بالجديد الذي لم يؤثر عن قبله مذ كان الاسلام . وما قلد القدماء في الموضوع الذي أهمه في فلسفة التاريخ والاجتماع بل ابتدعه ابتداءً على غير مثال .

وكان التاريخ الى عصر ابن خلدون لا يتعدى نقل الحوادث تنقل بالرواية كما ينقل الحديث ، وغاية اجادة المجيد فيه أن ينقل ما قرأ وشهد وسمع بأمانة ويترك للقاريء حريته يفكر بنفسه فيما انطوت عليه الحوادث من العبر . وقد تقرأ في التاريخ مجلداً ضخماً للأوائل ولا تقع فيه على فكر لمؤلفه ولا ترجيحاً لرواية على أخرى ، كأن المؤلف يخشى ان يكفر أو يفجر اذا شدة عن طريق من تقدموه . وقد يكتفي بعض من

يُترجمون للرجال اذا حاولوا تصير أحدهم على ما يعتقدونه الصواب ان
يلعنوا كل من لا ترضيهم سيرته وعقيدته ليثبتوا للملأ صحة اعتقادهم وسلامة
أحكامهم . والمذاهب عندهم العامل الأعظم في المدح والقدح يجمعون
لا يصرحون ، فيظلمون الحق بما يتعمدون من القاء الظلام على سيرة من
لا يسعهم الا طرده من حظيرة الناجين ، كأن التاريخ بعض كلام
الصوفية والباطنية له ظاهر وباطن .

ولما سعد العلم العربي بنبوغ ابن خلدون ، وطبق في التاريخ ، الغابر
على الحاضر ، واستخرج من مآدته المبعثرة عصارة مفيدة تألف منها علم
برأسه ، فيه دَخل كبير للعقل ومجال للتفكير ، جعل منه جسماً حياً
وأخرجه بحدائقه من عقمه وجدبه الى خصب واصراع ، ولم يعد روايات
مروية ، وعبارات مسرودة مرصوفة ، مطولاتها كمختصراتها وغمثها
كسمينها ، وآض فناً يتفنن المفننون في الأخذ منه والقياس على قواعده
وتبدت شخصية المؤلف فيما كتب ، وظهرت شجاعته في التصريح
بالحقائق الرائعة .

أعظم شرف للعلم العربي أن يكون واضع فلسفة التاريخ والاجتماع
عربياً صرفاً بأصله وتربيته ومنشأه . كان أجداد ابن خلدون في حضرموت
من عرب اليمن ينسبون الى وائل بن حجر من أقبال العرب . وكان
وائل بقية أبناء الملوك ، دخل على رسول الله فأدناه وقرب مجلسه وبسط
له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه وقال : « اللهم بارك في وائل وولده
واستعمله النبي على الأقبال من حضرموت » . وقد دخل جد ابن خلدون
خالد بن عثمان أو خلدون بن عثمان الاندلس في القرن الثالث ، ونزل
بقرمونة في رهط من قومه الحضارمة ، ثم انتقل الى اشبيلية في جند
اليمن . وتولى أفراد أسرته المناصب الجليلة في دول الاندلس ، ونزلوا
في القرن السابع تونس ، وفيها ولد عبد الرحمن ونشأ وقرأ على علمائها
علوم اللسان والشرع ، وقرأ الفلسفة والمنطق ، ودخل في خدمة الدولة

وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ثم اعتزل الخدمة ، ثم دخل في خدمة صاحب تلمسان ، ثم استدعي الى فاس يطلب علمائها (٧٥٥) فتقلد أمانة سر السلطان ، واغتنم هذه الفرصة لاتمام علمه على علماء المغرب الاقصى وفي سنة ٧٥٧ غضب عليه الملك وسجنه مرتين ففقي في الحبس سنتين ثم اعيد الى منصبه وجعل قاضياً للقضاة وعاد فنكب ايضاً لما هلك الملك ، ثم سمح له بالذهاب الى ابن الأحمر صاحب غرناطة وسفر عنه الى ملك قشتالة الاسباني فأنجحت سفارته .

وبعد زمن عاد الى افريقية (تونس) وتولى منصب الحاجب وجمع بين الحجابة والخطابة والتدريس في بلده . وكانت له سفارات بين صاحب تلمسان وصاحب تونس لعقد تحالف بينهما . وبعد حين تخلى عن منصبه في تلمسان بانضمام صاحبها ، وتولى لمن جاء بعده ما كان يتولاه من المناصب . وفي سنة ٧٧٤ رحل الى فاس ومنها الى غرناطة فنقاه صاحبها الى تلمسان فلقني من أميرها كل تجلة ، وعندئذ رأى اعتزال خدمة الملوك وانقطع الى قلعة ابن سلامة حيث بدأ بتأليف تاريخه الكبير .

وحج في سنة ٧٨٤ وجاء الاسكندرية والقاهرة ودرّس في الجامع الازهر وعين قاضي المالكية في مصر ، وفي غضون هذه الايام نكب ابن خلدون نكبة دونها النكبات وهو أن حرمه وأولاده وأمواله حملت في البحر من الغرب الى الاسكندرية ففرقت كلها في ميناء هذا الثغر ولم ينج منهم انسان ، وفي سنة ٨٠١ رافق سلطان مصر الى الشام في الحملة على تيمورلنك واجتمع الى هذا الفاتح وقدم له هدية كانت عبارة عن مصحف وسجادة وعلب حلوى مصرية ، وسأله الفاتح أن يكتب له رسالة في جغرافية بلدان المغرب فكتبها . قال ابن خلدون لما اجتمع بتيمورلنك سأني أين بلدك ؟ قلت بالمغرب الجواني كانت للملك الاعظم هنالك فقال : وما معنى الجواني في وصف المغرب ؟ فقلت هو في عرف خطابهم معناه الداخلي أي الأبعد لأن المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه ، فالأقرب الى هنا برقة وافريقية والمغرب

الايوسط وتلمسان وبلاد زنانه ، والاقصى فاس ومراكش ، وهو معنى الجواني . فقال لي : وأين مكان طنجة من ملك المغرب فقلت في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدي الى الاندلس اقرب مسافته لأن هناك نحو العشرين ميلاً . فقال : وسلجامة ؟ قلت في الحد ما بين الارياف والرمال من جهة الجنوب . فقال : لا يقنعني هذا وأحب أن نكتب لي بلاد المغرب كلها أفاصمها وأدانيها وجباله وأنهاره وقراه وأمصاره ، فقلت : يحصل ذلك بسعادتك . وكتبت له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك قال : وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في قدر اثني عشرة من الكراريس المنصفة القطع ، قال : ودفعته اليه فأخذه من يدي وأمر موقعه بترجمته الى اللسان المغربي ... وكان يحاذر أن يأمره تيمور بالشخص معه الى سمرقند فنجا منه بلباقة ورجع أدراجه الى وادي النيل .

وفي « معلمة الاسلام » ان ابن خلدون ربما ظهرت فيه خصائص سياسية لامعة في المناصب الخطيرة التي تولاها ، بيد أنه لم يتروّد قط في الابتعاد عن رئيس له بالأمر ليدخل من الغد في خدمة آخر ، وان يكون على الملك السالف إلباً ، وكان من مهارته بل من صدقه أن يسير الى جانب القوي . وقد تدخل مباشرة في عامة سياسة بمالك شمالي افريقية والاندلس لعهد ، وكان له من جلاله مناصبه ما تمكن معه من الحكم على هذه الدول حكم العارف الدراكة اه .

هذه حياة ابن خلدون السياسية التي أوحى اليه وضع تأليفه ، أعانه على ذلك كما قال عن نفسه انقطاعه أربعة أعوام في قلعة أولاد سلامة متخلياً عن الشواغل وأكمل المقدمة « على ذلك النحو الغريب » الذي اهتدى اليه في تلك الخلوة « فسالت فيها شأبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتنخت زبدتها وتألقت نتائجها » وأملى الكثير من حفظه ثم صحح ونقح وراجع . والمقدمة في طبيعة العمران وما يعرض له قال : انا

استوفينا من مسأله ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسأله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنبط الفن احصاء مسأله ، وانما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما يتكلم فيه ، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً الى أن يكمل . وقال : وهذا الفن الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل تجري بالعرض لأهل العلوم في براهين علومهم الا انها غير مستوفاة ، فان فاتني شيء في احصائه واشتبته بغير مسأله فللناظر المحقق اصلاحه ، ولي الفضل لأنني نهجت له السبيل ، وأوضحت له الطريق اه .

فلسف ابن خلدون التاريخ في مقدمته ولم يسمه الى ذلك غير أفراد جاءت على أسلات أقلامهم سوانح قليلة لا تكاد تذكر في جنب هذه الافاضة . وهذه القواعد التي سنها والدساتير التي اخترعها هي مما لم يخجل منه مع الايام الا ما لا بال له . فقد زيف أقوال الوضاعين في أحاديث المهدي وردها كلها من طريق النقل والعقل ، وما جسر أحد قبله على نقض هذه الحرافة التي قال بها أهل الاهواء ، ومن سعوا لاستخدام هذا الاسم لانشاء دولة جديدة . وأبطل علم الكيمياء وأنكر ثمرتها وقال باستحالة وجودها وما ينشأ عنها من انفساد . وقال بفساد صناعة النجوم وتكلم عن الجفر والملاحم فزيف هذين الفنين تزييفاً جيداً ، وتكلم في الدفائن والكنوز وقال انها لا أصل لها في علم ولا خبر .

جمع ابن خلدون كل ما تفرق في فقه الشريعة وفقه العلوم وما الى ذلك ونسقها ووحدها ، والقدر الذي جراً على التصريح به من الافكار في هذا الباب لا يرتضيه كثير من المنظور اليهم في عصره . وحاول أن يبطل الفلسفة ويبين فساد منتحلها ومع هذا قال ان هذا العلم يشهد الذهن في ترتيب الادلة والحجاج لتحصل ملكة الجودة والصواب في البراهين ، فيستولي الناظر فيها على ملكة الاتقان والصواب في الحجاج ، ورأى ألا يكب أحد على الفلسفة اذا كان خلوياً من علوم الملة وقال : ان

الفلسفة ببلاد الافرنجة من أهل رومية وما إليها من العدو الشمالية نافقة الاسواق لعهد ، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة . ودعا الى تعلم الهندسة والعلوم العديدة (الحساب والجبر والمقابلة) وعلم الهيئة وعلم المنطق والطب والفلاحة . وجمجم في كلامه على علوم الطلسمات وقال ان الشريعة جعلت السحر والطلسمات والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالخطر والتحريم ، وذكر الاصابة بالعين وما نفاها ونقل كلام غيره القائل ان القاتل بالسحر يقتل والقاتل بالعين لا يقتل ، لان هذا ليس بما يريد ويقصده . وأطال في بيان أسرار الحرف ونقل عن لقيهم حقيقة الزاوية .

ومن أحكامه ما لم تنقضه الايام مثل قوله « ان المغلوب مولع ابداً بالاقداء بالغالب في شعاره وزيه ونخلته » و « أن خلق التجار نازل عن خالق الاشراف وبعيد عن المروءة » و « أن العلماء بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها » . ومن أحكامه ما انتقض مثل العصبية في الدولة لا تدوم إلا أربعة بطون اي مائة وعشرون سنة كما لا تدوم الثروة إلا هذا القدر من السنين . ومنها غلوه في الانحاء على العرب من أنهم اذا نزلوا بلداً أسرع اليه الخراب وأنهم أبعد الناس عن سياسة الملك وعن الصنائع ، والغالب أنه كان يقصد الأعراب سكان البوادي فمؤلا لم يكن لهم استعداد أهل المدن والقرى ، لذلك نزلت الشريعة في أهل المدن وهم الذين قبلوا الدعوة أولاً ونشروها ، ودعوا أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ينقضها ما كان للأندلسيين من الصناعات العظيمة التي أدهشت الغربيين لعهدهم ، وما هي الا من صنع أيدي العرب وقرائح تلمائهم ومهندسيهم . ودعوا أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم غير صحيحة ذلك لان من كان بعضهم يعدونهم من المؤلفين أتاجم على الاغلب كانت أصول أكثرهم عربية وهم نشأوا في ديار الفرس ، ثم ان الشعوب غير العربية التي تشرفت بالاسلام أكثر عدداً وأوسع بمالك من سكان

جزيرة العرب الذين قا،وا بكبر هذه الدعوة في السياسة والجندية والادارة ، فشغل العرب بالامر المهمّ وتركوا الصنائع وما شابهها لاهل البلاد ، ومع هذا كان من مدينة العرب في جزيرتي صقلية والاندلس ما هو مفخرة الازمان . وأخطأ في قوله انه يشترط في الحاكم قلة الافراط في الذكاء وماأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزله عمر بن الخطاب عن العراق وقوله : لم عزلتني يا أمير المؤمنين ألعجز أم الخيانة ؟ فقال عمر : لم أعزلك لواحدة منها ولكنني كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس . فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفرط الذكاء والكيس مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص لما يتبع ذلك من التعسف وسوء الملكة وجمل الوجود على ما ليس من طبعه ، قال وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لانه افراط في الفكر ، كما ان البلادة افراط في الجود والظرفان مذمومان الخ وهذا استنتاج في غير محله ، ذلك لان الدول في أشد الحاجة الى الاذكاء في جميع فروع أعمالها ، ولولا ذكاء مشهود في رجال بني أمية ما قاموا بما قاموا به من الفتوح التي زينوها بمدينة كانت أرقى ما عرف من نوعها الى أيامهم . وقوله ان للدول أعماراً طبيعية وان الهرم اذا نزل في الدولة لا يرتفع قد جاءت الايام بخلافه فان من دول أوربا ما هو قائم منذ قرون وكلامه هذا أخذه من مشاهداته في دول افريقية وما اليها .

خرج ابن خلدون على المؤلف وما أحب مع هذا أن يجاري عوام المؤلفين في بعض أحكامهم على ساسة الامة قديماً ولذلك قال فيه أحد المعاصرين انه المدافع عن الدول والمحامي عن الافراد ، فهو رجل دولة يعن النظر كثيراً في التقارير التي تعرض عليه فيستخرج منها ما لا يحسن استخراجها كل أحد ، وقد يعلو في اجتهاده الى درجة السمو ويكبو أحياناً . من ذلك أنه هفا هفوة فظيعة لما جرى فيها عامة عصره على خرافاته فأثبت الكشف ومعرفة الغيب بما يستعظم صدوره من مثل

عقله فقال : وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لأهل المجاهدة فيدركون
من حقائق الوجود ما لا يدركه سواهم ، وكذلك يدركون كثيراً من
الواقعات قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم في الموجودات
السفلية وتصير طوع ارادتهم ! قال : وان الكلام في كرامات القوم
واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات أمر صحيح غير منكر وان
مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من الحق ! وغريب قوله : وقد
يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير في أحوال العالم ليس
معدوداً من جنس السحر وإنما هو بالامداد الالهي لأن طريقهم ونحلتهم
من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الالهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم .
وهذا التخريف أثبت أنه من المحافظين مغال في صوفيته مأخوذ
لمغربيته صانع من اعتقدوا هذا ، وكان يسعه لو لم يعتقد في هذه الخرافات أن
يطرح بهذا المبحث عرض الحائط ولا يضير المقدمة في شيء بل ينقيها
من العوسج والبلان . وهذه الهنات في المقدمة كانت بمثابة عوذة لها من
العين وبذلك يثبت عجز البشر وتغير أفكارهم بتغيير القرون والأجيال
وبما يشير الى أنه من المحافظين أيضاً دفاعه عن عثمان وخصومه وعن
علي وأولاده وعن يزيد وأبيه وعن الحسين وجماعته وكلهم في نظره مجتهدون
وكلهم يريد خدمة الاسلام فقال : وإياك أن تعود نفسك أو لسانك
التعرض لأحد منهم ، ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم ،
والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت ، فهم أولى الناس بذلك ،
وهذا الكلام نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ النقاد ولبس ثوب الواعظ
القصاص ، أو هو يريد أن يتأدب أدب السيامي المهذب مع الجماعة ليقول
لصاحب الأمر ما يزعجه ، فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها ، ويحاول أن
يكلم أفواه الرعية لأنها اذا قالت فعلت ، وما حسب حساباً للأهواء
البشرية والمطامع الدنيوية فكلهم ما أخطأوا في نظره ، وكأنه يزعم أنهم
لادخل لارادتهم التي خلقها الله لهم فيما قضا وأمضوا ، وأغرب من كل

هذا قوله وأعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الائمة ليقتمدي كل واحد بمن يختار ! وقد قيل أي عالم لا يفوق وأي صارم لا ينبو وأي جواد لا يكبو .

مقدمة ابن خلدون هي درة تاج أعمال صاحبها ، كتب رسائل وكتباً قبلها كانت من نظم تأليف معاصريه : شرح مبهم ، وبسط موجز ، ونقل ما يحسن ، وتاريخه الكبير ليس فيه من جديد الا القسم المتعلق بالعرب والبربر ، وأكثره منقول عن الطبري وابن الاثير . أما المقدمة فهي الكتاب الذي أحدث ثورة في أفكار العرب وعد من أمهات كتب العالم ، ولا نعلم كتاباً علمياً ولا دينياً حاز شهرة المقدمة حاشا الكتب الستة .

ان اختلاط ابن خلدون بملوك عصره واطلاعه على أسرارهم وسياساتهم وما عاناه من أمرهم ومن ظلمهم عرف به ما يستتر في العادة عن لا يلابسهم ولم يعمل لهم ، وتقلده الوظائف السياسية والادارية والقضائية ، ومعرفته رجال اكثر الافطار ورجال كل أفق حتى مصر والشام ، واطلاعه على نفسية الملوك والعظماء ومنهم تيمورلنك الخرب العظيم - كل ذلك بما تفرد به ولم يتيسر لغيره ، أضف الى هذا ذاك الذكاء البراق والاحكام الصحيحة التي خص بها دون سائر معاصريه ، حتى لقد ترجم له صنوه وصديقه لسان الدين بن الخطيب بأنه متقدم في فنون عقلية ونقلية وفخر من مفاخر الغرب . قال هذا وابن خلدون في حد الكهولة فماذا كان يقول فيه بعد أن نضج في كل شيء ، لاجرم أنه يقول انه مفخرة الغرب والشرق والاسلام والعرب .

ولنا أن ندعي بعد كل هذا ان ابن خلدون كان في تاريخه الكبير محافظاً كسائر من تقدمه وفي المقدمة حراً لانه صاغها من علم واسع تخمر في قلبه وتقلب في صدره ثم أبرزها في خمسة أشهر في هذه الحلة العجيبة ، ويقضي الانصاف بأن نسلك ابن خلدون في سلك المجتهدين والمصلحين ، ولما فوض اليه منصب الكتابة في الدولة وهو في أول العقد الثالث من

عمره صدرت الكتب عن ديوانه خالية من السجع فاستغرب أهل الدولة هذا واتبعوه في طريقته ، وكانت الدول الإسلامية لا يصدر عنها في تلك العصور الا المسجع والمزدوج . وعلى هذه الطريقة سار في مقدمته فأبدع وأفاد ، ولو خلت من الاسجاع المتكافة في فاتحتها لجاءت كلها كالعقد الثمين خرج من يد صائغ ماهر . وكان ابن خلدون ينظم الشعر ، وشعره منحط عن نثره بكثير . قال انه تحدثت ملكته فيه بما حفظ من المتون المنظومة بالشعر في الفقه والقراءات وغيرها . وكان يحفظ القرآن وشيئاً من كلام العرب وشعرهم لكنه لم يكثر من الحفظ لأنه يقول ان الحفظ عائق عن التفكير فاختار هو طريقاً وسطاً . اسم ابن خلدون يخلد بمقدمته ففيها كل ابداعه .

بن خلدون

الفهارس

- ١ - فهرس الكتب .
- ٢ - « الأعلام .
- ٣ - « البلدان والأماكن والمحال .
- ٤ - « عام .

سنة ١٢١١

- ١ - ...
- ٢ - ...
- ٣ - ...
- ٤ - ...

١ - فهرس الكتب

(٢)

- | | |
|----------------------------------|------------------------------------|
| أدب الدنيا والدين ٢٤١ ، ٢٤٣ | الإبانة عن أصول الديانة ١١٣ ، ١٤٩ |
| الأدب الصغير ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٦ | الآثار الباقية عن القرون الخالية : |
| أدب الكاتب ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ | ٢٣٩ ، ٢٤٠ . |
| الأدب الكبير ٥٨ ، ٦٦ | أحسن كلام النبي والصحابة والتابعين |
| » والمروءة ٢٨ | وملوك الجاهلية وملوك الاسلام |
| الأربعين السلفية ٤٣ | ٢٣٥ . |
| ارجوزة ابن سيده في الكتب ٤٢ | أحسن ما سمعت ٢٣٥ . |
| ارشاد الأريب ٣٠٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ | الأحكام السلطانية لابن الفراء ٢٤٣ |
| ٣٢٤ . | » » للماوردي ٢٤١ |
| ارشاد الالبا الى تعليم الف با ٢٨ | ٢٤٢ ، ٢٤٣ . |
| ارشاد القاصد ٢٨ | الإحكام في أصول الاحكام ٢٤٩ |
| أساس البلاغة ٢٦٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ | أحكام القراءات ٣٠١ . |
| الاستبصار في الامامة ١١٣ . | إحياء علوم الدين ٢٧٤ ، ٢٧٥ |
| استحسان الحوض في الكلام ١٤٩ | ٢٨١ . |
| أسرار الحكم ٣٠٠ . | أخبار ابراهيم بن المهدي ١٣٠ . |
| أسماء الضعفاء ٣٧ . | أخبار الاطباء ١٣١ . |
| الاشتقاق ١٢٥ . | » الزمان ١١٤ ، ١١٥ . |
| الاشربة ٩٤ . | » غلمان بني طولون ١٣١ . |
| أشعار قریش ١٤٢ . | » المنجمين ١٣١ . |
| إعتاب الكتاب ٤٢ . | الاخبار واثبات النبوات ٧٦ |
| إعجاز القرآن ٢٠٨ . | اختلاف الفقهاء ١٤٢ |

- | | |
|------------------------------|-----------------------------------|
| الامثال ٧٠ . | الإعجاز والايجاز ٢٣٥ . |
| امثال أبي عبيد ٢٩٩ . | أعلام النبوة ٢٤١ . |
| أمثال الميكالي ٢٩٩ . | الاغاني ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٥٩ . |
| أمثلة الاعمال النجومية ٣٠٠ . | ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ . |
| امراء البيان ٥٨ ، ٧٤ . | الاقتصاد في الاعتقاد ٢٧٦ . |
| امنية الاعمى ٢٨ . | الافناع ٢٤١ . |
| الاموال ٧٠ . | الألف واللام ١٠١ . |
| الاناجيل ٧٢ . | الالفاظ ١٥٢ . |
| انموذج الحكمة ٢١٣ . | الإمام بأصول النبي عليه السلام ٢٨ |
| الانوار ١٧٠ . | الامالي ١٠٢ ، ٢٦٦ . |
| الاوائل ٢١٣ . | الامامة والسياسة ٩١ . |
| الاوراق ١٤٢ . | الامتاع والمؤانسة ٢٢٢ ، ٢٢٨ . |
| آيين نامه ٥٨ . | |

(ب)

- | | |
|---------------------------------|------------------------------|
| البرهان ٢٧٩ . | البخلاء ٨٧ . |
| بغية المؤانس ٤٣ . | بديعية ابن معطي ٤٣ . |
| بلاغات النساء ٩٩ . | برد الاكباد في الاعداد ٢٣٥ . |
| البيان والتبيين ٧٨ ، ٨٦ ، ١٠٢ . | البرق الشامي ٣١٦ . |
| البيوع ٢٤٤ . | |

(ت)

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| تاريخ بغداد ٩٧ ، ٢٢٧ ، ٣٠٨ . | التاج ٥٨ . |
| « بيهق ٣٠١ . | تاج المصادر ٢٩٩ . |
| « حكايا الاسلام = تسمية صوان | تاريخ ابن خلدون ٣٩٥ . |
| الحكمة . | تاريخ ابن عساكر = تاريخ دمشق |
| تاريخ دمشق ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ . | تاريخ أبي الفداء ٣٧٢ ، ٧٧٣ . |
| « الطبري ٩٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ . | « الاسلام ٣٧٠ ، ٣٧٢ . |

- تفسير كتاب الثمرة ١٣١
تفصيل النشأتين ٢٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠
تفضيل النطق على الصمت ٨٧
التقريب الى أصول التعريب ٢٨
تقويم البلدان ٣٧٣
تلبس ابليس ٢٨١
التلخيص في النحو ٢٩٩
التمنيه والاشراف ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٥
التنبيه على أوهام أبي علي ٢٦٦
تهافت التهافت ٢٧٦
تهافت الفلاسفة ٢٧٦
تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣١٢
- السكمال ٣٧٢
توجيه النظر الى علم الأثر ٢٨
التوراة ٧٢
- تاريخ القلانسي ٢٩٥ ، ٥٩٦ ، ٢٩٨
٣١٢
التبر المسبوك في نصيحة الملوك ٢٧٩
التبيان لبعض مباحث القرآن ٢٨
تبيين كذب المفتري ١٤٩ ، ٣٠٨
تتمة دمية القصر ٣٠٠
تتمة صوان الحكمة ٣٠٢
تحفة المذاكر المنتقى من تاريخ ابن
عساكر ٣١٢
تذهيب التهذيب ٣٧١
تسهيل المجاز الى فن المعنى والألغاز
٢٧
التعريف بالمصطلح الشريف ٢٧٧
التفرقة بين الاسلام والزندقة ٢٧٤
تفسير الجزائري ٢٨
تفسير الطبري ١٢١

ت

- ثمرات العلوم ٢٢٢ ، ٢٢٨ | ثمار القلوب ٣٣٥

ج

- جواهر الألفاظ ١٥١ ، ١٥٢ | جامع البيان = تفسير الطبري
الجواهر الكلامية في العقائد ٢٩٢
الاسلامية ٢٧ | الجبال والامكنة والمياه ٢٩٢
الجمهرة ١٢٤ ، ١٢٥
ك (٢٦)

ع

الحيوان ٧٨ ، ٨٦

الحجاب ٨٧

غ

الحقيف في الفقه ١٢٠

خلاصة التصانيف ٢٧٩

خلاصة الزيجة ٣٠٠

الخلفاء ١١٢

خاص الخاص ٢٣٥

الحراج ١٥٠ ، ١٥٢

خريدة القصر وجريدة العصر ٣٠١ ،

٣١٦ ، ٣١٠

خداي نامه ٥٨

و

دلائل الاعجاز ٢٦٠

دمية القصر ٣٠١

دول الاسلام ٣٧١

الدين ١٧٠

الدين والدولة ٧١

الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة

٣٧٢ ، ٣٥٠

درة الغواص في أوهام الخواص ٢٩٠

درة الوشاح ٣٠٠

الدلائل والاعتبار ٨٧

ز

ذيل تاريخ ابن عساكر للبرزالي

٣١٢

ذيل تاريخ ابن عساكر للبكري ٣١٢

ذيل تاريخ ابن عساكر لعمرو بن

الحاجب ٣١٢

ذيل القلانسي = تاريخ القلانسي

ذخائر الحكم ٣٠٠

الذخيرة ٢٥٢

الذريعة الى مكارم الشريعة ٢٦٩ ،

٢٧٠

ذم صناعة القواد ٨٧

ذم العلوم ومدحها ٨٧

ذيل تاريخ ابن عساكر لابنه القاسم ٣١٢

- | | |
|-------------------------------------|-----------------------------------|
| رسالة في الجذ والهزل ٨٧ | رد ابن السيد على رد ابن العربي ٤٢ |
| في جغرافية بلدان المغرب ٣٨٩ | الرد على المشبهة ٧٦ |
| في الصحابة ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ | الرد على النصارى ٧٦ |
| في العروض ٢٧ | رسالة الى أهل الثغر ١٤٩ |
| في النحو ٢٧ | وجدارل جدارية في الخطوط |
| رسل الملوك ٥٨ | ٢٨ |
| الرسل والملوك = تاريخ الطبري | رسالة القيان ٨٢ |
| رسائل البلاغ ٥٨ | الرسالة المشرقية ٢١٣ |
| روضات الجنات ١١١ ، ٢٧١ | رسالة النساء ٨٢ ، ٨٧ |
| روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١٥٥ ، ٢٨ | الهمداني الى الاسفرائيني ١٨٦ |
| الروضتين في أخبار الدولتين ٣١١ | في البيان ٢٧ |

ز

- | | |
|-----------|------------------|
| الزهرة ٩٤ | الزروع والنخل ٨٦ |
| | زهر الربيع ١٥٠ |

س

- | | |
|------------------------------|------------------------------|
| سنن ابن ماجة ١٥٤ | السامي في الاسامي ٢٩٩ |
| السياسة في علم الفراسة ٣٥٧ | سحر البلاغة ٢٣٥ |
| سير النبلاء ٣٧٢ | سر الأدب ٢٣٥ |
| سيرة احمد بن طولون ١٣١ ، ١٧٠ | سر البلاغة ٢٣٥ |
| سيرة خماوريه ١٣١ | سر الحياة ١١٣ |
| سيرة هارون بن خماوريه ١٣١ | سرقات البحجري من ابي تمام ٩٨ |
| | السموم ٣٠٠ |

ش

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| الشعر والشعراء لابن قتيبة ٩١ ، | شرح ادب الكاتب للبطليني ٩١ |
| ٩٢ ، ٩٣ . | للجواليقي ٩١ |
| الشعر والشعراء للمرثدي ١٤٢ | شرح ديوان خطب ابن نباته ٢٨، ٢٧ |
| الشعراء والبلغاء ٢٦٩ | شرح لامية العجم ٣٨٢ |
| الشعور بالخور ٣٨٢ | شرح المعتمد ٢٧٩ |
| الشفاء ٢٨٠ | شعر احمد بن يوسف ١٣١ |
| | شعر ابن عبد ربه ١٠٩ |

ص

| | |
|-----------------------|--------------------------|
| الصفوة في الامامة ١١٣ | صاح اللغة ٢٩٩ |
| الصناعتين ١٥١ | صحيح ابن حبان ١٥٤ |
| | الصدقة والصديق ٢٢٢ ، ٢٢٧ |

ض

مهمل

ط

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| طبقات الشافعية ١١١ ، ٢٢٢ ، ٢٧٣ | طبقات الادباء = ارشاد الأريب |
| طبقات القراء ٣٧٢ | طبقات الاطباء = عيون الانباء |
| الطبيخ ١٣١ | طبقات الحفاظ ٣٧٢ |
| الطراز ٢٦٠ | طبقات الحكماء ٣٠٥ |
| طوق الحمامة ٢٤٩ ، ٢٥٠ | طبقات السبكي = طبقات الشافعية |

ع

| | |
|------------------------|---------------------|
| العروض للخليل ١١٨ | العبر ٣٧٢ |
| العقد الفريد ١٠٧ ، ١٠٩ | عرائس النفائس ٣٠٠ |
| عمدة المحققين ٢٧٩ | العروض لابن معطي ٤٣ |

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| عيون الانباء في طبقات الاطباء | عيون الأخبار ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، |
| ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ . | ١١٠ ، ٩٨ . |

غ

| | |
|------------------------------|--------------------------------|
| غريب الحديث للزحشري = الفائق | غرر أخبار ملوك الفرس ٢٣٥ |
| الغريب المصنف ٦٨ | غريب الحديث لأبي عبيد ٦٨ ، ٢٩٩ |
| | غريب الحديث للخطابي ٣٠٠ |

ف

| | |
|---|----------------------------------|
| فصول مختارة الى عبيد الله بن حسان ٨٧ . | فاكهة المجالس وفكاهة المجالس ٣١٢ |
| فضائح الباطنية ٢٧٩ | الفائق في غريب الحديث ٢٩٢ ، ٢٩٤ |
| فضل العرب ٨٩ | الفتح القسي ٣١٦ ، ٣١٧ |
| فقه اللغة وأسرار العربية ٢٣٥ | الفرائد والقلائد ٢٣٥ |
| فوات الوفيات ٣٤١ | الفرج بعد الشدة ١٩٧ ، ١٩٨ |
| الفوائد الجسام في معرفة خواص الاجسام ٢٧ | فردوس الحكمة ٧١ |
| الفوز الاصغر ٢٨ | فصل ما بين العداوة والحسد ٨٧ |
| | الفصل في الملل والاهواء ٢٤٩ |

ق

| | |
|-------------------------|----------------------|
| القرامطة ١٥٤ | قانون البلاغة ٤٣ |
| القسطاس المستقيم ٢٧٩ | القانون المسعودي ٣٣٨ |
| قلائد العقيان ٢٥٢ ، ٢٦٥ | قانون الوزارة ٢٤١ |

ك

| | |
|----------------------|---------------------------|
| كتاب سيبويه ٧٩ ، ٣٦٠ | الكامل في اللغة ١٠٢ ، ١٠٤ |
| كتاب العين ٧٩ | الكافي في اللغة ٢٨ |

| | |
|------------------------|-----------------------------|
| الكلم الروحانية ٢١٧ | كتاب في الطب والصحة ٧١ |
| الكلم النوابع ٢٩٢ | الكتاب المقدس ٧٢ |
| كليلة ودمنة ٥٨ ، ٥٩ | كتبان السر ٨٧ |
| الكنائيات والتمثيل ٢٣٥ | الكشاف ٢٩١ ، ٢٩٤ |
| الكناية والتعريض ٢٣٥ | الكشف عن مساوىء المتنبى ١٤٢ |
| كيمياء السعادة ٢٧٩ | الكفاية في علم الرواية ٣٧ |

ل

| | |
|----------------------------|----------------------|
| لطاقف المعارف ٢٣٥ | لسان العرب ٤٠ |
| اللطائف في علوم المعارف ٣٧ | اللطائف والظرائف ٢٣٥ |

م

| | |
|--|-----------------------------|
| مختصر تاريخ دمشق لابن المكرم ٣١٢ | المبهج ٢٣٥ |
| مختصر تاريخ دمشق لأبي شامة ١٢ ، ٣١١ . | مشالب الوزيرين ٢٢٢ |
| مختصر تاريخ دمشق للعيني ٣١٢ | مجمع الأمثال ٢٩٩ |
| مختصر تاريخ الطبري ١٦٩ | المجمل في اللغة ٤٢ ، ٢٩٩ |
| مختصر تهذيب الكمال ٣٧٢ | المحاسن والاضداد ٨٧ |
| مختصر القدوري ٢٤١ | المحاضرات ٢٢٢ |
| مختلف تأويل الحديث ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ | محاضرات الراغب ١١٠ |
| مداواة النفوس ٢٤٩ | المحبر ٩١ |
| مدخل الطلاب الى فن الحساب ٢٧ | المحلى ٢٤٩ ، ٢٥٠ |
| مد الراحة في أخذ المساحة ٢٧ | مختصر أدب الكتائب ٢٨ |
| مرآة الزمان ٢٨١ | مختصر اصلاح المنطق ٤٣ ، ١٣١ |
| مرآة المروآت ٢٣٥ | مختصر أمثال الميداني ٢٨ |
| | مختصر البيان والتبيين ٢٨ |

المعجم المختص ٢٧٢
المعرفة ١٧٠
معرفة ذات الحلقة والصحة
والاصطراب ٣٠١
معرفة الرجال ٣٧
معلمة الاسلام ٩٠ ، ٣٩٠
المغرب للمطرزي ٤٢
المفتاح ٢١٣
مفردات الراغب ٦٦٨ ، ٢٦٩
المفصل في صناعة الاعراب ٢٩٢ ،
٢٩٤ .
المقابسات ٢٢٢ ، ٢٢٧
مقاتل الطالبين ١٦١
مقاصد الشرع ٢٨
مقالات الاسلاميين ١٤٨
المقالات في اصول الديانات ١١٣
مقامات الحريري ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥
مقامات الهمداني ١٨٠
المقتصد ٢٩٩
مقدمة الادب ٢٩٢
مقدمة ابن خلدون ٢٩٠ ، ٣٩١
مقصورة ابن دريد ١٢٩
مكارم الاخلاق ٢٣٥
المكافأة ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٠
مناقب الترك ٨٧

مرصد الاطلاع ٣٢٣
مروج الذهب ١١١ ، ١١٤ ، ١١٥
مزدك ٥٨
مسالك الابصار ٣٧٧
مساويء المتنبي ١٦٦
المستجد في فعلات الاجواد ١٩٧
٢٠٢ .
المستصفي ٢٧٩
مسند أحمد ٣٦٠
مشارب التجارب ٣٠٠
المشاهدة والاعتبار ٣٢٥
المشبه للغساني ٣٧
مشبه النسبة ٣٧١
المشترك وضعاً والمختلف صقلاً ٣٢١
٣٢٣ .
المصادر ٢٩٩
المضنون به على غير أهله ٢٧٩
المعاد والمعاش ٨٧
معارج القدس ٢٨٠
المعارف ٩١ ، ٩٣
معجم البلدان ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
المعجم الصغير ٣٧٢
معجم الطبراني ٣٦٠
المعجم الكبير ٣٧٢
معجم ما استعجم ٢٦٦

| | |
|------------------------------------|-----------------------|
| الموارنة بين أبي تمام والبحثري ١٥١ | المنتحل ٢٣٥ ، ٢٩٩ |
| الموشح ١٤٢ ، ١٥١ | المنثور والمنظوم ٩٩ |
| المؤنس الوحيد ٢٣٥ | منتخبات الجوائب ٣٤ |
| ميزان الاعتدال ٣٧١ | المنحول ٦٧٢ |
| ميزان العمل ٢٨٠ | من غاب عنه المطرب ٢٣٥ |
| منية الأذكياء في قصص الأنبياء ٢٧ | المنقذ من الضلال ٢٧٧ |
| | منهاج السنة ٣٦٥ |

ن

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| نظم الأدلة في أصول الملة ١١٣ | نثر النظم ٢٣٥ |
| نفع الطيب ٣٤٧ | نخبة الدهر في عجائب البر والبحر |
| النفس ٢١٣ | ٣٥٢ ، ٣٥١ |
| نقد الشعر ١٥١ | نزهة المشتاق ٢٨٤ |
| نقد النثر ١٥١ | نشوار المحاضرة ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ |

هـ

| | |
|-----------|-------------------|
| الهند ٢٤٥ | الهادي للشادي ٢٩٩ |
|-----------|-------------------|

و

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| ١٦٩ ، ١٦٦ | الوافي بالوفيات ١٩٣ ، ٣٠١ |
| وفيات الاعيان ٣٣٥ ، ٣٤٠ | ٣٨٢ ، ٣٥٠ |
| ٣٨٣ ، ٣٤١ | الوزيرين ١٦٣ |
| الوكلاء ٨٧ | الوساطة بين المتني وخصومه |

ي

| | |
|------------------|---------------------------|
| ينابيع اللغة ٢٩٩ | يتيمة الدهر ٥٨ ، ٦٦ ، ١٩٨ |
| | ٢٣٣ ، ٢١٣ |

٢ - الأعلام

١

ابن تيمية ١٦١، ٢٨٠، ٣٦٠
 ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٥ .
 ابن جامع ١٩٢
 ابن الجراح ١٢٠
 ابن جرير = الطبري
 ابن جماعة ٣٨٠
 ابن الجهم = محمد
 ابن جهور = ابو الخزم
 ابن جهور = ابو مروان
 ابن الجوزي ٢٨١
 ابن حيان = ابو مروان .
 ابن الحباب ٣٤٣
 ابن حبان البستي ١٥٤ - ١٥٨
 ابن الحجاج ٢٣٦
 ابن حرب ٦٥
 ابن حزم ٢٤٥ - ٢٤٨
 ابن حفص ٢٣٢
 ابن حمويه ٣٣٣
 ابن حيان المؤرخ ٢٦٤
 ابن الخطيب = لسان الدين
 ابن خلدون ٩٠، ١٤٧، ٣٠٣، ٣٤٦
 ٣٨٦ - ٣٩٦

آدم ٢٥٨
 ابراهيم بن الحربي ٦٩
 ابراهيم الخزاز ٣٠٠
 ابراهيم بن العباس الصولي ٨٦
 ابراهيم بن المهدي ١٣٠
 ابراهيم الموصلي ١٩٢
 ابن أبي أصيبعة ٣٢٥، ٣٣٢
 ابن أبي عامر = محمد
 ابن أبي العوجاء ٥٧
 ابن أبي الفوارس ١٦١
 ابن أبي مريم ١٩٢
 ابن الأبار ٤٢
 ابن الأثير ٢٨٥
 ابن الاحمر ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٨٩
 ابن الأرقط ١٣١
 ابن الانباري ١٥٩
 ابن باجة ٣٠٣
 ابن بويه، أبو الفوارس ٣٥٥
 ابن بويه، جلال الدولة ٢٤٣
 ابن بويه سلطان الدولة ٣٥٥
 ابن تومرت ٢٢١، ٢٧٣، ٣٦٦

- ابن شاکر ٣٤١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
ابن شبرين = ابو بکر
ابن شداد ٣٢٦
ابن صاحب حماة ٣٤١
ابن صدقة الوزير ٢٨٣
ابن الضبي ٣٠٤
ابن العارض ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠
ابن عامر ٦٥
ابن عباد ١١٠ ، ١٤٢ ، ١٦٠ ، ١٦٦
١٩٠ ، ١٩٥ ، ٢٢٢ ، ٢٨٥
ابن عبد البر ٤٣ ، ٢٦٤
ابن عبد ربه ٩٥ ، ١٠٧
ابن عبد القوي ٣٦٠
ابن عبدوس ٢٥١
ابن العديم ٣٣٨
ابن العربي ٤٢
ابن عربي ٣٦٨
ابن عساکر مؤرخ دمشق ١٤٩
٢٩٥ ، ٣٠٦ - ٣٠٩ ، ٣١٢
ابن عساکر = القاسم ابن المؤرخ
ابن عضد الدولة ٢٠٨
ابن العلاء = ابو عمرو
ابن عمار ٢٥٢
ابن العميد ١٦٢ ، ١٨١ ، ٢٢٢ ، ٢٨٥
ابن غانية ٣٤٨
ابن غرس الموصلی ١٦١
ابن خلکان ١٠٧ ، ١٢٢ ، ٢٣٣
٢٢١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠١ ، ٢٨٢
٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨٣ ، ٣٤٠
٣٨٧ - ٣٩١ .
ابن الحياض ٧٦
ابن داود ٩٤
ابن الداية ١٣٠ - ١٣٣ ، ١٧١ ، ١٧٢
ابن دريد ٩٤ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٥٩
ابن دقاق ٣٨٠
ابن رشد ٢٧٥ ، ٢٨٠
ابن الرومي ١٦٧
ابن الزكي = بهاء الدين
ابن زمرك ٣٤٥
ابن زهر ٣٠٣
ابن زيدون ٢٥١ - ٢٥٤ ، ٢٥٩
ابن سعدان ٢٢٢
ابن سناء الملك ٣٢٦
ابن سنان ٧٨ ، ١٥١
ابن سهلان ٣٠٤
ابن سورين ٢٣٢
ابن السيد ٤٢
ابن سيد الناس ٣٦٣ ، ٣٨٠
ابن سيدة ٤٢
ابن سيرين ١٤٤
ابن سینا ٢٤٠ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٣٠٣
٣٢٥ ، ٣٠٤

ابن نباته ٣٨٠
ابن النديم ١٤٢ ، ١٤٣
ابن هرمة ١٤٤
ابن هندو ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
ابن الهيثم ٣٠٣ ، ٣٠٤
ابن الوردي ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠
ابن يونس = كمال الدين
ابو احمد بن الهيثم ٢٣٢
ابو اسحاق الاسفرائيني ١٤٧
ابو اسحاق البصري ١٨٣
ابو اسحاق الصابي = الصابي
ابو بكر الخوارزمي = الخوارزمي
ابو بكر الشافعي ٢٢١
ابو بكر بن شبرين ٣٤٨
ابو بكر الصديق ١١٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٨
ابو بكر الصولي = الصولي
ابو بكر بن غازي ٣٤٤
ابو تغلب ١٦١
ابو تمام ٥٧ ، ٩٨
ابو جعفر المقرئ ٢٩٩
ابو حامد المروروزي ٢٢١
ابو حاتم السجستاني ١٠١ ، ١٢٤
ابو الحجاج ، السلطان ٣٤٣
ابو الحزم بن جهور ٢٥١
ابو الحسن البصري ٢٧٩
ابو الحسن الحكمي ١٩٠

ابن الفرات ٣٨٠
ابن فضل الله ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨
٣٨٠
ابن فورك ١٤٧
ابن قاضي شعبة ٣٧٥
ابن قتيبة ٨٨ - ٩٢ ، ١٥١
ابن القطب ٣٧٦
ابن قلاقس ٢٣٣ ، ٣٨٥
ابن القلانسي ٢٩٥ ، ٢٩٦
ابن الكتيبي = ابن شاكر
ابن كثير ٣٦٨ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠
ابن ماجه ١٥٤
ابن المتوج ٣٨٠
ابن مجاهد ١٠٤
ابن المجد ، الشهاب ٣٧٥
ابن المعتز ١٢٠
ابن معروف ٢٣٢
ابن معطي ٤٣
ابن مفلح ٣٨٠
ابن المقفع ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ -
٦٦ ، ٧٤ ، ٨٠
ابن مقلة ١٦٤ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥
ابن مكتوم ٢٦٤
ابن المهلب ٦٥
ابن ناصر الدين ٣٧٣
ابن الناعمة ٣٨٥

ابو عبد الله اليفرنى ٢٢٢
ابو عبيد = القاسم بن سلام
ابو عبيد البكري ٢٦٤ ، ٢٦٦
ابو عبيدة = معمر بن المثنى
ابو العتاهية ٤٢
ابو العلاء صاعد ٢٣٢
ابو علي البلعمي ١٩٠
ابو علي الجبائي ١٤٦
ابو علي الفارسي ٢٦٠
ابو علي القالي ٢٦٦
ابو عمران الحصري ١٨٤
ابو عمرو بن العلاء ٩٣
ابو العيناء ٧٧
ابو الغول الاسدي ٦٥
ابو الفتح بن ابي علي ٢١٥
ابو الفتح الاسكندردي ١٨٠ ، ١٨١
ابو الفداء ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠
ابو الفرج الاصبهاني ١٠٩ ، ١٥٩
ابو الفرج البغدادي ٣٧٢
ابو القاسم الشريف ٣٤٤
ابو المثنى ١٢٠
ابو مخنف ١٢٢
ابو مروان بن حيان ٢٥٩
ابو المنصور البغوي ١٩٠
ابو نصر الرياضي ٢٣٨
ابو نصر الميكالي ٩٤ ، ١٩٠

ابو الحسن بن دري ٢٦٥
ابو الحسن ، السلطان ٣٤٤
ابو الحسن الساهي ٣٠٦
ابو الحسن العامري ٢٢١
ابو الحسن الفارسي ٢٦٠
ابو الحسن القزويني ١٩٠
ابو الحسن الوائلي ٢١٣
ابو حيان التوحيدى = التوحيدى
ابو حيان النحوي ٣٨٠
ابو الخطاب الصابي ٢٣٢
ابو الخير بن الحمار ٢١٣
ابو دلف ٦٨
ابو زيد ١٢٦
ابو زيد الانصاري ٧٤
ابو زيد السروجي ٢٨٣ ، ٢٨٩
ابو سالم ، السلطان ٣٤٤
ابو سليمان المنطقي ٢٢١ ، ٢٢٧
٣٠٢ ، ٢٣٠
ابو سعيد السمعاني ٣٠٧
ابو سعيد الكرماني ٣٠٧
ابو شامة ٣١١
ابو الصقر ١٠٠
ابو الطيب المصعبى ١٥٤
ابو عامر ١٧٨
ابو العباس ، السلطان ٣٤٥
ابو عبد الله ، السلطان ٢٤٧

احمد بن فارس ١٧٧
احمد بن يوسف = ابن الداية
الاخطل ٩٣ ، ١٠٩
الاخفش ٧٤ ، ١٥٩
الادريسي ٣٨٤ ، ٣٨٥
الادفوي ٣٨٠
اردشير بن بابك ١٥٢
ارسطا طاليس ٢١٧ ، ٢١٨
ارسطو ٧٨ ، ٣٠٤
اريجانس ٢١٧
الازد ١٠٥
ازد شنوءة ١٠٥
ازد العتيك ١٠٥
اسامة بن زيد ٢٥٨
اسحاق بن احمد القطان ١٥٦
اسحاق بن راهويه ٦٩
الاسفرائيني = ابو اسحق
الاسفرائيني = الفضل بن احمد
استقيلبيوس ٣٣٥
اسكندر ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
٣٢٧
الاسكندري = ابو الفتح
اسماعيل القاضي ١٠١
اسماعيل بن ميكال ١٢٤ ، ١٢٥
اسماعيل بن نور الدين ٣١٥
الاسماعيلي = ابو نصر

ابو النفيس الرياضي ٢٢١
ابو نواس ٩٤ ، ١٦٧
ابو الهذيل العلاف ٩٠
ابو هفان ٧٤
ابو الوليد بن جهور ٢٥٧
ابو يوسف ٧٤ ، ١٢٠
ابو يزيد البسطامي ٣٤٨
احمد بن خالد ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٦
احمد ابن ابي دواد ٨٦
احمد بن ابي طاهر ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩
احمد ابن ابي يعقوب ١٣٤
احمد بن الحسين ، بديع الزمان الهمذاني
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
احمد حشمت باشا ١٨ ، ١٩
احمد بن حنبل ٦٩ ، ١٢٢ ، ١٥٦
احمد بن الحصيب ٩٩
احمد زكي باشا ١١ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩
احمد بن شهيب ١٩٣
احمد الطويل ٢٣٢
احمد بن طولون ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
١٧٦
احمد بن عبد الله = ابن زيدون
احمد بن عبد الله = ابن عبد ربه
احمد بن عبد السلام ١٠٥

| | |
|------------------------|-----------------------------|
| اقليمون ٧٨ | الأشعري ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، |
| اكسانوقراطس ٢١٧ | ٢٦٠ ، ٢٠٧ |
| امام الحرمين = الجويني | الاشنانداني ١٢٤ |
| ام آسية ١٣٧ ، ١٣٨ | الاصهباني = ابو الفرج |
| الامدي ١٠٢ ، ١٥١ | الاصهباني = العماد |
| امرؤ القيس ١٢٦ | الاصهباني = الراغب |
| اميروس ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ | الاصهباني = شمس الدين |
| أمين الدولة ٣٢٣ | الاصمعي ٦٩ ، ٧٤ ، ١٢٦ ، ١٦٧ |
| انو شروان ٣٥٥ | ٢٣٧ |
| اوقليدس ٣٨٦ | الاعمش ١٥٧ |
| ايريك صاصب صرخد ٣٣٣ | الأفرم ٣٥٠ |
| ايوب بن ساذي ٤٣ ، ٣١٤ | الافشين ١٩٢ |
| | افلاطون ٢١٧ |

ب

| | |
|-------------------------|---------------------------------|
| البرمكي ١٠٥ | الباخرزي ٣٠١ |
| برهان الدين الفزاوي ٣٧٥ | باديس الحاكم ٣٤٨ |
| بروكلن ٩٠ ، ١١٤ ، ٢١٢ | باسيليوس ٢١٧ ، ٢١٩ |
| بشر بن الحارث ٦٩ | الباقلاني ١٤٧ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ |
| بطرك انطاكية ٢٠٠ | البتاني ٣٠٤ |
| بغا ١٩٢ | البحثري ٩٨ ، ٩٩ ، ١٦٤ ، ٢٣٧ |
| البغدادى = الخطيب | بجيري المغرب = ابن زيدون |
| البغدادى = عبد اللطيف | بجيتشوع ٧٨ ، ١٩٢ |
| بقراط ٢١٧ | بديع الزمان = الهمداني = احمد |
| بلال بن ابي بردة ١٤٨ | ابن الحسين |
| البلخي ٣٠٤ | البرزالي ٣٧٣ ، ٣٨٠ |
| بل (المس) ٤٣ | برصوما ١٩٢ |

البوزجاني ٣٠٤
بيبرس البندقاري ، السلطان ٧
٣٥٦ ، ٣٣٩
بيبرس المنصوري ٣٨٠
البيروني ٢٣٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
٣١٣
البيضاوي ٢٦٨
البيهقي ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥

البلوي ١٧٠
بلي ١٧٠
بنت الاشرف الايوبي ٣٨٤
بنت اليتيم ١٣٨
البندنجي ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥
بنو قريظة ٢٥٨
بهاء الدين بك ٧
بهاء الدين ابن الزكي ٣٨٤
البهاء زهير ٢٦

ت

٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٣٠٥
التوزي ١٢٤
تيمور لنگ ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥

التجيمي ٢٤٦
تيم بن مر ١٥٤
التنوخني ١٥٩ ، ١٩٧ ، ٢٨٤
التوحيد ١٢١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

ث

ثعلب ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٥١
ثمادة بن أشرس ٧٤ ، ٩٠
ثمود ١٨٧
ثور بن يزيد ٥٧

ثابت بن قرة ٣٨٦
ثابت بن نصر الحزاعي ٦٨
ثامسطيوس ٣٢٧
الثعالي ١٦٧ ، ١٩١ ، ١٩٨ ،
٢١٣ ، ٢٣٣

ج

١٦٤ ، ٢٢١
جالينوس ٧٨ ، ٢١٧ ، ٣٣٢

جائليق القدس ٢٠٠
الجاحظ ٧٠ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩

| | |
|-----------------------------|------------------------------|
| الجمحي ١١٣ ، ١٥٩ | جبوري = شفيق جبوري |
| جنكيز خان ٣٧٨ | الجزباني = عبد القاهر |
| الجوابقي ٩١ | الجزباني = علي بن عبد العزيز |
| جوهر الصقلي ١١٢ | الجرمي ١٠١ |
| الجوهري ٣٨٦ | جرير ٩٣ |
| الجوهري = معمر | الجزائري = طاهر الجزائري |
| الجوهري = نجم الدين الجوهري | جعفر بن أحمد الغرناطي ٣٤٨ |
| جيش بن الصمصامة ٢٩٦ | جعفر بن محمد ١٢٣ |
| | جلال الدولة = ابن بويه |

ح

| | |
|-----------------------------------|-------------------------------------|
| الحسين بن علي بن يحيى الصنهاجي | الحارث بن همام ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ |
| ٣٨٥ | الحاكم بأمر الله ٢٩٦ |
| الحسين بن محمد = الراغب الاصبهاني | الحجاج بن محمد ٧٤ |
| الحصري ١٩٣ | الحجاج بن يوسف ٥٧ |
| الخطيبي = النجم | الحريري ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ |
| الحكم الأموي ١٠٩ | الحسن بن داود ٧٩ |
| حمزة بن اسد بن القلانسي = | الحسن بن سهل ٣٥٥ |
| ابن القلانسي | الحسن بن هانيء = ابو نواس |
| الحميدي المؤرخ ١٠٧ ، ١٠٩ | الحسين عرق الموت ٢٠٣ |
| حنين بن اسحاق ٧١ ، ٣٠٤ ، ٣٨٦ | الحسين بن علي ١٧٨ |

خ

| | |
|------------|--------------------|
| الخندي ٣١٤ | خالد بن صفوان ١٠٥ |
| الخرمي ٩٤ | خالد بن الوليد ٢٥٨ |

| | |
|--------------------------------|--------------------------|
| خلدون بن عثمان ٣٨٨ | الحزاعي = ثابت بن نصر |
| خلف الأحمر ١٢٥، ١٦٧ | الحزرج ٣٣٢ |
| الخليل بن أحمد ٦٠، ٧٩، ٨٠ | خزيمة بن ثابت ٢٩٩ |
| ١٢٥، ١١٨ | الحضر ٣٣٧ |
| الخليل بن ابيك = الصلاح الصفدي | الخطيب البغدادي ٩٧، ١٥٢، |
| خمارويه ١٣١، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩ | ٢٢٧ |

| | |
|-------------------|----------------------------|
| الدلي ٢٢٢ | دارم ١٥٤ |
| ديقوميس ٢١٧ | داود بن بهرام ٣٢٨ |
| ديستانس ٢١٧، ٢١٩ | داود الظاهري ١١٧ |
| ديمسطس ٢١٧ | داية ابراهيم بن المهدي ١٣٠ |
| ديو جانس ٢١٧، ٢٢٠ | الدخوار ٣٣٢ |

ذو القرنين ١٥٢ | الذهبي ٢٢١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٧٠، ٣٨٠

| | |
|--------------------|--------------------------------|
| رشيد رضا ٣٨ | لرازي ١٤٧، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٢٥ |
| ركن الدولة ١٦٢ | الراغب الاصبهاني ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١ |
| الرماني ٢٢١، ٢٢٦ | ٣٠٤ |
| روزبة = ابن المقفع | رجار ٣٨٤، ٣٨٥ |
| الرياشي ١٢٤ | الرحبي = شرف الدين |
| ريد فرانس ٣٧٦ | الرشيد ١٣٥، ٣٥٤، ٣٥٥ |

| | |
|-----------|-----------|
| زرياب ١٠٨ | زرادشت ٧٢ |
| زلزل ١٩٢ | زرزر ١٩٢ |

| | |
|-----------------------|---------------------------------|
| زياد بن أبي سفيان ٣٩٣ | الزنجشيري ٢٦١ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ |
| الزيادي ١٢٤ | الزملكاني ٣٦١ |
| زينون ٢١٧ | زناة ٣٩٠ |

س

| | |
|---------------------------------------|-----------------------------|
| سلم صاحب الحكمة ٨٠ | سلم بن ثوبان ١٥٧ |
| سليمان بن داود ٣٤٦ | سالويه ٧٨ |
| سليمان بن علي ٦٥ | السامري = سيف الدين السامري |
| السمعاني الحافظ ٢٣٨ ، ٣١٠ | سبط ابن الجوزي ٢٧٢ ، ٢٨١ |
| السمعاني = ابو سعيد | السبكي ٢٢١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ |
| السمؤال ٦٥ | ست القضاة ٣٧٥ |
| سناء المملك القاضي = هبة الله بن جعفر | ست الوزراء ٣٧٥ |
| سهل بن المزربان ٢٣٦ | السري بن عبدويه ٧٤ |
| سوار بن شرعة ١٣١ | سطيحوس ٢٢٠ |
| سيف الدولة ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٠ | سعد بن عبادة ٣٣٢ |
| ٢٢٢ ، ٢٣٤ | سفيان بن معاوية ٦٥ |
| سيف الدين السامري ٣٨٤ | سقراط ٢١٧ |
| سيف الدين كراي ٣٥١ | السكري ١٥١ |
| السيوطي ١٢١ | سلطان الدولة = ابن بويه |
| | السلفي ٤٣ |

ش

| | |
|-------------------------------|------------------------|
| شريح القاضي ٣٠٢ | الشارعي ٣٢٦ ، ٣٢٧ |
| شريك ١٥٧ | الشافعي ٦٩ ، ١١٧ ، ١١٨ |
| الشعبي ٦٩ | الشاه بن ميكال ١٢٥ |
| شمس الدين الاصفهاني ٣٧٥ ، ٣٧٨ | الشجاعي ٣٨٤ |

الشهرستاني ١٤٧
شيخ الربوة ٣٥٠

شمس المعالي ٢٣٩
شهر آشوب ١١٦
الشهرزوري = الكمال

ص

صالح المنير ١٧
صحار العبدي ٨١
الصفدي = الصلاح الصفدي
الصلاح الصفدي ١٦١ ، ٢٤١ ، ٢٤٢
٣٠١ ، ٣٥٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٠
٣٧٨ ، ٣٨٠
الصلاح الكندي = ابن شاكر
صلاح الدين المنجد ٥٨
الصولي ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥
١٩٧ ، ٢٨٤

الصايي ٢٢٧ ، ٢٨٥
صاحب تاريخ بغداد = الخطيب
البغدادي
صاحب تلمسان ٣٨٩
صاحب الذخيرة ٢٥٢ ، ٢٥٥
صاحب القلائد ٢٥٢
صاحب المرية ٢٤٦
صاحب الوافي = الصلاح الصفدي
صاحب البيعة = الثعالبي
صالح بن جناح ٧٤

ض

الضي = محمود بن جرير

ط

الطبري ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠
١٢١ ، ٠٠٠
الطبيسي ٣٠٠
طغريل الخادم ٣٢٨
طيفور = احمد بن أبي طاهر

طاهر الجزائري ٦ ، ١٢ ، ١٤ ، ٥
١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩
٢٢٧
طاهر بن الحسين ٦٧
طاهر بن شاد ١٩٠
طاهر بن محمد ٩٧

ع

- عاد ١٨٧
عارف المنير ١٧
عائشة بنت أبي بكر ٢١٢ ، ٢٥٨
العباس بن الحسن ١١٩
العباس بن الحسين ٢٣٢
عباس الثاني الحديوي ١٣
عبد الجبار القاضي ٢٧٩
عبد الرحمن البوشناق ٥
عبد الرحمن بن محمد الأموي ٢٤٦
عبد الرحمن بن محمد المقاتلي ١٥٥
عبد الغني الميداني ٥
ع . م . ٤٥
عبد القاهر الجرجاني ٢٦٠ ، ٢٦١
عبد الله بن الحريري ٢٨٣
عبد الله بن الحشاش ٢٠
عبد الله بن سليمان ٢٠٢
عبد الله بن سوار ٨٤
عبد الله بن طاهر ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩
عبد الله بن عباس ٦٩
عبد الله بن عبد العزيز البكري
٢٦٤
عبد الله بن علي ٦٥
عبد الله بن مسعود ١١١
عبد الله بن مسلم = ابن قتيبة
- عبد الله بن المقفع = ابن المقفع
عبد الله بن محمد = البلوي
عبد الله بن ميكال ١٢٤
عبد الملك بن محمد = الشعالي
عبيد الله بن احمد الميكالي ٢٣٥
عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ٩٧
عبيد الله بن يحيى ١١٨
العنابي ٩٤ ، ١٤٣
عثمان بن جاذوکار ٣٠٠
عثمان يحيى ٣٤٤
عثمان بن يوسف ، الملك العزيز ٣٢٨
عدنان ١٥٤
عروة بن أذينة ٢٩٠
عسكر الجموي ٣١٩
العسكري ١٥١
عضد الدولة ١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
٢١٣
العقيقي ١٣١
علويه ١٩٢
علي بن أبي طالب ١١٦ ، ١٤٥
٣٥٦ ، ٢٩٩ ، ١٨٧
علي بن اسماعيل = الأشعري
علي بن الحسين = المسعودي
علي بن الحسين بن هبة الله = ابن عساكر

العماد الاصبهاني ٣٠١ ، ٣١٠ ، ٣١٤
٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٧
عمر بن الخطاب ١١٦ ، ١٧٠ ، ١٧٨
٣٥٦ ، ٣٧٥ ، ٣٩٣
عمران الحكيم ٢٣٢
عمرو بن بانه ١٩٢
عمرو بن بجر = الجاحظ
عيسى بن علي ٦٥
عيسى بن هشام ١٨٠ ، ١٨١

علي بن خليفة ٣٢٧
علي بن ربن ٧١ - ٧٣ ، ١٥٠
علي بن زيد = البيهقي
علي بن عبد العزيز الجرجاني ١٣
١٦٤ ، ٢٦٠
علي بن عيسى الوزير ١٣١ ، ١٩٩
٢٠١
علي بن محمد التوحيدي = التوحيدي
علي بن محمد الماوردي = الماوردي
علي بن المظفر النيسابوري ٢٩١

غ

٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
غورسن ٢١٧
غولدصهر ١٥

غازان ٣٦٣ ، ٣٦٨
غاندي ٢٦
الغزالي ١٤٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤

ف

الفضل بن احمد الاسفرائيني ١٨١ ، ١٨٦
الفضل بن الربيع ١٥٧
الفضل بن سهل ٦٠
الفضل بن يحيى ١٤٣
فلك المعالي = منوجهر
فيثاغورس ٢١٧ ، ٢١٩
فيدروس ٢٢٠
فيلمون ٢١٧

الفارابي ٢٧٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٧
الفارقي = سعد الدين
الفتح بن خاقان ١٠٥ ، ٢٦٥
فتيان الشاغوري ٣٣٧
الفرزدق ٩٣
الفرغاني ١١٨ ، ١٢٢
فزارة جد الجاحظ ٧٤
الفراري = برهان الدين

ق

| | |
|------------------------|-------------------------------|
| القشبي = محمد بن يحيى | قابوس بن وشكير ٢١٥ |
| قسام الحارثي ٢٩٦ | قسام بن سلام ٦٧ ، ٦٨ |
| القشيري ٢٨٠ | القاسم بن عساكر ٣٠٦ |
| قضاة ١٧٠ | القاسم بن معن ٦٩ |
| القفطي ٣٠٥ ، ٣٢١ | القاشاني ٢٨٣ |
| قلاوون ٣٧٦ ، ٣٥٦ ، ٣٧٥ | القاضي الفاضل ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ |
| قيس بن معاذ ١٠٤ | قحطان ١٧٠ |
| | قدامة بن جعفر ١٥٠ - ١٥٣ |

ك

| | |
|------------------------------|----------------------|
| كمال الدين بن بونس ٣٠٣ ، ٣٢٦ | كتومير ١١٥ |
| الكميت ١٦٧ | الكرخي = معروف |
| الكندي ١٠٥ | الكرماني = أبو سعيد |
| كودنبوري ٤٦ | الكمال الشهرزوري ٣١٤ |

ل

| | |
|------------------------|--------------------------|
| لوط بن يحيى = أبو مخنف | لسان الدين بن الخطيب ٣٤٣ |
| | ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٩٥ |

م

| | |
|---------------------------|---------------------|
| المالكي الأمير ٥ | المازني ١٠١ |
| الأمون ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٥ ، ٣٥٥ | المازيار بن قارن ٧١ |
| ماني ٧٢ | ماسرجويه ٧٨ |
| الموردي ٢٤١ - ٢٤٤ | مالك ١١٧ ، ٢٠٧ |

محمد بن ملكشاه ٢٧٩
محمد بن يحيى = الصولي
محمد بن يحيى القرشي ٣٠٦
محمد بن يزيد = المبرد
محمود بن جرير الضي ٢٩١
محمود بن زنيكي ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨
٣١٤ ، ٣١٥
محمود بن سبكتكين ١٨١ ، ١٨٦
٢٣٨ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٣٥٥
محمود بن عمر = الزخشي
مخارق ١٩٢
مخزوم ٣٥١
المدائني ١٢٢
مدحت باشا ٧
المرتضي الموسوي ١١٦ ، ٢٩٠
المرثدي ١٤٢
المرزباني ١٥١
مروان بن محمد ٢٥٥
مريم ٢١٢
المزي ٢٧٣ ، ٣٨٠
المستظهر العباسي ٢٧٩
المستعين ٩٩
المستنصر ٣٢٨
المسمودي ٩٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣
١٢١ ، ١٢٥ ، ١٥٠ ، ٣٥٩
مسكويه ٣٠٤

مايرهوف ١١٥
المبارك أبو ابن المقفع ٥٧
المبرد ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣
١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٥١
المتنبي ١٦٦ ، ٢١٧
لمتوكل ٧١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٣٥٥
الحسن بن علي = التنوخي
محمد بن أبي الحجاج ٣٤٣
محمد بن أبي طالب = شيخ الربوة
محمد بن أبي عامر ٢٤٥
محمد بن ادريس = الشافعي
محمد بن جبلة البغدادي ٤٣
محمد بن الجهم ١٠٥
محمد بن الحسن = ابن دريد
محمد بن زكريا = الرازي
محمد بن سلام ٦٠
محمد بن صالح الطبري ١٥٧
محمد بن الطيب = الباقلاني
محمد عبده ١٥
محمد بن عبد الله القاضي ١٩٩
محمد بن عبد الملك ٨٦
محمد بن عثمان العجلي ١٥٧
محمد الفزاري ٣٠٠
محمد بن قلاوون ٣٥٤ ، ٣٧٦
محمد بن محمد = الغزالي

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| المفضل بن سلمة ٩١ | مسلم بن عبد الله ٢٥٤ |
| المقتدر ١٢٠ ، ١٢٤ | المسيح عليه السلام ٧٢ |
| المقديسي = ناصر الدين | مصعب بن الزبير ٣٥٥ |
| المقرزي ٣٧٦ | المطرزي ٤٢ |
| المكتفي ١١٩ ، ١٥٠ | مظفر الدين كوكبري ٣٣٨ |
| مكرم بن عمر القاضي ١٩٩ | العاقا بن زكريا ١٢٣ |
| المنتصر ١٣٦ | المعتصم ٧١ ، ٩٥ ، ١٥٧ |
| المنجد = صلاح الدين | المعتضد أمير أشبيلية ٢٥١ ، ٢٥٢ |
| المنذري ٣٠٨ | ٢٦٤ ، ٢٥٥ |
| المنصور ٦٥ | المعتمد أمير أشبيلية ٢٥٢ ، ٢٥٥ |
| منوجهر بن قابوس ٢١٤ | معروف الكرخي ٣٤٨ |
| المهدي العباسي ١٣٤ ، ١٥٧ | المعري ٤٢ |
| المهدي الشيخ ٥ | معلي بن حيدرة ٢٩٦ |
| المهلب ١٠٥ | معمار الجوهري ١٧٣ |
| المهلب ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٢٢٢ | معمر بن المنتهي ٧٤ |
| موسى بن عمران ٣٢٦ | معن بن زائدة ١٣٥ |
| موسى بن ميمون ٣٢٦ ، ٣٢٧ | |

ن

- | | |
|----------------------------|------------------------|
| النظام ٧٤ ، ٩٠ | ناصر الدين المقدسي ٢٨٣ |
| نظام الملك ٢٧٢ | الناصر صاحب حلب ٣٥٦ |
| نفظويه ١١٣ ، ١٥٩ | نائب قلعة دمشق ٣٦٨ |
| نور الدين = محمود بن زنكي | النجاشي ١١١ |
| نوموس ٢١٧ | النجم الخطيني ٣٥١ |
| النويري ٣٨٠ | نجم الدين الجوهري ٣٥٦ |
| النيسابوري = علي بن المظفر | نسيم الخادم ١٧٢ |

هـ

- | | |
|--------------------------|---------------------------|
| هشام بن أعين ٦٨ . | الهادي ١٣٥ . |
| هشام بن عبد الرحمن ١٠٧ . | هارون بن خارويه ١٣١ . |
| هشام بن عبد الملك ١٥٩ . | هارون بن ملول ١٣٥ ، ١٣٦ . |
| هشام المؤيد ٢٤٦ ، ٢٦٤ . | هبة الله بن جعفر ٤٣ . |
| هوتسا ٣٢٥ . | هرثة بن أعين ٦٨ . |

و

- | | |
|--------------------------|----------------------------------|
| ولادة بنت المستكفي ٢٥١ ، | الواقدي ١٢٢ . |
| ٢٥٣ ، ٢٥٥ . | وائل بن حجر ٣٨٨ . |
| الوليد بن جهور ٢٥١ . | الوركاني ٣١٤ . |
| | وزير ابن سبكتكين = الفضل بن احمد |

ي

- | | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| يحيى بن هبيرة ٣١٤ . | ياسين بن زرارة ١٣٥ ، ١٣٦ . |
| يحيى بن هذيل ٣٤٣ . | ياسين السيمائي ٣٢٦ . |
| يزيد بن أبي سفيان ٢٤٥ | ياقوت ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٩٣ ، |
| يزيد بن معاوية ١١٢ | ٢٢١ ، ٢٣٨ ، ٣٠٠ ، ٣١٥ ، |
| يزيد بن هارون ٧٤ | ٣١٩ - ٣٢٤ . |
| يعرب بن قحطان ١٢٤ | يحيى بن خالد ٨٠ . |
| يوحنا بن البطريق ٣٨٥ | يحيى بن زياد ٥٧ . |
| يوحنا بن ماسويه ٣٣٥ | يحيى بن عبد الملك ٣٠٠ . |
| يوسف بن ابراهيم ١٣٠ | يحيى بن عدي ٢٢١ ، ٢٢٦ ، ٣٠٤ ، |
| يوسف بن أيوب ٤٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ | يحيى بن عمر ٩٧ . |
| ٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣١٧ ، ٣١٥ | يحيى بن الفضل ١٩ . |
| ك (٢٩) | ٣٢٨ |
| | يحيى بن معين ٦٩ . |

٣ - البلدان والأماكن والمواقع والمحال والجبال والأودية والأشهار

أ

أصبهان القديمة ٣٠٦ ، ٣١٤
 اصفهان ٦٨ ، ١٥٦ ، ٢٣٦ ، ٢٦٨
 ٣٠٤
 افريقية ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٣
 ٢٨٩
 الأقرع = الجبل الأقرع
 أميركا ٤١ ، ٣٥٣
 آمل ١١٧
 الأندلس ١٠٧ ، ٢٤٥ ، ٢٥١
 ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨
 ٣٨٨ ، ٣٩٠
 انطاكية ١١١
 انهار دمشق ٢٢
 الأهواز ١٢٤ ، ١٩٢ ، ٢٨٥
 اوربا ٣٥٣
 اونبة ٢٤٥ ، ٢٦٤

بيورد ٣٠٦
 حد = جبل أحد
 ذريجان ١١٢
 رتبل ٣٣٨
 أرجان ١٨٥
 أوزن الروم ٣٢٨
 أوزنجان ٣٢٨
 أرض العجم ٢٩٩
 أرمينية ١١٢
 أرياف مصر ١٣٦
 الأزهر = الجامع الأزهر
 سكندرية فارس ٣٥٨
 أسكندرية مصر ١٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٧٣
 ٣٨٩
 شيبيلية ٤٢٦ ، ١٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤
 ٣٨٨ ، ٣٤٩

ب

البحر المحيط ٣٩٠
 بخارى ١٩٠ ، ٢٩١
 بدر ٢٥٨
 بدخشان ٣٥٨

باب الشام ببغداد ١٠٠
 بابل ١١١
 باجة ٢٥١
 بحر الظلمات ٣٥٣

١٨٣ ، ١٧٨ ، ١٧٣ ، ١١١

٣١٤ ، ٣٠٦ ، ١٩١ ، ١٨٤

٣١٦ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣١٥

٣٢٨

بلاد البربر ٣٥٧ ، ٣٥٣

بلاد زناتة ٣٩٠

بلاد الزنج ٣٥٣ ، ١١١

بلاد السودان ٣٥٣

بلخ ٣٠٤

البلقان ١١١

بلنسية ١٤٦

بيت المقدس ٣٥٤ ، ٢٧٣ ، ٢٠٠

٢٧٦

بيروت ٢٢ ، ٢٠

بيرون ٢٣٨

بيارستان تنكز بصفد ٣٥١

البيارستان الناصري ٣٣٣

البيارستان النوري بدمشق ٣٣٢

برشلونة ٣٨٤

برفعيد ٢٨٤

برقة ٣٨٩

بست ١٥٤

بسظام ١٥٤

البصرة ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٥ ، ٧٤

٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٢

١١١ ، ١١٧ ، ١٢٤ ، ١٤٦

١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٥

٢٤١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

٣١٤

بطليوس ٢٥٦

بغداد ٦٧ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١٠١

١١١ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨

١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥

١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٦

١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٨٢

١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢٢١

ت

تلقينا ٢٩٦

تلمسان ٣٨٩ ، ٣٩٠

تونس ٣٨٨ ، ٣٨٩

التبت ٣٥٨

تبريز ٢٨٥

تستر ١٥٦

تكريت ٣١٤

ث

الثغور ٦٨

ج

جرجانية خوارزم ١٢٩
جزيرة ابن عمر ١٢٤
الجزيرة ١٥٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٦ ، ٣١٩
٣٣٥
جزائر المحيط الهندي ٣٥٣
الحقمية = المدرسة الحقمية
جلبق ٢٧٣ (وانظر دمشق)
جور ٥٧
جوين ٢٣٥
جيهون = نهر جيهون
جيان ٣٤٩

الجامع الازهر ٣٢٨ ، ٣٨٩
الجامع الأموي = جامع دمشق
جامع دمشق ٦ ، ٢٧٨ ، ٣٢٧
٣٢٧
جامع العقيبة ٣٨٤
جاوة = الزابج
الجبال ٨٨
جبل ١٥٨
جبل أحد ٢٥٨
الجبل الاقرع ٣٥٤
جبل سنير ٢٩٦
جرجان ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٧٢

ح

حصن القصر ٢٤٦
حضر موت ٣٨٨
حطين ٣٥١
حلب ١٩٠ ، ٢٨٥ ، ٣١٠ ، ٣١٥
٣٢٨ ، ٣٨١
حصص ٣١٥

الحبشة ٣٥٨
الحجاز ١٢٢ ، ١٥٤ ، ١٩٢ ، ٢٩٠
٣٥٨ ، ٣٠٦
حران ٣٦٠
لحرمان ١٩٢
حزرما ٣٨٤

خ

الخزانة الزكية ١٢
خليج الزقاق ٣٩٠
خوارزم ١٩٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٣٠٢
٣٢١ ، ٣١٩

الخان ٣٨٤
خراسان ٦٧ ، ٩٧ ، ١١٢ ، ١٢٢
١٥٤ ، ١٩١ ، ٢٧٢ ، ٢٩٩
٣٠٢ ، ٣٠٦
لخزانة التيمورية ١٢

٣٦٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٠ ، ٣٥٦

٣٨٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٢ ، ٣٧٠

٣٨١

دمر ٥٣

دمياط ٢٨٤

دور آل الفرات ١٨٤

ديار بكر ٣٣٥ ، ٣٧٤

الديار الشامية ١٠

الديار المصرية ٣٦٣

دير السوسن ٩٩

دير سمعان ٣٥٤

دينور ٨٨

ديوان المعارف ٧

دار البلاط بقسطنطينية ٢٠١

دار الحديث النورية بدمشق ٣٠٧

دار الحديث السكرية بدمشق ٣٧٤

دار السعادة بدمشق ٣٨٤

دار الكتب الظاهرية ١٧ ، ١٤ ، ٧

دار الكتب المصرية ١٢

دانية ٢٥١

ديركي ٣٢٨

دمشق ١٤ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ١١١

٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٥

٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٤

٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧

٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨ ، ٣٤٩

الرملة ٢٠٥

الري ٧١ ، ١١٧ ، ١٦٤ ، ٣١٣

٣٠٦

الران ١١٢

ربض الزاهرة ٢٤٥

الرحبة ٣٨١

زبخشر ٢٩١

زنجان ٣٠٤ ، ٣٠٦

الزابج هي جاوة ١١٢

الزاوية ٢٤٥

س

| | |
|------------------------|------------------------------|
| ساجهاسه ٣٩٠ | سابزوار ٢٩٩ |
| سمرقند ٩٤ ، ١٥٤ ، ٣٩٠ | ساوة ٢٨٥ |
| السند ١١٢ ، ١٨٦ | سبته ٣٤٥ |
| النسواد ١٩٢ | سجستان ١٥٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ |
| سوريه ٧ | سراجيفو ١٨ |
| سوق الوراقين بدمشق ٩ | سرخس ٣٠٠ ، ٣٠٦ |
| سوق الوراقين ببغداد ٩٧ | سر من رأى ٦٧ ، ٩٩ ، ٢٠٢ |
| سويسرا ٤١ | ٢٠٥ |
| سيس ٣٥٦ | سفح قاسيون ١٤ |
| | سغد سمرقند ٩٤ |

ش

| | |
|----------------------------|--------------------------|
| ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ | الشاذياخ ٣٢٠ |
| ٣٨٠ ، ٣٨٩ ، ٣٩٣ | شارع بشر وبشير ٦٨ |
| الشرق ٣٠٦ | الشاش ١٥٤ |
| ششمند ٢٩٩ | الشام ١٠ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ١١١ |
| شعب بوان ٩٤ | ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٦ |
| شعجب ٣٦٤ | ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٧٠ |
| شلطيش ٢٦٤ | ١٩٠ ، ٢٧٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ |
| شيراز ٥٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٢١ | ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١٦ |
| ٢٢٢ ، ٣٠٤ | ٣١٩ ، ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٥٣ |

ص

| | |
|---------------------------|----------------|
| صعدة ٢٨٥ | صاحية دمشق ٣٦٩ |
| صفه ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ | صرخد ٣٣٣ ، ٣٣٤ |

| | |
|-----------------------|-----------|
| صيدا ٢٢ | صفين ٢٩٩ |
| الصيدية ١٥٧ | صقلية ٣٨٤ |
| الصين ١١٢ ، ٣٢٢ ، ٣٥٨ | الصف ١١٢ |

ض

ضريح صلاح الدين ٦

ط

| | |
|----------|------------------------|
| طرطوس ٦٨ | طبرستان ٧١ ، ١١٧ ، ١١٨ |
| طنجة ٣٩٠ | ١٩٠ ، ١٤٢ |
| طوس ٣٠٦ | طبرية ١١١ |
| | طرابلس ٤٥ |

ع

| | |
|-----------------------|-----------------------------|
| ٣١٩ ، ٣١٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢ | العجم ٣٣٥ |
| العقبة ٢٥٨ | العدوة ٣٤٥ |
| عكا ٣٢٦ | العراق ٧١ ، ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٣٣ |
| عمان ١٢٤ ، ٣١٩ | ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٤ |
| | ١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢٢١ ، ٢٧٨ |

غ

| | |
|------------------------|------------------------------|
| غزوة ١٧٧ ، ١٨٧ ، ٣٠٤ | غزستان ١٩٠ |
| غزني ١٥٤ | غزناطة ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٨٩ |
| الغوطة ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٤ | غزاة ٢٧٢ |

ف

فارس ٦٠ ، ١٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٠٧ ، ٢٤٥ ، ٢٢٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣١٦

فاس ٣٨٩ ، ٣٩٠
الفسطاط ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦
فلسطين ٣١٧
فيروز آباد ٢٣٥

و

القادسية ٣٥٦
القاهرة ١٤ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٢٨
٣٣٩ ، ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٧٦
٣٨١ ، ٣٨٩
القدس ٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧
٣٢٨ (وانظر بيت المقدس)
قرطبة ٢٥٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٩
٣٤٩ ، ٢٦٤
قرمونة ٣٨٨
القسنطينية ٢٠٠ ، ٢٠١
قطيعة الربيع ٢٨٥
قلعة ابن سلامة ٣٨٩ ، ٣٩٠
قلعة دمشق ٣٦٤

ك

الكرج ٦٨
كفربطنا ٣٧٣ ، ٣٧٤
الكلاسة بدمشق ٦
كباخ ٣٢٨
الكوفة ٦٠ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١١٧
٣٠٦

ل

لبلة ٢٤٥ ، ٢٦٤
لوشة ٣٤٣

م

مدائن صالح ٤١
مدرسة ام الصالح ٣٧٤
المدرسة الامينية ٣٤١
المدرسة الجقمقية ٥
المدرسة الجوهريه ٣٥٦
المدرسة الظاهريه ٦ ، ٣٧٤
المدرسة العادلية ٣٠٨ ، ٣٤١
المدرسة العذراوية ٣٨٤
المدرسة العمادية ٣١٥
المدرسة الفاضلية ٣٧٤
المدرسة النظامية ٢٧٣ ، ٣٠٦ ، ٣١٤

٣٠٢ ، ١٩٢ ، ١٧٠ ، ١٥٤
٣٢٦ ، ٣١٦ ، ٣١٠ ، ٣٠٣
٣٥٣ ، ٣٣٩ ، ٣٣٥ ، ٣٢٣
٣٧٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٤ ، ٣٥٧
٣٨٩
المغرب الاقصى ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٣١٦
٣٨٩ ، ٣٥٩ ، ٢٣٥
المغرب الاوسط ٣٨١
المكتبة الخالدية ٧
المكتبة الرفاعية ٤٥
مكة ٢٧٨ ، ٣٠٦
ملطية ٢٢٨
منت ليشم ٢٤٥
منى ٣٠٦
الموصل ٣٠٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٦
ميفارقين ٢٨٥ ، ٣٧٤

المدرسة النفيسية ٣٧٤
المدرسة النورية ٣١٤
المدينة ٣٠٦
المربد ٧٤
مراكش ٣٤٤ ، ٣٩٠
مرسية ٣٤٩
مرموتة ٢٤٨
مرو الروز ٦٧ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١٨٨
٢٨٥ ، ٣٠٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٢
مرو الشاهجان ٣٠٦
المرية ٢٤٦ ، ٢٦٤ ، ٣٤٩
مسجد البصرة ١٤٦
المشان ٢٨٢
مصر ١٠ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٠
١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩
١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦

ن

النوبة ٣٥٩
النيوب ٣٨٤
نيسابور ١٢٥ ، ١٦٤ ، ١٩٠ ، ١٩١
٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢
٢٧٩ ، ٢٩٩ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠

نسا ١٥٤
نهر الابله ٩٤
نهر جيحون ٣١٩
نهر قلوط ٣٦٩
نهر النيل ٣١٩ ، ٣٢٧
نهران بغداد ٩٤

د

| | |
|-----------------------------|----------------------------|
| الهند ١٢٢ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٣٥ | هراة ٦٧ ، ١٥٤ ، ٣٠٦ |
| ٢٥٨ ، ٢٣٩ ، ٢٢٨ | همدان ٦٨ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٦ |

و

| | |
|----------------|----------------|
| واسط ١١٢ ، ٢٨٥ | وادي آتن ٣٤٤ |
| | وادي النيل ١١٢ |

ي

| | |
|--------------|-----------|
| اليهودية ٣٠٦ | اليمن ٣٥٨ |
|--------------|-----------|



الفهرس العام

أبواب الكتاب وفهارسه

| | | | |
|---------|-------------------------|---------|------------------------------|
| ١٧٦-١٧٠ | ١٩ البلوي | ص | |
| ١٨٩-١٧٧ | ٢٠- الهمذاني | ٤-٣ | المقدمة |
| ١٩٦-١٩٠ | ٢١- الخوارزمي | ٥٤-٥ | حياة الشيخ طاهر الجزائري |
| ٢٠٦-١٩٧ | ٢٢- القاضي التنوخي | ٦٦-٥٧ | ١- ابن المقفع |
| ٢١٢-٢٠٧ | ٢٣- الباقلاني | ٧٠-٦٧ | ٢- القاسم بن سلام |
| ٢٢٠-٢١٣ | ٢٤- ابن هندو | ٧٣-٧١ | ٣- علي بن ربن |
| ٢٢٢-٢٢١ | ٢٥- التوحيدي | ٨٠-٧٤ | ٤- الجاحظ |
| ٢٣٧-٢٣٣ | ٢٦- الثعالبي | ٩٦-٨٨ | ٥- ابن قتيبة |
| ٢٤٠-٢٣٨ | ٢٧- البيروني | ١٠٠-٩٧ | ٦- طيفور |
| ٢٤٤-٢٤١ | ٢٨- الماوردي | ١٠٦-١٠١ | ٧- المبرود |
| ٢٥٠-٢٤٥ | ٢٩- ابن حزم | ١١٠-١٠٧ | ٨- ابن عبد ربه |
| ٢٥٩-٢٥١ | ٣٠- ابن زيدون | ١١٦-١١١ | ٩- المسعودي |
| ٢٦٣-٢٦٠ | ٣١- عبد القاهر الجرجاني | ١٢٣-١١٧ | ١٠- ابن جرير الطبري |
| ٢٦٧-٢٦٤ | ٣٢- البكري | ١٢٩-١٢٤ | ١١- ابن دريد |
| ٢٧١-٢٦٨ | ٣٣- الراغب الاصفهاني | ١٤٠-١٣٠ | ١٢- ابن الداية |
| ٢٨١-٢٧٢ | ٣٤- الغزالي | ١٤٥-١٤١ | ١٣- الصولي |
| ٢٩٠-٢٨٢ | ٣٥- الحريري | ١٤٩-١٤٦ | ١٤- الاشعري |
| ٢٩٤-٢٩١ | ٣٦- الزنجشيري | ١٥٣-١٥٠ | ١٥- قدامة بن جعفر |
| ٢٩٨-٢٩٥ | ٣٧- ابن القلانسي | ١٥٣-١٥٤ | ١٦- ابن حبان البستي |
| ٣٠٥-٢٩٩ | ٣٨- البيهقي | ١٦٣-١٥٩ | ١٧- ابو الفرج الاصبهاني |
| ٣١٣-٣٠٦ | ٣٩- ابن عساكر | ١٦٩-١٦٤ | ١٨- القاضي علي بن عبد العزيز |

| | | | |
|---------|-------------------|---------|------------------------|
| ٣٧٩-٣٧٥ | ٤٩- العمري | ٣١٨-٣١٤ | ٤٠- العماد الكاتب |
| ٣٨٦-٣٨٠ | ٥٠- الصفدي | ٣٢٤-٣١٩ | ٤١- ياقوت |
| ٣٩٦-٣٨٧ | ٥١- ابن خلدون | ٣٣١-٣٢٥ | ٤٢- عبداللطيف البغدادي |
| | الفهارس : | ٢٣٧-٣٣٢ | ٤٣- ابن أبي أصيبعة |
| ٤٠٨-٣٩٩ | فهرس الكتب | ٣٤٢-٣٣٨ | ٤٤- ابن خلكان |
| ٤٢٥-٤٠٩ | فهرس الأعلام | ٣٤٩-٣٤٣ | ٤٥- ابن الخطيب |
| ٤٣٤-٤٢٦ | فهرس الأماكن | ٣٥٩-٣٥٠ | ٤٦- شيخ الروبة |
| ٤٣٦-٤٣٥ | فهرس عام | ٣٦٩-٣٦٠ | ٤٧- ابن تيمية |
| ٤٤٠-٤٣٧ | مستدركات وتصويبات | ٣٧٤-٣٧٠ | ٤٨- الذهبي |



مستمرحات وتصويبات

فاتنا في الكلام على حياة الاستاذ الشيخ طاهر الجزائري أن نذكر أن له تأليفاً آخر هو في الخطوط المحفوظة من تأليفه . واسمه « المنتقى من الذخيرة لابن بسّام » ورقم الكتاب في الظاهرية ٤٥٧ أدب ٢ — عثرنا في احدى كناشاته على الجملة الآتية يصف فيها مقابلته للخدوي عباس حلمي في سنة ١٣٢٨ هـ وما قال فيه نفع لمصر وللعرب قال : في يوم الخميس السابع من صفر سنة ١٣٢٨ ، اجتمعنا بحضرة الامير الجليل نخبه الدولة العلوية بمصر (عباس حلمي) خديويها المبجل ، وكان ذلك قبيل المغرب ، فاستقبلنا استقبالاً يدل على شهامة ومحبة في العلم ، وأجلسنا بلا فاصل عنه ، وأخبرنا أنه بلغته أخبار كثيرة عنا لاسيما من الشيخ (حلي يوسف) المحب المخلص ، ومن الدكتور هيس المحب لنا أيضاً ، ويرغب في رؤيتنا . الا أن سفر الحجاز عاق عن ذلك ، والآن يعد اجتماعنا به يوماً يذكر ، وله في ذلك الحظ الاوفى . فقابلناه بما يليق بمقامه ، الا أن عبارتنا كانت قاصرة ، لكنها تدل على فرط اخلاص ثم جرى البحث ، فأشرت عليه أن يفتتم القرص في ابراز آثار مهمة ، وذكرنا من ذلك شيئين : أحدهما تأسيس مدرسة للغة العربية تقصد من كل جهة ، والثانية تأسيس دار للترجمة ، وعمل مطبعة لطبع ما يترجم ، وجعل مصححين للترجمة . فسُرّ بذلك كثيراً ، وأبتنا له مقامه في النفوس وأن لا يعبأ بالمشاغبين . ولو أردنا شرح ماجرى اطال . غير اني سألت عما ينتقد على مصر ، فقلت شيئان : أحدهما عدم اتمام الاعمال ، والثاني احتقار الاشغال الجزئية والامور الكلية تتم اذا اخذت من أقرب وجه ، هـ من كناش رقم ١٣٥

كُتبت في مصر بين رجب سنة ١٣٢٧ و صفر سنة ١٣٢٨

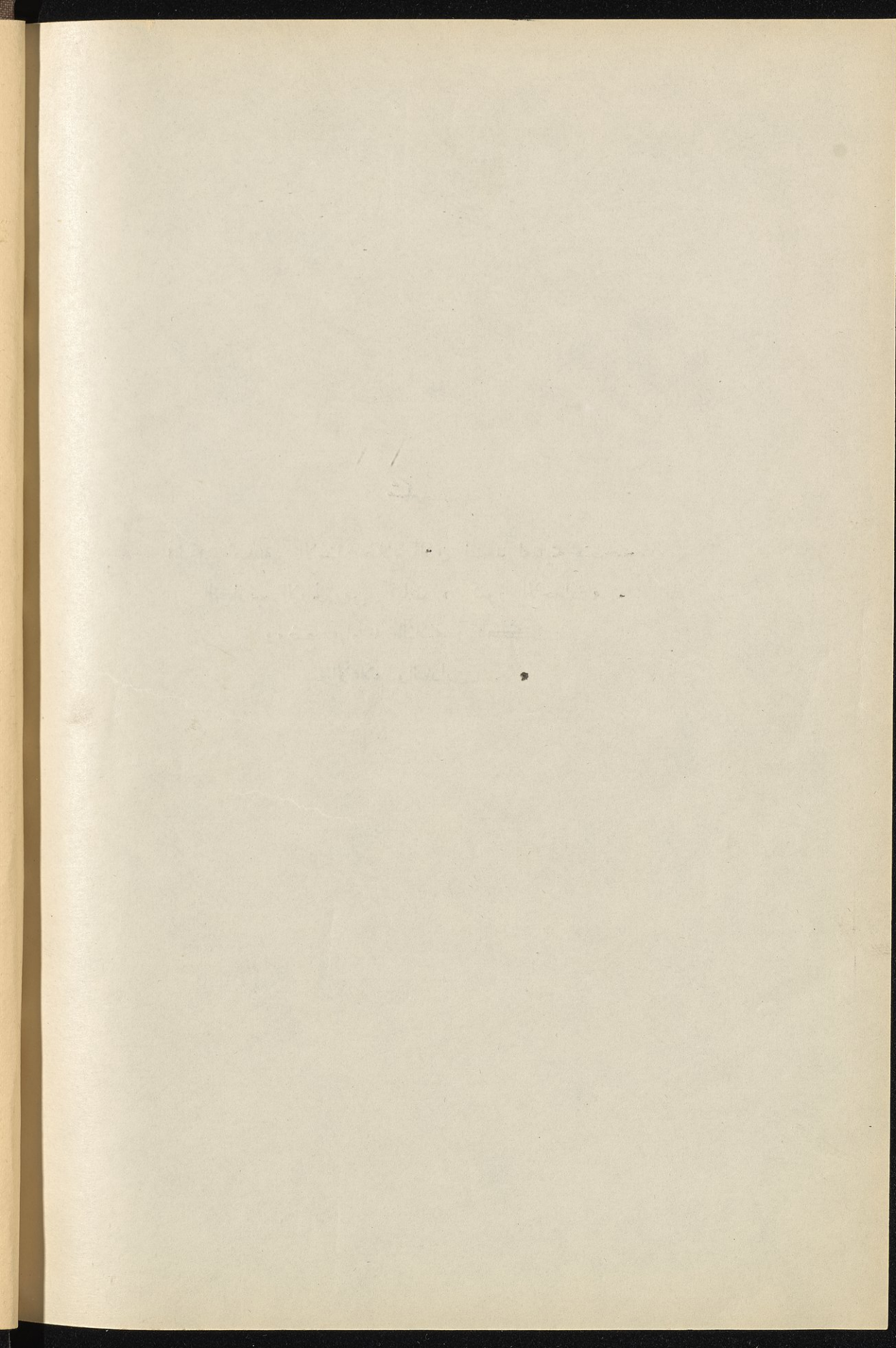
وقعت بعض أخطاء في الطبع نصحتها فيما يلي :

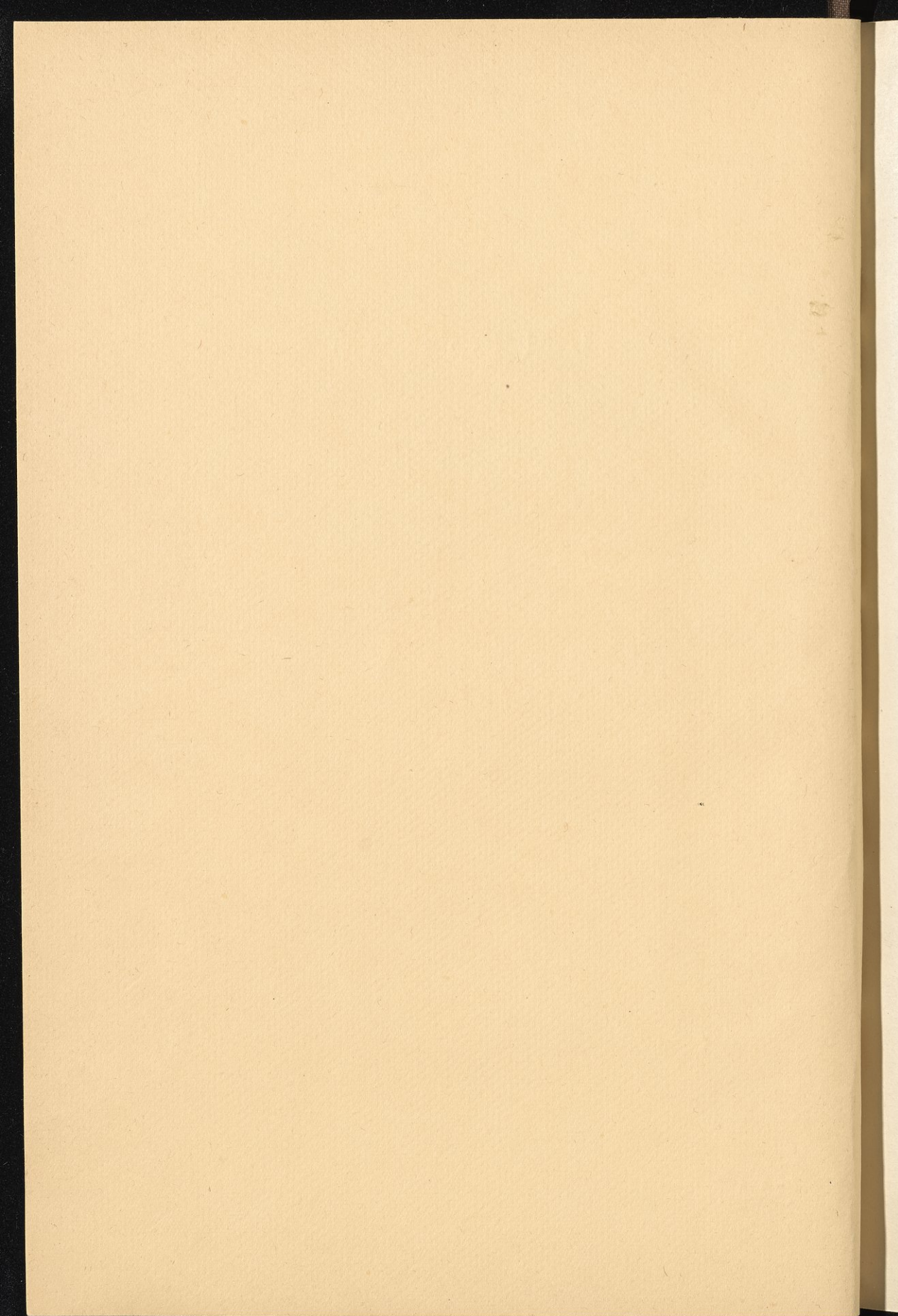
| بدلا من | إقرأ | س | ص |
|---|--------------------|----|-----|
| الحرص | والحرص | ٦ | ١٤ |
| سقا في | حفا في | ١٢ | ٢١ |
| التنين | والتنين | ٦ | ٢٨ |
| تفسير | تمصيل | ١٤ | ٢٨ |
| عدق | عذق | ٧ | ٧٦ |
| موفه | موقه | ١٥ | ٨٥ |
| ٤ | ٥ | ١ | ٨٨ |
| ر قيل | وتقيل | ٢٤ | ٩٣ |
| وإدا | وإذا | ٢٢ | ٩٥ |
| ٢٧٥ | ٢٨٥ | ٤ | ١٠١ |
| خوسان | خراسان | ١١ | ١١٢ |
| تعيلت | تعينت | ٢١ | ١٤٩ |
| بأدق | بأرق | ١ | ١٦١ |
| اقرأ الحاشية كما يأتي : يقول صديقي الاستاذ المحقق شفيق جبري لانه أمن النظر كثيرا في كتاب الأغاني فرأى أن أبا الفرج لم يكن متعصبا في تشيعه . | | ٢٢ | ١٦١ |
| الأعاب | الأغاب | ٢٠ | ١٦٦ |
| الدين ، وفرائضه | الدين وفرائضه ، | ١٨ | ١٧٠ |
| ولا أنه طبع | وأنه طبع | ٣ | ١٧١ |
| ذلك | ذلك | ٦ | ١٧٨ |
| حروجه | خروجه | ١ | ٢٠٣ |
| أزيل | أزيل | ١٣ | ٢٠٣ |
| تصرف واختلاف | تصرف وجوهه واختلاف | ٢٥ | ٢٠٨ |
| ٣٢٠ | ٤٢٠ | ٤ | ٢١٣ |
| الحلوب | الحلوب | ٢ | ٢١٦ |
| صوفيه | صوفية | ٨ | ٢٢١ |
| متكلماً | متكلم | ١٢ | ٢٦٠ |
| يستفد | يستفد | ٢٢ | ٢٩٢ |
| جهداً عظيمة | جهداً عظيماً | ٢٣ | ٣٠٩ |
| حلقاً | خلقاً | ١٢ | ٣٢٠ |
| كما كان | كما كانا | ١٧ | ٣٣٢ |
| جيان | جيان | ٢٣ | ٣٤٩ |
| عل | على | ٢٢ | ٣٦٦ |

وقد وقع خطأ في أرقام فصول الكتاب ، فيرجع في ضبطها الى الأرقام المثبتة في الفهرس العام .

شكر

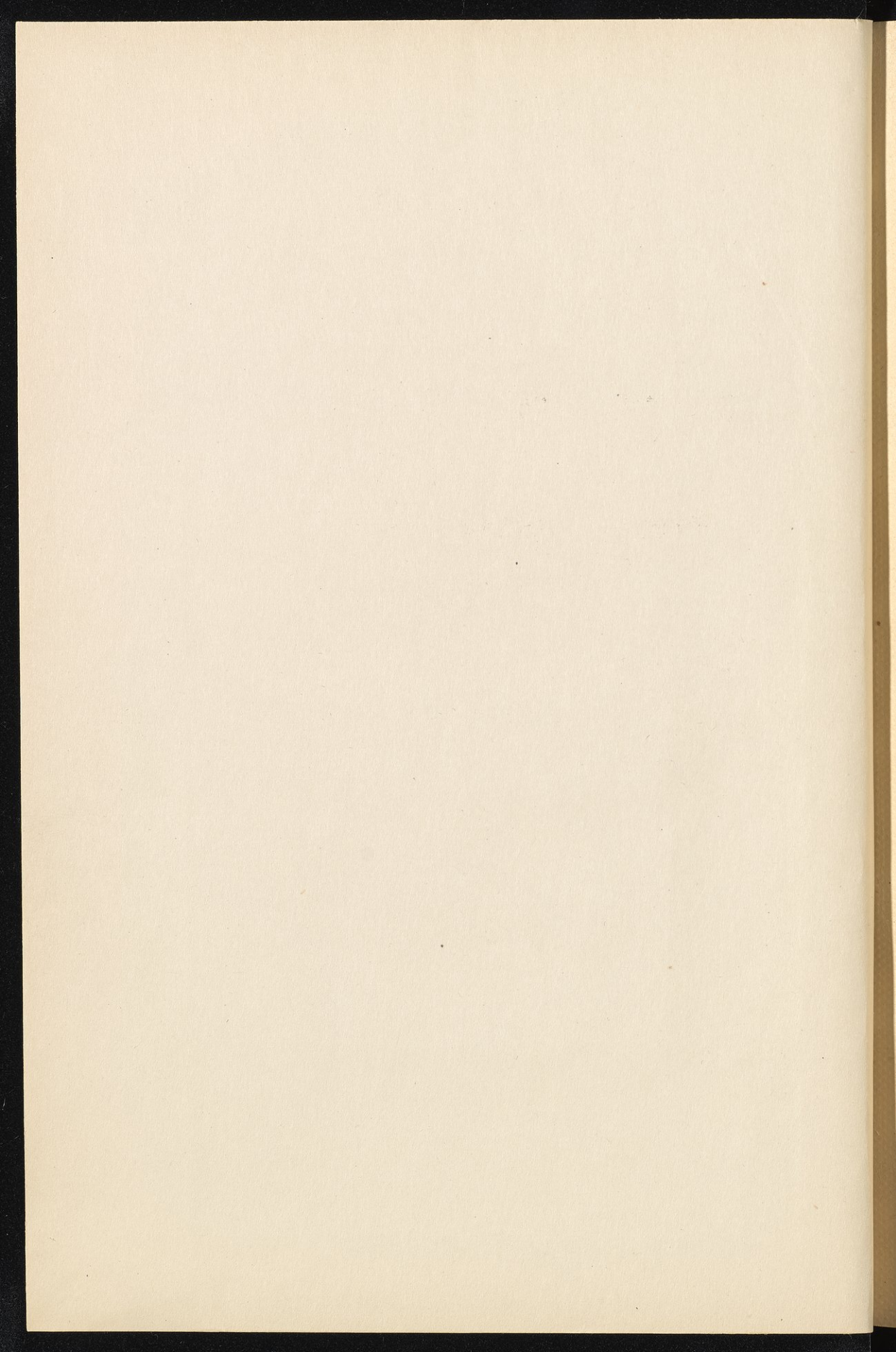
أشكر لصديقي الاستاذ صلاح الدين المنجد لعنايته بتصحيح
التجارب الاولى من كتاب « كنوز الاجداد »
ووضع فهرسه الثلاثة : الكتب
والاعلام والبلدان .

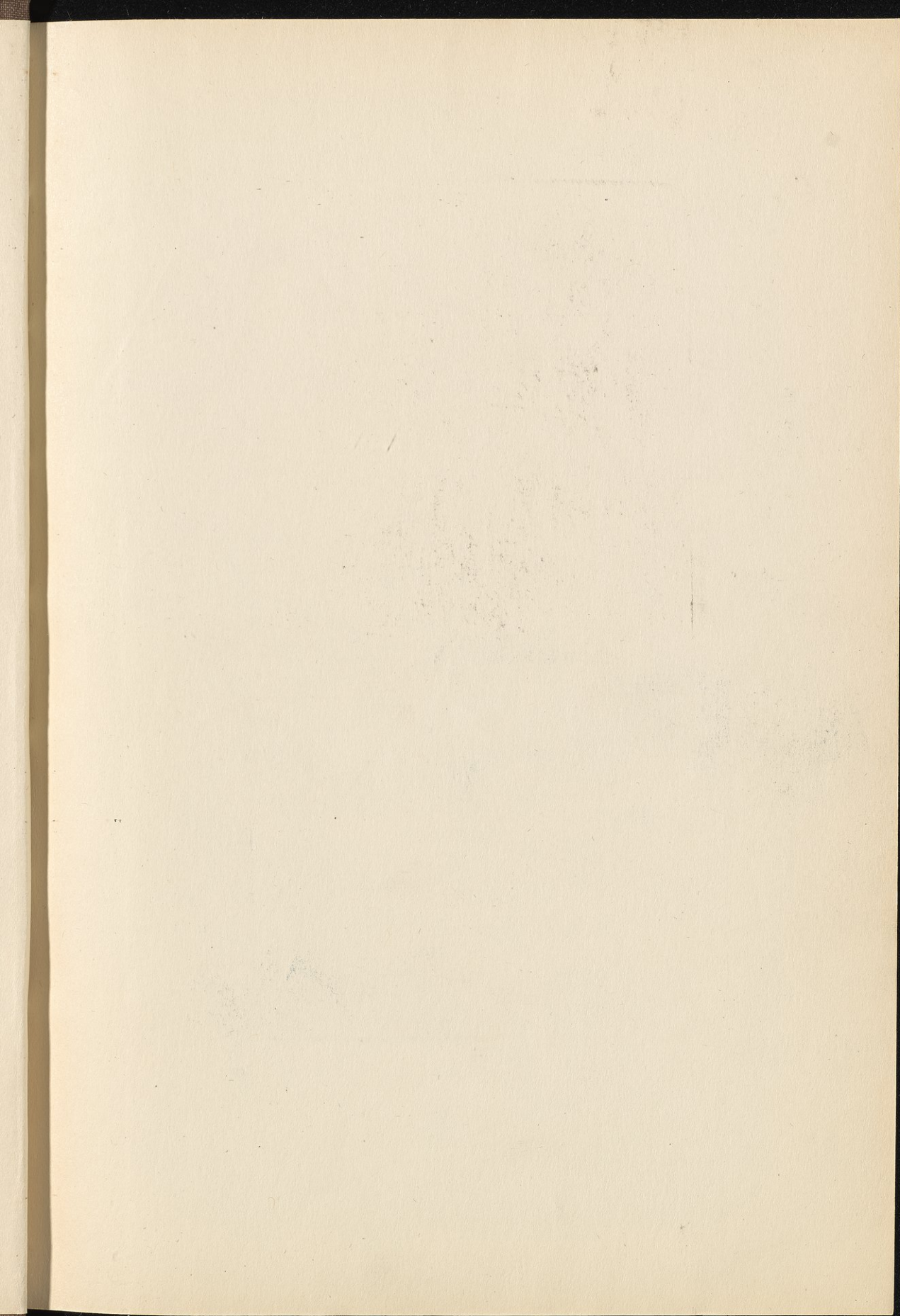




آثار الاستاذ كردعلي المطبوعة

| مجلد | | مجلد | |
|------|----------------------------------|------|--------------------------|
| ١ | دمشق مدينة الشعر والسحر | ٦ | خطط الشام |
| ١ | كنوز الأجداد | ٢ | الاسلام والحضارة العربية |
| ١ | سيرة أحمد بن طولون للبلوي | ٢ | امراء البيان |
| ١ | رسائل البلغاء (طبعة ثالثة) | ١ | أقوالنا وأفعالنا |
| ١ | المستجد من فعلات الاجواد للتونخي | ١ | القديم والحديث |
| ١ | تاريخ حكماء الاسلام للبيهقي | ٢ | غرائب الغرب |
| ١ | الأشربة لابن قتيبة | ٣ | المذكرات |
| | | ١ | غوة دمشق |







OCT 21 1952

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58871225

893.79 K9654

Kunuz al-ajdad /